بسم الله الرحمن الرحيم

المؤرخ المصري

دراسات وبحوث في التاريخ والحضارة

يصدرها قسم التاريخ
كلية الآداب . جامعة القاهرة

العدد السابع والعشرون

يناير ٢٠٠٤م

المراسلات : ترسل البحوث والمقالات باسم السيدة الأستاذة الدكتورة ليلى عبدالجواد إسماعيل رئيس التحرير على العنوان التالي : كلية الآداب ـ جامعة القاهرة (قسم التاريخ) بريد الأورمان ـ محافظة الجيزة.

All Correspondence to be directed to : Editor-in Chief : Prof. Laila A. Esmaeel, Cairo University, Faculty of Arts, Orman, Giza, A.R.E.

قواعد النشر

- ترحب المؤرخ المصري بنشر الأبحاث والدراسات الأصلية ذات المستوى الجاد بعد التحكيم، فضلاً عن مراجعات وعرض الكتب الجديدة.
- تقبل المؤرخ المصري للنشر الأبحاث التاريخية والحضارية المكتوبة باللغتين العربية والإنجليزية على ألا يزيد عدد الصفحات عن ٣٠ صفحة مسجلة على ديسك كمبيوتر وفق برنامج (Word) مع نسخة مطبوعة على ورق حجم A4 بما في ذلك الهوامش والجداول وقائمة المراجع، على أن تكتب الهوامش في نهاية البحث.
- المؤرخ المصري لا تنشر بحوثًا سبق أن نشرت أو معروضة للنشر في مكان آخر، وتقوم رئاسة التحرير بإخطار المؤلفين بإجازة بحوثهم للنشر بعد عرضها على هيئة التحكيم.
- تحتفظ المؤرخ المصري لنفسها بحق قبول أو رفض الأبحاث أيًا كان قرار هيئة التحكيم.
- النشر في المؤرخ المصري متاح لأعضاء هيئة التدريس بالجامعات المصرية والعربية والأجنبية وسائر المهتمين بالدراسات التاريخية.
- الآراء الواردة بالمؤرخ المصري تعبر عن وجهة نظر أصحابها.

شكر للسادة الأساتذة الذين شاركوا في تحكيم هذا العدد، وهم وفقًا لترتيب البحوث بالمجلة، على التوالي :

١- أ.د. محمد فهمي عبدالباقي

٢- أ.د. أحمد السيد دراج

٣- أ.د. عطية القوصي

٤- أ.د. زاكية محمد رشدي

٥- أ.د. منى حسن محمود

٦- أ.د. أحمد عبدالرازق (آداب عين شمس)

٧- أ.د. ليلى عبدالجواد إسماعيل

٨- أ.د. محمد عفيفي

٩- أ.د. عبدالعليم أبو هيكل

١٠- أ.د. سيد فليفل (عميد معهد الدراسات الأفريقية)

محتويات العدد

بسم الله الرحمن الرحيم

افتتاحية العدد :

القارئ المؤرخ العربي والمصري الكريم.

يسعدني أن أقدم إليكم العدد السابع والعشرين من مجلة المؤرخ المصري، ويشارك في هذا العدد نخبة متميزة من المؤرخين من سائر الجامعات العربية (الجزائر والسعودية)، والجامعات المصرية (القاهرة – عين شمس – الأزهر).

ويضم العدد السابع والعشرين بين جنباته جملة من البحوث المتنوعة، تتناول شتى فروع التاريخ بداية بالتاريخ القديم فالتاريخ الإسلامي فتاريخ العصور الوسطى ثم التاريخ الحديث، فتجول المؤرخ المصري في بلاد المغرب حيث فن الحرب والعربات القتالية في المغرب القديم، ثم تنتقل إلى رحاب التاريخ الإسلامي، حيث تطوف بنا في رحلة الحج من بغداد إلى بلاد الحجاز، ثم عودة إلى بلاد المغرب ثانية حيث أثر بلاد الأندلس الحضاري في الإدارة في عصر دولتي الموحدين والمرابطين، مروراً ببلاد الشام للتعرف على إحدى قلاعها وهي قلعة كوكب ودورها في الحروب الصليبية، ثم تعرج إلى مصر للوقوف على وظيفة " أمير مجلس " في العصر المملوكي، وفي ميدان التاريخ الحديث تكشف المؤرخ النقاب عن الفتح العثماني لمدينة بلغراد، وكذلك موقف النظام العنصري في اتحاد جنوب أفريقيا.

ولا يسعني في ختام كلمتي إلا أن أتوجه بخالص الشكر وعظيم التقدير لمجموعة الباحثين المشاركين في هذا العدد، وأخص بالشكر الأساتذة الذين ساهموا في تحكيم هذا العدد، فبفضل جهودهم خرجت المؤرخ في ثوب قشيب، جاد قدر الجهد.

والله أسأل أن يحوز العدد السابع والعشرين من مجلة المؤرخ المصري رضى القراء الأعزاء واستحسانهم، وأن يكون خطوة إلى الأمام في رحلتها العلمية الشاقة.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

رئيس التحرير

أ.د. ليلى عبدالجواد

العربات القتالية في المغرب القديم

أ. رضـــا بـــن عـــلال
المدرسة العليا للأساتذة في الآداب
و العلوم الإنسانية - الجزائــــــر

واجهت الجماعات البشرية التي استقرت في الشرق الأدنى القديم مع نهايـــة العصر الحجــري الحديث على غرار باقي العالم آنذاك مشكل النقل ، خاصة إثـــر تزايد عددها ، و لاسيما بعد ارتباطها بالأرض و ما تـــرتب عنـــه مـــن تأســـيس القرى، و سعيها من ثمة إلى إقامة علاقات تجارية مع جيرانها و كذا رغبتها فـــي التوسع ، و أول ما قامت به هذه الجماعات هو استئناس الحيوان و تسخيره لحمـــل الأثقال و المتاع ، ثم توصلت إلى اكتشاف العجلة التي استغلت في مجالات متعددة، منها المجال العسكري ، و لإبراز أهمية العربة القتالية لدى الليبيين ، يستحسن تتبع تطور استعمالها منذ ظهورها بالمنطقة لعلنا نتوصل إلى تسليط الضوء على مراحل هذا التطور و انعكاسه على فن القتال في المغرب القديم و هو ما يجعلنا نتســـاءل عن أصول هذه العربة و كيفيات انتشارها في المنطقة ، و طرق استعمال الليبيـــين لها في المعارك.

أولا : أصول العربة القتالية :

١-حيوانات الجر :

تضاربت آراء المؤرخين فيما إذا كان الإنسان القديم قـــد عـــرف الزراعـــة والاستقرار قبل معرفته لاستئناس الحيوان ، أم كان الأمر عكس ذلك ، ففي الوقت الذي يرى البعض أن الإنسان قد دجن الحيوان قبل معرفته لحياة الاســـتقرار فـــي الشرق الأدنى في أواخر الألف السادسة قبل الميلاد[١]، يذهب البعض الأخر إلـــى الاعتقاد أن النشاط الزراعي قد ساهم بشكل كبير في استقرار الإنسان القـــديم أولا، ثم في تدجينه للحيوانات التي كان يعتمد عليها في نشاطه الزراعي و فـــي تـــوفير طعامه اليومي [٢].

ويبدو أن استعمال حيوانات الجــر كالأبقار و الحمير يعود في أقدميته إلــى العصر الحجري الحديث، فقد كشفت التنقيبات الأثرية عن شواهد تدل على استعمال الإنـــســـان لمثل هذه الحيوانات منذ ذلك العصر[٣]. و الظاهر أن الحصــــان كـــان موجودا في شمال إفريقيا قبل الألف الخامسة قبل الميلاد ، ثم اختفى ليعاد إدخالــه إلى المنطقة في النصف الثاني من الألف الثانية قبل الميلاد، و يرجع قبريال كامبس "G.Camps" ظهور الحصان المدجن بليبيا إلى حوالي ١٥٠٠ ق.م[٤] ، و قد حدث هذا بعدما قامت القبائل الهندو-أوروبية باستئناسه ، لاسيما القبائل الميتانيـــة التـــي دجنت الخيول و مرنتها على الحرب و جر العربات ، و نشـــرت اســـتعماله فـــي الشرق الأدنى القديم في حوالي سنة ٢٠٠٠ ق.م[٥] .

مما تجدر الإشارة إليه أن الحصان لم يكن قادرا في بداية تدجينه على حمــل فارس و عدته ، كما أن جر عربة خفيفة كانت تتطلب آنذاك أربعة خيول، وكـــان ينبغي انتظار مرور ألف سنة على الأقل حتى يتمكن هذا الحيوان من نقل فـــارس مدجج بالسلاح[٦]. وربما دجن الليبيون الحمار الوحشي شـــأنهم فـــي ذلـــك شـــأن السومريين الذين استغلوا نوعا من الحمير الوحشية المحلية لحمل البضائع و جـــر العربات ، هؤلاء الذين اعتمدوا زيادة على ذلك حسب ما جاء في ملحمة جلجامش على الحمير والبغال لنقل البضائع و على الجياد و الثيران لجر العربات[٧] .

عرف الجمل كوسيلة للركوب و النقل بليبيا لاسيما و أن الرسوم الصـــخرية التي تعود إلى فترة الجمل (Période Cameline) تشير إليه بكثرة في واد جرات بالتاسيلي وسط نقوش التفيناغ ، و هو ما يوحي إلى أن ظهوره بالمنطقة قد يعـــود إلى القرن الأول قبل الميلاد أو القرن الأول الميلادي ، بالإضافة إلى ذلك فإنه لـــم يستعمل لجر العربات[٨].

٢-العربات الأولى :

اكتشفت أولى العربات بسومر، وقد وصلتنا النماذج الأولى منها من المقـــابر الملكية لمدينة أور (Ur)، و هي عربات ذات عجلات من قطعة واحدة[٩]، و تظهر الجداريات السومرية حكام المدن يـــقـــودون جـــنودهم إلى أراضي المعارك فـــي صفوف متماسكة أو فوق عربات ثقيلة ذات أربع عجلات[١٠] .

ترجع بداية استخدام العربة في سومر إلى نهاية الألف الرابعة قبل الميلاد، ثم انتشرت إلى آسيا والهند وبعدها إلى أوروبا وشمال إفريقيا، ولم يكن من السهل التحكم في العربات الأولى نظرا لبدائية التقنيات المتبعة في صناعتها، بحيث ثبّت بها العجلة والمحور سويا ، و صنعت عجلاتها من طبقات عديدة من الخشب مغلفة بإطار من الجلد يثبت بمسامير نحاسية رؤوسها تلامس الأرض(١١).

أما عن أصول العربة الخفيفة ذات العجلتين المنقسمتين إلى محاور ، فهي تعود إلى بداية الألف الثانية قبل الميلاد، بحيث كانت معروفة لدى سكان ماري (تل الحريري بسوريا) والحثيين، والظاهر أنه كان للأقوام الهندو-أوروبية التي استقرت على ضفاف الحوض الشرقي للبحر الأبيض المتوسط دورا في إدخال هذا النوع من العربات إلى المنطقة(١٢). وإلى وقت قريب كان الاعتقاد السائد أن ترويج استعمال الحصان و العربة الخفيفة في مصر تم إثر غزو الهكسوس (Hyksos) الذي تعرضت له في النصف الثاني من القرن الثامن عشر قبل الميلاد(١٣) ، بينما تنفي الدراسات الحديثة ذلك بحجة أن أغلبية جيش الهكسوس يتألف من المشاة(١٤).

رغم استئناس المصري للحمار و الثور منذ زمن موغل في القدم واستخدامه للعجلة في دولاب صنع الفخار ، فهو لم يستخدم هذين العنصرين في النقل و لا في الحرب إلا بعد طرد الهكسوس من مصر في النصف الثاني من القرن السادس عشر قبل الميلاد، و قد يعود ذلك إلى اعتماده على واد النيل في مواصلاته لدرجة جعلته يصرف النظر عن استخدام العربة في نقل البضائع(١٥)، و كذا الحرب التي خاضها ضد الهكسوس في أراضي الدلتا و الواد الغريني للنيل (La Vallée alluvial du Nil) لم تستلزم معارك العربات(١٦).

ثانيا : ظهور العربات في المغرب القديم :

١ - ظهورها :

يرى فبريزيو موري أنه يمكن توزيع الرسومات الصخرية في شمال إفريقيا على خمسة مراحل تاريخية، عرفت المرحلة الرابعة " بمرحلة الخيول"، تعود بدايتها إلى منتصف الألف الثانية قبل الميلاد، وسادت خلالها مشاهد الخيل و مشاهد العربات(١٧).

وسواء كانـــت تلك العربات مرسومة كالتي عثر عليها بكل من إكـــات-ن-أوشر و إهيران[١٨] أو منقوشة كالتي لوحظت بالجنوب الوهراني بأحد روافـــد واد درمل بالقرب من حجرة امقل[١٩]، وفـــي إيـــن دلاج بالهقـــار ، فـــإن زنجارهـــا (Patines) يبدو أحدث عهدا من ذلك المكون لمجموعة الحيرميـــات (Bubalins) أو البقريات التي ترجع إلى العصر الحجري الحديث حيث ساد المناخ الرطب[٢٠] .

سبقت الإشارة إلى أن ظهور الحصان لأول مرة بشمال إفريقيا كان خـــلال العصور الحجرية، ثم اختفى ليظهر من جديد في النصف الثاني من الألف الثانيـــة قبل الميلاد، و ظهوره في هذا التاريخ تزامن مع بداية استعمال الليبيين للعربـــة، و تشير المصادر المصرية في هذا السياق إلى نجاح جيوش الفرعون رمسيس الثالث خلال مواجهتها للقبائل الليبية التي حاولت غزو الدلتا سنة ١١٨٧ ق.م في الاستيلاء على عدد كبير من الحمير و الخيول و حوالي مائة عربة ليبية[٢١] .

لقد تحالفت مجموعة من القبائل الليبية تضم كل من التحنو و التمحـــو والليبو والأكايواشـــة ذوي الشعر الأشقر والعيون الزرقاء والمعروفين بارتداء الخـــوذات واستعمال الأسلحـــة البرونزية في القتال، والمشواش والشـــردن و التورشـــــة و الشكلال[٢٢] مع مجموعة من شعب البحر التي اتجهت صـــوب الســـواحل الليبيـــة، وخاضت معركة ضد الجيوش المصرية انتهـــت بهزيـــــمتها[٢٣]. وفعـــلا تظهـــر الرسومات المصرية لجدران الـــمعابد والمقابر هؤلاء الليبيين تـــارة ذوي بشـــرة بيضاء وعيون زرقاء وشعر أشقر، يضعون بعض الريشات على مؤخرة رؤوسهم، و هو ما يلاحظ على الرسومات الصخرية التي بسطت فيها الأجســـام إلـــى حـــد أصبحت تبدو لأول وهلة و كأنها مثلثات متقابلة بالرأس[٢٤].

إن إرجاع قبريال كامبس ظهور العربة و الحصان المدجن بليبيا إلى حوالي ١٥٠٠ ق.م، جعل البعض ينسب هؤلاء الليبيين الذين استعملوا العربة إلى أحفـــاد الهكسوس الذين هاجروا إلى ليبيا بعد طردهم من مصر في عهد الفرعون أحمـــس "Ahmos" (١٥٧٥ - ١٥٥٠ق.م) مؤسس الأسرة الثامنة عشر[٢٥]، الأمر الذي فنده آخرون نذكر من بينهم هنري لوت "H.Lhote"[٢٦].

٢- انتشارها :

تتوزع الرسومات الصخرية للعربة من الأطلس الصحراوي شـمالا وحتـى السنغال و النيجر جنوبا ، و من المحيط الأطلسي غربا إلـى الفـزان شـرقا[٢٧] ، تتخللها مناطق لم تلاحظ بها أية رسومات من هذا النوع، مما جعل بعض الباحثين أمثال هنري لوت "H.Lhote" يتصورون وجود طريـق يـربط بـين مختلـف المحطات التي لوحظت بها رسومات العربـات ، أطلقـوا عليـه اسـم "طريـق العربات"[٢٨] . و لعل السؤال الذي يتبادر إلى الذهن هو حول كيفية انتشار العربـة بليبيا و العناصر التي كانت وراء ذلك ، فهل هي محليـة أم أجنبيـة ، ألـم يكـن للمصريين دورا في ذلك؟

لم يثبت عن المصري استعماله للعربة و الحصان المـدجن قبـل قـيام الأسرة الثامنة عشر، ويعود ذلك إلى اعتماده على المواصلات النهرية في اقتصاده، وإلى الأرضية التي خاض فيها معاركه ضد الهكسوس فـي الدلتا والتي لـم تكـن صالحة لاستعمال العربات في المعارك[٢٩]، لذا فإذا ما نأخذ بالرأي الذي يرى بـأن انتشار العربة والحصان المدجن بليبيا كان عبر مصر، فإن ذلك لـم يـتم إلا فـي حوالي ١٥٠٠ قبل الميلاد على أقل تقدير ، وربما تم ذلك عبر طريقين ، ينطلـق الأول من مصر فيتجه غربا نحو السرت الكبير، ثم ينعطف نحو الجنوب الغربـي عبر الفزان ليصل إلى التاسيلي- ن - آجر والهقار. أما الثاني ، فكان نحو الشمال الغربي باتجاه طرابلس و جنوب تونس[٣٠].

وخلافا لذلك يرى آخرون أن إدخال العربة و الحصان المدجن إلى ليبيا كان مباشرة من الشرق الأدنى القديم (سوريا و آسيا الصغرى) عن طريق البحر مـن طرف الوسطاء الفينيقيين[٣١]، غير أن دور هؤلاء لا يعدو أن يكون مـجرد تأثير ثانوي و متأخر، قد يستبعد لجوء ليبيو الغرب ، أسلاف الجيتول والنوميد والمـور إلى اقتباس تقنيات استعمال العربة والحصان المدجن من الملاحين الفينيقيـين فـي الوقت الذي كان إخوانهم ليبيو الشرق جيران المصريين قد تملكوهما منذ ردح من الزمن[٣٢]. لكن هذا لا ينفي تصنيع الفينيقيين للعربة و الترويج لاسـتعمالها بليبيـا انطلاقا من محطاتهم التجارية و مدنهم على طول الساحل الليبي، خاصـة و أنهـم

كانوا يصدرون هذه الآلة على شكل قطع غيار في منتصف الألف الأولى قبـــل الميلاد نحو الأراضي الداخلية، و يستوردون بالمقابل الخيول التي كانت تــروض لغرض القرن[٣٣].

ثالثا: تقنيات صناعة العربة القتالية في المغرب القديم :

١- تقنيات صناعة العربة :

مما لاشك فيه أن العربة القتالية كانت معروفة لدى معظم مجتمعات ضــفتي الحوض الغربي للبحر الأبيض المتوسط، لكن تاريخ بداية استعمالها يختلــف مــن مجتمع لآخر ، فلقد استخدمها المصريون و الحيثيون في القرن الثالث عشر قبــل الميلاد في معركة قادش الشهيرة[٣٤]، و خلافا لذلك لا تتضمن النصوص القديمة و المعطيات الأثرية أية إشارة حول استعمالها في المغرب القديم أو ما يعــرف لــدى الإغريق باسم ليبيا التي تشمل الأراضي الواقعة غرب حدود مصر القديمة[٣٥].

يتجلى من الرسومات الصخرية وجود نمطين في تمثيــل العربــات الليبيــة إحداهما مرسومة و الأخرى منقوشة. فباستثناء الحالات النــادرة ، فــإن العربــة المرسومة لها عريش أحادي و إن تعددت الخيول التي تجرها ، بحيث عــادة مــا تقتصر على اثنين و نادرا ما تكون أربعة . و إذا مــا شــاع اســتعمال العــريش الأحادي، فإن ذلك لا ينفي أن بعضها احتوت على عريشــين أو أكثــر. و إذا مــا تتمركز العربة المرسومة بالمنطقة الممتدة بين الهقار والتاسيلي وأكــاكوس، فــإن العربة المنقوشة تتوزع بكل الصحراء الوسطى، الغربية، الجنوبيــة و بــالأطلس الصحراوي[٣٦]. و مما تجدر الإشارة إليه أن العربة المرسومة كانت حســب هــذه الرسومات ذات نمط طبيعي و تقنية متجانسة، كما أنها غالبا ما كانت مكدونة إلــى خيول في حالة ركض طائر ، تنقل شخصا أو شخصين. و خلافا لذلك تظهر العربة المنقوشة في أغلب الحالات غير مرفقة بحيوانات الجر، و لعــل هــذا مــا جعــل الباحثين يصفونها بالعربة البسيطة، و هي ذات تقنيات تعكس ثقافات مختلفة[٣٧].

يتراوح وزن العربة الليبية ما بين ٥٠كلغ و ٨٠ كلغ فهي مصــنوعة مــن الخشب، قــطر عجلتها حوالي ٠،٩٦م [٣٨]، وتثبت العجلة بوتيد (clavette) يقــع في نهاية المحور، وهي حرة مما يسمح بتسوية مشكل التفاضلية في تغيير الاتجاه ،

وربما يسمح طول القب بتعويض التباين الموجود في العربة ذات جوادين والمعروفة بالبيجة (Le bige) ، و يبدو أن عدد فروع عجلة العربة الليبية كان متغيرا ، بحيث يتراوح ما بين أربعة و ثمانية فروع فأكثر[٣٩].

نظرا لافتقادنا للمعطيات المادية التي تدلنا على استعمال المعدن لإحاطة العجلة أو حتى لصنع عجلات برونزية، فإنه يرجح استعمال الجلد في تطويق وتقوية إطار العجلة، خاصة وأن هذه المادة تصبح شديدة المتانة بعد تجفيفها[٤٠]، هذا ويختلف شكل الصندوق أو السطيح الخشبي (plate forme) من عربة لأخرى ، فهو لوزي أو مثلث الشكل تارة ، و مستطيلا تارة أخرى، و نادرا ما يكون ذو شكل نصف دائري، وربما استخدم القصب أو الجلد في صناعة السطيح، و ذلك عن طريق تشبيك هذه المادة حسب ما يظهر بالرسومات الصخرية[٤١]. و مما يعرف عن السطيح المثلث أنه استعمل فيه لجافين مائلين (Deux entretoises obliques) لوصل العريش بالمحور ، في حين استخدم السطيح اللوزي و المثلث و النصف دائري في صناعة العربة التي تجرها أربعة أحصنة و المعروفة بالكدريجة أكثر مما استعمل في صناعة العربة ذات جوادين[٤٢].

يوضع السطيح فوق العريش الذي يحكم تثبيته بالجازع ، و يتمركز الحوذي أمام الجازع ، مما يمكن العريش و الكدن من تحمل ثقله ، بالمقابل فإن تمركز الحوذي في العربة الإغريقية خلف الجازع جعله يشكل ثقلا مضادا ، و جعل ثقل العربة و العريش أقل على الكدن[٤٣].

يمكن إرجاع كثرة العرائش في بعض العربات الصحراوية إلى طريقة ذكية في ترويض الخيول ، ألا و هي جعل الحيوانات التي أحيطت بعريشين و التي ربطت من زمامها إلى قضيب خشبي تمشي بطريقة منتظمة، ذلك أن أربعة خيول مربوطة من زمامها في خط مستقيم بواسطة قضيب خشبي هي مجبرة على السير و التوقف على وتيرة واحدة، و لم يكن بإمكانها خفض أو رفع عنقها ولا الرفس و لا الهيجان، و لا أن تعض بعضها البعض، كما أنها تمشي بالتوازي نظرا لوجود عريش يتوسطها[٤٤].

ومما يعرف عن المقرن أو النير(le joug) أنه وضع في العربة الليبية فـــي نهاية العريش، و هو على شكل انحناءة مزدوجة في البيجة التي قد تمثلهـــا عربـــة متحف فلورنسا أحسن تمثيل ، إذ تصنع هذه العربة من خشب المـــران و خشـــب السنط، بحيث يتم جمع مختلف أجزائها بواسطة قدات من جلد الثور غير المأفوق ، هذه الطريقة التي اتبعت أيضا في صناعة شبكة السطيح(٤٥).

٢- تقنيات القرن :

استعمل إنسان الحوض الغربي للبحر الأبيض المتوسط في العصر القديم أربعة تقنيات في قرن حيوان جر العربة، و قد اشتركت منطقتي جنوب غرب أوروبا و ليبيا في ثلاثة تقنيات ألا و هي قرن نـــير الظهر، قرن نير القرون و قرن نير العنق، بينما انفردت ليبيا في استعمال قضيب الجر، وهي تقنية أبدعها سكان المنطقة(٤٦).

إن قرن نير العنق الذي كان معروفا لدى الليبيين والإتروسك والرومان يعتمد على مقرن يربط إلى أصابع الفصل (Fourchons d'encolure) و يثبت بالعريش بواسطة دسار (cheville) و أحزمة تساعد على بقائه على العريش في وضعية عموديـــة(٤٧)، و يتجلى هذا النوع من القرن في ليبيا في العربة ذات العريشين التـــي لوحظـــت بســـاقية البارود بضواحي الجلفة في الجزائر(٤٨).

و تدلنا الرسومات الصخرية في تماجرت في التاسيلي على إحـــدى تقنيـــات القرن التي استعملها الليبيون و هي قرن نير قرون الثور إلى العربة ، بحيث تظهر على الرسم عربة خفيفة ذات عجلتين تتشكل كل منهما من ستة فروع و مقرونة إلى ثورين بسيور (Sangles) عوض المقرن أو إكليل الجواد ، يحيط بهما عريشان و يتوسطهما عريش ثالث، في حين يخلو الكدن من أية وسيلة للقيادة كالأعنة(٤٩). إذن استعملت القبائل الليبية تقنية كدن نير القرون لقرن الثور إلى العربة ، و لم تكن هذه الطريقة معقدة ، فهي تقتصر على ربط النير بالقرون، أما عن تقنية قرن نير الظهر فتتمثل في وضع النير على ظهر الحيوان(٥٠)، و استعملت في كدن ثلاثة أو أربعـــة خيول سويا.

يظهر ببعض الرسومات المنتشرة في تماجرت في التاسيلي و أكاكوس فـــي النيجر وجود المقرن عند المستوى القذالي (occipital) و الفقرات العنقية الأولـــى

للحصان[٥١]، و إذا ما يبدو للوهلة الأولى استحالة وضع المقرن بهذا المكان نظـرا للألم الذي يسببه القضيب للحيوان لسمك الأنسجة تحت الفقرات العنقية الأولى، فإن ذلك غير مستحيل خاصة إذا ما عوض المقرن بقضيب خشبي مغطى بالجلد يمرر تحت عنق الحيوان و يثبت بطرف العريش، و الظاهر أن هذا القضيب يشـد إلـى رأس الحيوان بواسطة شـكيمة رأس بسـيطة شـبيهة برسـن المـربط(Licol d'écurie)، وتبدو الخيول في بعض المشاهد التي تمثلها مكدونة إلى بيجات كـأن ذيولها قطعت عمدا لكي لا تشتبك بها الأعنة[٥٢].

٣- تطور تقنيات صناعة العربة في ليبيا :

إذا ما أمكننا تتبع التطورات التي طرأت على تقنيات صناعة العربة بمنطقة الشرق الأدنى القديم، فإن ذلك غير ممكن بليبيا لعدة أسباب منها:

- ندرة المادة التاريخية، فنصوص هيرودوت و سترابون و سيليوس الإيطـالي التي تشير إلى استخدام الليبيين للعربة لا تسلط الضوء على التقنيـات التـي اتبعها هؤلاء لصناعة عرباتهم[٥٣].
- عدم كفاية المصدر المادي الوحيد الذي تركه الليبيون و المتمثل في الرسومات الصخرية للتأريخ لصناعة العربة بليبيا، فإذا ما ميز الباحثون بين صنفين فنيين من العربات المجسدة بهذه الرسومات ، أطلقوا علـى الأولـى اسـم العربـة المرسومة و على الثانية العربة المنقوشة ، فإنهم ظلوا عاجزين عـن تحديـد الحقبة الزمنية لكل منهما نظرا لوجود العربتين في نفس المستوى ، أضف إلى ذلك العثور بالقرب من هذه الرسومات على الكتابة التفناغية مع العلم أن هـذه الأخيرة ظهرت في فترة متأخرة[٥٤].
- مـرت العجلة عند المصريين بمرحلتين رئيسيتين، ترجع الأولى إلـى عهـد الأسرة الثامنة عشر و تميزت بوجود عجلة ذات أربعة محاور ، فـي حـين ظهرت في المرحلة الثانية التي تأثرت بالتقنية الآشـورية عجلـة ذات سـتة محاور. أما اليد البشرية التي أبدعت الرسومات الصخرية في ليبيا، فهي لـم تراعي هذه التفاصيل بحيث اختلف عدد محاور العجلة في العربة ذاتها[٥٥].

- استعمل الحصان و الثور لجر العربة في معظم أرجاء ليبيا في آن واحد، أمـا بجنوب المغرب الأقصى و موريتانيا فلقد استعمل الثور كوسيلة جر إلى وقت متأخر نسبيا يعود إلى أواخر النصف الثاني من الألف الأولى قبل الميلاد، و قد يرجع ذلك إلى حرص جيرانهم على الاحتفاظ بسر التفوق العسكري الذي حققه لهم الحصان دون غيره من حيوانات الجر[٥٦].

رابعا: طرق استعمال العربة القتالية في المغرب القديم :

١-العربة القتالية الليبية من خلال المصادر :

ورد أول تلميح لاستعمال العربة القتالية من طرف الليبيين في الكتابات المصرية التي تعود إلى القرن الثاني عشر قبل الميلاد، و ذلك حين إشارتها إلى الحملة التي قادها رمسيس الثالث سنة ١١٨٧ ق.م ضد قبيلة المشواش والقبائل الليبية المتحالفة معها حين أرادت الدخول إلى دلتا مصر قصد الاستقرار، حيث, قدرت الغنائم التي جمعها الفرعون خلال هذه الحملة بحوالي ١٨٣ ما بين خيول و حمير و ما يقارب مائة عربة[٥٧].

و يصور لنا هيرودوت في القرن الخامس قبل الميلاد قبائـل القرامنـت[٥٨] وهي تـلاحق الأثيوبيين[٥٩] ساكني الكهوف بواسطة عربات تجرها أربعة خيول ، حيث يقول "و بعد مسيرة عشرة أيام أخرى من أوجلة يوجد تل ملح آخر و ينـابيع مياه و أشجار نخيل كثيرة محملة بالتمر كما هو الحال في الأمـاكن الأخـرى. و يعيش هنا قوم كثيرو العدد يدعون القرامنت، يزرعون التربة التي بسطوها فـوق الملح. و من هنا يبدأ أقصر طريق إلى موطن أكلة اللوتس، و هو على بعد مسيرة ثلاثين يوما... و يمضي هؤلاء القرامنت في عرباتهم ذات أربعة خيول يطـاردون الأثيوبيين سكان الكهوف، هؤلاء الذين كانوا أسرع في الجري من أي قوم بلغتنـا أخبارهم، يعيشون على الثعابين و السحالي و أشباه هـذه الزواحـف، و لا يشـبه كلامهم أي كلام في العالم فهو مثل زعيق الخفافيش"[٦٠].

هذا ومن غير المستبعد أن يكون إعجاب هيرودوت باسـتعمال القرامنـت و الأسبيت[٦١] للعربة المكدونة إلى أربعة جياد هو الذي جعلـه يعتقـد أن الإغريـق تعلموا عن الليبيين كدن أربعة خيول سويا[٦٢].

ومما تجدر الإشارة إليه أن قيادة العربة القتالية أثناء الحروب لم تكن حكــرا على الرجال عند القبائل الليبية ، بل شاركت فيها حتى النساء . هذا ما يفيــدنا بــه الكتاب القدامى أمثال هيرودوت الذي يشير إلى قيادة نســاء قبيلــة الــزواكيس[٦٣] للعربات أثناء الحروب[٦٤]، وسيليوس الإيطالي الذي يتحدث عن مشــاركة قبيلــة الأسبيت في الحرب البونية الثانية، و ملكتها التي تولت قيادة عربــة قتاليــة فــي المعركة التي دارت بساقنته بشبه جزيرة إبيريا في بداية هذه الحرب[٦٥].

أما عن الليبيين العاملين في الجيش الميدي يصفهم هيــرودوت قــائلا : "... والأمر يتعلق كذلك بالليبيين ، فهم كلهم يقودون العربات"[٦٦]. و يضيف في موضع آخر:"...العرب بجمالهم و الليبيين بعرباتهم ، عددهم حوالي عشرون ألفا"[٦٧].

يعتقد بعض المؤرخين أمثال قبريال كامبس "G.Camps" أن زوال استعمال العربة القتالية في ليبيا حسب المصادر الكتابية القديمة كان في نهاية القرن الرابــع قبل الميلاد ، و ذلك حــيــن أمدَّ أحــد الملــوك الليبيــين الطاغيــة السرقوســي أقثوكليس سنة ٣١٠ق.م بمجموعة من العربات القتالية في حملته ضد قرطاجة[٦٨]. غير أن سيليوس الإيطالي يشير إلى استعمالها خلال الحرب البونية الثانيــة مــن طرف ملكة الأسبيت التي قتلت و هي تقود عربتها بالقرب من مدينة ساقنته ســنة ٢١٨ ق.م[٦٩].

هذا و ينوه سترابون ببراعة الفروزيين و النيقريت[٧٠] فــي رمــي الســهام واستعمالهم للعربة القتالية المجهزة بالمناجل، إذ يقول " إن الفاروزيين والنيقريــت جيران الأثيوبيين الغربيين ، فهم يقيمون بالجزء الأعلى من أراضي الموريزيين ، و مما يعرف عنهم أنهم برعوا في رمي السهام كما أن استعمال العربة المجهــزة بالمناجل كان شائعا لديهم"[٧١].

٢- العربة القتالية في الأيقنة الصخرية :

إن الأيقنة الصخرية لا تشير إلى أية مواجهة حربية للعربــات، ولا يتعــدى استعمال العربة كوسيلة للحرب في ليبيا حد المطاردة كما يظهر ذلك من خلال نص هيرودوت الذي يصف مطاردة القرامنت للأثيوبيين[٧٢].

يظهر سائق العربة في الرسومات الصخرية في المغرب القديم ممتطيا عربته لوحده، و نادرا ما نلاحظ عربة قتالية تقل على متنها شخصين أو ثلاثة أشخاص ، بالرغم من أن الحرب أو الصيد يتطلب على الأقل وجود شخصين في العربة ألا و هما سائق العربة ورجل سلاح ، و لعل ظهور شخص واحد يقود العربة في هذه الرسومات الصخرية هو الذي دفع البعض إلى استبعاد فكرة استعمال العربة كوسيلة للحرب أو الصيد في ليبيا ، مع العلم أن الرسومات المصرية التي تعود إلى المملكة الحديثة تمثل الفراعنة يقودون عرباتهم بمفردهم و يلقون بالنبال في آن واحد[٧٣].

هذا ونحتكم على مجموعة من الرسومات تظهر سائق العربة حاملا المزاريق ويقود عربته في آن واحد ، نذكر من بينها الرسم الذي لوحظ بأمغيد (Amguid) بالتاسيلي يمثل عربة ذات عجلتين بإحداهما ستة فروع و بالأخرى ثمانية و مكدونة إلى حصانين مبتوري الذيل ، يقودها شخص يمسك بإحدى يديه الأعنة و ثلاثة مزاريق في حين يرفع اليد الثانية بطريقة تظهره كأنه يمسك بسوط[٧٤]. و نفس الظاهرة يمكن ملاحظتها من خلال إحدى الرسومات الصخرية في واد جرات بالتاسيلي حيث يقف السائق فوق عربته بين مزراقين منصوبين عموديا ، و يلاحق شخصا ذو قرنين يحمل حربة[٧٥].

ويظهر السائق في مشهد ثالث تجسده رسومات واد جرات يقود كدنا يتألف من جوادين مبتوري الذيل ، يحمل بإحدى يديه سوطا و يمسك بالأخرى الأعنة ، و تلاحظ في نفس مستوى محور العجلتين ثلاثة مزاريق منتصبة إلى الأعلى في نوع من السلال وضعت خلف السائق ، و تبدو السلة كأن الرسام بالغ في تضخيمها مقارنة بالعجلة القريبة منها[٧٦].

لا ريب أن المهمة الرئيسية للعربة القتالية في المغرب القديم تمثلت في مطاردة المقاتلين المنعزلين عن وحداتهم، بحيث كان يتم ذلك بالاندفاع بالكدن في حركة خاطفة صوب الخصم ثم القفز من فوق العربة لمجابهة هذا الأخير. هذا ما نستخلصه من مشهد إين التوامي بالتاسيلي – ن – آجر، يمثل مواجهة بين مقاتلين بالقرب من عربة متوقفة يحمل كل منهما حربة و ترسا مستديرا[٧٧].

لا أحد يجهل أن العربة القتالية و عربة الصيد تتطلبان على الأقـل وجـود شخصين ألا وهما سائق العربة و رجل سلاح، ورغم ندرة الرسومات الصـخرية للعربة التي تقل شخصين أو ثلاثة في ليبيا ، إلا أن ما هـو متـوفر فـي الوقـت الحاضر يدلنا على بعض النماذج تجعلنا لا نستبعد تشابه الطريقـة التـي اتبعهـا الليبيون لقيادة العربة القتالية بتلك التي اتبعها سكان الشرق الأدنى القـديم ، هـذه النماذج التي نلخصها في الآتي :

النموذج الأول لعربة صيد مأخوذ من رسومات آلان - إدومنت بالتاسـيلي، يمثل عربة تقل شخصين يتوسطهما ثالث يتأهب لرمي الحربة صوب زوجين مـن الأروية (Mouflons) تركض أمام العربة ، يمسك أحد زميليه بالأعنة و الآخـر جالس خلفهما بالقرب من مزراقين منتصبين خلفه ، وهو ما يـرجح أن دور هـذا الشخص هو إمداد الرامي بالمزاريق[٧٨]. ولا يقتصر استخدام العربة المقلة لثلاثـة أشخاص على الصيد فحسب ، بل استعملت في الحروب ، بحيث يذكر أن العربات الحثية كانت تقل في معركة قادش ثلاثة مقاتلين ، الأول يقود الكدن و الثاني يلقـي بالمزاريق بينما يمسك الثالث بترس يحمي به زميليه من نبـال العـدو[٧٩] ، كمـا يفترض استعمالها من طرف سكان المغرب القديم.

أما العربة المقلة لشخصين فيمكن ملاحظتها من خلال ثلاثة نماذج ، النموذج الأول من أمسيدنات (Amsedenet) بالتاسيلي ، يمثل عربة تجرها أربعة خيول و تقل شخصين ، يبدو أحدهما أصغر حجما من مرافقه الذي يمسك بإحدى يديه عصا طويلة ربما هي حربة[٨٠].

النموذج الثاني من تكيددوماتين (Takédédoumatine) بالتاسيلي ، يمثـل عربة ذات عريشين تقل شخصين ، الأول يمسك بيد الأعنة و بالثانية السوط ، بينما ينحني الثاني على العريش واضعا يديه على مقرن الحصانين[٨١].

أما النموذج الثالث فهو لعربة منقوشة من واد زقزا بالجماهيرية الليبية، يمثل عربة تجرها أربعة خيول مكدونة إلى عريشين ، تقل شخصين يمسك أحدهما عصا بينما يرفع الثاني يديه كأنه يمسك بالأعنة[٨٢]. و يبدو أن المصريين قد اسـتخدموا العربة في معركة قادش كمنصة قذف متحركة تقل جنديين ، الأول يقود الكدن بينما

الثاني يلقي بوابل مـــن السهام و الحراب على خصومه ، هذه الطريقة التي ربمـــا انتهجها الليبيون في مطاردة خصومهم.

ما من شك أن الليبيين و القرطاجيين استخدموا العربة القتالية الخفيفة بشـــكل مكثف في القرنين الخامس و الرابع قبل الميلاد ، و يظهر ذلك جليـــا مـــن خـــلال كتابات هيرودوت[٨٣]، و كتابات ديودور الصقلي ، هذا الأخير الذي يشير حســب ستيفان قزال "S.Gsell" إلى استخدام القرطاجيين ٤٠٠ عربة قتالية فـــي إحـــدى معاركهم ضد إغريقي صقلية سنة ٣٩٧ ق.م ، ٣٠٠ كدريجة و ٢٠٠٠ بيجة ســـنة ٣٤٥ ق.م ، ٢٠٠٠ عربة في المعركة التي خاضوها ضد الطاغيـــة السرقوســـي أقثوكليس سنة ٣١٠ ق.م[٨٤].

وقد استخدم القرطاجيون العربة القتاليـــة بطـــريقتين تـــوحي الأولـــى بـــأن مستعمليها كانوا من الليبيين المرتزقة العاملين في الجيش القرطاجي ، وتتمثل فـــي اندفاع المقاتل بالكدن في حركة خاطفة صوب الخصم ثم القفز من فوق العربـــة و مجابهة هذا الأخير. أما الطريقة الثانية التي استخدمها القرطاجيون سنة ٣٣٩ ق.م وسنة ٣١٠ ق.م ، فهي تتمثل في محاولة إرباك المهـــاجمين الإغريـــق و تفريـــق صفوفهم بهجوم العربات في مواقع مختلفة ليتسنى بذلك للمشـــاة اســـتغلال حالـــة الفوضى التي يصير عليها جيش العدو فينقضوا عليه[٨٥].

خاتمة :

يبدو أن استخدام العربة الخفيفة في المعارك في المغرب القديم تضاءل شيئا فشيئا ليترك المجال مفتوحا أما تعاظم سلاح الفروسية ، فباستثناء سيليوس الإيطالي الذي يشير إلى استعمالها في بداية الحرب البونية الثانية من طـــرف ملكـــة قبيلـــة الأسبيت بالقرب من مدينة ساقنته ، و سترابون الـــذي ينـــوه باســـتعمال قبيلتـــي الفاروزي و النيقريت للعربة الخفيفة المجهزة بالمناجل في القرن الأول قبل الميلاد، فإن تمثيلها على صخور الصحراء الكبرى الذي استمر إلى غايـــة القـــرن الثـــاني للميلاد ما هو إلا تعبير عن تمسك سكان المنطقة بذكرى تراث حضاري يعود إلى حوالي ١٥٠٠ سنة خلت[٨٦].

الهوامش :

١- حتي فليب، تاريخ سورية ولبنان وفلسطين، ترجمة ج.حداد وعبدالكريم رافق، بيروت : دار الثقافة ، ١٩٥٨، الجزء الأول، ص١٦.

٢- باقر طه ، مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة ، ط.٢، بغداد : شركة التجارة و الطباعة المحدودة ، ١٩٥٥ ، الجزء الأول ، ص ٤٥ ؛ لنتون رالف شــجرة الحضارة، الجزائر، موفم للنشر، ١٩٩٠ ، ج١، ص١٧٤.

٣- تم اكتشاف قرية صغيرة يعود تاريخها إلى أوائل العصر الحجري الحديث في جرمو بالقرب من كركوك في العراق، و قد عثر بها على مجموعة من عظــام الحيوانات لا سيما عظام البقر و أنواع صغيرة من الخيول ؛ باقر طه، المرجع السابق ، ص ص ٤١-٤٢.

4- Camps(G), « Chars protohistorique de l'Afrique du nord et du Sahara. Engins de Guerre ou véhicules de prestige ? », 113ème congrès National des Sociétés Savantes, Strasbourg, 1988, IVèmeColloque sur l'histoire et l'archéologie de l'Afrique du Nord, t.II, P282 ; Id., « Chars (art rupestre) », Encyclopédie Berbère, XII, 1993, P1887.

٥- برستد جيمس هنري، انتصار الحضارة، ترجمة أحمد فخري، القاهرة، مكتبــة الأنجلو- المصرية، ١٩٦٣ ، ص ١٢٦؛ سليم أحمد أمين، دراسات في تــاريخ مصر و العراق منذ أقدم العصور و حتى مجيء الإسكندر الأكبر، إســكندرية: دار المعرفة الجامعية، ١٩٩٤، ص١٣٠.

٦- توينبي أرنولد، تاريخ البشرية ، ترجمة نقولا زيادة، الطبعة الثالثة، بيــروت: الأهلية للنشر و التوزيع، ١٩٨٨، الجزء الأول، ص ١٢٦.

٧- يبدو أن ما عرف بالجياد في ملحمة جلجامش إنما هي الحمير الوحشية التي قام السومريون باستئناسها منذ الألف الرابعة قبل الميلاد ، و ربما قبل ذلك ؛

Virolleaud(Ch.), Légendes de Babylone et de Canaan, Paris : Orient ancien illustré, 1949, P28.

8- CF.Lhote(h .), Les gravures rupestres de l'Oued Djerat (Tassili-n-ajjer), Alger :Mémoire du CRAPPE, XXV, 2tommes.

٩- يفترض أن العجلة قد استغلت في النقل أول ما استغلت في جنوب غرب آسيا، بحيث يعود ظهورها بهذه المنطقة إلى الألف الرابعة قبل الميلاد، ومنها انتشـــر استعمالها في أرجاء العالم القديم، فاستعملها الليبيون في الألـــف الثانيـــة قبـــل الميلاد؛

Polge(H.), echnique et promotion de la roué», ARCHEOLOGIA, 23, Juillet-Août 1968, P14.

١٠- باقر طه، مرجع سابق، ص ٤٣٩.

١١- برستد ج. هنري، المرجع السابق ، ص١٥٩؛ لنتون رالف ، المرجع السابق ، ص ٢٣٣ ؛ نفسه ، ج.٢، ص ص ١٨٦-١٨٧.

١٢- Macqueen(J.-G), les Hittites, traduit par C.Sorel, Paris :Arman Colin, 1985, PP75-76.

١٣- ولسون جون ، الحضارة المصرية ، ترجمة أحمد فخري ، القاهرة : مكتبـــة النهضة المصرية ، ١٩٥٥، ص ٢٥٧ فما بعدها ؛ حتي فليب ، المرجع السابق ، ص ص ١٥٧-١٥٨.

14- Lhote(h.), Les chars rupestres Sahariens des syrtes au Niger par le pays des Garamantes et des Atlantes, Hesperides, 1982, P112 ; Braunstein-Sylvestre(F.), « coup d'œil sur le cheval et le char dans l'Egypte du nouvel empire », dans : les chars préhistoriques du Sahara archéologie et techniques d'attelages, Aix-en-Provence, 1982, PP 35-44.

١٥- برستد ج. هنري، المرجع السابق ، ص ٦٢ فما بعدها.

16- Muzzolini(A.), « la période des chars au Sahara, l'hypothèse de l'origine Egyptienne du cheval et du Char », dans : les chars préhistoriques du Sahara : archéologie et techniques d'attelages, Aix-en-Provence, 1982, P48.

١٧- أنظر: العدواني محمد الطاهر، الجزائر في التـاريخ، الجزائـر: المؤسسـة الوطنية للكتاب، ١٩٨٤، الجزء الأول ، ص ص ٢٤٧-٢٤٩.

١٨- الشكل ١

١٩- الشكل ٢

20- Muzzolini(A.), Op.cit., P46.

٢١- العدواني محمد الطاهر، المرجع السابق ، ص ص ٢٤٧-٢٤٩ ؛

Camps(G.), « Chars(art rupestre) », P1887.

٢٢- العدواني محمد الطاهر، المرجع السابق، ص ص ٢٢٥-٢٦٥ ؛

Lhote(H.), le Hoggar espace et temps, Paris : Armand Colin, 1984, PP 131-132.

23- Camps(G.), « chars protohistoriques de l'Afrique du nord et du Sahara, engins de guerre au véhicule de prestige ? » PP 282-283.

24- Lhote(H.), « le cheval et le chameau dans les peintures et Gravures rupestres du Sahara », Bulletin de l'institut français de l'Afrique Noire, 15, 1993, P1285.

٢٥- العدواني محمد الطاهر ، المرجع السابق، ص ٢٢٤.

26- Lhote(H.), le Hoggar espace et temps, PP131-132.

٢٧- الخريطة ١

28- Lhote(H.), « Chars de guerre et routes antiques du Sahara », Bulletin de liaison Saharienne, 12, Avril 1983, PP53-58 ; Id., « les peintures rupestres de Tim-missaou », Bulletin de liaison Saharienne, 44, Décembre 1961, PP 365-370.

٢٩- توحي بعض البقايا الأثرية المنسوبة لفترة حكم الهكسـوس بمصـر معرفـة هؤلاء للعربة و الحصان المدجن، إلا أن استعمالهم الفعلي لهاتين الوسيلتين لـم يبدأ إلا خلال فترة حكم الأسرة الطيبية الثامنة عشر؛

Braustein-Sylvestre(F.), Op.cit.,PP36-40.

30- Camps(G.), « Le cheval et le char dans la préhistoire nord Africaine et Saharienne », dans : les chars préhistoriques du Sahara archéologie et techniques d'Attelages, Aix-en-Provence, 1982, P14.
31- Spruytte(J.) Attelages antiques Libyens, Paris : Maison des sciences de l'homme, 1996, PP111-119.
32- Camps(G.), Op.cit., P16.
33- Spruytte(J.), Loc.cit.
34- Lhote(H.), les chars rupestres sahariens des syrtes au Niger par le pays des Garamantes et des Atlantes, P105.
35- Ibid., P106.

٣٦- الخريطة ١.

37- Muzzolini(A.), Op.cit., PP45-46.
38- Spruytte(J.), Attelages antiques Libyens, P66.
39- Camps(G.), «chars protohistoriques de l'Afrique du nord et du Sahara : Engins de guerre ou véhicules de prestige ? ».P271.
40- Spruytte(J.), « Le cheval de l'Afrique Ancienne », LE SAHARIEN, 48, 1ère trim, 1968, P35 ; Id. , Attelages antiques Libyens, PP50-58.
41- Camps(G.), « Les chars sahariens. Images d'une société aristocratique », Antiquités africaines, t.25, 1989, PP14-15 ; Id. , « Chars protohistoriques de l'Afrique du nord et du Sahara. Engins de guerre ou véhicules de prestige ? », P269.
42- Camps(G.), « Les chars Sahariens. Images d'une société aristocratique », PP 14-15.
43- Id.,Op.cit., P15.
44- Spruytte(J.), Attelages antiques Libyens, PP 27-31.
45- Id., « Démonstrations expérimentales de biges d'après quelques Œuvres rupestres Sahariens », dans : les chars préhistoriques du Sahara archéologie et techniques d'attelages, Aix-en-Provence, 1982, P164 ; Lhote(H.), les

chars rupestres sahariens des syrtes au Niger par le pays des Garamantes et des Atlantes, P67.

46- Spruytte(J.), Attelages antiques Libyens, P25.
47- Id., « Démonstrations expérimentales de biges d'après quelques œuvres rupestres sahariennes », PP164-165.
48- Camps(G.), « le cheval et le char dans la préhistoire nord-Africaine et Saharienne », P14.
49- Spruytte(J.), Attelages antiques Libyens, PP85-86.
50- Ibid., PP134-135.

٥١- الشكل ٣.

52- Spruytte(J.), Op.cit., PP18-26.
53- Hérodote, Histoires, IV, 170 ; IV,180 ; IV,183 ; IV,189 ; IV,193 ; VII,86 ; VII,184 ; Strabon, Géographie, XVII,3,7 ; Silius Italicus, les Guerres puniques, Liv.III, vers 288 et suivi.
54- Camps(G.), « Chars (art rupestre) », P1887.
55- Lhote(h.), les chars rupestres sahariens des syrtes au Niger par le pays des Garamantes et des Atlantes, pp73-74.
56- Ibid., PP97-98.
57- Camps(G.), « Chars protohistoriques de l'Afrique du Nord et du Sahara. Engins de guerre ou véhicules de prestige ? », P282.

٥٨- عرف سكان فزان القدامى باسم القرامنت، و كانت لهم مملكة في تلك المنطقة عرفت عاصمتها بجرمة، و يعتبر هيرودوت أول من أشار إليهم. تميز القرامنت بعرباتهم ذات الخيول الأربعة، و هناك رسوم كثيرة وجدت في فزان تمثلها. و كان القرامنت في صراع مع الرومان انتهى بانتصار كورنيليوس بالبوس خلال الحملة التي قادها ضدهم سنة ١٩ ق.م؛ خشيم علي فهمي، نصوص ليبية، الطبعة الأولى، طرابلس-ليبيا، منشورات دار الفكر ، ١٩٦٧، ص ٨٠.

٥٩- الأثيوبيون الذين تحدث عنهم هيرودوت في هذا النص هم سكان جبال تبستي؛ خشيم علي فهمي ، نفس المرجع ، ص ٨١.

60- Hérodote, Histoires, IV, 183.

٦١- تقع أراضي " قبيلة الأسبيت شرق قورينا، و هي حسب هيرودوت" تلي الجليغام غربا و لا يصل موطنها ساحل البحر لأن الساحل جزء من إقليم قورينا، وهذه القبيلة أكثر من أي قبيلة أخرى تستخدم عربات ذات أربعة جياد، كما أنها دأبت على تقليد أغلب عادات القورنيين؛ الخريطة ٢؛

Hérodote, Histoires, IV, 170.

62- Hérodote, Histoire, IV, 189.

٦٣- تقع أراضي قبيلة الزواكيس شرق تونس الحالية ؛ الخريطة ٢.

64- Hérodote, Histoires, IV, 193.
65- Silius Italicus, les guerres Puniques, liv.II, vers 56-90.
66- Hérodote, Histoires, VII, 86
67- Ibid., VII, 184
68- Camps(G.), « les chars sahariens. Images d'une société aristocratique », P34.
69- Silius Italicus, les guerres Puniques, liv.II, vers 56-90.

٧٠- تقع أراضي قبيلتي الفاروزي و النيقريت جنوب المغرب الأقصى ؛

Lhote(H.), les chars rupestres sahariens des syrtes au Niger par le pays des Garamantes et des Atlantes, P117.

71- Strabon, Géographie, XVII, 3, 7.

٧٢- انظر : Hérodote, Histoires, IV, 183.

٧٣- برستد ج. هنري ، انتصار الحضارة ، ص ١٦٢.

74- Lhote(h.), des chars rupestres Saharien des syrtes au Niger par le pays des Garamantes et des Atlantes, P41 ; Camps(G.), les chars Sahariens. Images d'une société aristocratique, P17.

٧٥- الشكل ٤؛ Lhote(h.), Op.cit., P107 ; Camps(G.), Op.cit., P12.

76- Lhote(h.), Op.cit., P34.
77- Ibid., P25.

٧٨- الشكل ٥ ؛ Lhote(h.), Op.cit., P114 ; Camps(G.), Op.cit., P39.

79- Macqueen(J.-G), Op.cit., P77.

80- Lhote(h.), Op.cit., P29.

81- Lhote(h.), Op.cit., P35 ; Camps(G.), Op.cit., P39.

82- Lhote(h.), Op.cit., P39

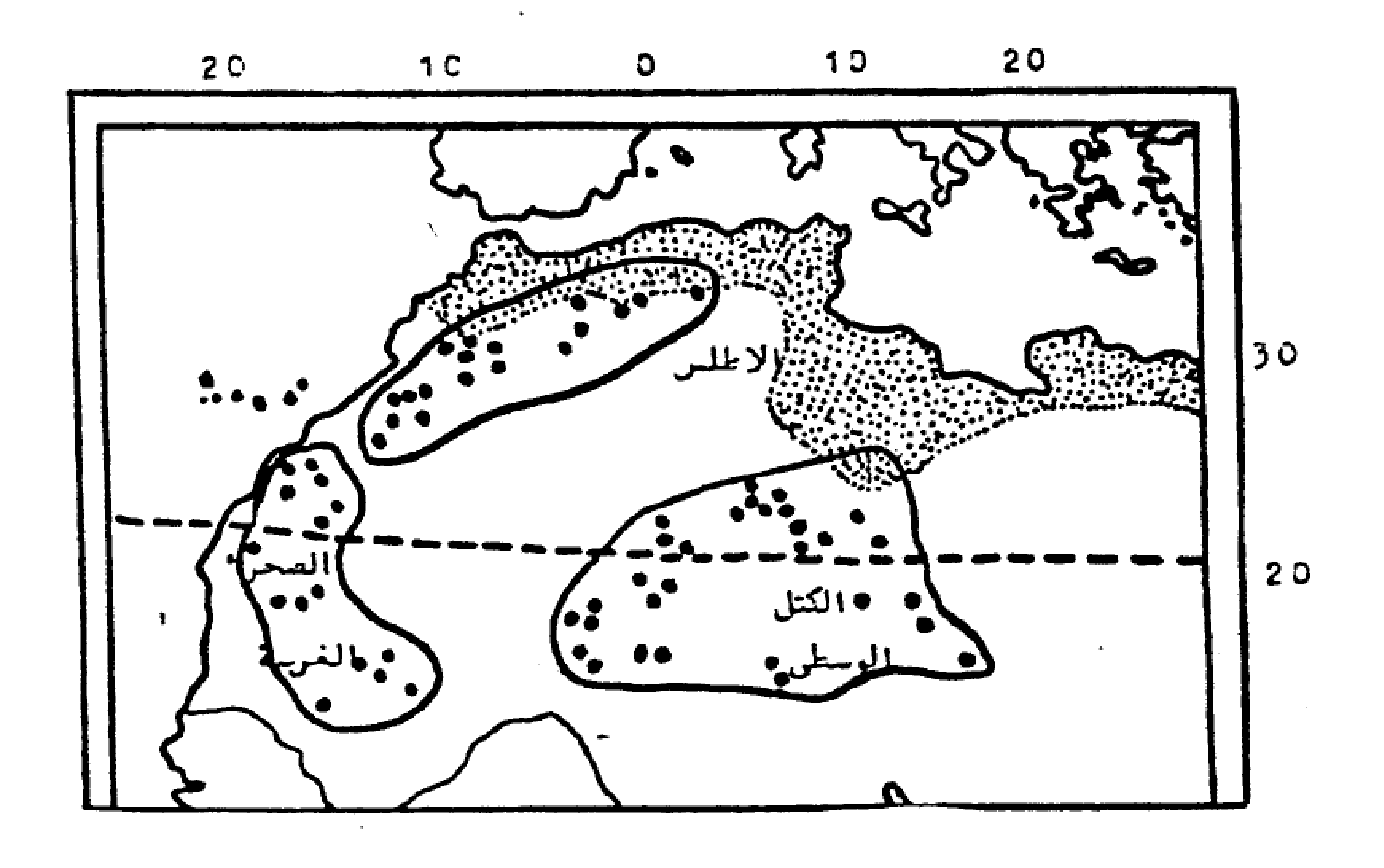
83- Hérodote, Histoires, IV, 170 ; IV,180 ; IV,183 ; IV,189 ; IV,193 ; VII,86 ; VII,184.

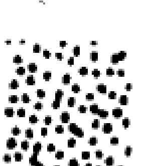
84- Gsell(S.), Histoire Ancienne de l'Afrique du Nord, Paris : Hachette, 1920, t.II, PP398-400.

85- Gsell(S.), Op.cit.,P400.

٨٦- حول مشهد أوان مولين بالتاسيلي الذي يصور العربة الخفيفة في القرنين الأول والثاني للميلاد، انظر :

Camps(G.), Les chars sahariens. Images d'une société aristocratique, P34-35.





مناطق انتشار العربة حسب المصادر الأدبية الإغريقية و اللاتينية

مناطق انتشار العربة حسب الرسومات و النقوش الصخرية

خريطة 1: توزيع الرسومات و النقوش الصخرية حسب تواجد العربة بها
Camps(G.), «les chars sahariens. Images d'une Société aristocratique »,
Antiquités africaines, t.25, 1989, P29.

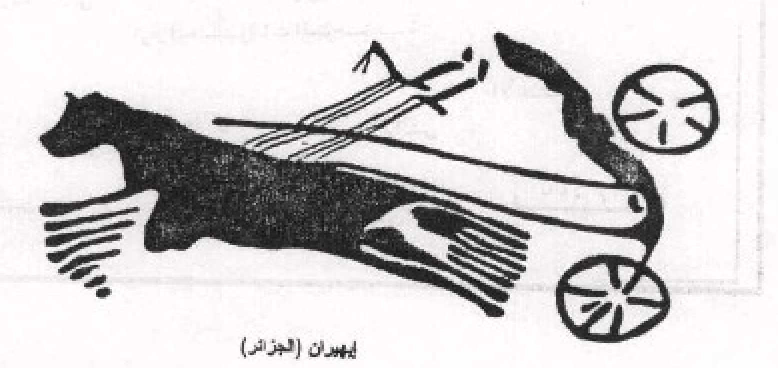


خريطة 2 : تـوزيـــع القـبائل الليـبـيـة

Spruytte(J.), Attelages antiques Libyens, Paris : La maison des Sciences de l'homme, 1996, P165.

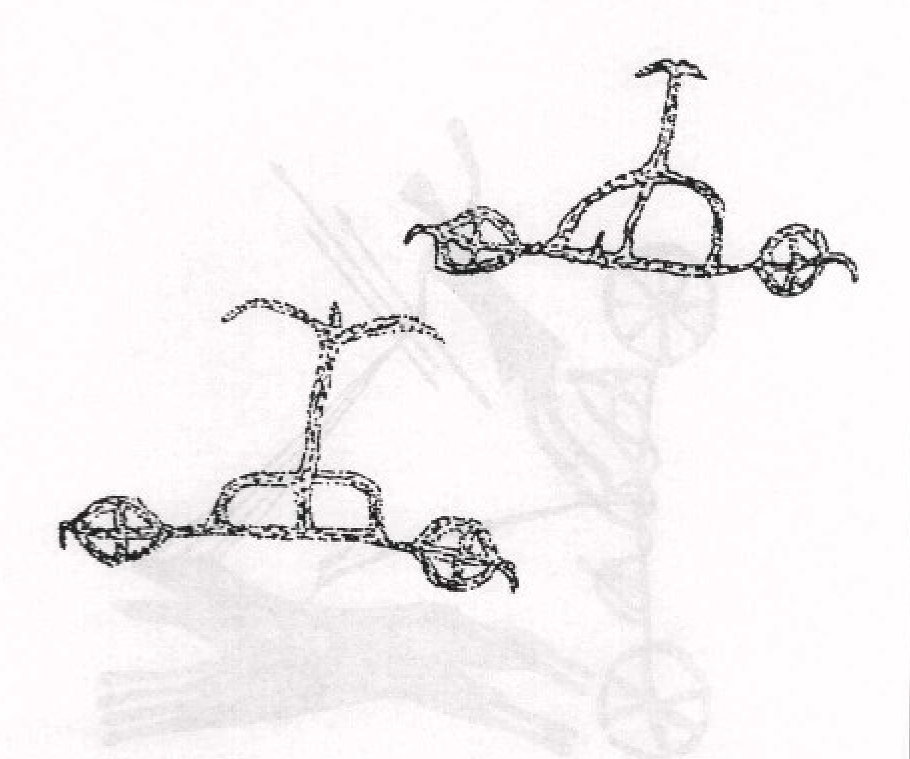


إيكلت - ن - أوشر (الجزائر)



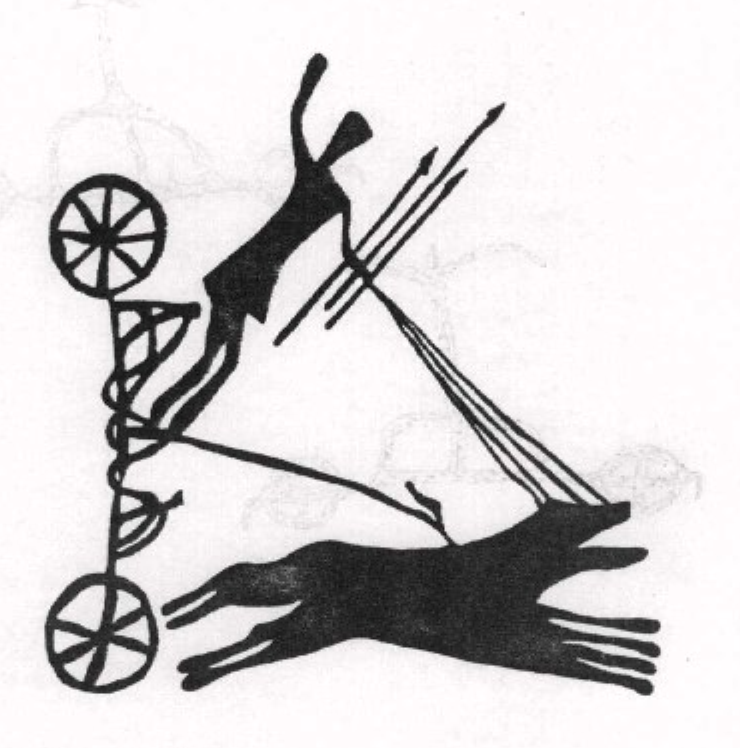
إيهران (الجزائر)

شكل 1 : العـربـــــــة المـرسـومــــــة
Camps(G.), «les chars sahariens. Images d'une société aristocratique »,
Antiquités africaines, t.25, 1989, P19.



شكل 2 : العربـــــــــــــة المنقوشـــــــــــــــــــــــة

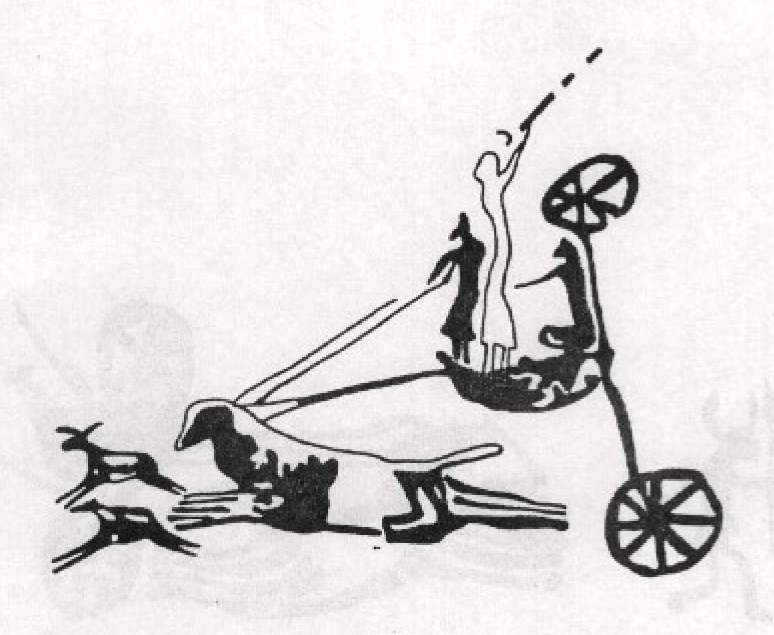
Lhote(H.), «la station de chars gravés de l'oued lar'ar(sud oranais) »,
LIBYCA, A.P.E., IX-X, 1961-1962, P 142



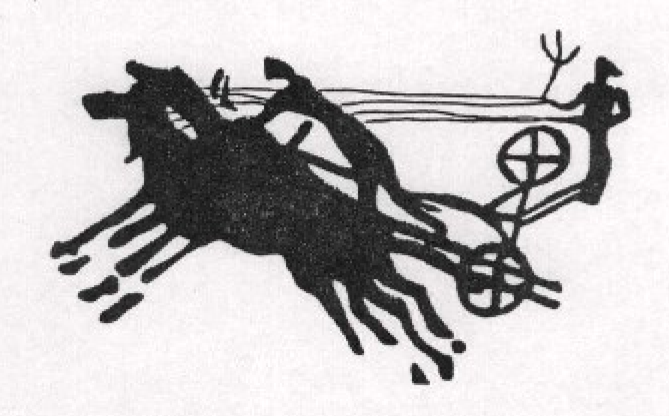
شكل 3 : كدن قضيـــــب الجـــــــــــر
Camps(G.), «les chars sahariens. Images d'une société aristocratique »,
.Antiquités africaines, t.25, 1989, P17



شكل 4 : رسم صخري من واد جرات بالتاسيلي يمثل مقاتل يلاحق بعربته شخصا ذو قرنين
Camps(G.), «les chars sahariens. Images d'une société aristocratique »,
Antiquités africaines, t.25, 1989, P12



شكل 5: رسم صخري من آلان-إدومنت بالتاسيلي يمثل مشهد صيد الأروية
Camps(G.), «les chars sahariens. Images d'une Société aristocratique », Antiquités africaines, t.25, 1989, P39.



شكل 6 : رسم صخري من تكيددوماتين بالتاسيلي يمثل عربة ذات عريشين تقل شخصين
Camps(G.), «les chars sahariens. Images d'une société aristocratique », Antiquités africaines, t.25, 1989, P39

ظهور الإسلام وانتشاره

من خلال مصادر التاريخ السُريانية المسيحية

د. صلاح عبدالعزيز محجوب إدريس
قسم اللغات الشرقية
كلية الآداب – جامعة القاهرة

تمهيد :

كانت للسُريان كتابات تاريخية عديدة أرخت الأحداث التاريخية الهامة مثل خلق العالم وغيرها من الأحداث التاريخية. وأطمح فى دراستى هذه إلى تحليل رؤية المؤرخين السُريان للإسلام منذ ظهوره وحتى انتشاره فى بلاد الشام والعراق. وأستعرض فى عجالة أسماء الكتابات التاريخية السُريانية والتى لا يتمكن القارئ العربى من الإطلاع عليها فى لغتها السُريانية. ثم أستهل الدراسة بتحليل رؤية المؤرخين السُريان لعدة موضوعات ربما تعبر عن تصور هؤلاء المؤرخين للإسلام، وتلك الموضوعات هى ظهور الإسلام وماهية الإسلام، والشريعة الإسلامية، والفتوحات العربية الإسلامية التى صاحبت انتشار الإسلام فى بلادهم وغيرها من البلدان، والخلافة الإسلامية، والأوصاف الشائعة عن المسلمين فى الكتابات التاريخية السُريانية، كما نحاول الاستفادة من قراءة بعض نصوص التاريخ التى كتبها السُريان بالعربية مثل تاريخ سعرد. وفى ختام كل موضوع أحاول مناقشة أسس رؤى المؤرخين السُريان للإسلام، وهو الدين القويم الذى أسس حضارة قوية أشاعت الإيمان و نور العلم فى العالم، وأتاحت للسُريان النبوغ الحضارى فأسهموا بنقل التراث العقلى والعلمى لليونان إلى لغتهم وإلى العربية. وأحرص عند نقل النصوص السُريانية إلى العربية على عرضها كما هى مع الإشارة إلى ما يوضح المعنى بين قوسين.

مصادر التاريخ السُريانية

أولاً. المصادر التاريخية الغربية

١. تاريخ يعقوب الرُهاوى (المتوفى فى سنة ٧٠٨ ميلادية) :

عنوان تاريخ يعقوب الرُهاوى هو ܡܟܬܒ ܙܒܢܐ ܕܝܥܩܘܒ ܐܘܪܗܝܐ "التاريخ الزمنى ليعقوب الرُهاوى". ويتناول تاريخ الفترة الزمنية مابين حكم الإمبراطور قسطنطين الكبير (٣٠٦-٣٣٧ ميلادية) وحتى أحداث السنة ٦٩٢ ميلادية، وقد طبعه إدوارد بروكس E. W. Brooks ونقله إلى اللاتينية فى سنة ١٨٩٩ميلادية[١].

٢. كتاب الخلفاء:

يحتوى المخطوط رقم ١٤٦٤٣ فى المتحف البريطانى على النص السريانى وعنوانه مِن ܡܟܬܒܐ ܩܕܡ ܕܡܫܘܕܥܘ ܫܘܪܝܐ ܕܡܠܟܐ ܕܒܬܪ ܡܚܡܕ "من كتاب تاريخ الخلفاء وفى آخره قائمة الملوك بعد محـــمد" (صلى الله عليه وسلم). ويعرف هذا النص بكتاب "تاريخ الخلفاء" وهو مؤرخ بسنة ٧٢٤ ميلادية، ويتناول أحداث التاريخ منذ آدم حتى السنة ٧٢٤ ميلادية. وقد نشر المستشرق لاند J. p. N. Land النص السريانى فى كتابه Anecdota Syriaca "القصص السُريانية" فى سنة ١٨٦٢، ثم طبعه إدوارد بروكس وألحق به ترجمة لاتينية للنص السُريانى[٢].

٣. تاريخ السنة ٧٧٥ ميلادية:

طبع إدوارد بروكس النص السريانى لهذا الكتاب عن مخطوط المتحف البريطانى رقم ١٤٦٨٢ وعنوانه ܡܟܬܒ ܙܒܢܐ ܕܥܕܡܐ ܠܫܢܬ ܐܬܓ ܠܡܫܝܚܐ "التاريخ الزمنى حتى سنة ٨١٣ للمسيح". ويتناول تاريخ العالم منذ آدم وحتى سنة ٧٧٥ ميلادية بالإضافة إلى أخبار السنة ٨١٣ ميلادية.[٣]

٤. تاريخ سنة ٨١٣ ميلادية:

يحتوى مخطوط المتحف البريطانى رقم ١٤٦٤٢على هذا الكتاب، وقد قام إدوارد بروكس بطبعه فى سنة ١٩٠٠بعنوان ܬܘܒ ܡܢ ܫܪܒܐ ܕܥܒܕܐ ܐܝܟ ܕܒܦܣܝܩܬܐ "عودٌ إلى قصص الأعمال باختصار. ويتناول الكتاب عصر الخلافة العباسية".[٤]

٥. تاريخ سنة ٨١٩ ميلادية :

يتناول هذا النص أحداث عصر السيد المسيح عليه السلام حتى سنة ٨١٩ ميلادية، ويهتم بصورة خاصة بأحداث القرنين السابع والثامن الميلاديين. وقد طبع جان شابو Jean Chabot هذا الكتاب بعنوان ܡܟܬܒ ܙܒܢܐ ܕܥܕܡܐ ܠܫܢܬ ܐܠܦ ܠܝܘܢܝܐ ܕܣܡ ܠܗ ܕܝܪܝܐ ܡܢ ܩܪܛܡܝܢ "كتاب الأزمنة حتى سنة ١١٣٠ يونانية والذى كتبه راهب من دير قرتمين".[٥]

٦. تاريخ ديونسيوس التلمحرى (٨١٨-٨٤٥ ميلادية):

يتناول تاريخ ديونسيوس الفترة ما بين سنة ٥٨٢ حتى سنة ٨٤٢ ميلادية، وقد طبعه جان شابو بعنوان ܡܟܬܒܢܘܬܐ ܕܙܒܢܐ ܕܥܒܕ ܡܪܝ ܕܝܘܢܢܘܣ ܬܠܡܚܪܝܐ "كتاب الأزمنة الذى ألفه (سيدى) ديونسيوس التلمحرى".[٦]

٧. تاريخ الأزمنة لميخائيل السريانى الكبير (١١٢٦-١١٩٩ ميلادية):

ويتناول هذا التاريخ أخبار العالم المدنية والدينية حتى عصر المؤلف، وعنوانه ܡܟܬܒܐ ܕܡܟܬܒܢܘܬ ܙܒܢܐ ܕܣܝܡ ܠܡܪܝ ܡܝܟܐܝܠ ܪܒܐ ܦܛܪܝܪܟܐ "كتاب تاريخ الأزمنة الذى ألفه (سيدى) ميخائيل الكبير"، وقد طبع جان شابو النص السُريانى فى أربعة أجزاء فى السنوات ١٨٩٩-١٩٢٤ بباريس.[٧]

٨. التاريخ الرُهاوى:

ويتناول التاريخ الرُهاوى الأحداث المدنية والكنسية حتى سنة ١٢٣٤ ميلادية، وقد طبعه جان شابو تحت عنـــوان ܡܟܬܒ ܙܒܢܐ ܕܥܠ ܥܢܝܢܐ ܥܠܡܢܝܐ ܘܥܕܬܢܝܐ ܥܕܡܐ ܠܫܢܬ ܐܠܦ التاريخ الزمنى عن الأحداث الدنيوية والكنسية حتى سنة ١٢٣٤ للمسيح.[٨]

٩. التاريخ المدنى لإبن العبرى (١٢٢٦-١٢٨٦ ميلادية):

ويتناول تاريخ الأحداث المدنية والكنسية حتى عصر المؤلف. وقد طبع برونز P. J. Bruns النص السُريانى بعنوان ܡܟܬܒܐ ܕܡܟܬܒܢܘܬ ܙܒܢܐ ܕܣܝܡ ܠܡܪܝ جريجوريوس بر عبريا "كتاب تاريخ الأزمنة الذى ألفه (سيدى) جريجوريوس ابن

العبرى". ثم طبعه إدوارد واليس بدج E. W. Budge مرة أخرى فى سنة ١٨٩٧ بعنوان ܟܬܒܐ ܕܡܟܬܒܢܘܬ ܙܒܢܐ ܐܘܟܝܬ ܟܪܘܢܝܩܘܢ ܕܥܒܝܕ ܠܡܪܝ ܓܪܝܓܘܪܝܘܣ ܡܦܪܝܢܐ ܕܡܕܢܚܐ "كتاب تاريخ الأزمنة أعنى الحولية الزمنية التى ألفها (سيدى) جريجوريوس مفريان[9] الشرق".

١٠. التاريخ الكنسى لإبن العبرى:

ويتناول تاريخ الكنيسة السُريانية، ويبدأ الكتاب بذكر أحبار العهد القديم منذ عهد هارون أخى النبى موسى عليهما السلام وتستمر الأحداث حتى بعد وفاة المؤرخ، وقد أكمل النص السُريانى أخوه برصوم الصفى (المتوفى فى سنة ١٣٠٧ ميلادية) حتى سنة ١٢٨٨ ميلادية. وقد طبع ابلوس Abbloos ولامى Lamy النص السُريانى وترجمته اللاتينية فى ثلاثة أجزاء فيما بين السنوات ١٨٧٢-١٨٧٧ بعنوان ܟܬܒܐ ܐܩܠܣܝܣܛܝܩܝ ܕܥܒܝܕ ܠܡܪܝ ܓܪܝܓܘܪܝܘܣ ܡܦܪܝܢܐ ܕܡܕܢܚܐ ܗܘ ܒܪ ܥܒܪܝ "كتاب تاريخ الكنيسة لسيدى جريجوريوس أبو الفرج بن العبرى مفريان الشرق".[10]

ثانياً. المصادر التاريخية الشرقية :

١. رسائل الجاثليق إيشويب الحذيابى (٦٤٩-٦٥٩ ميلادية):

تقدم تلك الرسائل مادة تاريخية عن الكنيسة الشرقية وأحداث القرن السابع الميلادى.[11]

٢. التاريخ الصغير للسنة ٦٧٠ ميلادية :

ويتناول هذا النص أخبار الكنيسة السُريانية الشرقية منذ عهد كسرى بن هرمزد المعروف بكسرى نو شروان (٥٣١-٥٧٨ ميلادية) حتى إنهيار مملكة الفرس على أيدى الجيوش الإسلامية بقيادة الصحابى عبد الله بن قيس المعروف بأبى موسى الأشعرى (المتوفى فى سنة ٤٤ هجرية). وقد عرف بأسم "التاريخ المجهول"، أو "التاريخ المغمور"، وعنوانه ܡܢܝܢܐ ܩܠܝܠ ܡܟܬܒܢܘܬܐ ܐܘܟܝܬ ܬܫܥܝܬܐ ܗܘ ܕܝܢ ܥܕܬܢܝܬܐ ܘܬܫܥܝܬܐ ܗܘ ܕܝܢ ܥܠܡܢܝܬܐ "أخبار كنائسية أى تواريخ كنائسية وكونية أى تواريخ دنيوية".[12]

٣. تاريخ يوحنا بن فنكايا (القرن السابع الميلادى):

ويتناول هذا التاريخ الفترة الزمنية منذ بداية الخليقة حتى القرن السابع الميلادى وخاصة الفتوحات الإسلامية. ويشتمل على خمسة عشرة كتاباً بعنوان ܪܫ ܡ̈ܠܐ "رؤس الكلام".(١٣)

٤. تاريخ إيليا بن السنى (٩٧٥-١٠٤٩ ميلادية):

يقدم هذا التاريخ معلومات تاريخية وفيرة عن الكنيسة الشرقية وعن الإسلام وعنوانه ܡܟܬܒܢܘܬ ܙܒܢܐ ܕܐܠܝܐ ܒܪ ܫܝܢܐ "تاريخ الأزمنة لإليا بن السنى" (عُرف هذا المؤرخ بإليا بر شينا بالسُريانية).(١٤)

٥. تاريخ سعرد:

ويتناول أحداث الفترة الزمنية ما بين السنوات ٢٥١ حتى ٦٥٠ ميلادية. وقد عرف هذا النص التاريخى بهذا الاسم لأن المطران(١٥) آدى شير عثر عليه فى مكتبة سعرد، ويرجع تاريخ كتابته إلى القرن العاشر.(١٦)

٦. كتاب المجدل:

ألف هذا الكتاب مارى بن سليمان فى القرن الحادى عشر وعنوانه "أخبار بطاركة كرسى المشرق". وهو موسوعة تاريخية ولاهوتية للأحداث التى مرت بها الكنيسة الشرقية (النسطورية). وتوجد نسخة أخرى من هذا التاريخ تعرف بأسم "مجدل مارى بن سليمان".(١٧)

ثانياً: ظهور الإسلام وانتشاره من خلال مصادر التاريخ السُريانية :

١. ظهور الإسلام :

ترد فى مصادر التاريخ السُريانية أخباراً كثيرة عن الظواهر الطبيعية التى صاحبت ظهور الإسلام. فيروى بعضها أن نجوما ظهرت فى السماء كنذير سوء ينذر بأن كارثة عظيمة ستحل بالعالم، وأن الله عاقب النصارى بظهور الإسلام لأن النصارى لم يلتزموا بدينهم وسادت بينهم شريعة الغاب.(١٨) ويذكر الجاثليق إيشويَب فى رسائله عن الفتوح الإسلامية لفارس وبلاد الشام: "إن العرب الهاجريين (المسلمين) لم يساعدوا أتباع الطبيعة الواحدة، بل أن الخسارة بسبب أخطائهم.(١٩) وورد فى تاريخ سنة ٦٧٠ عن نهاية دولة الفرس الساسانية وظهور الإسلام ما يلى

"وعندئذ أخرج الله على الفرس أبناء إسماعيل كالرمال على شاطئ البحر، و كـــان مدبرهم محمد (صلى الله عليه وسلم). فلم تصدهم أسوارٌ أو أبـــوابٌ أو ســـلاحٌ أو تروسٌ. فتسلطوا على كل أرض فارس".[٢٠]

ويذكر يوحنا بن فنكايا عن ظهور الإسلام "عندما أنتهت مملكة الفرس فـــي أيام الملك خسرونوشروان (٥٣١-٥٧٩) زاعت فجأة شهرة مملكة بنى هاجر فـــي كل العالم وتسيدوا على المملكة الفارسية. وقد تغلبوا عليهم بعد أن اشـــتهروا فـــي فنون القتال كما صدق أن تحدث تلك الآيات. وهو من تدبير المشيئة الإلهيـــة كمـــا نعتقد. وقد أوصى الله بنى هاجر بالنصارى وأن يعاملونهم بالحُسنى، كما أمرهم الله أن يعاملوا رؤساء النصارى بوقار. وكما قيل فإنهم وفقا للأمر الإلهى تسيدوا على المملكتين (الفارسية والبيزنطية) بلا حربٍ أو قتال، وهكذا وهـــبهم الله النصـــر، وخضعت الأرض كلها للعرب".[٢١] وذكر كاتب كتاب المجدل عن ظهور الإسلام " ثم ملك على الفرس يزدجرد وظهر عند نظرهِ فى السماء ما يشبه الرمح من جهـــة الشرق إلى ناحية الشمال وانبسط فى المشرق والمغرب ومكث خمسة وثلاثين يوماً وقيل أن ذلك لظهور مُلك العرب وكانت أيام الفرس أربع مائة وثمانين سنة ثم ظهر الإسلام".[٢٢] وذكر ابن العبرى عن مظاهر الطبيعة التى صاحبت ظهور الإســـلام "وفى السنة السادسة للطائيين (للعرب) غاب نصف قرص وأظلمت الدنيا بدءً مـــن شهر تشرين الأول (أكتوبر) حتى شهر حزيران (يونيه) واعتقد الناس أن الشـــمس لن تكتمل مرة أخرى. وألمّت المصيبة بفلسطين إذ انتشر مرض الطـــاعون فيهـــا ومات بسببه أشراف القوم من النصارى العرب وفى هذا الزمن ظهر (النبى) محمد (صلى الله عليه وسلم).[٢٣]

وقد أشار سليمان البصرى مؤلف" كتاب النَحلة" فى القرن الثالث عشر، إلـــى أن ظهور الإسلام هو عقابٌ إلهى للنصارى بقوله "وخرج أبنـــاء إســـماعيل مـــن صحراء يثرب واجتمعوا فى ربوة عالية ومن هناك خربوا ثروات مملكة اليونـــان وخرب إسماعيل قضيب الصحراء مملكتى العبريين والفرس، ذلك الـــذى أُرسِـــل بحمية على كل الأرض وعلى البشر وعلى البهائم والأشجار. هذا عقاب قاسٍ، ليس لأن الله أحبهم وهبهم العلو على ممالك المسيحيين بل من أجل الظلم والأثـــم الـــذى أقترفه المسيحيون".[٢٤]

ويبدو لى أن الرؤى السابقة تفسر ظهور الإسلام باعتباره عقاباً للنصارى نتيجة لخلافاتهم الدينية، وعقاباً للفرس والروم نظراً لحالة الحرب الدائمة بينهما التى جعلت المنطقة منطقة غير مستقرة، وربما عبرت الرؤى السابقة عن جانب من الحقيقة وهى ضرورة تغيير حالة عدم الأمن والحرب الدائمة والانقسامات فى تاريخ بلاد الشام وما بين النهرين، إلا أن المؤرخين السُريان قد فسروا ظهور الإسلام باعتباره عقاباً على الانقسامات الدينية بين النصارى السُريان. ويرجع هذا التفسير التاريخى إلى الارتباط بالتقاليد القديمة فى الكتابة على منوال كتابى العهد القديم والجديد[٢٥] وتسمى تلك الرؤية التاريخية عند السُريان بالرؤية إلهية المركز كما ذكر حنا فييه بقوله " نظرة المؤرخين السُريان إلهية المركز كنظرة المؤرخين العرب، فالله يتدخل مباشرة فى التاريخ، يُثّبت عندما يَمُن بالنصر وينتقم ويعاقب عندما يُمنِى بالهزيمة".[٢٦] وما يؤكد هذا الرأى انتشار قصة الراهب بحيرا فى البيئات المسيحية والسُريانية خاصة، وهى قصة تاريخية تمتلئ بأخبار الرؤى الإلهية الغيبية والرؤى المسيحية عن ظهور الإسلام من خلال علاقة الراهب المذكور بالرسول (صلى الله عليه وسلم). فالراهب بحيرا يقص على الرسول (صلى الله عليه وسلم) رؤياه على جبل الطور بقوله " قال سرجيس بحيرا (للرسول صلى الله عليه وسلم) ستكون عظيما وملكا ونبيا وراعيا ورئيسا لبنى قومك".[٢٧] وربما استند المؤرخين السُريان فى تفسيراتهم السابقة؛ والتى تشير إلى ظهور الإسلام بالتسمية "مملكة بنى إسماعيل" أو "بنى هاجر"، إلى كتاب العهد القديم باعتباره المرجعية الأولى فى الكنائس المسيحية، لأنه يحتوى على العهد القديم الذى أقامه الله مع اليهود ثم ورثه المسيحيون باعتبارهم أصحاب العهد الجديد. ويؤكد هذا الرأى ما ورد فى سفر التكوين فى الاصحاح السادس عشر فى الفقرات ٨-١٣ حيث يدور الحديث فى إطار حوار ملاك الرب مع هاجر إمرأة إبراهيم المصرية (عليهما السلام) كالتالى " فوجدها ملاك الرب على عين الماء فى البرية على العين التى فى طريق شور (بئر زمزم). وقال يا هاجر جارية سارة من أين أتيتِ وإلى أين تذهبين. فقالت أنا هاربة من وجه مولاتى سارة. فقال لها ملاك الرب ارجعى إلى مولاتك واخضعى تحت يديها. وقال لها ملاك الرب تكثيراً أكثر نسلك فلا يعد من الكثرة. وقال لها ملاك الرب ها أنت حبلى فتلدين ابنا وتدعين اسمه إسماعيل

لأن الرب قد سمع لمذلتك. وإنه يكون إنساناً وحشياً (متوحشا) يده على كل واحد ويد كل واحد عليه وأمام جميع إخوته يسكن".[٢٨] وتشير الفقرات السابقة إلى أن سيطرة المسلمين على ممالك الشرق فى فارس وبيزنطة بعد ظهور الإسلام، هو حدثٌ مقررٌ سلفاً وهو عقاب للنصارى. وبذلك يحول المؤرخون السُريان النصارى أنظار القراء السُريان خاصة عن هذا التحول التاريخى الهام فى تاريخ الشرق والعالم.

٢. ماهية الإسلام:

ورد فى تاريخ سعرد عن الإسلام " فى سنة إحدى وثلاثين لملك أبرويز بن هرمز (٥٧٩-٦٢٨ ميلادية) وفى السنة الثانية عشرة لهرقل ملك الروم ظهر بأرض تهامة محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم عليه السلام ودعا العرب إلى عبادة الله تعالى".[٢٩] أما فى تاريخ يعقوب الرهاوى فلم أجد عن ماهية الإسلام سوى الفقرات التالية " بعد أن احتل الفرس مصر وسيطروا على ليبيا، وخرج محمد (صلى الله عليه وسلم) فى تجارة إلى فلسطين والصحراء العربية وفونيقيه وصور.[٣٠] ووردت الفقرات التالية فى التاريخ الصغير لسنة ٦٧٠ ميلادية عن ماهية الإسلام " أما قبة إبراهيم التى لم نرها مطلقاً، فحكايتها أن (خليلُ الله) إبراهيم (عليه السلام) كان غنياً، فلما أراد أن يبتعد عن وثنية الكنعانيين، توجه إلى أماكن بعيدة فى الصحراء واختار له مستقراً هناك. وبنى هناك مسجداً لله يقُرب فيه القرابين (لله) أيضا وهذا (المسجد) هو القبة (الكعبة) المذكورة. ومنذ ذلك الحين اشتُهر ذلك المسجد (بين العرب). ولا زال يحافظ على شهرته حتى الآن. واحتفظ نسل إبراهيم (عليه السلام) بذكرى هذا الموضع، وليس جديداً على العرب (المسلمين) التعبد لله هناك، بل يقومون بذلك منذ تاريخهم الباكر وكأنهم يبجلون رأس عائلتهم. واشتهرت أيضا مدينة حاصور وهى رأس الممالك (مكه أم القرى) كما أسماها كِتابُ العرب (القرآن الكريم). أما أسم المدينة فهى على اسم مدين بن إبراهيم من زوجتهِ قطورا ".[٣١] وذكر يوحنا بن فنكايا عن الإسلام " وقد حافظ العرب (المسلمين) على وصايا هاديهم (صلى الله عليه وسلم) والإحسان إلى النصارى. وقد اخذوا عنه عبادة الله الواحد والسجود له كعادة الشرائع القديمة لليهود والنصارى.[٣٢]

ويقول ديونسيوس التلمحرى عن الإسلام " الملك الأول للطائيين (المسلمين) اسمه محمد (صلى الله عليه وسلم) وهو الذى يدعونه نبياً أيضاً لأنه أبعد العرب عن عبادة الأوثان، ونادى بعبادة الله الواحد خالق البرايا. ووضع لهم الشرائع بعدما كانوا يعبدون الأصنام والأشجار. ولأنه علمهم عبادة الله الواحد فإنهم ظفروا في الحرب ضد الروم بعون المشيئة الإلهية. ووضع لهم شرائع تناسب طبائعهم فدعوه نبيا ورسولا ".[٣٣]

وورد فى تاريخ إيليا بن السنى ما يلى" فى سنة ٩٣٣ يونانية هاجر محمد بن عبد الله نبى العرب (صلى الله عليه ولم) وأول ملوكهم إلى مدينة يثرب وملكها فى يوم الأثنين الثامن من شهر ربيع الأول، وفى نفس السنة ولد عبد الله بن الزبير فى شوال ".[٣٤] وذكر ميخائيل الكبير عن بداية الإسلام " وفى السنة الثانية عشرة لهرقل والسنة ٣٣ لكسرى أنو شروان بدأت مملكة الطائيين (المسلمين) وعندئذ خرج رجل يسمى محمد (صلى الله عليه وسلم) من قبيلة قريش وتوجه إلى مدينة يثرب، وقال عن نفسه أنه نبىّ. أما محمد بن عبد الله (صلى الله عليه وسلم) فقد توجه من يثرب إلى فلسطين فى تجارة وبيع وشراء. وبعدما تحدث مع اليهود هناك تعلم منهم عبادة الله. ولما وجد بنى قومه يسجدون للأصنام والأشجار وكل المخلوقات، فقد دعاهم إلى العقيدة اليهودية بعدما حسنت فى عينيه. وبعدما عاد إلى بنى قومه وضع أمامهم تلك العقيدة واستقطب الأذلاء منهم خاصة، وبعدما أتبعه كثيرون أمرهم أن يُسلمون إليه. وعمل من أجل عقيدة الله الواحد. وقد استحسن أرض فلسطين وقال أنها الأرض الطيبة. وقال لأتباعه إن تُسلمون إلىّ وتتركون عبادة الآلهة الكثيرة الباطلة وتؤمنون بالله الواحد يهبكم الله الأرض الطيبة. وبعدما خدع كثير منهم صاروا أتباعا له. وخرج للقتال فى فلسطين ولما بلغها حرر أهلها ليدينوا له بالولاء. وبعدما خضعت الأراضى الرومانية والفارسية له، أمرهم بعبادة الله الواحد خالق كل شئ والتوقف عن الإيمان بالمسيحية. وقال أن الألوهية تتجلى فى الوحدانية الخالصة، وأن الله لم يَلِد ولم يُولد وليس له ولد أو صاحب أو شريك. وآمن بكتاب موسى (عليه السلام) والأنبياء وببعض من الإنجيل وترك معظمه، وقال عن المسيح (عليه السلام) أن الأنبياء تنبأوا عنه أنه صديقٌ ونبى من الأنبياء وليس الله أو ابن الله (كما يقول النصارى). ونحن النصارى (اليعاقبة) نُقر ونقول

أن المسيح أعظم من الأنبياء الأخرين. لأنه لم يولد من نسل إنسانى، بل بكلمة الله كمثل آدم خلق من التراب ونفخ الله فيه من روحه. فصار عبد الله وكلمته. ولذلك فنحن النصارى نقول أنه ابن الله، لأنه ولِدَ بلا ألم وهو فيض من الله وكلمته. وقد أشاع عنا الشهوانيون (المسلمون) أننا نقول أن المسيح ولد من مريم. وقالوا أن مريم هى البتول أخت هارون وموسى. ولم يقروا كلهم بأن المسيح صلبه اليهود، بل يعتقدون أن أحد تلاميذه هو الى أسلمه للموت. وأن المسيح لما اختفى فقد أصعده الله إلى الجنة وهى الفردوس. وقد قالوا عنها أن فيها الأكل والشراب والزواج من النساء. والجلوس على مقاعد من الذهب وأن فيها أنهار من اللبن والعسل وأشجار تشتهيها الأعين وأنها وعدّ من الله لهم. وأنهم وعِدوا الزواج من النساء حتى أربع نساء. وهم يصلون خمس مرات فى اليوم ويباركون أربع مرات فى الصلاة الواحدة. ويؤمنون بالقيامة والموت، وأن هناك ثواب وعقاب، وكل إنسان سيحاسب وفق أعماله، ويصومون النهار لمدة شهر كامل وهو شهر قمرى فى السنة (شهر رمضان)، فيصومون بالنهار ويأكلون بالليل حتى بزوغ الفجر. ويتطهرون بالماء قبل الصلاة ويلبسون الثياب النظيفة ويسجدون قبالة الكعبة من الجهات الأربع".[٣٥]

ويكرر ابن العبرى بعض ما ورد فى تاريخ ميخائيل الكبير بقوله "عندما خرج محمد (صلى الله عليه وسلم) من يثرب وهى مدينته، وتوجه فى تجارة إلى فلسطين ورآها على حال من الثراء والغنى. تحدث إلى اليهود واستمع إليهم وتعلم منهم عقيدة الله الواحد، وعلم (أتباعه) أن الله وهب اليهود أرض المُلك لأنهم ابتعدوا عن عبادة الأصنام. فأراد هو (صلى الله عليه وسلم) أيضا التمسك بهذه العقيدة. وشرع فى اقناع بنى قومه بها. وعندما بلغ سن الأربعين وشاع أمره هذا بين أهل مكه وأنه يدعو إلى عبادة غريبة عنهم، اضطهدوه وأرادوا قتله إن لم يرجع عن دعوته. أما هو (صلى الله عليه وسلم) فقد فرّ من مكه وهاجرَ إلى مدينة أخرى هى يثرب. أما أهل المدينة فقد خرجوا للقائه واستقبلوه بحفاوة وعاهدوه أن ينصروه فى دعوته. ومنذ ذلك الحين عرفوا بالأنصار أى المُعِيُنون. وقد علمهم عبادة الله الواحد والابتعاد عن السجود للأصنام. وكون منهم جبهة فى مواجهة العرب الوثنيين. ورغب عن دعوته كثيرون لم يبغوا التمسك بالماديات والزواج من نساء كثيرة، وأن يترك الرجل زوجته متى شاء ويتخذ زوجة غيرها، والصوم بالنهار لمدة شهر

واحد فى السنة ويأكل طوال الليل حتى بزوغ الفجر. وتنادى دعوته أن بعد القيامة توجد أنهار من العسل واللبن والخمر والشجر والثمار الشـهى والجلـوس علـى العروش الذهبية، وقال أن الله أعد لبنى قومه من المؤمنين نساء أجمل من الشـمس عند شروقها".[٣٦]

وأرى من قراءة النصوص السابقة أن المؤرخين السُريان عرّفوا الإسلام فى إطار التعبير "دين العرب"، وهو تعبير يوحى بديانات العرب الوثنية قبل الإسـلام. وأشارت الاقتباسات السابقة إلى أن الدعوة الإسلامية هدفت إلى التوحيد الخـالص والقضاء على عبادة الأصنام والأوثان بين العرب، بعد أن كانت عبادات مظـاهر الطبيعة هى الديانات المنتشرة بين الأمم السامية.[٣٧] إلا أننى لم أعثر فى المصادر التاريخية السابقة على إشارة مباشرة إلى القرآن الكريم بوصفه الرسالة السـماوية التى تلقاها الرسول (صلى الله عليه وسلم) ونقلها للعالمين، بالرغم من أننـا نجـد العبارات مثل كتُبًا "الكتاب" أو قُورآن "القرآن الكريم" قد وردت فى بعض مؤلفات الجدل الدينى السُريانية.[٣٨] وتشير بعض العبارات السابقة إلى معرفـة السُـريان بعادات حج العرب إلى الكعبة الشريفة قبل الإسلام وفريضة الحج الإسـلامية، إلا أنها توحى للقارئ السُريانى بأن فريضة الحج إلى الكعبة الشريفة كانت سنة دينيـة ورثها المسلمون عن آبائهم العرب واتبعوها بعد الإسلام أيضاً. وأرى أن الاشـارة إلى الثواب والعقاب والجنة ونعيمها فى المصادر السـابقة، تؤكـد أن المـؤرخين السُريان قد عرفوا القرآن الكريم وآياته وفهموها. وبالرغم من أن المصادر السابقة قد أشارت إلى أمور تاريخية ثابتة مثل الهجرة إلى يثرب ومؤازرة أهـل المدينـة للرسول (صلى الله عليه وسلم) ودعوته، وبعض أركان الإسلام خاصـة الصـلاة والحج والصوم والإيمان بالكتب السماوية والأنبيـاء. إلا أننـى أرى أن ميخائيـل السُريانى وابن العبرى قد ذكرا أن الرسول (صلى الله عليه وسلم) تعلم التوحيد من اليهود ثم علمه لأتباعه. وربما كانت تلك الإشارة مثالا لكثير من الشـبهات التـى شاعت عن الإسلام فى البيئات السُريانية المسيحية، وكان الغرض منها هو الحيلولة دون إطلاع النصارى على مبادئ الإسلام. ومن تلك الشبهات أيضا ما وجدته فى تاريخ الكنيسة لابن العبرى حيث يرد حوارٌ بين الأسقف حنانيشوع (فـى القـرن الثامن) مع الخليفة عبد الملك بن مروان. وورد فى النص السريانى أن الخليفةُ يسأل

الأسقفَ عن رأيه في الإسلام كما يلي " (الخليفة): كيف ترى دين العرب (الإسلام)؟ ويجيب الأسقف الخليفة كالتالي: "هذه المملكة التي قامت بواسطة السيف وليس على أساس من الإيمان أو المعجزات الإلهية كما حدث مع المسيح أو في عهد موسى (عليهما السلام)".[٣٨]

وربما ما يؤكد تحامل المؤرخين السُريان على الإسلام أنهم اعتبروه ديناً قد انتشر بين العرب وحدهم وكأنه دين خاص بهم ولذا فهم يسمونه "دين العرب". وأرى أن ظهور الإسلام وانتشاره سريعا في بلدان الشرق الأدنى والأوسط قد دفع بعض النصارى وأتباع الملل الأخرى إلى معارضة الإسلام لأنهم لمسوا فيه خطراً كبيراً على أتباعهم وخطراً يهدد سلطتهم الروحية أيضاً. ويذكر دكتور محمد حمدي البكري عن ظهور الإسلام بين أهل الديانات الأخرى " كان ظهور الإسلام وانتشار الدعوة بين أصحاب الديانات المنتشرة في الجزيرة في ذلك الحين باعثا على قيام الجدل والحوار بين أصحاب هذه الديانات وبين المسلمين ".[٣٩] وربما كانت تلك الشائعات إحدى وسائل الكتّاب السُريان والتي أرى أنهم أشاعوها في كتاباتهم السُريانية خاصة من أجل الدفاع عن المسيحية. وقد عثرتُ على إشارات كثيرة في سياق المناظرات الدينية بين السريان والمسلمين، وقد فهمتُ من تلك الإشارات أن آباء الكنيسة السريانية اعتقدوا أن الرسول (صلى الله عليه وسلم) هو صديقٌ قد أتبع سُنة الأنبياء فقط، ففي المناظرة المنسوبة للبطريرك طيموثاوس الأول (٧٨٠-٨٢٣ ميلادية) مع الخليفة عبد الله محمد المُلقب بالخليفة المهدى (٧٧٥-٧٨٥ ميلادية) ورد الحوار التالي: " (يسأل الخليفة المهدى قائلا): ماذا تقول عن محمد (صلى الله عليه و)؟ (ويجيب البطريرك طيموثاوس قائلا): محمدٌ جدير بكل مدح ومجد فقد اتبع سُنة الأنبياء، ودعا إلى عبادة الله الواحد. وفعل مثل الأنبياء إذ نهى الناس عن السيئات وقربهم إلى الطيبات، ودعا بني قومه إلى البر. ونهاهم عن السجود للشياطين وعبادة الأصنام، وعلمهم التوحيد والسجود لله الواحد. ولذلك فقد سار محمد (صلى الله عليه وسلم) في طريق الأنبياء وعرّف قومه الله وكلمته وروحه، فلماذا لا نمدحه وهو لم يدع إلى الله بالكلمة فقط بل جاهد في سبيل الله

بالسيف أيضاً كما فعل النبى موسى فى بنى إسرائيل عندما وجدهم يعبدون العجل الذهبى".[٤٠]

٣. الشريعة الإسلامية :

أحاول فيما يلى رصد إشارات الكتاب السُريان ومؤرخيهم إلى الشريعة الإسلامية وللمسائل الشرعية الجديدة التى أتى بها الإسلام وكيف عبروا عنها. وأبدأ باقتباس الفقرات التالية من تاريخ سنة ٨١٩ عن الرسول (صلى الله عليه وسلم) والخلفاء الراشدين "وفى سنة ٩٣٢ مَلَكَ محمد (صلى الله عليه وسلم) الملك الأول على العرب. وأبتدع الذبح الأول وأطعمهم منه. وما كان من عاداتهم." [٤١] وذكر يوحنا بن فنكايا "أن المسلمين اتخذوا الإسلام عن محمد (صلى الله عليه وسلم) الذى كان لهم هادياً وإماماً، وكان جزاء من يخرج على شِرعتهِ أن يُقتل، وقد توسع المسلمون فى كل البلاد والجزر البعيدة، وقد سبوا منها وعادوا بالغنائم، وطالبوا كل إنسان بدفع الجزية على أن يبقى على دينه بحريةٍ". وذكر يوحنا عن معاملة المسلمين الحسنة للنصارى "ويعامل المسلمون النصارى معاملة حسنة، وهكذا قد أمروا بعاملة رؤساءنا بوقار وهو أمر إلهى". وذكر ديونسيوس التلمحرى "وهذا الشعب (العرب المسلمين) شهوانى مادى، فكل من وضع لهم شرائع قبل محمد (صلى الله عليه وسلم) عن خشية الله وطاعته لم يحتملوه واحتقروه. أما ما ناسب طبائعهم فقد أبقوا عليه وقالوا هذا من قبل النبى ورسول الله. ووضع النبى محمد (صلى الله عليه وسلم) لهم شرائع تناسب طبائعهم فدعوه نبيا ورسولاً ". كما ذكر ديونسيوس عن الجزية وضريبة الخراج فى عهد الأمويين "وفى سنة ١٠٠٣ يونانية (٨٠١ ميلادية) أدخل (الخليفة) عبد الملك بن مروان بعض التعديلات على الإدارة فى سوريا ومنها أن يرجع كل إنسان إلى قريته ومسقط رأسه وأن يتم تسجيل أسماء الأفراد وعائلاتهم وممتلكاتهم. وبدأ العرب فى تحصيل الجزية على الأفراد. ومن ثم بدأت الشرور فى شعبنا المسيحى، فحتى اليوم لم يأخذ ملكاً من الملوك ضريبة الأرض من أحدٍ. وهكذا أخذ بنى هاجر (المسلمون) فى استعباد بنى البشر استعباد المصريين (لموسى وقومه). لكن ويلٌ لنا فبسبب خطايانا استعبدنا العبيد (المسلمون)".[٤١] وذكر ابن العبرى عن الزواج فى الإسلام: "ورغب عن

دعوة محمد (صلى الله عليه وسلم) كثيرون لم يبغوا التمسك بالشهوات والزواج من نساء كثيرة، وأن يترك الرجل زوجته متى شاء ويتخذ زوجة غيرها ". وذكر ابـــن العبرى معلومات أخرى عن عهود الأمان الإسلامية للنصارى وهى كالتالى: "وفى سنة ٩٣٧ يونانية كان ظهور مملكة الطائيين فى يثرب. وظهر محمد (صـــلى الله عليه وسلم) فى هذا الزمن وهو نبى الطائيين (العرب). وكـــان رئـــيس المـــؤمنين النجرانيين يعيش فى الصحراء. فلما توجه إليه وقرب إليه الهدايا وأخذ منه عهـــداً يحفظ العرب بموجبه النصارى من كـــل الأخطـــار فـــلا يتعرضـــون لضـــغط أو يضطرون للقتال معهم، ولا يغيرون عاداتهم وشرائعهم، وأن يعينهم العرب علـــى بناء كنائسهم التى تهدمت. على أن يدفع النصارى الفقراء أربعة دراهم جزية فيمـــا عدا الكهنة، أما التجار والأغنياء فكانت الجزية أثنا عشر درهماً. وإذا عاشت امرأة نصرانية فى بيت عربى (مسلم) فلا يجب اجبارها على ترك دينها أو صـــومها أو صلاتها ".[٤٢]

وترد بعض نصوص عهود الأمان فى تاريخ سعرد كالتالى: " نســـخة عهـــد وسجل من محمد بن عبد الله عليه السلام (صلى الله عليه وسلم) لأهـــل نجـــران وسائر من ينتحل دين النصرانية فى الأرض. " بسم الله الرحمن الرحيم " هذا كتاب أمان من الله ورسوله للذين أوتوا الكتاب من النصارى من كان منهم علـــى ديـــن نجران أو على شئ من نِحل النصرانية. كتبه لهم محمد بن عبـــد الله رســـول الله (صلى الله عليه وسلم) إلى الناس كافة ذمة لهم من الله ورسوله وعهداً عهده إلـــى المسلمين من بعده عليهم أن يعوه ويعرفوه ويؤمنوا به ويحفظوه لهم. ليس لأحد من الولاة، ولا (ينبغى) لذى شيعةٍ من السلطان أوغيره نقضه ولا تعديه إلى غيره ولا حمل مؤونة من المسلمين عليهم سوى الشروط المشروطة فى هذا الكتـــاب. فمـــن حفظه ورعاه ووفى بما فيه فهو على العهد المستقيم والوفاء بذمة رسول الله (صلى الله عليه وسلم)"، وترد بعض بنود نصوص عهد الأمان كالتالى "ليس علـــيهم (أى على النصارى) إجبار ولا إكراه على شئ من ذلك ولا تغيير أسقف عن اسقفيته ولا راهب عن رهبانيته ولا سائح (أى راهب جائل) عن سياحته ولا هدم بيـــت مـــن بيوت بيعهم ولا إدخال شئ من بنائهم فى شئ مـــن أبنيـــة المســـاجد ولا منـــازل المسلمين. فمن فعل ذلك فقد نكث عهد الله وخالف رسوله وحاد عن ذمة الله".[٤٢]

وقد اتضح من الاقتباسات السابقة أن المؤرخين السُريان صوروا الشـــريعة الإسلامية فى صورة مشوهة من أجل تضليل النصـــارى ووضـــع حـــد لـــدخول النصارى فى الإسلام والحفاظ على مكاسب الكنيسة فى مقابـــل ســـماحة الإســـلام وانتشاره السريع بين الأمم الشرقية، ولذلك اتخذ أؤلئك المؤرخون من قصة زوجات الرسول (صلى الله عليه وسلم) حجة للنيل من شريعة الإسلام والتى أجازت زواج المسلم من أربع زوجات فى حالات استثنائية ووفق شروط خاصة. ولم يشر هؤلاء المؤرخون إلى الدوافع الإنسانية من وراء زواج الرسول (صلى الله عليـــه وســـلم) بأكثر من امرأة واحدة. كما حاول المؤرخون السُريان الاعتراض علـــى الجزيـــة الإسلامية ووصفوها وكأنها أحكام جديدة لم يألفوها، بالرغم من أن الجزيـــة فـــى العصر الإسلامى كانت أقل بكثير مما اعتاد الرومان والفرس سلبه مـــن ثـــروات البلدان الشرقية مثل أقاليم مابين النهرين ومصر وغيرها. كما أنها كانت مستوجبة الدفع لأن أهل الذمة أعفوا من أداء الخدمة العسكرية علـــى ســـبيل المثـــال. أمـــا اعتراض بعض المؤرخين مثل ديونسيوس التلمحرى على الجزية المفروضة على الأراضى فهو محض افتراء ينفيه حقيقة أن نظام تحصيل الجزية ومقـــدارها كـــان نظاما سمحاً عادلا لم يألفه أهل الذمة من الروم البزنطيين على سبيل المثـــال.(٤٤) وبالرغم من سماحة الإسلام والتى تتضح من خلال عهود الأمان التى تحفظ أمـــن أهل الذمة، إلا أننى عرفتُ أن آباء الكنيسة قد شرعوا العديد من القوانين التى تُحّرم الاتصال بين النصارى وبين المسلمين ونذكر منها "تحريم الأكل من لحوم أضحية المسلمين فى سنة ٩٩٥ ميلادية، كما شرّع السُريان تُحّريم زواج النصرانيات مـــن المسلمين".(٤٥)

٤. الفتوح الإسلامية وانتشار الإسلام :

وردت الاشارات التالية عن بداية عصر الفتوح الإسلامية فى التاريخ الصغير لسنة ٦٧٠ "عندما اخضع العرب بلاد الفرس والروم كلها لسيطرتهم، تقدموا حتـــى بلغوا أرض الهوزيين فسقطت المدن المحصنة الواحدة تلو الأخرى فى بيت لابـــاط وكرخ ليدان (خوزستان) وبقية المدن، وفى سنة ٨٦٧ يونانية تقدم أحد قادة العرب إلى هرمزدان المادى وكان اسم القائد العربى أبو موسى الأشعرى وهو الذى شـــيد البصرة لسكنى العرب فى الموضع الذى يصب نهر دجلة فى البحر الكبير (الخليج

العربى). كما بنى سعد بن وقاص مدينة عاقولا (الكوفة)، وبعد فترة من الزمن خرج من صفوف العرب رجل اسمه خالد (بن الوليد) فرحل إلى الجهات الغربية فاحتل الأمصار وفتح البلدان. فلما بلغت هذه الأنباء مسامع هرقل ملك الروم أعد جيشا عرمرما بقيادة القائد ثيودوروس تريثوريوس فدحرهم العرب وقضوا على أكثر من مائة ألف محارب من الروم. إن انتصار بنى إسماعيل هو من الله فى الحقيقة. وقد انتصروا وأخضعوا المملكتين القويتان (الفرس والروم)، أما القسطنطينية فإن الله لم يسمح لهم بفتحها إلى الآن، والنصر دائما لله ".(٤٦) وورد عن الفتوح الإسلامية وانتشار الإسلام فى الشرق فى كتاب الخلفاء " فى سنة ٩٤٥ يونانية فى الرابع من شهر شباط (فبراير) فى الساعة التاسعة من يوم الجمعة حدث قتال بين عرب محمد (صلى الله عليه وسلم) وبين الروم فى فلسطين وهرب الروم وقتل العرب قائد الروم هناك وقتلوا أربعة آلاف قروى فى فلسطين من اليهود والمسيحيين والسامرة. وفى سنة ٩٤٧ يونانية اجتاح العرب كل سوريا ثم توجهوا إلى بلاد فارس واحتلوها ".(٤٧) وترد أخبار بعض الحروب والفتوح الإسلامية فى تاريخ ديونسيوس التلمحرى كالتالى " فى سنة ٩٤٨ يونانية عبر العرب إلى الجزيرة وانهزم الروم ودخل عياض (بن غنم) إلى الرها. وفى سنة ٩٦٠ يونانية دخل معاوية إلى قبرس، وفى سنة ٩٦٣ يونانية حدثت معركة بين العرب والروم فى طرابلس".(٤٨) وذكر إليا النصيبينى المعارك الحربية التالية " فى سنة ٩٤٠ يونانية أرسل محمد نبى المسلمين (صلى الله عليه وسلم) زيد بن حارثة ومعه جيش كبير إلى الشام ولقيه هرقل ملك الروم وظفر بالعرب. وفى سنة ٩٤٤ فتح خالد بن الوليد اليمامة ووقعت حرب بين العرب والروم فى الشام. وفى سنة ٩٤٥ يونانية انهزم الروم من العرب فى فلسطين. وفى سنة ٩٤٦ يونانية فتح العرب دمشق بعد حصارها ستة أشهر. وفى سنة ٩٤٧ يونانية كانت الموقعة بين العرب والروم فى الموضع المعروف باليرموك وكان الروم مائتى ألف وانهزموا وهرب هرقل ملك الروم من انطاكية. وفى سنة ٩٤٨ يونانية فتح سعد بن أبى وقاص القادسية وقتل رستم الفارسى وفتح المدائن، وفى نفس السنة فتح عمر بن الخطاب بيت المقدس وفُتِحت سروج والرها واختطت مدينتى الكوفة والبصرة. وفى سنة ٩٥٠ يونانية فتح عياض بن غنم الرقة وآمد وتل موزن وفتح عمير بن سعد رأس العين. وفى

سنة ٩٥١ يونانية فتح معاوية بن أبى سفيان مدينة قيسارية وقتل من أهلها نحو مائة ألف انسان، وفتح عياض بن غنم نصيبين وطورعابدين وقردى. وفى سنة ٩٥٢ يونانية فتح عمرو بن العاص الاسكندرية ومصر وأخرج عمر بن الخطاب اليهود من نجران ونقلهم إلى الكوفة. وفى سنة ٩٥٣ يونانية فتح عمرو بن العاص مدينة برقة. وفى سنة ٩٥٤ يونانية فتح أبو موسى الأشعرى بلاد الأهواز وفيها فتحت آذربيجان على يد المغيرة بن شعبة. وفى سنة ٩٥٥ يونانية فتح أبو موسى الأشعرى وعثمان بن العاص مدينة اصطخر وفى نفس السنة فُتحت همدان وأصبهان والري. وفى سنة ٩٥٨ يونانية فتح عثمان بن أبى العاص مدينة سابور. وفى سنة ٩٥٩ يونانية دخل عبد الله بن سعد إلى أفريقيا وقطع أهل البلد على نفوسهم أن يحملون إليه ألفى دينار. وفى سنة ٩٥٩ فُتحت فارس على يدى هشام بن عامر وفيها دخل معاوية إلى قبرس. وفى سنة ٩٦١ يونانية فتح سعيد بن العاص طبرستان وفتح عبد الله بن عامر أكثر بلاد فارس. وفى سنة ٩٦٢ يونانية فتح حبيب بن مسلمة أرمينية. وفى سنة ٩٦٣ يونانية فتح أحنف بن قيس هراة ومرو، وفتح عبدالله بن حازم سَرخَس. وفى سنة ٩٦٤ يونانية فتح معاوية بن أبى سفيان أنقرة من بلاد الروم ".[٤٩] وذكر ميخائيل السُريانى عن الفتوح الإسلامية بعد وفاة الرسول (صلى الله عليه وسلم) ما يلى: " أرسل أبو بكر أربعة رؤساء للجيوش إلى فلسطين وفارس وبلاد الروم ومصر. وقد عادوا جميعا مظفرين وقد انتصر العرب على الروم فى فلسطين فى قيسارية وهرب الروم وطاردهم العرب. وفى سنة ٨٤٢ يونانية يونانية دخل العرب إلى الأراضى الفارسية ووصلوا إلى جانب رأس العين وقتلوا كثير من الرهبان. وبعدما حكم أبو بكرعامين مات وخلفه عمر بن الخطاب وأرسل الجيوش العربية واحتلوا بصرى وخربوا مدنا أخرى وأرسل عمر الجيوش إلى فارس وانتصر العرب على الفرس والروم. وفى عهد عمر بن الخطاب اجتاح العرب كل الأراضى السورية حتى نهر الفرات. ودخل الروم والعرب فى حرب فى بصرى فى على جانب نهر اليرموك".[٥٠]

وقد ردد المؤرخون السُريان كثيرا من الإشاعات عن الفتوح الإسلامية. فقد ذكر يوحنا بن فنكايا عن الفتوح الإسلامية " لما رأى الرب أن البر افتقدته الأرض فقد سلط علينا تلك المملكة البربرية وهذا الشعب الذى لا يعرف الرحمة وليس له

عهد، وكان عقاب من يتبجح على شريعة محمد (صلى الله عليه وسلم) أن يقتل. وكانوا يرسلون جواسيسهم فى كل عام إلى الأقاليم البعيدة والجزر، ويسبون من أهلها ومن كل الشعوب تحت السماء، وكانوا يأخذون الجزية من كل إنسان على أن يبقى على دينه، وكان من بين هؤلاء كثير من النصارى، فلما صار الحكم لمعاوية حدث سلام فى العالم لم يحدث مثله من قبل ".(٥١) وذكر ابن العبرى أيضاً إحدى الشائعات التى تشير إلى أن عمر بن الخطاب أمر ببناء المسجد الأقصى على أنقاض هيكل سليمان بقوله " وفى السنة الخامسة عشر للعرب دخل عمر بن الخطاب إلى فلسطين وقابله صفرونيوس أسقف القدس وأخذ منه موثقا وعهدا للنصارى، وأمر ألا يسكن اليهود فى القدس. وأمر ببناء مسجدا للصلاة فى مكان هيكل سليمان".(٥٢)

ويبدو لى أن تفسير ظهور الإسلام وفتوحاته لدى المؤرخين السُريان يعبر عن نفس الأسطورة التى جعلت من نسل إسماعيل عليه السلام سيفا وعقابا إلهيا لآثام المسيحيين، حيث تأسست هذه الأسطورة على الرؤية الصهيونية التى وردت فى كتاب العهد القديم والتى اعتبرت إسماعيل بن إبراهيم نسلا وحشياً هدفه عقاب نسل إسحق بن إبراهيم وكأنه عقاب إلهى، كما أنه ليس بكر إبراهيم عليه السلام وهو لهذا لا يشترك فى إرث أرض الميعاد أو الوعد الإلهى الذى اصطفى بنى إسرائيل على العالمين.(٥٣) ومن ثم أرى أن المصادر السُريانية لا تروى معلومات كافية عند تعرضها للفتوحات الإسلامية، كما لاحظتُ أن الألفاظ التى تتكرر عند ذكر أخبار فتوح المسلمين هى على سبيل المثال كَبشّو، قطلّو، إِشَقلطّو، بزَو، حَابّو، إِحَدّو احتلوا، قتلوا، سيطروا، سلبوا، خربوا، أخذوا. والألفاظ السابقة لا تشير إلى انتشار الإسلام كما كان الحال آنذاك، بل تعبر عن انتشار الإسلام طوعاً بل بالسيف ومن خلال احتلال أراضى الشعوب الأخرى. وقد ظلت تلك الرؤية المسيحية عن الفتوح الإسلامية هى السائدة بين المؤرخين السُريان حتى القرن الثانى عشر الميلادى، فقد ذكر ميخائيل السُريانى نفس الآراء وهو يقول عن بداية الفتوح الإسلامية فى عصر الرسول (صلى الله عليه وسلم) "وقد تحدثنا آنفا عن بداية مملكة العرب وكيف كانت. حيث دخلوا البلاد وسبوها ونهبوها وخطفوا ثرواتها. وقد عين (الرسول (صلى الله عليه وسلم) جواسيس له يتحسسون أخبار الأقاليم".(٥٤)

ويرجع إهمال مصادر التاريخ السُريانية تفاصيل الفتوح الإسلامية الإيجابية إلى ما ذكره جاسم صكبان بقوله " إن مؤلفى هذه المصادر وهم من طبقة رجال الدين النصارى لم يرغبوا فى أن يطلع النصارى على المبادئ الإنسانية التى حملها الفاتحون لئلا يترك النصارى دينهم ويعتنقوا الإسلام. لقد عمل هؤلاء المؤلفون على عزل النصارى عن الإسلام ومبادئه آملين فى اثارتهم ضد المسلمين فى الوقت المناسب وذلك عن طريق المبالغة فى وصف بعض السلبيات التى رافقت عملية الفتح ".[٥٥]

و يظهر الجدول التالى أحداث الفتوح الإسلامية الواردة فى تاريخ إليا النصيبينى عن أحداث التاريخ الإسلامى وقد رتبتها فى جدول يوضح البلد المفتوح والقائد المسلم وتاريخ الفتح.

قائمة الفتوح الإسلامية

البلد	القائد	التاريخ الهجرى والميلادى
بلاد الشام (مؤتة)	زيد بن حارثة	٩٤٠ ي/ ٦٢٩ ميلادية/٨ هجرية
اليمامة	خالد بن الوليد	٩٤٤ ي/ ٦٣٣ ميلادية/١٢هجرية
بلاد الروم (فلسطين)	(عمرو بن العاص)	٩٤٥ ي/ ٦٣٤ ميلادية/١٣هجرية
دمشق	(يزيد بن أبى سفيان)	٩٤٦ ي/ ٦٣٥ ميلادية/١٤هجرية
اليرموك	خالد بن الوليد	٩٤٧ ي/ ٦٣٦ ميلادية/١٥هجرية
القادسية	سعد بن أبى وقاص	٩٤٨ ي/ ٦٣٧ ميلادية/١٦هجرية
بيت المقدس وسروج والرها	عمر بن الخطاب	٩٤٨ ي/ ٦٣٧ ميلادية/١٧هجرية
الرقة راس العين	عياض بن غنم وعمير بن سعيد	٩٥٠ ي/ ٦٣٨ ميلادية/١٨هجرية
قيسارية ونصيبين وطور عابدين	معاوية بن أبى سفيان وعياض بن غنم	٩٥١ ي/ ٦٣٩ ميلادية/١٩هجرية
الاسكندرية ومصر	عمرو بن العاص	٩٥٢ ي/ ٦٤٠ ميلادية/٢٠هجرية
برقة	عمرو بن العاص	٩٥٣ ي/ ٦٤١ ميلادية/٢١هجرية
الاهواز وآذربيجان	أبو موسى الأشعرى والمغيرة بن شعبة	٩٥٤ ي/ ٦٤٢ ميلادية/٢٢هجرية
اصطخر وهمذان واصبهان	عثمان بن العاص وأبو موسى الأشعرى	٩٥٥ ي/ ٦٤٣ ميلادية/٢٣هجرية
همذان والرى	المغيرة بن شعبة	٩٥٦ ي/ ٦٤٤ ميلادية/٢٤هجرية
سابور	عثمان بن أبى العاص	٩٥٨ ي/ ٦٤٧ ميلادية/٢٦هجرية
افريقيا	عبد الله بن سعد	٩٥٩ ي/ ٦٤٨ ميلادية/٢٧هجرية
فارس وقبرس	هشام بن عامر ومعاوية بن أبى سفيان	٩٥٩ ي/ ٦٤٨ ميلادية/٢٨هجرية
طبرستان وفارس	سعيد بن العاص وعبد الله بن عامر	٩٦١ ي/ ٦٤٩ ميلادية/٣٠هجرية
ارمينية	حبيب بن مسلمة	٩٦٢ ي/ ٦٥٠ ميلادية/٣١هجرية
هراة ومرو سرخس	أحنف بن قيس وعبد الله بن حازم	٩٦٣ ي/ ٦٥١ ميلادية/٣٢هجرية
أنقرة	معاوية بن أبى سفيان	٩٦٤ ي/ ٦٥٢ ميلادية/٣٣هجرية

لاحظتُ من المعلومات الواردة فى المصادر السُريانية عن الفتوح الإسلامية أنها معلومات دقيقة، فيما عدا بعض أسماء القادة الذين أغفلتهم تلك المصادر وقد وضعتها فى ترتيبها وسياقها التاريخى بين قوسين. ولم تذكر تلك المصادر بعض أخبار الفتوح ومنها على سبيل المثال قيام أسامة بن زيد بن حارثة بقيادة الجيش الإسلامى لمواجهة الروم فى الشام فى عام ١١ هجرية قبل وفاة الرسول (صلى الله عليه وسلم) وفى بداية خلافة أبى بكر الصديق (١١-١٣ هجرية/ ٦٣٢-٦٣٤ ميلادية)، وفتح نهاوند فى عام ٢١ هجرية. كما أن موقعة اليرموك كانت فى عام ١٤هجرية وليس ١٦ كما ورد فى تاريخ إليا بن النصيبينى.

٥. الخلافة الإسلامية :

اعتبر المؤرخون السُريان ظهور الإسلام عقاباً لهم وللنصارى عامة نتيجة الانقسامات الدينية والتى شهدها تاريخ المسيحية، كما أوضحتُ ذلك سابقاً. ونقتبس فيما يلى كيف رأى هؤلاء المؤرخون نظام الخلافة الإسلامى. ونبدأ بالمؤرخ يوحنا بن فنكايا حيث ذكر عن الخلافة الإسلامية بعد استقرار الفتوح الإسلامية "ولأن الله يجزى بنى هاجر بالعدل أيضا فقد جعل لهم رئيسين من البداية، فتناحر الفريقان منذ بداية ملكهم. فقال أهل الغرب (بنى أمية) إن الرئاسة ينبغى أن تكون لنا ويكون فينا المُلك (الخلافة الإسلامية). وقال أهل الشرق أن الرئاسة لهم. ومنذ ذلك الحين اختصم الفريقان وتقاتلا سويا، وانتصر أهل الغرب فى نهاية المطاف وهم من يسمونهم بنى أمية . وملك منهم شخص يسمى معاوية وتسيد على المملكتين الرومانية والفارسية. وشهد عصره الأمن وترك كل إنسان على عقيدته بحرية."
كما اهتم يوحنا بأخبار الخلاف بين أهل الشام وبين أهل العراق فى خلافة معاوية وقال عن ذلك " فلما انتهت أيام (خلافة) معاوية ومات، ملك من بعده ابنه يزدين (يزيد) لكنه لم يتبع سياسة أبيه بل أحب التعالى واللهو. وسخر الناس فى حب المجون وتوافه الأمور. ولما قبض الله روحه، ظهر رجل من الشرق واسمه الزبير (عبد الله بن الزبير) وزعم أنه ثائر من أجل الله. وقد دخل فى قتال مع أهل الغرب (بنى أمية) لأنهم تجاوزوا شرع الله. ثم أقام فى مكه، ثم نشب القتال هناك وسالت دماء عربية كثيرة. ومنذ ذلك العهد لم تستقم مملكة العرب مرة أخرى. فلما مات الزبير قام ابنه وتسلم الإمارة من بعده. وكان أحد قادة أهل الغرب يدعى عبد

الرحمن بن زايد (عبد الله بن زياد). وكان قائد أهل المشرق يدعى المختار (بن ابى عبيد الثقفى). وتسلم الحكم على أهل الغرب شخص يدعى بن عثمان. وقد نشب الخلاف بينهم وأدعى كل منهما الحق فى الحكم (الخلافة) وانتصر أهل الغرب فى نهاية الأمر".[٥٦] وذكر ديونسيوس التلمحرى عن الخلافة الإسلامية "وفى سنة ٩٦٤ يونانية دخل حبيب إلى الجزيرة، وفى سنة ٩٦٧ يونانية مات عثمان (بن عفان رضى الله عنه) وحدثت فتنة وتبلبلت الأرض واضطرب العرب وسالت دماء عربية كثيرة إذ أراد كل واحد منهم أن يصير إليه الحكم. وأراد قائد الجيش فى الغرب وكان اسمه معاوية (بن أبى سفيان) أن يصير إليه الحكم وفضله أهل الشام وبايعوه. أما فى المشرق والجزيرة فقد خضع العرب لرجل اسمه عباس (على بن أبى طالب رضى الله عنه) ومن ثم بدأت الحروب بين العرب. وفى سنة ٩٦٨ يونانية حدثت معركة بين على وبين معاوية وقتل من الجانبين عدد كبير. وفى سنة ٩٦٨ قتل الأمراء ملكهم على (بن أبى طالب رضى الله عنه) فى يوم الجمعة أثناء الصلاة وهو ساجد يصلى واستولى معاوية على الحكم وحده لمدة ٢١ عاما"، وذكر ديونسيوس أيضاً تتابع الخلفاء المسلمين كما يلى: "محمد (صلى الله عليه وسلم) هو ملك العرب الأول وقد حكم ثمان سنوات، وبدأت به مملكة العرب الذين ندعوهم طائيين، ثم ملك أبوبكر سنتين وثمان شهور".[٥٧]

وذكر كاتب تاريخ سنة ٨١٩ عن الرسول (صلى الله عليه وسلم) والخلفاء الراشدين " فى سنة ٩٣٢ مَلَكَ محمد الملك الأول للعرب. وفى سنة ٩٤٢ مات محمد مَلِك العرب وملك بعده أبوبكر ثلاث سنوات وثلاث شهور".[٥٨] وبدأ إليا بن السنى قائمة ملوك العرب بقوله "يوم الجمعة ١٦ تموز (يوليو) فى سنة ٩٣٣ يونانية (٦٢٢) هاجر محمد بن عبد الله نبى المسلمين (صلى الله عليه وسلم) وأول ملوكهم إلى مدينة يثرب وملكها ".[٥٩]واهتم ميخائيل السُريانى بالحديث عن تتابع الخلفاء المسلمين على إدارة الدولة وذكر التالى "وبعدما مات محمد خلفه أبو بكر، وبعد ثلاثة عشر سنة مات أبو بكر وملك على العرب عمر بن الخطاب من بعده".[٦٠]ويذكر كاتب تاريخ الرُها لسنة ١٢٣٤ عن الرسول (صلى الله عليه وسلم) " فى سنة ٩٤٣ وفى السنة الحادية والعشرين من ملك هرقل مات محمد (صلى الله عليه وسلم) ملك العرب بعد أن أدار المُلك عشر سنين، وأمر قبل موته أن يملك

على العرب أبوبكر".[٦١]وذكر إبن العبرى عن الرسول (صلى الله عليـه وسـلم) "وبعد عشر سنين وشهرين بعدما تنبأ (محمد (صلى الله عليه وسلم) إنتقلت مملكتـه من الواحد إلى الآخر".[٦٢] وقد وردت معلومات كثيرة لدى بن العبرى عن الخلفاء المسلمين وهو يستقيها من ميخائيل السُرياني.

لاحظتُ من العرض السابق أن المؤرخين السُريان يصفون الدولة الإسلامية بأنها "مملكة بنى هاجر" و"مملكة الإسماعيليين" و "مملكة الطـائيين" ولـذلك تبـدو شخصيات الخلفاء المسلمين دائما فى صورة الملوك، وقد ركزوا على تتابع الخلفاء وفسروه بالتتابع على الملك وأظهروا الخلفاء المسلمين فى صورة الحكام المتعطشين للسلطة والحكم. كما اهتم المؤرخون السُريان بأخبار الخلافات بين الشـيعة وبـين الأمويين، وذكروا أكثر الأحداث التى حدثت بينهم. وردد هؤلاء المؤرخون أخباراً كثيرة عن تدخل الخلفاء فى تعيين الأساقفة فى درجاتهم ومناصبهم الجديدة، ونذكر منها الخبر الخاص بتعيين الخليفة المنصور (٧٥٤-٧٧٥ ميلادية) للأسقف سؤرين فى منصب مطران (أى رئيس أساقفة) البصرة. وقد ورد هذا الخبـر فـى كتـاب المجدل كالتالى "وواصل سورين وأهله التضريب عليه (الخلافات) حتـى حبسـه المنصور (٧٥٤-٧٧٥ ميلادية). فلما أُطلق (تحرر) سـأله المؤمنـون أن ينفـذ سورين إلى البصرة لأن مطرانها مات ففعل. ولشدة بغض أهل البصرة له، قبله نفرٌ منهم وكرهه البعض. وتقدم المنصور بحبسه لما تحقـق أمـره".[٦٣] كمـا أشـار المؤرخون إلى علو منزلة السُريان وخاصة الأطباء والمتـرجمين الـذين عملـوا بتكليف من الخلفاء على نقل العلوم اليونانية الطبية والفلسفية إلى العربية، إلا أننـى وجدت خبراً مدسوساً على الخليفة هارون الرشيد (٧٨٦-٨٠٩ ميلادية) والخبر هو فتوى البطريرك طيموثاوس والتى أجازها الفقهاء واعتمد عليها الخليفة فى زواجه والخبر كالتالى "وجرت فى أيام طيماثاوس أمور كثيرة شرحها يطـول. منهـا أن الرشيد لما ندم على اليمين بطلاق زبيدة واجتمع الفقهاء على تزويجها من يستحلها به، وعَرف طيماثاوس صعوبة ذلك على الرشيد أشار بأن تتنصر (المقصود هنـا زبيدة) على يديه فيوجَب عليها القتل وترجع تسلم فتحِل له. وأمضى ذلك الفقهـاء وبهذا حظى عندها وعاونته على سائر أموره وما يحتاج إليه وأعطته آلات الذهب والفضة والديباج".[٦٤]

٦. **الوصف السُرياني المسيحي للمسلمين** :

ترد عدة مسميات وأوصاف للمسلمين في المصادر التاريخية السُريانية وهي "طائيون" و"عرب" ومسلمون"، و"بني هاجر"، وإسماعيليون". فقد ورد اسم المسلمين لدى يوحنا بن فنكايا كالتالي: ܒܢܝ ܗܓܪ " أبناء هاجر"، ܘܛܝܝܐ " طائيون"، ويصف يوحنا المسلمين بقوله "ܡܠܟܘܬܐ ܒܪܒܪܝܬܐ المملكة البربرية.(٦٥) ويرد اسم المسلمين في كتاب التاريخ الصغير لسنة ٦٧٠ كالتالي: ܒܢܝ ܐܝܫܡܥܝܠ بني إسماعيل.(٦٦) وقد شرح ميخائيل السُرياني معنى الأسم "طائيون" كالتالي "يُسمىَ العرب طائيين وإسماعيليين وهاجريين، لأنهم من نسل هاجر وإسماعيل، ويجمع العرب الأسم "عرب" وهي تسمية اشتقت من اقليم "العربية السعيدة" (اليمن) وهو مقر سكناهم، ويقع بين نهر الفرات وحتى اليمن، ومن البحر الأحمر حتى البحر الفارسي"، وقد استخدم ميخائيل السُرياني التعبيرين ܡܠܟܘܬܐ ܕܛܝܝܐ مملكة الطائيين وܡܠܟܘܬܐ ܕܥܪܒܝܐ مملكة العرب، لأنهما مترادفان.(٦٧)

ويرد اسم العرب لدى ابن العبري كالمعتاد ܛܝܝܐ طائيون، وكذلك يستخدم المترادفين ܥܪܒܝܐ العرب و ܛܝܝܐ الطائيون. ويفسر ابن العبري الأسم "طائيين" بقوله ܗܢܘ ܛܝܝܐ ܐܘܟܝܬ ܥܪܒܝܐ والطائيون هم العرب. وهكذا تصبح الكلمتان "العرب" و"الطائيون" مترادفتان أحيانا.(٦٨) ونجد التسمية ܐܝܫܡܥܝܠܝܐ إسماعيليون أو ܒܢܝ ܐܝܫܡܥܝܠ بني إسماعيل، متكررة في المصادر السُريانية عند تحديد هوية المسلمين. ففي كتاب معرفة علة كل العلل وجدنا الفقرة التالية في سياق الحديث عن إيمان شعوب العالم بتوراة موسى عليه السلام ܐܠܗܘܢ ܕܝܢ ܟܠܗܘܢ ܥܡܡܐ ܡܗܝܡܢܐ ܕܩܕܡܝܢ ܘܡܣܗܕܝܢ ܥܠܝܗ. ܟܪ̈ܣܛܝܢܐ ܒܟܠܗܘܢ ܦܠܓܘܬܗܘܢ ܘܐܝܣܪܝܠܝܐ ܐܘܟܝܬ ܝܗܘܕܝܐ ܒܟܠܗܘܢ ܥܡܘܪ̈ܝܗܘܢ ܕܝܠܗܘܢ. ܘܐܝܫܡܥܝܠܝܐ ܐܘܟܝܬ ܡܗܓܪ̈ܝܐ ܒܟܠܗܘܢ ܗܢܐ ܕܐܝܬܝܗܘܢ وهؤلاء هم أجناس الشعوب المؤمنة الذين شهدوا وأقروا بصدق التوراة. المسيحيون بكل انتماءاتهم العقائدية، والإسرائيليين وأعني هنا اليهود بكل فرقهم، والإسماعيليون

وأقصد المهاجرين بكل فرقهم.[٦٩] أما بالنسبة لأسماء الأعلام الإسلامية فقد لاحظتُ أن اسم الرسول (صلى الله عليه وسلم) يكتب فى الغالب بشكل صحيح بما يتفق مع النطق العربى ܡܚܡܕ، إلا أنه كتب أحيانا على نحو خطأ كالتالى ܡܚܡܛ "محمت". وهذا نتيجة لقلقلة حرف الدال إذا وقع ساكنا.[٧٠] والملاحظ أن المؤرخين السُريان قد كتبوا أسماء الأعلام الإسلامية بشكل صحيح، وعلى سبيل المثال وردت أسماء الأعلام التالية فى تاريخ يوحنا بن فنكايا ܒܢܝ ܐܡܝܐ بنو أمية، ܥܒܕ ܐܠܪܚܡܢ عبدالرحمن (بن عوف)، ܙܒܝܪ الزبير (عبد الله بن الزبير)، ܡܥܘܝܐ معاوية (بن أبى سفيان)، ܡܚܬܪ المختار (أبى عبيد الثقفى).[٧١] كما استخدم ابن العبرى بعض الاصطلاحات العربية وكتبها بالسُريانية بشكل صحيح مثل ܡܣܠܡܢܐ المسلمون، ܐܢܨܪ الأنصار. وقد استخدم ابن العبرى الفعل ܐܣܠܡ بمعنى دخل فى الإسلام، ويأتى منه الأسم ܡܫܠܡܢܐ المسلم.[٧٢] أما وصف الرسول (صلى الله عليه وسلم) فقد وجدته متباينا فى المصادر السُريانية، بحيث يأتى أحيانا كالتالى "محمد المعلم أو المرشد" (صلى الله عليه وسلم)، أو"محمد نبى العرب"(صلى الله عليه وسلم)، أو"محمد السلطان الأكبر"(صلى الله عليه وسلم)، و"محمد المدبر والحاكم"(صلى الله عليه وسلم). فقد ورد وَصف الرسول (صلى الله عليه وسلم) فى تاريخ يوحنا بن فنكايا كالتالى ܡܚܡܕ ܡܗܕܝܢܐ " محمد المُعلِم".[٧٣]

ويصف إيشويب الرسولَ (صلى الله عليه وسلم) بقوله: ܫܠܝܛܐ ܪܒܐ السلطان الأكبر، وبقوله ريشُا حاكم، وورد وصف الرسول (صلى الله عليه وسلم) فى تاريخ السنة ٦٧٠ كالتالى ܡܕܒܪܢܐ المدبر أو الحاكم.[٧٤]

ووصف ابن العبرى الرَسولَ (صلى الله عليه وسلم) تارة بقوله ܡܘܚܡܕ ܢܒܝܐ ܕܛܝܝܐ محمد نبى العرب" (صلى الله عليه وسلم)، وتارة يصفه فى سياق الجدل الدينى بقوله ܐܡܪܝܢ ܛܝܝܐ ܕܡܚܡܕ ܢܒܝܐ ܗܘ ܘܫܠܝܚܐ ܕܐܠܗܐ أن العرب تقول أنه نبى ورسول الله. وترد ألقاب الخلفاء كالتالى ܡܠܟܐ ܕܛܝܝܐ "ملك العرب" وܚܠܝܦܗ "خليفـه" وܐܡܝܪܐ "أميـر". ويستخدم ابن العبرى اللقب ܐܡܝܪܐ "أمير" أو ܚܠܝܦܗ "خليفه" عند الحديث عن الخلفاء.

فعندما يتناول أحداث عصر الخليفة المأمون (٨١٣-٨٣٣ ميلادية) يقـول "ܘܒܫܢܬ ܐܩܠܘ ܕܝܘܢܝܐ ܟܕ ܐܙܠ ܥܒܕ ܐܠܠܗ ܠܘܬ ܡܨܪܝܢ. ܡܘܚܡܕ ܐܡܝܢ ܐܚܘܗܝ ܣܬܪ ܟܠ ܒܢܝܢܐ ܚܕ̈ܬܐ ܕܐܫܟܚ ܒܥܕܬܐ ܕܐܘܪܗܝ" "وفى سنة ١١٣٦ يونانية (٩٢٤ ميلادية) عندما توجه الأميـر عبد الله (المأمون) إلى مصر، خرّب أخوه محمد الأمين المبانى الجديدة التى وجدها فى كنيسة الرها "، ثم يقـول ܘܟܕ ܐܬܦܠܓܬ ܥܕܬܐ ܕܒܓܕܕ ܠܬܪܝܢ ܦܠܓܘ̈ܬܐ. ܘܫܡܥ ܡܗܝܡܢܐ ܠܡܠܟܘܬܗ "وعندما انشقت كنيسة بغداد إلى قسمين وبلغ الأمر مسـامع الخليفه".[٧٥] وتعتبر اللفظتان ܡܠܟܐ "ملك" ܘܐܡܝܪܐ ܕܡܗܝܡܢܐ "أميـر المـؤمنين"، مـن الأوصاف الشائعة لدى السُريان عند الحديث عن الخلفاء الراشدين والعباسيين. فقد ورد عنوان مناظرة الجاثليق طيموثاوس والخليفه المهدى كالتالى ܒܪ ܐܠܗܐ ܡܥܕܪܢܢ ܕܪܫܐ ܕܗܘܐ ܠܗ ܠܡܪܝ ܛܝܡܬܐܘܣ ܩܬܘܠܝܩܐ ܕܥܡ ܡܗܕܝ ܐܡܝܪܐ ܕܡܗܝܡܢܐ ܒܥܘܩܒܐ ܕܡܫܐܠܬܐ ܘܦܘܢܝ ܦܬܓܡܐ " نبدأ بعون الله نكتب الجدال الذى دار بين الجاثليق طيموثاوس مع المهدى أمير المؤمنين فى شكل السؤال والجواب". ويستخدم طيموثاوس لقب "الملك" أيضاً فى حديثه عن الخليفه المهدى، حيث يبدأ فى سرد وقائع المناظرة كالتالى ܡܫܘܕܥܝܢ ܠܚܘܒܟܘܢ ܕܡܛܠ ܐܠܗܐ ܥܠܝܢ ܕܝܢ ܩܕܡ ܝܘܡܬܐ ܩܠܝܠܐ ܠܘܬ ܡܠܟܐ ܙܟܝܐ. ܘܒܪܟܢ ܠܐܠܗܐ ܘܠܡܠܟܘܬܗ ܐܝܟ ܥܝܕܐ ܕܝܠܢ " نعلمك الآن يا محـب الله أننا قد دخلنا قبل أيام أمام الملك المظفر وقدسنا الله والملك كعادتنا ".[٧٦]

والملاحظ أن وصف المسلمين يأتى فى إطار اطلاق تسمية "طائيون" عليهم، وهو تحديد لنسبهم وانتمائهم إلى قبيلة طئ فى بادية الشام. وقد كانت تلك التسـمية شائعة عن العرب قبل الإسلام. وتعتبر التسمية "طائيون" فى المصـادر السُـريانية تقليداً أتبعه المؤرخون السُريان عند وصف العرب قبل الإسلام. فـالمؤرخ يوحنـا الأسيوى يتحدث عنهم ويصفهم هكذا "ܛܝܝ̈ܐ ܕܦܪ̈ܣܝܐ عـرب الفـرس أى اللخميـين المناذرة. وترد أوصاف الأمراء من بنى غسان عند المؤرخين السُريان المنوفيزيين كالتالى ܡܠܟܐ ܡܗܝܡܢܐ "الملك المؤمن" أو الملك المسـيحى أو ܡܠܟܐ ܟܪܝܣܛܝܢܐ ܡܠܟܐ ܙܟܝܐ "الملك المظفر"، وكذلك وصف الأمراء الغساسنة ببعض الأوصاف العسـكرية

مثل قطريقوّس " البطريق" وهو رئيس الجيش، لأنهم كانوا على مـذهب الطبيعـة الواحدة والمسمى بالمذهب اليعقوبى، وكانوا عمالاً للرومان يحمون حـدودهم مـن هجمات الفرس والعرب التابعين لهم وهم المناذرة.(٧٧) وهذا يعنى أن اللقب ܡܠܟܐ "ملك" والذى أطلقه المؤرخون السُريان على الغساسنة كـان بمعنـى "الأميـر" أو "الحاكم".(٧٨) وهنا يمكن القول أن استخدام الوصف "ملك" على الخلفاء المسلمين هو بمثابة المحافظة على تقاليد الكتابة التاريخية عند المؤرخين السُريان قبل الإسلام، أى أنهم صوروا الخلافة والدولة الإسلامية للقارئ السُريانى فـى صـورة الحكـم الملكى؛ والذى اعتاده السُريان لأنهم عاشوا فى كنف مملكتـى الـروم البيزنطيـة والفرس الساسانية. وربما وصف المؤرخون السُريان الرسولَ (صـلى الله عليـه وسلم) والخلفاء الراشدين والتابعين من أمراء المؤمنين، بالوصف "ملك" لأنهم لـم يعترفوا بصحة الإسلام أو شرعية الحكم الإسلامى فى أوطانهم فى الشـام وبـلاد النهرين(٧٩)

أما استعمال التسمية "بنى إسماعيل" عند الحديث عن المسلمين فهى تسـمية مألوفة فى العهد القديم والذى رسم صورة مشوهه عن إسماعيل بن ابراهيم عليـه السلام، وأصبح نسله بمثابة اللصوص واللعنات التى يصيب بها الرب من يعصاه. ونتيجة لتلك الصورة المشوهة عن المسلمين وصفهم يوحنا بـن فنكايـا وغيـره بالوصف "البرابرة"، وهى لفظة تعنى الأجانب والذين وصـفوا بالهمجيـة، وقـد استعملها المؤرخون اليونان عند حديثهم عن الشعوب التى كانـت تهـاجم حـدود الإمبراطورية البيزنطية فى القرنين الرابع والسادس الميلاديين.(٨٠)

نتائج الدراسة :

ندرك من قراءة وتحليل مصادر التاريخ السُريانية وتأريخها لظهور الإسلام وانتشاره، أن تلك المصادر تمثل أهمية كبيرة عند التأريخ للتاريخ الإسلامى. وقد كان المؤرخون السُريان معاصرين فى للأحداث التى يؤرخونها، كما اتبعوا أسلوب النقل عن المصادر السابقة عليهم، وغالباً تأتى الأخبار فى رواية واحدة. ويغلب على أسلوب المؤرخين السريان الطابع الدينى خاصة وأنهم كانوا من آباء الكنيسة وقادة مجتمعاتهم الروحية. وقد اهتم أولئك المؤرخون بالتاريخ للإسلام واستطعت من خلال دراسة مصادرهم التاريخية استنتاج النقاط التالية :

١- رأى المؤرخون السُريان فى ظهور الإسلام عقاباً إلهياً لهم وللروم والفرس نتيجة حالة الفوضى وعدم الاستقرار التى نتجت عن سياسات التوسع والصراعات البيزنطية-الفارسية؛ وربما بسبب اضطهاد الروم والفرس لأتباع الكنيسة السُريانية التى خالفت كنائس الدولتين أيضاً.

٢- تظهر معارضة المؤرخين السُريان للإسلام بوصفه خاتمة الرسالات السماوية وشريعة إنسانية سمحة، من خلال حرص أولئك الكتّاب على الإشارة إلى أن مظاهر كونية وطبيعية قد حدثت وكانت نذير سوءٍ بالنسبة للنصارى، وهو ما قد يوحى بأن الإسلام هو فى حقيقته عقابٌ سماوياً للنصارى.

٣- اعتمد المؤرخون السريان على رؤى كتابى العهد القديم والجديد عندما ربطوا بين ظهور الإسلام وبين العقاب الإلهى للنصارى، استناداً على الأسطورة الواردة فى العهد القديم والتى تفسر ميلاد إسماعيل عليه السلام بأنه عقاب وشدة ستحل بالعالم. وربما لعبت تلك الأسطورة دوراً كبيراً فى تشكيل النظرة العنصرية التى اتسم بها المؤرخون السُريان فى تأريخهم للتاريخ العربى الإسلامى.

٤- ربما تمثل رؤى المؤرخين السُريان المصدر الوحيد الذى أُتيح للسُريان النصارى وغيرهم عند الاطلاع على مبادئ الإسلام وشريعته الغراء. وقد اتبع هؤلاء المؤرخون أسلوب تشويه الشريعة الإسلامية عندما زعموا أن

الإسلام يأمر المسلمين بالزواج من عدة نساء ويسمح للرجال بتطليق النساء في أي وقت وبدون أسباب وهو ما يخالف الشرع الإسلامي.

٥- تبدو عنصرية المؤرخين السُريان من خلال الشبهات التي أشاعها بعضهم وخاصة ابن العبري، ونشير هنا إلى إشاعة زواج الرسول (صلى الله عليه وسلم) من السيدة من عدة نساء بدون الاهتمام بتفاصيل الأسباب الإنسانية التي رأى فيها الرسول الكريم (صلى الله عليه وسلم) مصلحة الضعيفات من النساء.

٦- تظهر عنصرية المؤرخين السريان بشكل جلي من خلال تصويرهم لفريضة الحج الإسلامية باعتبارها عادة دينية ألفها العرب منذ عصر ابراهيم عليه السلام، وهنا قد يفهم القارئ السُرياني أن فريضة الحج وهي ركن من أركان الإسلام ليست سوى إتباع العادات والتقاليد الموروثة عن العصر الجاهلي قبل الإسلام حيث عبد المشركون الله والأصنام الأخرى واعتبروها آلهة أيضاً، وهو ما قد يمثل في رأينا مرحلة العبادات السامية القديمة والتي بزغ نور الإسلام ليغيرها ويشرع للعالم شريعة سمحة تدعو إلى التوحيد وتنزه البارئ سبحانه وتعالى عن الشرك.

٧- أشاع المؤرخون السُريان أن الإسلام بدعة محرفة عن اليهودية والمسيحية، وحاولوا ترسيخ هذا الاعتقاد في نفوس النصارى من خلال الشائعات التي رددوها عن تأثير اليهود والراهب بحيرا في دعوة الرسول (صلى الله عليه وسلم) إلى التوحيد.

٨- تتجلى أساليب المؤرخين السُريان من أجل تشوية الشريعة الإسلامية وإشاعة الشبهات عن الإسلام، من خلال تصوير الإسلام ديناً خاصاً بالعرب وحدهم وإهمال الحديث عن الرسالة العالمية للإسلام. وأرى هنا أن هذا الإهمال مقصودٌ وليس سهواً لأن السُريان في العصر الإسلامي خاصة كانوا على معرفة تسمح لهم بالإطلاع على الشريعة الإسلامية السمحة التي تدعو إلى توحيد أهل الديانات السابقة في جماعة التوحيد وإسلام الوجه لله الواحد الأحد.

٩- رأى المؤرخون السُريان فى الدولة الإسلامية نظاماً ملكياً ألِفوه فى كنف الروم والفرس، وحاول بعضهم إشاعة الشبهات عن نظام الجزية والخراج الإسلامى بالرغم من أنه كان نظاماً إنسانياً راعى الخلفاء المسلمين فيه اعفاء الضعفاء والمساكين ورجال الدين من أهل الذمة من دفع الجزية أو الالتزام بخدمة الدولة التى يعيشون فى كنفها، وزعم البعض من المؤرخين السُريان وخاصة المؤرخ ديونسيوس التلمحرى أن السُريان لم يألفوا نظام الخراج والجزية من قبل.

١٠- أشير ختاماً إلى أن الإنصاف يقتضى منا الإشارة إلى ترحيب النصارى السُريان، وغيرهم، فى بادئ الأمر بظهور الإسلام باعتباره بديلاً لمناخ الاضطهاد الذى عانوا منه فى ظل الروم والفرس، إلا أنهم وبعد إدراكهم للرسالة العالمية للإسلام والتى تؤسس للرحمة بين البشر دون تفريق بين جنس وآخر أو دين وآخر، قد اتخذوا منه موقف الرفض وتفسيره تارة بالبدعة المحرفة عن المسيحية واليهودية أو وصفوه فى أحسن الأحوال ديناً للعرب وحدهم.

الهوامش :

١- انظر تاريخ يعقوب الرهاوى وقد طبعه أولا بروكس: E. W. Brooks, The Chronological Canon of James of Edessa, ZDMG, Bd. LIII (1899), PP. 261-327. وانظر الترجمة العربية: دكتور يوسف حبى، تواريخ سُريانية من القرون ٧-٩، مطبوعات مجمع العلمى العراقى-الهيئة السُريانية، بغداد ١٩٨٢، ص ٤٧-٢٠٣

٢- انظر لاند: J. P. N. Land, Anecdota Syriaca, Vol: I, pp. 1-24, Leiden 1982

٣- انظر: E. W. Brooks, Chronica Minora, III, CSCO 6/6, Louvain 1960, pp. 265-375

وقد طبعه ونقله إلى العربية دكتور يوسف حبى، فى كتابه "تواريخ سريانية"، ص ٥-٤٧

٤- انظر: النص السُريانى فى سلسلة "تراث الكتابات المسيحية الشرقية": E. W. Brooks, Chronica Minora, III, CSCO, 6/6, pp. 183-196، وقد نقله يوسف حبى إلى العربية فى كتابه "تواريخ سريانية" ص ٥-٢٥

٥- انظر طبعة النص السُريانى: E. Barsaum, CSCO, vol: 36, Louvain 1953, pp. 3-22

٦- انظر طبعة القسم الرابع من تاريخ ديونسيوس التلمحرى: M. J. B. Chabot, Bibliotheque de L'ecole des Hautes E'tudes, Paris 1895، ديونسيوس التلمحرى ومخطوطته كتاب الأزمنة (رسالة دكتوراه غير منشوره) اعداد: شادية توفيق حافظ، كلية الآداب-جامعة القاهرة ١٩٨٢، الصفحات ٧٣-٣٧٨، ونهتم بالقسم الرابع من هذا التاريخ وهو عن الإسلام.

٧- انظر طبعة شابو: J. B. Chabot, Chronique de Michel le Syrien; Patriarche Jacobite d'antioche, 4 vols, Paris 1899-1924، وانظر دكتورة زاكية محمد رشدى: عن ترجمة الأجزاء الخاصة بالتاريخ الإسلامى والعصرين الأموى والعباسى من تاريخ ميخائيل الكبير: ميخائيل السريانى

الكبير وتاريخه لعصر صدر الإسلام والعصر الأموى (رسالة دكتوراه غير منشورة)، جامعة القاهرة ١٩٦١، ودكتورة زاكية محمد رشدى، الخلفاء العباسيون والحروب الصليبية من مخطوطة ميخائيل السريانى الكبير، القاهرة ١٩٧٢

٨- انظر طبعة شابو: J. B. Chabot, Chronicon ad annum Christi 1234, CSCO. (text syr) vol 81, Louvain 1953

٩- الكلمة ܡܠܦܢܐ malphana تعنى " المُعلِم "، وهو لقب ناله بعض مشاهير الأدباء السُريان، انظر: إفرام الأول برصوم، اللؤلؤ المنثور فى تاريخ العلوم والآداب السُريانية، الطبعة الرابعة، مطبعة ابن العبرى هولندا، ١٩٨٧، ص ٥٠٢، وانظر القاموس السُريانى لباينى سميث بعنوان "القاموس السُريانى المختصر" J. P. Smith, A Compendiuos Syriac Distionary, p. 278

١٠- انظر طبعة التاريخ المدنى والكنسى فى سنة ١٧٨٩ ثم طبعة التاريخ المدنى بعنوان "تاريخ الأزمنة" ثم طبعة التاريخ الكنسى بعنوان "تاريخ الكنيسة" : Paulus Iacobus Bruns: Gregorii Bar Hebraei, Chronicon Syriacum. Leipzig 1789, E. A. W. Budge: The Chronography of Gregory Abu'l Faraj Bar Hebraeus, Oxford 1932, Johannes Baptista Abbeloos & Thomas Josephus Lamy: Gregorii Bar Hebraei; Chronicon Ecclesiasticum, tome I-III, Paris 1872-1877، انظر الترجمة العربية الكاملة للتاريخ الزمنى والمعروف أحيانا باسم "التاريخ السُريانى" قام باعدادها إسحق أرملة وطبعها فى مجلة المشرق البيروتية فى المجلدات ٤٣-٥٠ فى السنوات ١٩٤٩-١٩٥٦، وطبعت الترجمة العربية لإسحق أرملة مرة أخرى فى بيروت فى سنة ١٩٨٧، وانظر الترجمة العربية للتاريخ الزمنى: مخطوطة كتاب الأزمنة لابن العبرى (رسالة ماجستير غير منشورة) اعداد: شادية توفيق حافظ، جامعة القاهرة ١٩٧٨، ص ٧٦-٣٣٣. انظر: زكا عيواص، ابن العبرى (١٢٢٦-١٢٨٦ م)، مجلة المجمع العلمى العراقى، هيئة اللغة السُريانية، المجلد الخامس، بغداد ١٩٧٩-١٩٨٠، ص ٣١، ألبير أبونا، تاريخ

الكنيسة السُريانية الشرقية؛ من مجئ الإسلام حتى نهاية العصر العباسى، الجزء الثانى، بيروت ١٩٨٦، ص ٢٨٢

١١- انظر طبعة دوفال لرسائل إيشويب: Jean Chabot, Iso yahb Patriarchae III; Liber Epistularum, CSCO, II, Louvain 1904

١٢- انظر طبعة النص والترجمة العربية: دكتور بطرس حداد، التاريخ الصغير للقرن السابع الميلادى، مطبوعات مجمع اللغة السُريانية، بغداد ١٩٧٦

١٣- انظر طبعة النص السُريانى للأجزاء الستة الأخيرة : A. Mingana, Sources Syriaques, Livres 10-15, Leipzig 1908, pp. 2-171

١٤- انظر النص السُريانى والترجمة العربية: يوسف حبى، تاريخ إليا بر شينايا، مطبوعات المجمع السُريانى، بغداد ١٩٧٥. وقد عُرِفَ إليا النصيبينى بإليا بن السنى نسبة إلى مدينة السن الواقعة على الضفة اليسرى لنهر دجلة، انظر تاريخ إليا بن السنى، ص٤

١٥- المطران هو الأسقف الذى يرأس كنيسة المدينة العاصمة، ويصبح بذلك رئيسا على الأساقفة فى المدن الصغيرة المجاورة أو التابعة للعاصمة، انظر: إفرام الأول برصوم، اللؤلؤ المنثور فى تاريخ العلوم والآداب السُريانية، الطبعة الرابعة، مطبعة ابن العبرى هولندا، ١٩٨٧، ص ٥٠٢

١٦- سعرد أو سعرت مدينة بجنوب شرق بحيرة وان جنوب مدينة خلاط وبدليس، انظر طبعة النص السُريانى: A. Scher, Chronique de Seert, Patrologia Orientalis, vol: IV, Paris 1907-1914 وهذا التاريخ مكتوب بالعربية.

١٧- انظر هنريكوس جسمندى، أخبار فطاركة كرسى المشرق، من كتاب المجدل لمارى بن سليمان، روما ١٨٩٩، أما كتاب المجدل الآخر فقد طبع بعنوان: أخبار فطاركة كرسى المشرق، من كتاب المجدل لعمرو بن متى رحمه الله آمين، روما ١٨٩٦

١٨- جاسم صكبان على، التاريخ العربى والإسلامى من خلال المصادر السُريانية العراقية، مجلة عالم الفكر عدد ٣، الكويت ١٩٨٤، ص ٦٢ وما بعدها، رشا

حمود الصباح، الإسلام والمسيحية فى العصور الوسطى، مجلة عـالم الفكـر، مجلد ١٥، عدد ٣، الكويت ١٩٨٤، ص ٧٥-٨٢

١٩- انظـر: J. B. Chabot, Iso Yahb, p. 97, 202, 226, S. Brock, Syriac Views of Emergent Islam, London 1982, pp. 14-16

٢٠- انظر: بطرس حداد، التاريخ الصغير، ص ٣٨

٢١- انظر: A. Mingana, Sources Syriaques, p. 141, 142

٢٢- انظر: هنريكوس جسمندى، أخبار فطاركة كرسى المشرق، من كتاب المجدل لمارى بن سليمان، روما ١٨٩٩، ص ٦١ ومابعدها

٢٣- انظر: E. A. W. Budge: The Chronography of Gregory Abu'l Faraj Bar Hebraeus, Oxford 1932, p. 35ff

٢٤- انظـر: E. Budge, The Book of the Bee, Oxford, syr. ext, p. 140ff

٢٥- انظر: بيرل سمالى، المؤرخون فى العصور الوسطى، ترجمة: دكتور قاسم عبده قاسم، دار المعارف، الطبعة الثانية ١٩٨٤، ص ١٨ وما بعدها

٢٦- انظر: حنا فييه، الفكر التاريخى عند السُريان، ترجمة: حسنى زينة، مجلة الفكر العربى، العدد ٥٨ بيروت ١٩٨٩، ص ٤١ وما بعدها

٢٧- راجع النص السُريانى للقصة، Richard Gottheil: (ed.) A Christian Bahira Legend, Zeitschrift für Assyrologie, bd. XIII, Berlin 1898, pp. 217-219 , S. Griffth: Muhammad and the Monk Bahira: Reflections on a Syriac and Arabic Text from Early Abbaside Times, Oriens Christians, vol: 79, 1995, pp. 147-172, Ignaz Goldziher: Gesammelte Schriften, vol IV; nch Barsisa", pp. 9-Hildesheim 1970, "Die Legende vom M 15, Dominique Sourdel: Un Pamphlet Musulman Anonyme d' Epoque Abbaside contre les Chretiens, Revue des Etudes Islamique, Tome XXXIV, Paris 1966, p. 32، وانظر عن استخدام الاسم إسماعيل وصفا للتحقير من شأن العرب فى المصادر المسيحية

واليهودية: Moritz Steinschneider, Polemische und apologetische Literature in arabischer Sprache; zwischen Muslimen, Christen und Juden, Hildesheim 1966, p. 248ff

٢٨- انظر تاريخ سعرد: A. Scher, PO, vol. 9, p. 280

٢٩- انظر: دكتور يوسف حبى، تواريخ سُريانية، ص ١١٧-١١٨

٣٠- انظر: بطرس حداد، التاريخ الصغير، ص ٥٠

٣١- انظر: A. Mingana, Sources Syriaques, p. 145-147

٣٢. انظر النص السُريانى: M. J. B. Chabot, Bibliotheque , p. 5-6

٣٣- انظر: يوسف حبى، تاريخ إليا بر شينايا، ص ١٢٨

٣٤- انظر: J. B. Chabot, Chronique de Michel , tome II fascicule III, p. 407-408

٣٥- انظر: Bruns: Gregorii Bar Hebraei, p. 102ff

٣٦- انظر: دكتور محمد خليفه حسن، رؤية عربية فى تاريخ الشرق الأدنى وحضارته، القاهرة ١٩٩٥، ص ١٣٧ وما بعدها

٣٧- انظر كتاب منارة الأقداس لابن العبرى، حيث وردت بعض الاصطلاحات الإسلامية مثل " القرآن الكريم " أو " الكتاب "، بصورة صحيحة: Joseph Khoury, Le Candelabre du Sanctuaire de Gregoire Aboulfaradj dit Barhebraeus, Syr. Text, Patrologia Orientalis ,Tome XXXI, Paris 1964, p. 110-116, F. Nau, Deux Trxtes de Bar Hebraeus Sur Mahomet et Le Qoran, Journal Asiatique, tome CCXI, Paris 1927, p. 318ff

٣٨- انظر: Johannes Baptista Abbeloos & Thomas Josephus Lamy: Gregorii Bar Hebraei; Chronicon Ecclesiasticum, tome III, Leipzig 1877, p. 135

٣٩- انظر: دكتور محمد حمدى البكرى، رسالة الهاشمى إلى الكندى ورد الكندى عليها، مجلة كلية الآداب-جامعة القاهرة، مجلد ٩ القاهرة ١٩٤٧، ص ٢٩، جاسم صكبان على، التاريخ العربى والإسلامى ص ٦١

٤٠- انظر النص السُرياني لمناظرة الخليفة المهدى والبطريرك (رئيس الأساقفة والمطارنة) طيموتاوس: A. Mingana: Woodbrooe Studies; Christian Documents in Syriac, Arabic and Garshuni, Fasc. 3 "The Apology of Timothy the Patriarch before the Caliph Mahdi", vol. 2, Cambridge 1928, syr. Text, p. 133-134، دكتور محمد حمدى البكرى، محاورة المهدى مع تيموتاوس، مجلة كلية الآداب جامعة القاهرة، المجلد ١٢، الجزء الثانى، ١٩٥٠، ص ٤١ وما بعدها حيث يقدم إلينا دكتور البكرى فى هذا البحث أسبابا قوية تدعو إلى الشك فى أصالة المناظرة المذكورة بين الخليفة المهدى وبين الأسقف المسيحى، وانظر عن ابن العبرى والرد على الإسلام فى مخطوط رقم ٢١٠ باريس: M. F. Nau: Deux Textes de Bar Hebraeus Sur Mahomet et Le Qoran, Journal Asiatique 211 (1927), Paris, p. 318-321

راجع، يوسف حبى، التواريخ السريانية، مجلة المجمع العلمى العراقى، مجلد ٦، بغداد ١٩٨١-١٩٨٢، ص ٧٩ ، وراجع طبعة النص السريانى E. Barsaum, CSCO, vol: 36, Louvain 1953, pp. 3-22

٤١- انظر: A. Mingana, Sources Syriaques, p. 141, 144-145

٤٢- انظر: التاريخ المدنى والتاريخ الكنسى لابن العبرى Bruns: Gregorii J. Abbeloos: Bar Hebraei, Chronicon Syriacum, p. 102 Chronicon Ecclesiasticum, p. 113-117

٤٣- انظر: A. Scher, Chronique de Seert, p. 601ff

٤٤- انظر عن زوجات الرسول (صلى الله عليه وسلم) والدوافع الإنسانية من وراءها: محمد حسين هيكل، حياة محمد، الطبعة التاسعة، دار النهضة المصرية، ١٩٦٥، ص ٣١٥ وما بعدها. وانظر عن تعدد الزوجات عند اليهود: الكتاب المقدس، سفر التكوين الاصحاح ٢٥: ١، ودكتور محمد خليفة حسن، رؤية عربية فى تاريخ الشرق الأدنى القديم، القاهرة ١٩٩٥، ص ٢٠٥. وانظر عن حقوق وواجبات أهل الذمة فى الإسلام: دكتور على حسنى الخربوطلى، الإسلام وأهل الذمة، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، القاهرة

١٩٦٩، ص ٦٥ وما بعدها. سهيل قاشا، لمحات من تاريخ نصارى العراق، بغداد ١٩٨٢، ص ٤٦ وما بعدها. ولمزيد من الدراسات انظر: دكتورة فاطمة مصطفى عامر، تاريخ أهل الذمة فى مصر الإسلامية من الفتح العربى إلى نهاية العصر الفاطمى، سلسلة تاريخ المصريين، الهيئة المصرية العامة للكتاب،الجزء الأول القاهرة ٢٠٠٠، ص ٢٩٥ ومابعدها

٤٥- انظر: Manscuript No. Mingana.8, fol. 201b-203a, Mingana, A.: Catalogue of The Mingana Collection of Manuscripts, vol ‹Christian Arabic Manuscripts. Cambridge 1963, p. 34-35 وانظر مخطوط ساخاو رقم ٢٠٠ (بمكتبة الدولة ببرلين) الورقات ١٣٣أ-٣٧ب حيث ورد نصاً آخر من نصوص عهود الأمان بالسُريانية وبالعربية. وترد مقدمته كالتالى "هذا الكتاب الأصلى كاتبه معاوية بن أبى سفيان بإملاء المصطفى صلى الله عليه وسلم وعلى آله وأصحابه أجمعين"، وموضوعه بنود عهد الأمان الذى منحه الرسول (صلى الله عليه وسلم) لأهل الكتاب. وانظر أيضاً عن شرائع النصارى فى منع الالتجاء إلى المسلمين أو الاحتماء بهم: هنريكوس جسمندى، أخبار فطاركة كرسى المشرق، ص ١٠٣، جاسم صكبان على، التاريخ العربى والإسلامى من خلال المصادر السُريانية، ٦٧

٤٦- انظر: بطرس حداد، التاريخ الصغير، ص ٩٩، ١٠٢ وما بعدها

٤٧- انظر: J. P. N. Land, Anecdota Syriaca, p. 17ff

٤٨- انظر: J. B. Chabot, Bibliotheque de L'ecole des Hautes, p. 7-9

٤٩- انظر: يوسف حبى، تاريخ إليا بر شينايا، ص ١٢٨-١٣٦

٥٠- انظر: J. B. Chabot, Chronique de Michel , tome II fascicule III, p. 411ff

٥١- انظر: A. Mingana, Sources Syriaques, p. 145

٥٢- انظر: بطرس حداد، التاريخ الصغير، (النص السُريانى) ص ٣٨، Bruns: ‹Gregorii Bar Hebraei, Chronicon Syriacum, 104-105 J. B. Chabot, Chronique de Michel , tome II fascicule III, p. 411

٥٣- انظر كتاب العهد القديم الاصحاح الثانى والعشرون الفقرات ١-١٩ حيث تبدأ قصة الفداء كالتالى "وحدث بعد هذه الأمور أن الله امتحن ابراهيم. فقال له يـــا إبراهيم. فقال ها أنذا. فقال خذ أبنك وحيدك الذى تحبه إسحق واذهب إلى أرض المريا وأصعد هناك محرقة على أحد الجبال الذى أقول لك". والقراءة الأولـــى تظهر كثيرا من التناقض فى هذه القصة المزعومة حيث يتكرر الحديث عـــن إسحق باعتباره أبناً وحيداً لإبراهيم، إلا أننا نجد أن الحديث عن إسماعيل عليه السلام باعتباره أيضاً أبناً لإبراهيم، يستمر طوال ســفر التكــوين كمــا فـــى الاصحاحات ١٦ فى الفقرات ١٥-١٦ على سبيل المثال، وهذا يعنى أن العبارة "أبنك وحيدك" والتى وردت فى قصة الفداء المزعومة السابقة هى تناقض لغوى وقانونى ظاهر، وانظر عن الإدعاءات المسيحية السُريانية ضد الإسلام والتـــى نجدها فى مؤلفات المحدثين منهم ونذكر هنا كتاب تاريخ الكنيسة لألبير أبونـــا، حيث ردد شائعات أسلافه من السُريان وقال عن بداية الدعوة الإسلامية والوحى "وقيل عن ورقة بن نوفل أنه كان قسيساً ورئيس النصارى فى مكه، وقد اهـــتم بالفتى محمد كل الاهتمام. فكان كلاهما فى مدة تزيد على الخمس عشرة سنة"، ويقول ألبير أبونا عن زواج الرسول (صلى الله عليه وسلم) من السيدة خديجـــة بنت خويلد "ولم يفكر محمد فى الزواج من غيرها وهى فى قيد الحيـــاة، علـــى سنة الزواج النصرانى الذى لا ينفصم إلا بموت أحد الزوجين". انظـــر: ألبيـــر أبونا، تاريخ الكنيسة الشرقية من مجئ الإسلام حتى نهاية العصـــر العباســـى، الجزء الثانى، بيروت ١٩٩٣، ص ٤٢ وما بعدها. وانظر عن اعتبار الإســـلام بدعة مسيحية أو دين مزيف فى التصور المسيحى: رشـــا حمـــود الصـــباح، الإسلام والمسيحية فى العصور الوسطى، مجلة عالم الفكـــر، عـــدد ٣، وزارة الأعلام-الكويت ١٩٨٤، ص ٩٩ هامش ٥٣

٥٤- انظر تاريخ ميخائيل الكبير (النص السُـــريانى) Chronicon Syriacum, J. B. Chabot, Chronique de Michel , tome II ،104-105 fascicule III, p. 411

٥٥- انظر: جاسم صكبان على، التاريخ العربى والإسلامى، ص ٦٣، وانظر عن الفتوح الإسلامية دكتور عبد الشافى محمد عبد اللطيف، العالم الإســـلامى فـــى

العصر الأموى (٤١-١٣٢ هجرية/ ٦٦١-٧٥٠ ميلادية) دراسة سياسية، الطبعة الأولى، دار الوفاء للطباعة، ١٩٨٤، ص ٢١٥ وما بعدها، دكتور حسن إبراهيم حسن، تاريخ الإسلام السياسى والدينى والثقافى والاجتماعى، الطبعة التاسعة، مكتبة النهضة المصرية، ١٩٧٩، ص ٢١٥ وما بعدها

٥٦- انظر: A. Mingana, Sources Syriaques, p. 146, 155-156

٥٧- انظر: J. B. Chabot, Bibliotheque de L'ecole des Hautes, p. 7-9

٥٨- انظر: J. P. N. Land, Anecdota Syriaca, p. 17

٥٩- انظر: يوسف حبى، تاريخ إليا بر شينايا، ص ١٢٨

٦٠- انظر: J. B. Chabot, Chronique de Michel, p. 411-414

٦١- انظر: J. B. Chabot, Chronicon ad annum Christi 1234, p. 238ff

٦٢- انظر: Bruns: Gregorii Bar Hebraei, Chronicon Syriacum, p. 102ff

٦٣- انظر: هنريكوس جسمندى، أخبار فطاركة كرسى المشرق، ص ٦٧-٦٨، جاسم صكبان على، التاريخ العربى، ص ٦٦

٦٤- انظر: هنريكوس جسمندى، أخبار فطاركة كرسى المشرق، ص ٧٥

٦٥- انظر: بطرس حداد، التاريخ الصغير، (النص السُريانى) ص ٣٨

٦٦- انظر: J. B. Chabot, Chronique de Michel, p. 405

٦٧- انظر: Bruns: Gregorii Bar Hebraei, Chronicon Syriacum, p. 100ff

٦٨- انظر: Bruns: Gregorii Bar Hebraei, Chronicon Syriacum, p. 100ff

٦٩- انظر كتاب علة كل العلل عن الأوصاف " إسماعيليون"، "مهاجرون"، " آرابيا " أى عرب:

C. Kayser: Das Buch von der Erkenntniss der Wahrheit oder der Ursache aller Ursachen, Leipzig 1889, p. 1126, 157, 263،
وانظر عن استخدام الاسم إسماعيل وصفا للتحقير من شأن العرب فى المصادر المسيحية واليهودية: Moritz Steinschneider, Polemische und apologetische Literature in arabischer Sprache; zwischen Muslimen, Christen und Juden, Hildesheim 1966, p. 248ff

٧٠- انظر: A. Mingana, Sources Syriaques, p. 146، وانظر: J. B. Chabot, Chronique de Michel, tome. II, fasc. III, p. 405، واسم الرسول "محمد" (صلى الله عليه وسلم) مازال ينطق فى تركيا هكذا "ممت" حتى اليوم من قبيل الاحترام وعدم التشبه باسمه عند تسمية المولود الجديد. انظر: آنا مارى شيمل، الإسلام دين الإنسانية، ترجمة صلاح عبد العزيز محجوب، سلسلة دراسات إسلامية–المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، العدد ٦٠، القاهرة ٢٠٠٠، ص ١٣٦

٧١- انظر: A. Mingana, Sources Syriaques, p. 141, 144, 145, Abbeloos & Th. J. Lamy: Gregorii Bar Hebraei; Chronicon Ecclesiasticum, tome III, 115, E. A. W. Budge: The Chronography of Gregory Abu'l Faraj Bar Hebraeus, p. 35

٧٢- انظر: Bruns: Gregorii Bar Hebraei, Chronicon Syriacum, p. 102, Joseph Khoury, Le Candelabre du Sanctuaire, p. 104،
وانظر عن الكلمة أَوْجَـر J. B. Abbeloos & Th. J. Lamy: Gregorii Bar Hebraei; Chronicon Ecclesiasticum, tome III, 115, 171, 289، وانظر عن جذر الفعل أَوْجَرَ بمعنى دخل فى الإسلام: J. P. Smith: A compendiuos Syriac Dictionary, p. 99ff وقد ورد الفعل أَوْجَـر (ahgar) فى صيغة الأمر بمعنى "يدخل فى الإسلام" فى قصة يهبالاها الأسقف الجوال فى العصر المغولى، انظر القصة السُريانية: قَشْعِيثًا دمُرِيْ يَوْبالاوُا فطريَركا وَدربَن أومًا، طبعة بول بيجان Paul Bedjan، باريس

١٨٨٨ ص ٩٢، انظر قاموس بن بهول حيث لا يرد هـذا الفعـل أو إحـدى اشـتقاقاته: R. Duval, Lexicon Syriacum auctore Hassano Bar Bahlule, tomus primus, Paris 1901

٧٣- انظر: A. Mingana, Sources Syriaques, p. 146

٧٤- انظر: بطرس حداد، التاريخ الصـغير، (الـنص السُـرياني) ص ٣٨، S. Brock, Syriac Views of Emergent Islam, 15

٧٥- انظر: Joseph Khoury, Le Candelabre du Sanctuaire, p. 104, Bruns: Gregorii Bar Hebraei, Chronicon Syriacum, p. 120, J. B. Abbeloos & Th. J. Lamy: Gregorii Bar Hebraei; Chronicon Ecclesiasticum, tome I. p. 360ff

٧٦- انظـر: A. Mingana: The Apology of Timothy the Patriarch before the Caliph Mahdi, Woodbrooke Studies; vol. 2, Cambridge 1928, P. 91, S. Brock, Syriac Views of Emergent Islam, 15ff.

٧٧- انظر تاريخ الكنيسة ليوحنا الآسيوى إقلسيسطيقا دقديشا مري يوحنن آفيسقوفا دافسوس مديثةا، ١٧٣-١٧٥، وقد وذكر يوحنا أن المنذر بن الحارث بن جبله (٥٢٨-٥٦٩ ميلادية) عندما زار العاصمة استقبله الإمبراطـور طيبـاريوس بحفاوة بالغة وتوجه ملكا على العرب وهذا لم يحدث من قبل فى تاريخ العرب"، انظر المرجع السابق ص ٢٢٤

٧٨- انظر عن تفسير الأسم طيُيا "طائيون" عند المؤرخين السريان: جواد علـى، **تاريخ العرب** قبل الإسلام، الجزء الأول-القسم السياسـى، بغـداد ١٩٥٠، ص **١٧٥، ١٧٧**، ١٧٨، ١٨٢، وانظر والوصف "الملك المؤمن" عن أمراء غسان: E. W. Brooks, in: CSCO, vol 105-106, Louvain 1935. وانظـر تاريخ الكنيسة ليوحنا الآسيوى ص ١٨٢، ٢١٦، ٣٤١. وانظردكتورة زاكيـة محمد رشدى، الترجمة العربية لمخطوطة يشوع العمودى: تاريخ أيام المحنـة التى حلت بالرها وآمد وجميع مابين النهرين فى أواخر القرن الخامس وأوائـل القرن السادس الميلادى، مجلة الجمعية المصرية للدراسات التاريخية، مجلد ١٩

السنة ١٩٧٢، ص ٢٦٥. نينا فكتورفنا بيغولفسكيا، العرب على حدود بيزنطة وإيران من القرن الرابع إلى القرن السادس الميلادى، ص ٢٢٤ ومابعدها

٧٩- انظر: جاسم صكبان على، التاريخ العربى والإسلامى، ص ٦٧

٨٠- الكلمة بَربرُيًا: البرابرة وتعنى فى السريانية "الغريب" أو الأجنبى، انظر: رسالة بولس الأولى لأهل كورنثوس الاصحاح ١٤: ١١، والرسالة لأهل روما الاصحاح الأول الفقرة ١٤: دَيقِيقًا حَدِهُا دمُرَن يشّوع مشيحًا، طبعة Bible Society in Turky 1986 ص ٢٣٨-٢٣٩، ٢٠٨. وانظر دكتورة زاكية محمد رشدى، الترجمة العربية لمخطوطة يشوع العمودى، ص ٢٣٥

قائمة المصادر والمراجع :

أولا: المصادر السريانية :

١- ܐܟܠܣܝܣܛܝܩܐ ܕܝܘܚܢܢ ܐܦܣܩܘܦܐ ܕܐܦܣܘܣ: طبعه
E. W. Brooks, in: CSCO, vol 105-106, Louvain 1935

٢- ܕܝܬܝܩܐ ܚܕܬܐ ܕܡܪܢ ܝܫܘܥ ܡܫܝܚܐ،(العهد الجديد بالسريانية، طبعة تركيا) Bible Society in Turky 1986

٣- مخطوط ساخاو رقم ٢٠٠ (بمكتبة الدولة ببرلين)

٤- ܐܓܪܬܐ ܕܡܪܝ ܫܡܥܘܢ ܒܝܬ ܐܪܫܡ ܕܥܠ ܣܗܕܐ ܚܡܝܪܝܐ (طبعه بولس بيدجان) باريس ١٨٨٨

٥- ܡܢ ܡܠܬܐ ܩܕܡ ܕܐܦܘܠܘܓܝܐ ܕܥܠ ܕܪܐ ܘܥܠ ܚܫܒܢܐ ܕܫܢܝܐ، (طبعة لاند)،
J. P. N. Land, Anecdota Syriaca, Vol: I, pp. 1-24, Leiden 1982

٦- ܡܟܬܒ ܙܒܢܐ ܕܐܬܐ ܠܡܢܬܐ ܠܥܠ ܠܟܝܢܐ، (طبعة بروكس)،
E. W. Brooks, Chronica Minora, III, CSCO 6/6, Louvain 1960

٧- ܡܟܬܒ ܙܒܢܐ ܕܝܥܩܘܒ ܐܘܪܗܝܐ، (طبعة بروكس)،
E. W. Brooks, The Chronological Canon of James of Edessa, ZDMG, Bd. LIII (1899), PP. 261-327.

٨- ܠܘܬ ܡܢ ܐܡܬܝܐ ܕܡܘܕܥܢܐ ܐܝܟ ܕܥܩܒܬܐ، (طبعة بروكس, E. W. Brooks
Chronica Minora, III, CSCO, 6/6, pp. 183-196

٩- ܡܟܬܒܢܘܬܐ ܕܙܒܢܐ ܠܡܪܝ ܕܝܘܢܢܘܣ ܠ ܬܠܡܚܪܝܐ (طبعه شابو, M. J. B. Chabot
Bibliotheque de L'ecole des Hautes E'tudes, Paris 1895

١٠- ܡܟܬܒ ܙܒܢܐ ܕܥܠ ܫܢܝܐ ܥܠܡܝܐ ܘܥܕܬܢܝܐ ܥܕܡܐ ܠܫܢܬ ܐܠܦ ܠܡܫܝܚܐ (طبعه شابو) J. B. Chabot, Chronicon ad annum Christi 1234,
CSCO. (text syr) vol 81, Louvain 1953

١١- ܟܬܒܐ ܕܐܩܠܝܣܝܣܛܝܩܝ ܕܡܪܝ ܓܪܝܓܘܪܝܘܣ ܡܦܪܝܢܐ ܕܡܕܢܚܐ ܗܘ ܐܒܘ ܐܠܦܪܓ
(طبعه آبلوس ولامى) Abbeloos & Thomas Josephus Lamy:
Ecclesiasticum, tome I-III, Gregorii Bar Hebraei; Chronicon
Paris 1872-1877

١٢- ܬܪܝ ܡܠܐ (طبعه منجانـــا) A. Mingana, Sources Syriaques, Livres
10-15, Leipzig 1908, pp. 2-171

١٣- ܐܣܛܘܪܝܐ ܕܥܕܬܐ ܕܡܪܝ ܙܟܪܝܐ ܐܦܣܩܘܦܐ ܕܡܝܛܝܠܝܢܐ، (طبعه بروكس)
E. W. Brooks, CSCO, Louvain 1952

ثانيا المصادر والمراجع العربية والمعربة :

١- ألبير أبونا: تاريخ الكنيسة السُريانية الشرقية؛ من مجئ الإسلام حتى نهاية العصر العباسى، الجزء الثانى، بيروت ١٩٨٦

٢- إفرام الأول برصوم: اللؤلؤ المنثور فى تاريخ العلوم والأداب السُريانية، الطبعة الرابعة، مطبعة ابن العبرى هولندا، ١٩٨٧

٣- دكتور محمد حمدى البكرى: رسالة الهاشمى إلى الكندى ورد الكندى عليها، مجلة كلية الآداب-جامعة القاهرة، مجلد ٩ القاهرة ١٩٤٧

٤- دكتور محمد حمدى البكرى: محاورة المهدى مع تيموتاوس، مجلة كلية الآداب جامعة القاهرة، المجلد ١٢، الجزء الثانى، ١٩٥٠

٥- نينا فكتورفنا بيغولفسكيا: العرب على حدود بيزنطة وإيران من القرن الرابع إلى القرن السادس الميلادى، ترجمة: صلاح الدين عثمان هاشم، المجلس الوطنى للثقافة والفنون والآداب، الكويت ١٩٨٣

٦- يوسف حبى: تواريخ سُريانية من القرون ٧-٩، مطبوعات مجمع العلمى العراقى-الهيئة السُريانية، بغداد ١٩٨٢

٧- يوسف حبى: تاريخ إليا بر شينايا، مطبوعات المجمع السُريانى، بغداد ١٩٧٥.

٨- دكتورة شادية توفيق حافظ: مخطوطة كتاب الأزمنة لابن العبرى (رسالة ماجستير غير منشورة) جامعة القاهرة ١٩٧٨

٩- دكتورة شادية توفيق حافظ: ديونسيوس التلمحرى ومخطوطته كتاب الأزمنة (رسالة دكتوراه غير منشوره)، كلية الآداب-جامعة القاهرة ١٩٨٢

١٠- آنا مارى شيمل: الإسلام دين الإنسانية، (ترجمة صلاح عبد العزيز محجوب عن الألمانية)، سلسلة دراسات إسلامية-المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، العدد ٦٠، القاهرة ٢٠٠٠

١١- جاسم صكبان على، التاريخ العربى والإسلامى من خلال المصادر السريانية العراقية، مجلة عالم الفكر عدد ٣، الكويت ١٩٨٤

١٢- هنريكوس جسمندى: أخبار فطاركة كرسى المشرق، من كتاب المجدل لمارى بن سليمان، روما ١٨٩٩

١٣- دكتور بطرس حداد: التاريخ الصغير للقرن السابع الميلادى، مطبوعات مجمع اللغة السُريانية، بغداد ١٩٧٦

١٤- حسن إبراهيم حسن: تاريخ الإسلام السياسى والدينى والثقافى والاجتماعى، الطبعة التاسعة، مكتبة النهضة المصرية، ١٩٧٩

١٥- محمد خليفه حسن: رؤية عربية فى تاريخ الشرق الأدنى وحضارته، القاهرة ١٩٩٥

١٦- على حسنى الخربوطلى: الإسلام وأهل الذمة، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، القاهرة ١٩٦٩

١٧- زاكية محمد رشدى: الترجمة العربية لمخطوطة يشوع العمودى: تاريخ أيام المحنة التى حلت بالرها وآمد وجميع مابين النهرين فى أواخر القرن الخامس وأوائل القرن السادس الميلادى، مجلة الجمعية المصرية للدراسات التاريخية، مجلد ١٩ السنة ١٩٧٢

١٨- زاكية محمد رشدى: الخلفاء العباسيون والحروب الصليبية من مخطوطة ميخائيل السريانى الكبير، القاهرة ١٩٧٢

١٩- ميخائيل السريانى: ميخائيل السريانى الكبير وتاريخه لعصر صدر الإسلام والعصر الأموى، رسالة دكتوراه غير منشورة، اعداد: زاكية محمد رشدى، جامعة القاهرة ١٩٦١

٢٠- بيرل سمالى: المؤرخون فى العصور الوسطى، ترجمة: دكتور قاسم عبده قاسم، دار المعارف، الطبعة الثانية ١٩٨٤

٢١- رشا حمود الصباح: الإسلام والمسيحية فى العصور الوسطى، مجلة عالم الفكر، مجلد ١٥، عدد ٣، الكويت ١٩٨٤

٢٢- فاطمة مصطفى عامر: تاريخ أهل الذمة فى مصر الإسلامية من الفتح العربى إلى نهاية العصر الفاطمى، سلسلة تاريخ المصريين، الهيئة المصرية العامة للكتاب،الجزء الأول القاهرة ٢٠٠٠

٢٣- .جواد على: تاريخ العرب قبل الإسلام، الجزء الأول-القسم السياسى، بغداد ١٩٥٠

٢٤- جاسم صكبان على: التاريخ العربى والإسلامى من خلال المصادر السُريانية العراقية، مجلة عالم الفكر عدد ٣، الكويت ١٩٨٤

٢٥- زكا عيواص: ابن العبرى (١٢٢٦-١٢٨٦ م)، مجلة المجمع العلمى العراقى، هيئة اللغة السُريانية، المجلد الخامس، بغداد ١٩٧٩-١٩٨٠

٢٦- حنا فييه: الفكر التاريخى عند السُريان، ترجمة: حسنى زينة، مجلة الفكر العربى، العدد ٥٨ بيروت ١٩٨٩

٢٧- سهيل قاشا: لمحات من تاريخ نصارى العراق، بغداد ١٩٨٢

٢٨- دكتور عبد الشافى محمد عبد اللطيف: العالم الإسلامى فى العصر الأموى (٤١-١٣٢ هجرية/ ٦٦١-٧٥٠ ميلادية) دراسة سياسية، الطبعة الأولى، دار الوفاء للطباعة، ١٩٨٤

٢٩- عمرو بن متى: أخبار فطاركة كرسى المشرق من كتاب المجدل لعمرو بن متى رحمه الله آمين، روما ١٨٩٦

٣٠- محمد حسين هيكل، حياة محمد، الطبعة التاسعة، دار النهضة المصرية، ١٩٦٥

ثالثا : المراجع الأوربية :

1- Brock, S.: "A Syriac Dispute between Heaven and Earth ", (Le Museon) vol 91, Louvain 1978

2- Brock, S.:"The Sinful Woman and Satan two Syriac Dialoge Poems ", (Oriens Christianus) vol 72, Wiesbaden 1988

3- Brooks, E.: Eliae Metropolitae Nisibeni, (CSCO), vol: 62, Lovain 1954

4- Gottheil, R.:(ed.) A Christian Bahira Legend, Zeitschrift für Assyrologie, bd. XIII, Berlin 1898

5- Goldziehr, I.: Gesammelte Schriften, vol IV; Hildesheim 1970, "Die Legende vom Mnch Barsisa

6- Griffth, S.: Arabic Christianity in the Monasteries of Ninth-Century Palestine,(Journal of Semitic Studies), vol: 3, Oxford 1980

7- Griffth, S.:"Muhammad and the Monk Bahira: Reflections on a Syriac and Arabic Text from Early Abbaside Times"(Oriens Christians) vol: 79, Wiesbaden 1995

8- Griffth, S.: "The Quran in Arab Christian Texts; The Development of an Apologetical Argument Abu Qurrah in the Majlis of al- Ma'mun",(VII Symposium Syriacum) Uppsala-University 1996

9- Hau, A.: Brief über den Vorzug der Enthaltsamkeit gegenüber dem Geschlechtsverkehr. (Inaugural-Dissertation) Bonn 1970

10- Hoelscher, G.: Syrische Verskunst. Leipzig 1932

11- Jennings, W.: Lexicon to The Syriac New Testament. Oxford 1962

12- Mingana, A.:"An Ancient Syriac Translation of The Kuran exhibiting New Verses and Variants", (Bulletin of the John Rylands Library) vol:9, Manchester 1925

13- Mingana, A: Catalogue of The Mingana Collection of Manuscripts, vol :II, Christian Arabic Manuscripts. Cambridge 1963

14- Noeldeke, Th.: Geschichte des Qurans, dritter Teil, "Die Geschichte des Korantexts ", Hildesheim 1970

15- Roey, V.: "Une Apologie Syriaque attribuee a E'lie de Nisibe" Le Museon vol LIX, Louvain 1946

16 Samir, K., S.: "Les Prologues de L'evangelaire rime de Abdisu de Nisibe " Proche-Orient Chretien vol XXXI, Jerusalem 1981

17- Sauter, C.:"Die Peripatetische Philosophie bei den Syrern und Arabern", Archiv für Geschichte der Philosophie I. Abteilung, Bd. X, Berlin 1904

18- Scher, A.: Chronique de Seert. (PO) vol: IV, Paris 1907-14

19- Smith, P.: Compendiuos Syriac Dictionary. Oxford 1902
20- Sourdel, D.:"Un Pamphlet Musulman Anonyme D' Epoque Abbaside contre les Chretiens "(Revue des Etudes Islamique) Tome XXXIV, Paris 1966
21- Watt, John.: mar, Rhetoric, and Enkykliospaideia in Gram ،"SyriacZDMG, Bd. 143 Stuttgart 1993
22- Wright, w.: A short History of Syriac Literature. London 1894.

الخلفاء والحج في العصر العباسي الأول

(١٣٢ / ٢٣٢ هـ) (٧٤٩ / ٨٤٦ م)

د. هويدا عبدالمنعم إدريس

مدرس التاريخ الإسلامي
كلية الآداب ــ جامعة القاهرة

تمهيد :

كان خلفاء العصر العباسي الأول أحرص من أي خلفاء سابقين أو لاحقين على حضور مواسم الحج في مكة المكرمة[١]. وهنالك تساؤل حول إذا ما كان هذا الحرص على التواجد في مواسم الحج من أجل تثبيت مركزهم السياسي والديني في بلاد الحجاز، أم أنه كان جزءًا من واجبهم الديني الذي كانوا قد شرفوا به في الإسلام وقبل الإسلام.

وللإجابة على هذا التساؤل يجدر بنا أن نُلقي الضوء على تنافس البيت الهاشمي بفرعيه العلوي والعباسي من أجل الوصول إلى الخلافة.

فلقد كان لبني هاشم مكانة دينية قبل الإسلام؛ وذلك لقيامهم بسقاية ورفادة حجاج بيت الله الحرام، وفي الفترة القريبة العهد بالإسلام تولى تلك المهام هاشم جد الرسول (ص)[٢]، وبعد وفاته خلفه أخوه المطلب في مناصبه، ولمَّا مات المطلب خلفه فيها ابن أخيه عبدالمطلب ثم خلفه في السقاية والرفادة ابنه أبو طالب[٣]، ثم تولاها أخوه العباس، وقد ظل قائمًا عليها بعد الإسلام[٤]. وذكر ابن هشام[٥] ولاية العباس بالسقاية بقوله " فأقرها رسول الله (ص) على ما مضى من ولايته، فهي إلى آل العباس، بولاية العباس إياها إلى اليوم ".

ولاشك أن بني العباس أعدوا هذا الواجب الديني الذي شرفوا بـــه مكرمـــة خاصة تفاخروا بها على أبناء أعمامهم[٦]، ورغم ذلك فقد ظلت العلاقة بـــين بنـــي هاشم " علويين وعباسيين " تقوم على الود والصفاء[٧].

لم يكن تطلع العباسيين للخلافة له جذور عميقة، فمنذ وفاة الرسول (ص) لم يرشح المسلمون للخلافة أحدًا من بني هاشم إلاَّ عليًا بن أبي طالـــب وأولاده، ولـــم تتجه الأنظار إلى العباس عم الرسول (ص) لأنه لم يكن من السابقين الأولين فـــي الإسلام، ولم يدخل العباس الإسلام إلاَّ قبيل فتح مكة عام ٨هـــ[٨]. أما ابنه عبـــدالله فقد كان حبر الأمة وترجمان القرآن وقد ركز جهوده في الناحية العلمية والفكريـــة ولم يكن له تاريخ سياسي نشط[٩]، لكن ابنه علي بن عبدالله أظهر طموحًا نشطًا نحو الخلافة ونادى أكثر من مرة بحق العباسيين فيها.

وكانت السلطة الأموية تنظر إليه بعين الشك والحذر فاستدعوه وأهلـــه إلـــى الشام وأقطعوه الحميمة[١٠] (قرية صغيرة في الأردن بأرض الشـــراة بـــين الشـــام والحجاز) كي يكون تحت إشرافهم ورقابتهم في الشام، وبعد وفاة علي بن عبـــدالله العباس عام ١١٨هـــ/٧٣٦م تزعم ابنه محمد بني العباس[١١].

ويعتبر محمد بن علي بن عبدالله بن العباس الشخصـــية القويـــة والعباســـي الحقيقي الذي أظهر طموحًا نحو الخلافة وسعى سعيًا سريًا ومنظمًا لنيلها، وحين بدأ دعوته كان حذرًا وأسند ادعاءه بالخلافة إلى وصية أبي هاشم بن محمد بن الحنفية إمام الشيعة الكيسانية[١٢] الذي تنازل له عن حقه في الخلافة وسلَّم له زمام الـــدعوة الكيسانية وذلك قبل وصوله الحميمة مُسممًا على يد الخليفة الأمـــوي هشـــام بـــن عبدالملك ووفاته في الحميمة، وعلى أساس هذه الوصية ورث محمـــد بـــن علـــي العباسي جميع الخطط والدعاية السرية التي كانت للعلويين عمومًا وادعى العباسيون تحول حق الإمامة من أبناء أعمامهم العلويين إليهم[١٣].

ويبدو أن العباسيين كانوا في أواخر القرن الأول الهجري أكثر كفاية ونشاطًا في الناحية السياسية من العلويين وأكثر تطلعًا منهم إلى النفوذ والسلطان، وقد قيـــل إن أبا هاشم إنما فعل ذلك لأنه لم يجد بين أفراد البيت العلوي من يستطيع النهوض بأعباء إمامة المسلمين[١٤].

وعلى أية حال فقد قام محمد بن علي العباسي من مقره بالحميمة بتنظيم الدعوة تنظيمًا سريًا دقيقًا وأخذ في إرسال الدعاة والنقباء إلى الجهات الملائمة لتلك الدعوة(١٥).

حرص العباسيون في تلك الفترة على إخفاء أطماعهم نحو الخلافة، فلم تكن البيعة تؤخذ باسمهم وإنما كانت تحت ستار براق يدعو إلى " الرضا من آل محمد " أي لشخص معين من آل البيت يتفق عليه المسلمون فيما بعد على اعتبار أن أهل البيت هم أحق الناس بحكم المسلمين(١٦). وقد ظل أمر العباسيين سرًا لا يعلمه إلا النقباء من شيعتهم حتى وفاة محمد بن علي العباسي عام ١٢٥هـ/٧٤٢م(١٧) وتولية ابنه الإمام إبراهيم بن محمد الذي استطاع في السنوات الأربع الأخيرة أن يُخرج هذه الدعوة من السر إلى العلانية ومن دور الدعوة السلمية إلى دور العمل والكفاح المسلح ضد خلفاء بني أمية(١٨)، وبعد وفاته واصل أخوه أبو العباس عبدالله بن محمد هذا النضال، وفي أواخر عام ١٣٢هـ/٧٤٩م رفرف العلم الأسود وشعار العباسيين فوق حصون دمشق بعد أن زالت عنها دولة الأمويين(١٩).

وهكذا يمكننا القول أن القوة والنصر هما اللذان قررا حق العباسيين في خلافة المسلمين حيث أوصلوا كفاحهم ضد الأمويين إلى الانتصار وهذا ما أخفق في تحقيقه العلويون طوال صراعهم مع بني أمية(٢٠).

اهتمام الخلفاء العباسيين بتدعيم مركزهم السياسي في بلاد الحجاز :

وما أن ثبت العباسيون مركزهم وقبضوا على زمام الخلافة حتى سعوا إلى إثبات أن حقهم في الخلافة لا يعتمد على وصية أبي هاشم لمحمد بن علي بن عبدالله العباسي(٢١)، وإنما يستند على حق القرابة من رسول الله (ص) أولاً، وعلى حق الحرمة ثانيًا " أي مركزهم الديني كمسئولين عن سقاية ورفادة حجاج بيت الله الحرام في مكة المكرمة "(٢٢)، ولم يطب ذلك في نفوس العلويين وإنما رأوا أن العباسيين قد خدعوهم واستأثروا بالخلافة دونهم مع أنهم أحق بها منهم، فنابذوهم العداء ونظروا إليهم كما كانوا ينظرون إلى بني أمية من قبل، وظلوا يناضلون ويكافحون ابتغاء الوصول إلى حقهم في الخلافة(٢٣).

ولقد حاول الخليفة أبو العباس السفاح خلق جو من الوفاق السودي الهاشمي (العباس – العلوي) في فترة حكمه القصيرة (١٣٢/١٣٦هـ)(٧٤٩/٧٥٣م) ويظهر هذا فعلاً في محاولته التقرب من الشخصيات العلوية ومن أشعار شعراء البلاد في تلك الفترة، لكن حالة الوفاق التي كان يشوبها جو من التأزم والحرج لم تدم طويلاً فلم تكن هذه السياسة توافق الخليفة أبا جعفر المنصور الذي أظهر بوضوح، إثر تسلمه السلطة، أنه سيضرب بيد من حديد على كل المعارضين للدولة، علويين كانوا أم غير علويين، ذلك لأن هدفه كان تثبيت جذور الخلافة العباسية مهما كان الثمن[٢٤].

وكان الفرع الحسيني من العلويين هم أول الخارجين على بني العباس بقيادة محمد بن عبدالله بن الحسن بن علي بن أبي طالب المعروف " بالنفس الذكية " (أي الطاهر من الذنوب) واشترك معه في الخروج أخوه إبراهيم[٢٥].

وكان محمد ذو النفس الذكية يرى أنه أحق بالخلافة من العباسيين استناداً إلى حقه الشرعي بصفته حفيد الحسن بن علي بن أبي طالب، واستناداً إلى أن بني الحسن أشاعوا أن بني هاشم وفيهم إبراهيم الإمام، والسفاح، والمنصور، وصالح بن علي، اجتمعوا بالأبواء – على طريق مكة – في أواخر عهد الدولة الأموية وأجمعوا على اختيار محمداً ذا النفس الذكية للإمامة[٢٦]. كذلك أن عبدالله بن الحسن أشاع عن ابنه محمد أنه " المهدي " الذي بُشر به.

هذا بالإضافة إلى أنَّ محمد ذي النفس الذكية كان شخصية محبوبة في بلاد الحجاز، فانضم إليه عدد كبير من أهل المدينة وبخاصة طبقة الفقراء والمعدمين الذين وجدوا في ادعائه بأنه مهدي هذه الأمة ما يحقق آمالهم التي فشل العباسيون في تحقيقها[٢٧]، ومما ساند ثورة محمد التأييد الذي لاقاه من الفقهاء وأهل الحديث الذين أدركوا بأن وجهة النظر العباسية السياسية لم تكن أقل دنيوية من وجهة نظر الخلفاء الأمويين، ولذلك أيدوا ثورته انطلاقاً من دوافع دينية[٢٨].

كان المنصور يشك في نوايا محمد ويخشى طموحه في الخلافة، وقد ازدادت شكوكه عندما حج عام ١٤٠هـ/٧٥٧م إلى الديار المقدسة وتخلف محمد وأخوه إبراهيم عن المثول بين يديه، وكانا يقيمان في الحجاز في مكان غير معروف[٢٩].

لهذا اهتم المنصور بالبحث عنهما واستطلاع أخبارهما، فأوعز إلى ولاته في الحجاز بمراقبة بني الحسن والتضييق علـيهم، وحينمـا حـج المنصـور عـام (١٤٤هـ/٧٦١م) قبض على آل الحسن جميعًا وأرسلهم إلـى العـراق وسـجنهم بالكوفة لأنهم كانوا يتسترون على المكان الذي يوجد فيه محمد ذو النفس الذكية[٣٠].

رأى المنصور بعد ذلك أن يستعمل أساليب الدهاء ليعجل من ظهور محمـد قبل أن يستفحل خطره، فدس له عيونًا يتظاهرون بأنهم أتباعه ويوهمونه بأن دعوته قد عمت الأقطار، كذلك أوعز المنصور إلى قواده بأن يكتبوا إلى محمد ويخبرونه بأنهم معه ويدعونه إلى الظهور[٣١]. وانخدع محمد بهذه الحيلة، وفي أول رجب عام ١٤٥هـ/٧٦٢م خرج محمد ذو النفس الذكية من مكمنه وأعلن عـن ثورتـه فـي المدينة المنورة، وكان متفقًا مع أخيه إبراهيم على أن يثور في نفس الوقت بمدينـة البصرة بالعراق، حتى يقع المنصور بين نارين، لكن حـدث أن مـرض إبـراهيم بالجُدري فتأخرت ثورته مدة شهرين مما أتاح الفرصة للمنصور كي يقضي علـى الأخوين واحدًا بعد الآخر[٣٢].

اتخذت الحرب صفة كلامية في بادئ الأمر، وذلك عن طريق إلقاء الخطـب وتبادل الرسائل واستخدام أساليب الدعاية المختلفة، حيث أخذ كـل فريـق يشـرح وجهة نظره وحقه في الخلافة ويتفاخر بنسبه وحسبه[٣٣]. وبعد فشل هذه المراسلات أرسل المنصور ولي عهده وابن أخيه عيسى بن موسى على رأس جيش كبير إلى المدينة[٣٤]، وقامت الحرب بين الفريقين، وكان وضع محمد في الحجاز سيئًا للغاية من الناحية الاستراتيجية؛ لأن الحجاز قطر قاحل فقير في غلاته ورجاله وسلاحه، يضاف إلى ذلك أن المنصور قطع عنه الأقوات والمؤن الواردة إليه من الطـائف والشام ومصر، وطمر خليج أمير المؤمنين في مصر، وهي القناة التي كانت تصل النيل بالبحر الأحمر لإمداد الحجاز بالغلال منذ أن حفرها الخليفة عمر بن الخطاب، هذا إلى جانب أن محمدًا حفر حول المدينة خندقًا اقتداء برسول الله (ص) حال دون وصول المؤن إليه[٣٥]، فلما وصل الجيش العباسي تخلى عن محمـد كثيـر مـن أتباعه[٣٦]، فضعفت قوته وانتهى الأمر بهزيمته وقتله وإرسال رأسه إلى المنصور في منتصف رمضان عام ١٤٥هـ/٧٦٢م[٣٧]. وقد بقيت المدينة فـي حالـة مـن

الفوضى والاضطراب لأيام عديدة بعد فشل الثورة، وذلك بسبب إجراءات السلطة التعسفية، ومصادرة ممتلكات الذين أيدوا الثورة وإهانتهم، وسوء تصرف الجند الخراساني[٣٨].

وعندما تولى الخليفة المهدي العباسي شئون الحكم اتخذ سياسة لينة تجاه العلويين خاصة وأهل الحجاز عامة، فقام برد معظم الأموال التي صودرت في عهد أبيه إلى أصحابها، كذلك أطلق سراح المسجونين السياسيين، ولاسيما العلويين منهم، وأمر لهم بأرزاق وصلات، كذلك عمل المهدي على استرضاء أهل الحجاز الذين سبق أن عاملهم المنصور بكل شدة وعنف لتأييدهم ثورة محمد ذي النفس الذكية، فحينما حج عام ١٦٠هـ/٧٧٦م وزع على أهل الحجاز أموالاً طائلة وأعاد إليهم الغلال والحبوب الواردة من مصر والشام، والتي كان المنصور قد قطعها عنهم خلال ثورة محمد ذي النفس الذكية، كذلك ضم إلى حرسه الخاص عددًا من الجنود الحجازيين يبلغ الخمسمائة، هذا فضلاً عن قيامه باستوزار يعقوب بن داود المعروف بميوله العلوية، وذلك كوسيلة لاسترضائهم والتقرب إليهم[٣٩].

لكن هذه السياسة اللينة التي اتبعها الخليفة المهدي مع العلويين لم تستمر طويلاً، فسرعان ما انتهت في عهد ابنه الهادي الذي اتخذ معهم سياسة قاسية، فقطع عنهم الأرزاق والصلات التي أجراها لهم أبوه المهدي، كما أمر عماله بمراقبتهم والتضييق عليهم، وحين وصلت الحالة إلى درجة من التأزم بسبب ضغط الوالي العباسي عليهم واتهامه لبعض رجالهم بشرب الخمر، تقدم الشيعة العلوية إلى (الحسين بن علي بن الحسن بن علي بن أبي طالب) أكبر العلويين سنًا وأكثرهم قدرة على زعامة الحركة الثورية، وحثوه على الثورة، فقام بثورته في المدينة وكسر السجون وأخرج من فيها، ثم قصد مكة، وفي الطريق لقيه جيش العباسيين بـ (فخ) " وهو وادٍ في طريق مكة يبعد عنها بستة أميال "، وفي هذا المكان تقرر مصير العلويين حيث قتل الحسين بن علي بعد أن أبلى بلاءً شديدًا، وقتل معه بعض أهل بيته، وكانت هذه الموقعة من الشدة بحيث قيل : لم تكن مصيبة بعد كربلاء أشد وأفجع من فخ[٤٠].

ومن خلال تلك الأحداث يتضح لنا أن العلويين لم يعدلوا عن اعتقادهم الراسخ أنهم أحق بالخلافة من أبناء عمهم العباسيين، وأنهم كانوا يثورون في وجه الدولة الحاكمة كلما أتيحت لهم الفرص، وتهيأت لهم الأسباب.

وكان خلفاء بني العباس يُنكلون بهم لقيامهم في وجه النظام القائم حينًا، وفي حين آخر كانوا يرغبونهم بكل أنواع الترغيب ويسبغون عليهم كثيرًا من العطايا والهبات[٤١].

حرص خلفاء العصر العباسي الأول على أداء فريضة الحج :

اعتبر خلفاء العصر العباسي الأول الاهتمام بالحج وما يتعلق به جزءًا من واجبهم الديني[٤٢]، فيذكر المقريزي[٤٣] أن الخليفة أبا جعفر المنصور[٤٤] قام بأداء فريضة الحج عدة مرات، وحدد سنواتها في قوله " حج في سنة أربعين ومائة فأحرم من الحيرة ولما قضى حجه توجه إلى بيت المقدس[٤٥]، وسار منها إلى الرقة، ومضى إلى (هاشمية) الكوفة، وحج ثانيًا سنة أربع وأربعين ومائة ... ثم حج بالناس في سنة سبع وأربعين ومائة، وحج رابعًا في سنة ثمان وأربعين ومائة، وحج خامسًا في سنة اثنتين وخمسين ومائة، وسار في سنة أربع وخمسين إلى الشام وبيت المقدس ".

ولما عزم على الحج في عام ١٥٨هـ/٧٧٤م دعا ولده المهدي وأوصاه في خاصة نفسه وبأهل بيته وبسائر المسلمين خيرًا ... وأحرم المنصور بحج وعمره من الرصافة وساق بُدنه وقال : " يا بني إني ولدت في ذي الحجة، وقد وقع لي أن أموت في ذي الحجة، وهذا الذي جرأني على الحج عامي هذا وودعه وسار، وفي أثناء الطريق اعتراه مرض الموت "[٤٦]، واتفق عدد من المؤرخين أنه عندما نزل آخر منزل بطريق مكة نظر في صدر منزله فرأى بعض الأبيات مكتوبٌ فيها :

أبا جعفر حانت وفاتك وانقضت ... سنوك وأمر الله لابد واقع
أبا جعفر هل كاهن أو منجم ... لك اليوم من كرب المنية مانع[٤٧]

فدعا بالحُجاب فأقرأهم ذلك فلم يروا شيئًا فعرف أن أجله قد نُعي إليه، وتوفى في السادس من ذي الحجة ولم يحضر عند وفاته إلاّ خدمه ومولاه الربيع بن يونس، فكتم الربيع خبر موته ومنع النساء وغيرهن من البكاء والصراخ عليه، ولما أصبح

الصباح وشاع نبأ موته حضر أهل بيته وجلسوا مجالسهم وجاء بعــض العلــويين وغيرهم من أهل خراسان وملئوا السرادق الذي ضرب له، ثم خرج الربيع إلــيهم وفي يده قرطاس ففضه وقرأ ما فيه " بسم الله الرحمن الرحيم من عبدالله المنصور أمير المؤمنين إلى من خلف من بني هاشم وشيعته من أهل خراسان وعامة الناس ... أما بعد فإني كتبت كتابي هذا وأنا في آخر يوم من الدنيا وأول يوم من الآخرة، وأنا أقرأ عليكم السلام وأسأل ألاّ يفتنكم بعد ولا يلبسكم شيعًا، ولا يذيق بعضكم بأس بعض يا بني هاشم ويا أهل خراسان ... ثم أخذ يوصيهم بالمهدي ويذكرهم بالبيعة له، وخصهم على القيام بدولته والوفاء له إلى آخر الكتاب .. "[٤٨].

عند ذلك أذن للأكابر والمسنين من أهل البيت ثم لعامتهم فأخذ الربيع مــنهم البيعة للمهدي بن المنصور ولعيسى بن موسى من بعده، ثم دعا القــواد فبــايعوا، وخرج موسى بن المهدي إلى مجلس العامة فبايع من بقى من القواد والوجوه، ثــم توجه العباس بن محمد، ومحمد بن سليمان إلى مكة فبايع كثير مــن أهــل مكــة والمدينة الذين حضروا موسم الحج[٤٩]، هذا وقد تم دفن الخليفة المنصــور بــزي الإحرام في بئر الميمون خارج مكة المكرمة[٥٠].

كذلك قام الخليفة المهدي بأداء فريضة الحج عام ستين ومائة وحج معه ابنــه هارون بن محمد في جماعة من أهله، وأنفق المهدي في هذه الحجة مالاً عظيمًا[٥١]، وحج ثانيًا عام ١٦٤هـــ وأمر بتوسعة بيت الله الحرام[٥٢]، وفي سنة إحدى وســتين ومائة بعث ابنه موسى الهادي فحج بالناس[٥٣].

أما هارون الرشيد فكان أكثر خلفاء بني العباس أداءً لفريضة الحج، فقد حج أثناء مدة خلافته التي بلغت ثلاثة وعشرين عامًا وشهرين وثمانية أيام، تسع مرات، وقد عُرف عنه أنه كان يغزوا عامًا ويحج عامًا[٥٤]، وكان الرشيد إذا حج حج معه مائة من الفقهاء وأبنائهم، فإذا لم يحج أحج ثلاثمائة رجل بالنفقة السابغة والكســوة الطاهرة الفاخرة[٥٥].

وعند دخول الرشيد مكة المكرمة كان يُطرح له الرمل حول البيت ومقــدار عرضه ذراعان ويرش بالماء ويقوم الحرس بينه وبين الناس، وكان يطوف بــين

المغرب والعشاء ثلاثة عشر أسبوعًا، ولا يطيق ذلك أحد ممن كان معه، "وكان إذا سعى شمر إزاره وجعل له ذنبين فكان يفتن من يراه "[٥٦].

هذا وقد حدد لنا بعض المؤرخين[٥٧] السنوات التي حج فيها الرشيد، فذكروا أن أول حج له وهو خليفة كان سنة مائة وسبعين هجرية، وقسَّم في أهل الحرمين عطاءً كثيرًا، وقيل إنه غزا أيضًا فيها بنفسه، وحج ثانيًا في سنة أربع وسبعين ومائة، وقسم في الناس مالاً كثيرًا، وحج ثالثًا في سنة خمس وسبعين ومائة، وحج أيضًا في سنة سبع وسبعين ومائة، وفي عام تسع وسبعين ومائة اعتمر الرشيد في شهر رمضان، وشكر الله تعالى على قتل الوليد بن الطريف الشاري[٥٨] وعاد إلى المدينة[٥٩] فأقام بها إلى وقت الحج فحج بالناس، ومشى من مكة إلى منى ثم إلى عرفات وشهد المشاعر كلها ماشيًا[٦٠] وذلك تكفيرًا عن قسم[٦١] أقسمه لأخيه الهادي ولم يبر به.

وحج الرشيد أيضًا بالناس سنة إحدى وثمانين ومائة، وحج في سنة ست وثمانين ومائة من الأنبار ومعه ابناه عبدالله المأمون ومحمد الأمين (وكان قد ولى الأمين العراق والشام إلى آخر المغرب وجعله ولي عهده، وضم إلى المأمون همذان إلى آخر المشرق وعهد إليه بعد الأمين، ثم بايع لابنه القاسم بولاية العهد بعد المأمون ولقبه المؤتمن وضم إليه الجزيرة والثغور والعواصم).

فلما قضى مناسكه كتب كتابًا أشهد فيه على محمد الأمين وأشهد فيه من حضر بالوفاء للمأمون، وكتب كتابًا للمأمون أشهدهم عليه فيه بالوفاء للأمين وجدد العهود عليهما في الكعبة[٦٢]، ثم أمر بتعليق الكتابين في جوف الكعبة ليزيد في قدسيتهما ويؤكد تنفيذهما وليكون ذلك إعلانًا ملزمًا لأولاده ومؤيديهم[٦٣]، ثم حج الرشيد سنة ثمان وثمانين راجلاً وقسَّم أموالاً كثيرة وهي آخر حجة حجها[٦٤].

ومن الغريب حقًا أنه بعد هارون الرشيد بالذات لم يحج خلفاء لا من العباسيين ولا من الفاطميين ولا من خلفاء الأمويين بالأندلس، ولا حتى بعد سقوط بغداد في أيدي المغول من خلفاء العباسيين الذين انتقلوا إلى مصر[٦٦] سوى خليفة واحد هو الحاكم بأمر الله العباسي ثاني الخلفاء العباسيين بمصر[٦٧].

موكب الخلفاء في موسم الحج :

ومن أعظم مواكب الخلفاء العباسيين على الإطلاق موكب الحج، ولاسيما إذا صحبهم الخليفة(٦٨)، فكان الحجاج يجتمعون في باب الكوفة ببغـداد مـن مختلـف الأمصار الإسلامية الشرقية، وخاصة أهل العراق، وفارس، وخراسان، وقد أعدوا عدتهم من الإبل والكسى، وقِرب الماء، والطعام الذي كان يتكون مـن الأقـراص المعجونة باللبن والسكر والكعك والفواكة اليابسة وغيرها من طعام الحاج، ومعهـم شرذمة من الجند لحراستهم، ويسير في مقدمة هذا الموكب هوادج يعلوهـا قبـاب مزينة بالديباج المطرز بالذهب يركب في أحدها الأمير(٦٩) المولى على الحجاج(٧٠).

ولاشك أنه كان لخروج الخليفة إلى موقف الحجاج موكب ليس أحفل منه في مواكب الملوك، ويصف لنا أحد الباحثين(٧١) موكب الخليفة أبى جعفـر المنصـور بقوله " ولما كان الظهر وقد غصَّت بالناس المواقف وضاقت بهم الساحات ضُـرب البوق إيذانًا بركوب أبى جعفر، فلم يلبث أن أقبل مرتفعًا علـى فيـل أبـيض قـد استرسلت عليه الفضة، وهو جالس في هودج منزل بالأصداف اللامعة، وعلى القبة أستار من الديباج يتخللها القِصب البرَّاق، وكان في يده قضيب الخلافة وفي الأخرى الخاتم وعلى كتفه بردة حضرة النبي (ص)، وهي غير البردة التي كانت لبني أمية يلقونها على أكتافهم في جلوسهم وركوبهم لأنها فقدت بفقدان الخلافة منهم، وكـان معاوية قد اشتراها من آل زهير بن أبي سلمى بأربعين ألف درهم، وإنما هذه البُردة قد أعطاها النبي (ص) لأهل الأبْلَة لتبقى عندهم بركة فاشتراها أبو جعفر المنصور بثلاثمائة دينار واتخذها من شعار الخلافة موضع البردة التي كانت عند الأمـويين، وأما الفيلة فإنه لم يسبقه أحدٌ من ملوك العرب إلى اتخاذها في المواكب ... وكـان يصحب أبا جعفر جماعة من الأمراء ووراءهم الإبل التي يظعنها حريمه وأهل بيته وفيهم موسى بن المهدي حاجًا ومعهم حرس خاص بهم، يحملون الرايات السود ".

" فلما وصل موكب أبى جعفر إلى موقف الحجاج ارتفعت أصواتهم بالدعاء لـه وعلت ضجتهم بالتكبير والتهليل، فكان يستشعر الواقف من عزة الإسلام مـالا يخـالج النفس أعظم منه ولاسيما أن ليس من فروض العبادة منه ما تظهر فيه أبهة الدولـة إلاّ الحج الشريف، فلما وقف القواد والأمراء أوصاهم بالسهر على مصالح الرعية ".

أما هارون الرشيد فكان يصحبه في موكب الحج كبار رجال الدولة، وكـــان هارون يهتم بكل ما تحتاجه القافلة في سيرها إلى الحجاز حتى بالثلج ــ الذي كان المهدي أول من حمله إلى الحجاز ــ[٧٢]، هذا فضلاً عن اهتمامه بتركيب الشقاديف على الجمال للعب الشطرنج، وكان هارون أول من أباح التسلية به في الإسلام[٧٣].

عطاء أهل الحجاز :

وكان مجيء الخلفاء العباسيين إلى الحجاز مجالاً لسعادة أهله لكثرة أعطياتهم لهم، فعندما حج المهدي عام ١٦٠هـ/٧٧٦م قسم في أهل مكة والمدينـــة عطـــاءً كثيرًا[٧٤] ذكره ابن كثير[٧٥] بقوله " وفرق المهدي في أهل مكة مالاً كثيرًا جدًا كان قد قدم معه ثلاثين ألف ألف درهم ومائة ألف ثوب، وجاء من مصر ثلثمائة ألـــف دينار، ومن اليمن مائتا ألف دينار فأعطاها كلها في أهل مكة والمدينة ".

على أن العطاء بلغ غايته في عهد هارون الرشيد حتى وصف بأنه لـــم يُـــرَ خليفة قبله أكثر عطاءً منه[٧٦]، وقد امتدح المقريزي[٧٧] عطاء الرشيد بقوله " ولـــم يُرَ خليفة قبله أكثر عطاءً منه ولو قيل للدنيا متى أيام شبابك لقالت : أيام هـــارون الرشيد "، وقد أُطلق على أحد الأعوام التي حج فيها الرشـــيد " بعـــام الأعطيـــات الثلاث" لكثرة ما بذل فيه، فيذكر ابـــن الأثيـــر[٧٨] أنـــه " فـــي هـــذه الســـنة (أي ١٨٦هـ/٨٠٢م) حج بالناس هارون الرشيد: سار إلى مكة من الأنبار فبدأ بالمدينة فأعطى فيها ثلاثة أعطية، أعطى هو عطاء، ومحمد الأمين عطاء، وعبدالله المأمون عطاء، وسار إلى مكة فأعطى أهلها، فبلغ ألف ألف دينار وخمسين ألف دينار ".

هذا وقد شاركت نساء الخلفاء في العطاء لأهالي الحجاز، ومنهن السيدة زبيدة زوج هارون الرشيد التي بلغت نفقاتها في إحدى حجاتها مليون دينار، وعندما رفع إليها وكيلها حساب النفقة نهته عن ذلك وقالت " ثواب الله بغير حساب "[٧٩].

ولم يقتصر العطاء لأهالي الحجاز على الخلفاء العباسيين ونسائهم بل قلـــدهم وزراؤهم وبخاصة البرامكة الذين شاركوا هارون الرشيد في عام الأعطيات، فيُذكر أنه عندما جلس الرشيد في مكة للعطاء جلس معه يحيى البرمكـــي فـــأعطى مثـــل عطائه، ولما جلس الأمين جلس معه الفضل وأعطى مثل عطائه، كـــذلك أعطـــى

جعفر مثل عطاء المأمون، ثم استرسلوا في سعة الهبات حتى انصرف الناس عـن مدح الخليفة إلى قول الشعر في مدح هؤلاء الوزراء فصاروا ينشدون :

إذا نزلوا بطحاء مكة أشرقت بيحيى وبالفضل بن يحيى وجعفر

وكان لكثرة هذا العطاء أثره في جعل هارون الرشيد يتحول عليهم خوفًا من استمالتهم الناس بما وسعوا له من الجود[٨٠].

وبالإضافة إلى العطاء الذي أجزله الخلفاء العباسيين على أهالي الحجاز فـي موسم الحج كان يأتيهم المال بانتظام أيضًا من مصر والعراق والـيمن، وإن كـان المال الذي يأتي من مصر هو الأهم حيث كانت مصر لا تقدم المال فقط وإنما أيضًا القمح، وكان ديوان العطاء قد بقى بالمدينة ليعطي أهله[٨١].

جهود الخلفاء العباسيين في توفير الراحة لقوافل الحجاج :

حرص خلفاء العصر العباسي الأول على توفير الراحة لهم وللحجـاج فـي طريق الوصول إلى الحجاز، فأمروا ببناء الاستراحات في كل منزلـة ينزلونهـا، ويذكر المقريزي[٨٢] ذلك بقوله " كان الخلفاء يُبنى لهم في كـل منزلـة ينزلونهـا بطريق مكة دار ويعد لهم فيها سائر ما يحتاج إليه من الستور والفرش والأوانـي وغير ذلك ".

وكان أبو العباس السفاح أول من أمر ببناء هذه القصور على طول الطريـق إلى مكة[٨٣]، كذلك اتخذ أبو جعفر المنصور المنازل، ولعلها دور ينزلهـا الخليفـة دون سائر الناس وجعل فيها مُشرف يُعرف بمتولي المنازل[٨٤].

وعندما تولى الخليفة المهدي شئون الخلافة ترك هذه المنازل وأعـاد بنـاء الاستراحات (القصور) من جديد، كما أمر بتوسيع ما كان قد بُنى منها زيادة فـي راحة الحجاج، وقد ذكر لنا عدد من المؤرخين أن الخليفة المهدي أمر ببناء القصور بطريق مكة أوسع من القصور التي بناها السفاح من القادسية إلى زُبالـة، وأمـر باتخاذ المصانع[٨٥] في كل منهل منها وتحديد الأميال وحفر الركايا[٨٦] وولي ذلـك يقطين بن موسى[٨٧] وقد ظل الاهتمام بأعمال الطريق مدة عشر سنوات تقريبًا " أي إلى سنة إحدى وسبعين ومائة "[٨٨]، بالإضافة إلى ذلك فقد أمر المهدي[٨٩] بإقامـة

البريد بين مكة والمدينة واليمن وبغداد ونسق نظامه واهتم بطرقه ومنازله وأقام فيه البغال والإبل(٩٠). وفي عهده صار الطريق من العراق إلى الحجاز من أرفق الطرق وآمنها وأطيبها(٩١).

أما هارون الرشيد فقد اهتم أيضًا براحة الحجاج، فأقام السرادقات ووضع فيها الأثاث وزودها بأنواع الطعام والشراب(٩٢)، ولم يقتصر الاهتمام بالطريق على خلفاء بني العباس بل شاركتهم نساؤهم أيضًا في الاهتمام براحة الحجاج أثناء رحلاتهم، ومنهم السيدة زبيدة زوج هارون الرشيد التي يُنسب إليها " المُحَدث " وهو منزل في طريق مكة (بعد النقرة على ستة أميال منها) فيه قصر وقباب متفرقة، وفيه بركة وبئران ماؤهما عذب(٩٣)، بالإضافة إلى ذلك فقد أمرت بتحديد معالم الطريق بالأميال ليعرف الحجاج المسافات التي قطعوها، فضلاً عن حفر الآبار واتخاذ المصانع " أحواض ماء المطر " على طول الطريق من بغداد إلى مكة(٩٤)، وقد وصف لنا ابن جبير(٩٥) هذه الآثار في رحلته بقوله " وهذه المصانع والبرك والآبار والمنازل التي من بغداد إلى مكة هي آثار زبيدة ابنة جعفر بن أبي جعفر المنصور زوج هارون وابنة عمه، انتدبت لذلك مدة حياتها فأبقت في هذا الطريق مرافق ومنافع تعم وفد الله تعالى كل سنة لدن وفاتها إلى الآن، ولولا آثارها الكريمة في ذلك لما سلكت هذا الطريق والله كفيل بمجازاتها والرضا عنها ".

وفوق ذلك اهتم خلفاء العصر العباسي الأول بتوفير المياه في مكة وضواحيها، وكان أهل مكة فيما سلف يشربون من الآبار التي بداخل البلدة وخارجها، فلما كانت خلافة معاوية أجرى إلى مكة عيونًا عشرة في قنوات عملها لذلك، ولما حج عبدالله بن عامر جمع العيون وصرفها في عين واحدة واتخذ حياضًا بميدان عرفة أجرى إليها ماء العين، فبقى الناس في راحة من جهة الماء بمكة وعرفة، وفي آخر دولة بني أمية عام ١٣٢هـ/٧٤٩م تخربت العيون التي كانت تمد العين الكبيرة فانقطعت المياه عن أهل مكة وأصابهم كما أصاب الحجاج من جراء ذلك جهد شديد حتى كانت القربة تباع بعشرة دراهم ورجع الناس إلى مياه الآبار كما بدأوا(٩٦).

وفي العصر العباسي الأول قام الخليفة هارون الرشيد بشراء عين تسمى عين الرشا وتقع في أعلى مكة داخل شعب الخرمانية، وقد أمر الخليفة بإيصال قنــوات من هذه العين إلى قنوات معاوية، وقد استفاد سكان مكة والحجاج من هذه العيون، ويعتبر هذا العمل من أهم الخدمات التي قدمها الرشــيد لســكان مكــة والوافــدين إليها(٩٧).

لكن ما لبث أن تعرضت الآبار المحيطة بمكة لموسم الجفاف، فاستغل بعض من أهل مكة الموقف لصالحهم وأخذوا في إحضار المياه من خارج مكــة وبيعهــا للحجاج بأسعار باهظة، وعندما حجت زبيدة زوج هارون الرشيد وشاهدت معانــاة الحجاج في الحصول على الماء أمرت والي مكة بدراسة مصادر الميــاه وكيفيــة وصولها إلى مكة، وبعد أن أُجريت هذه الدراسة تبين أنه لا يمكن دخول ماء الحل إلى الحرم بسبب صعوبة جغرافية مكة وبخاصة المنطقة المحيطة بالحرم، لذا رأى والي مكة والصناع زيادة حفر الآبار داخل الحرم، ولم تقتنع السيدة زبيــدة بهــذه الدراسة فأوفدت من بغداد المهندسين والصناع وألزمتهم بضرورة إيصــال ميــاه عيون الحل إلى داخل الحرم وأظهرت الدراسة أن هناك عيونًا خارج الحرم منهــا عين حنين وعين وادي النعمان يمكن الاستفادة منهما في سقاية أهل مكة وأمكنــة المشاعر، فأمرت السيدة زبيدة ببناء قناة يجرى فيها الماء مخترقة الجبال والسهول، وأقامت على قمم الجبال بركًا مختلفة لاستقبال مياه الأمطــار وإيصــالها بالقنــاة الرئيسية لمجرى العين حتى كثرت المياه ولم يعد للناس شكوى من نقــص المــاء، ويُروى أن السيدة زبيدة أنفقت في سبيل ذلك أموالاً طائلــة قــدرت بــألف ألــف وسبعمائة ألف دينار(٩٨).

هذا وقد ظل الخلفاء العباسيون يباشرون هذه العيون، وكلما بلغهــم حــدوث خراب فيها أو في قنواتها يرسلون من يعمرها(٩٩).

توسعة الحرمين الشريفين :

اهتم أيضًا خلفاء العصر العباسي الأول بتوسيع المسجد الحرام وعمارته، حيث أمر الخليفة أبو جعفر المنصور والي مكة زياد بن عبيد الله الحارثي بزيادة المســجد الحرام فوسعه بقدر نصفه عام ١٣٩هـ/٧٥٦م من جانبيه البحري والغربي، وجعــل

بهذه الزيادة رواقًا واحدًا فأصبح طول المسجد ٣٧٠ ذراعًا وعرضه ٣١٥ ذراعًا[١٠٠]، وسقف أروقته بخشب العرعر الذي أتى به من الطائف[١٠١]، كذلك قام بتزيينه بالذهب وأنواع النقوش وبنى مئذنة بني سهم، وعندما حج المنصور عام ١٤٠هـ رأى حجارة الحجر بادية فأمر بتغطيتها بالرخام ليلاً حتى إذا أصبح لا يراها إلاَّ مغطاة وقد فعل زياد (والي مكة) ما أمر به على السراج قبل أن يصبح الصباح[١٠٢].

أما الخليفة المهدي بن أبي جعفر المنصور فقد أمر حين حج عام ١٦٠هـ/٧٧٦م بتعمير المسجد الحرام وتوسعته وزيادة ارتفاع أروقته، وتنفيذًا لذلك فقد ترك أموالاً كثيرة عند قاضي مكة " محمد بن عبدالرحمن المخزومي " ليقوم بتجديد بناء المسجد وتوسعته، وبالفعل فقد زاد المسجد زيادة كبيرة من أعلاه ومن الجانب اليماني ومن الموضع الذي انتهى إليه أبو جعفر المنصور في الجانب الغربي[١٠٣].

وعندما حج المهدي حجته الثانية عام ١٦٤هـ/٧٨٠م رأى الكعبة في ناحية من المسجد وليست في وسطه بسبب التوسعة فكره ذلك وأحب أن تكون بوسط المسجد فأمر المهندسين بتوسعته حتى تتوسط الكعبة المسجد، ولو استنفذ الأمر ما في بيوت المسلمين من أموال، ثم خرج المهدي إلى العراق وخلف الأموال فاشتروا من الناس دورهم ووسعوا المسجد وولي العمارة " يقطين بن موسى " فاستمر العمل إلى أن مات المهدي عام ١٦٩هـ/٧٨٥م وولي الخلافة ولده موسى الهادي فأمر بإتمامها وروعي في ذلك إمكان تصريف مياه السيول إذا حدثت[١٠٤]. وقد أنفقت أموالٌ عظيمة في تلك التوسعة بحيث صار ثمن الذراع المربع مما أدخل في المسجد ٢٥ دينارًا و١٥ دينارًا لما أدخل في الوادي[١٠٥].

وفي خلافة هارون الرشيد عمل أمير مكة مظلة للمؤذنين على سطح المسجد ليؤذنوا فيها يوم الجمعة وكانوا يؤذنون قبل ذلك على السطح صيفًا وشتاءً[١٠٦].

أيضًا أمر الخلفاء العباسيون بعمارة وتوسعة مسجد الرسول (ص)، ففي عهد الخليفة أبي جعفر المنصور عام ١٤٠هـ تصدع جدار المسجد فأمر بتجديده.

وفي عهد الخليفة المهدي عام ١٦١هـ/٧٧٧م ضاق المسجد بحجاج الموسم فأمر واليه على المدينة "جعفر بن سليمان بن علي العباسي " بزيادة المسجد من جهة الشام مائة ذراع، والشرق والغرب والقبلة خمسين ذراعًا، ورفع جداره ذراعين عما كان عليه من قبل(١٠٧).

كذلك أمر الخليفة المهدي بنزع المقصورة منه — وهو المكان الذي كان بجوار المنبر حيث كانت المقاصير من عمل الأمويين بقصد حماية خلفائهم أو عمالهم في أثناء الصلاة أو بمثابة مكان خاص للمشاورة — كما أمر المهدي بنزع المقاصير من المساجد الأخرى، وربما فعل ذلك إتباعًا لسنة الرسول (ص) والخلفاء الراشدين، ولأنه لا توجد تفرقة بين الحكام ورعاياهم في المسجد، كذلك أراد المهدي أن ينقص منبر الرسول (ص) ويعيده إلى ما كان عليه ويلغي ما زاده معاوية في درجاته، إلاَّ أن المهدي تركه خوفًا عليه من أن ينكسر(١٠٨)، وكتب إلى الآفاق بتقصير المنابر إلى المقدار الذي كان عليه منبر الرسول وهو درجتان ومقعد(١٠٩).

أما هارون الرشيد فكان أول من أمر بنقل منبر الرسول إلى بغداد حيث أصبح جزءًا من علامات الخلافة العباسية(١١٠).

كسوة الكعبة :

اهتم الخلفاء العباسيون(١١١) بكسوة الكعبة، وكان الخليفة المهدي أول من كساها منهم عام ١٥٩هـ بكسوة من القباطي شاهدها الفاكهي وقال عنها " ورأيت كسوة من قباطي مصر(١١٢) مكتوبًا عليها (بسم الله بركة من الله، مما أمر به عبدالله المهدي محمد أمير المؤمنين أصلحه الله محمد بن سليمان أن يصنع من طراز تنيس كسوة الكعبة على يد الخطاب بن مسلمة عامله سنة تسع وخمسين ومائة) "(١١٣).

وعندما حج المهدي عام ١٦٠هـ رفع إليه حجبة البيت أنهم يخافون على الكعبة أن تتهدم لكثرة ما عليها من الكسوة، ومنها كسوة هشام بن عبدالملك المصنعة من الديباج الثخين — وكانت الكسوة لا تنزع من الكعبة في كل سنة كما هو العمل الآن، بل تلبس كسوة فوق تلك الكسوة — فلما قضى المهدى(١١٤) حجه أمر بنزع كسوة الكعبة وطلى جدرانها بالمسك والعنبر وكساها كسوة جديدة من الحرير(١١٥).

وعندما تولى هارون الرشيد مهام الخلافة اهتم أيضًا بكسوة الكعبة فكساها أيضًا القباطي وقد وصف الفاكهي هذه الكسوة بقوله " ورأيت أيضًا كسوة لهرون الرشيد من قباطي مصر مكتوبًا عليها (بسم الله بركة من الله للخليفة الرشيد عبدالله هرون أمير المؤمنين أكرمه الله مما أمر به الفضل بن الربيع أن يعمل في طراز تونة سنة تسعين ومائة) "[١١٦].

كذلك اهتم الخليفة المأمون بكسوة الكعبة، وكان أول من كساها بثلاث كساوى[١١٧] : الديباج الأحمر يوم التروية، والقباطي يوم هلال رجب، والديباج الأبيض[١١٨] الذي أحدثه المأمون يوم ٢٧ من رمضان[١١٩].

وكانت الكسوة ترسل من بغداد في موكب اسمه موكب الكسوة، أما في عهد المأمون فكانت تحمل برفقة أمير الحاج في محمل خاص بها[١٢٠].

هدايا الكعبة :

ولعظم مكانة الكعبة المشرفة عند الناس كان الخلفاء العباسيون[١٢١] يتقربون إليها بالهدايا الجزيلة والهبات الجليلة، فبعث الخليفة " أبو العباس السفاح " بالصفحة الخضراء فعلقت فيها، وأرسل أخوه الخليفة " أبو جعفر المنصور " بالقارورة الفرعونية، أما الخليفة " محمد الأمين بن هارون الرشيد " فقد أرسل إلى عامله على مكة ١٨٠٠ دينار ليضربها صفائح توضع على بابي الكعبة، فصفحهما بها واتخذ منها مسامير وحلقتين للباب.

كذلك بعث الخليفة المأمون بالياقوتة التي تعلق في وجه الكعبة في كل موسم بسلسلة من ذهب، أيضًا أهدى الخليفة المعتصم العباسي عام ٢١٩هـ/٨٣٤م قفلا لباب الكعبة فيه ألف مثقال ذهب، وكان والي مكة يؤمئذ من قِبله هو " صالح بن العباس " فأرسل إلى الحجبة ليسلمهم القفل فأبوا أن يأخذوه منه، وأراد أن يأخذ القفل الأول ويرسل به إلى الخليفة فأبوا أن يعطوه، وتوجهوا إلى بغداد، وتحدثوا مع المعتصم في ذلك فترك قفل الكعبة عليها، وأعطاهم القفل الذي كان بعث به إليها فاقتسموه بينهم[١٢٢].

ولم يقتصر الأمر على تعليق الهدايا بالكعبة، بل كـان الخلفـاء العباسـيون يعلقون بها أيضًا العهود[١٢٣] الهامة ومنها الكتابان اللذان أخذهما هـارون الرشـيد على أولاده بولاية العهد[١٢٤]، وطلب من الحجبة حفظهمـا[١٢٥] ومنـع مـن أراد إخراجهما والذهاب بهما[١٢٦].

وهكذا نرى حرص خلفاء العصر العباسي الأول على أداء هذا الدور الديني، ولعل هذا هو السر في بقاء خلافتهم مدة طويلة وتمتعها بمركز الزعامة الروحية في العالم الإسلامي حتى بعد زوالها من بغداد.

الخاتمة :

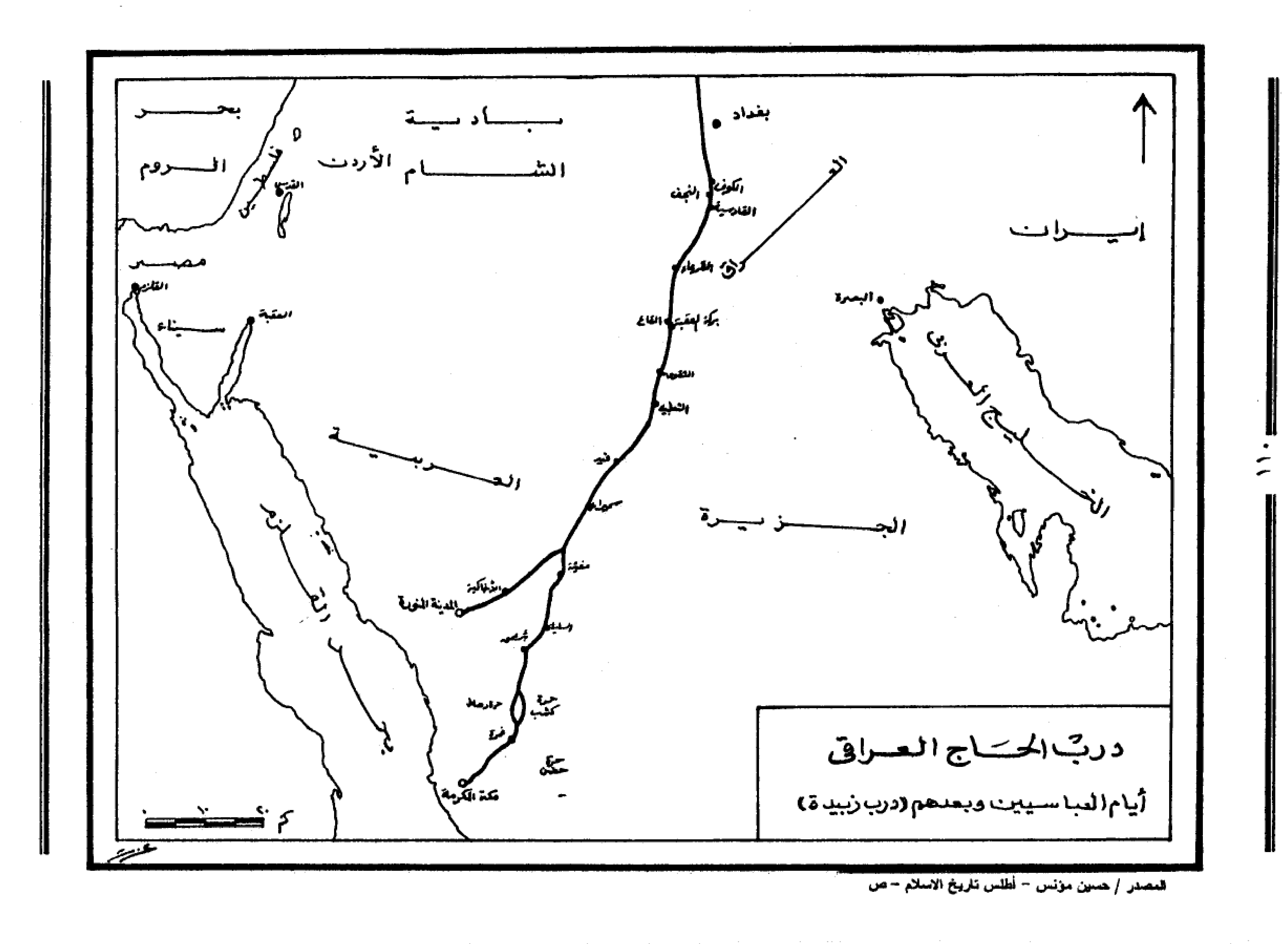
أصبح العباسيون منذ أواخر الدولة الأموية يعتقدون أنهم وحدهم أحق بخلافة الرسول (ص) – دون أبناء أعمامهم العلويين – لأنهم أولاد العباس عم الرسول (ص) والوارث له يوم وفاته، وقالوا إن العم أحق بوراثة ابن أخيه من أبناء العم، لذلك أكدوا على قرابتهم من الرسول (ص) وأنهم من عصبة الأنبياء.

ومن هذا المنطلق حرصوا على صبغ خلافتهم بطابع ديني وإكسابها نوعًا من القداسة، ولكي يزيد الخلفاء العباسيون من قداستهم أحاطوا أنفسهم بهالة من الدين وجذبوا الفقهاء والعلماء حولهم وتلقبوا بالأئمة وارتدوا بردة الرسول (ص) كرمز لسلطتهم الدينية وحرصوا على حضور مناسك الحج لتأكيد زعامتهم الروحية للعالم الإسلامي، وكان خروج الخلفاء لموسم الحج في موكب من أعظم المواكب الدينية في العصر العباسي الأول، أما وصولهم إلى بلاد الحجاز فكان مصدرًا لسعادة أهله لإغداقهم العطاء؛ عليهم بصفة عامة وعلى بني هاشم بصفة خاصة، وذلك لكسب ولائهم وتأييدهم للبيت العباسي.

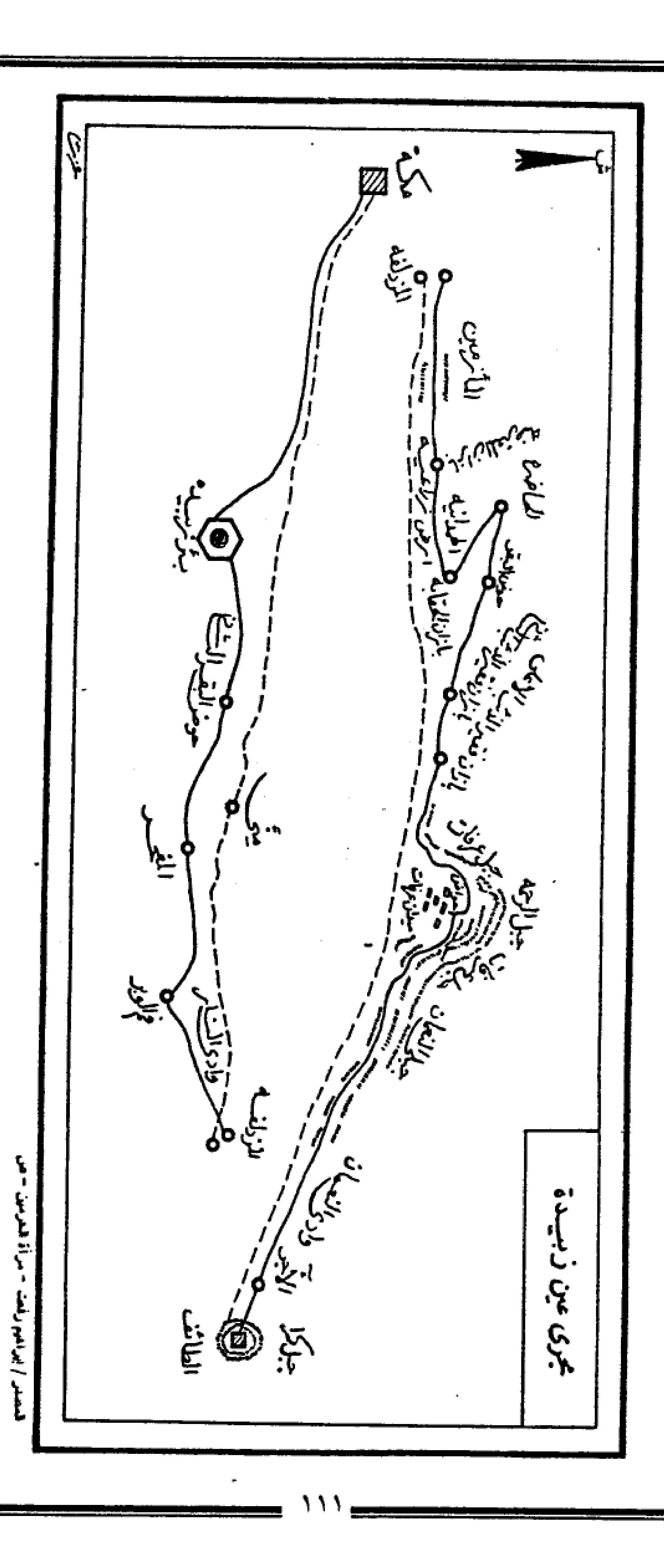
ولم تكن إقامة العباسيين في الحجاز قاصرة فقط على تأدية مناسك الحج، بل حرصوا أيضًا على تثبيت مركزهم السياسي في هذا الإقليم الذي شهد بعض الثورات التي قام بها العلويون من أجل المطالبة بحقهم في الخلافة.

ولما كان الاهتمام بالحج وما يتعلق به جزءًا من واجب الخلفاء العباسيين الديني الذي شرفوا به قبل الإسلام وبعده، لذلك اعتنوا أثناء تواجدهم في مواسم الحج بتوفير الراحة للحجاج وتمهيد الطريق من بغداد إلى مكة المكرمة وبناء العديد من الاستراحات وتوفير المياه داخل مكة المكرمة، هذا فضلاً عن اهتمامهم بالحرمين الشريفين وتوسعتهما وإحضار المهندسين للإشراف على بنائهما، بالإضافة إلى عنايتهم بكسوة الكعبة وتحليتها بأنفس الهدايا.

ومن كل ما تقدم نرى أن خلفاء العصر العباسي الأول قد استفادوا من الدين لتثبيت مركزهم السياسي، وفي ذلك يقول ابن طباطبا " إن هذه الدولة قد ساست العالم سياسة ممزوجة بالدين والملك، فكان أخيار الناس يطيعونها تدينًا والباقون يطيعونها رهبة ورغبة ".



المصدر / حسين مؤنس - أطلس تاريخ الاسلام - ص


مجرى عين زبيدة
مكة
الطائف

الهوامش :

١- عبدالمنعم ماجد : العصر العباسي الأول، ج١، القاهرة ١٩٨٤م، ص٢٢٠.

٢- اليعقوبي : تاريخ اليعقوبي، مج١، دار صادر، بيروت، ص ص٢٤٦-٢٤٧؛ ابن سعد : الطبقات الكبرى، دار صادر، بيروت، ج١، ص٨٣؛ البلاذري : أنساب الأشراف، تحقيق محمد حميد الله، دار المعارف، مصر، ج١، ص٧٨؛ Encyclopaedia of Islam, V.I, leyden, p. 52.

٣- ذكر فاروق عمر : أنه بعد وفاة عبدالمطلب بن هاشم خلفه ابنه الأكبر أبو طالب على الواجبات الدينية للحرم، ولم يظهر أبو طالب براعة سياسية وكفاءة، ولذلك تنازل عن السقاية لأخيه الأصغر العباس، (انظر العباسيون الأوائل، بيروت، ١٩٧٠م، ج١، ص١٦٧).

٤- ابن هشام: السيرة النبوية، تحقيق محمد فهمي السرجاني، ج١، دار التوفيقية بالأزهر، ١٩٧٨م، ص١٨٤؛

Encyclopaedia of Islam, V.I, p. 10

٥- نفس المصدر، ج١، ص١٨٤.

٦- عبدالمنعم ماجد : العصر العباسي الأول، ج١، ص ص٧٤ ، ٧٥.

٧- حسن إبراهيم حسن : تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي، ج٢، القاهرة، ١٩٨٦م، ص١١.

٨- شمس الدين السخاوي : التحفة اللطيفة في تاريخ المدينة الشريفة، ج٢، ١٩٧٩م، ص٢٨٦؛ محمد جمال الدين سرور : الحياة السياسية في الدولة العربية الإسلامية، دار الفكر العربي، ١٩٦٠م، ص١٧١؛ فاروق عمر: العباسيون الأوائل، ج١، ص٣٩؛

Shaban. M.A: The Abbasid Revolution, Cambridge, 1970, p.150

٩- شمس الدين السخاوي : التحفة اللطيفة، ج٢، ص٣٣٨؛ السيد عبدالعزيز سالم : العصر العباسي الأول، ج٣، الإسكندرية، ١٣٩٨هـ، ص٦؛ فاروق عمر : العباسيون الأوائل، ج١، ص٣٩.

١٠- انظر ياقوت الحموي : معجم البلدان، مج٢، بيروت، ١٩٨٤م، ص٣٠٧.

١١- فاروق عمر : العباسيون الأوائل، ج١، ص٤٠؛ السيد عبدالعزيز سالم : العصر العباسي الأول، ج٣، ص٦.

Shaban. M.A: The Abbasid Revolution, Cambridge, p.150

١٢- الكيسانية نسبة إلى كيسان رئيس حرس المختار بن أبي عبيد الثقفي، وقد نادى أصحاب هذه الفرقة بأن الإمام بعد الحسين هو أخوه محمد المعروف بابن الحنفية (انظر الشهرستاني: الملل والنحل، ج١، ص١٩٧).

١٣- ابن طباطبا : الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية، مصر، ١٣١٧هـ، ص١٢٧؛ حسن إبراهيم حسن : تاريخ الإسلام السياسي، ج٢، ص١٠؛ عبدالمنعم ماجد : العصر العباسي الأول، ج١، ص ص٢٢، ٢٣؛ فاروق عمر : طبيعة الدعوة العباسية، بيروت، ١٩٧٠م، ص١٥٣؛

Shaban. M.A: The Abbasid Revolution, Cambridge, p.150, 151

١٤- حسن إبراهيم حسن : تاريخ الإسلام السياسي، ج٢، ص١١.

١٥- الدينوري : الأخبار الطوال، تحقيق عبدالمنعم عامر، وزارة الثقافة والإرشاد، ص٣٣٢؛ محمد جمال الدين سرور : الحياة السياسية في الدولة العربية الإسلامية، ص ص١٧٢، ١٧٣؛ حسن أحمد محمود، أحمد إبراهيم الشريف : العالم الإسلامي في العصر العباسي، دار الفكر العربي، د.ت، ص١٥.

١٦- أحمد مختار العبادي : في التاريخ العباسي والفاطمي، دار النهضة العربية، بيروت، د.ت، ص٢٣.

١٧- ابن طباطبا : الفخري في الآداب السلطانية، ص١٢٧؛ حسن إبراهيم حسن: تاريخ الإسلام السياسي، ج٢، ص١٣؛ فاروق عمر : طبيعة الدعوة العباسية، ص١٥٣.

١٨- الدينوري : الأخبار الطوال، ص٣٣٩ وما والاها؛ السيد عبدالعزيز سالم : العصر العباسي الأول، ج٣، ص ص٢٨ ، ٢٩؛

Encyclopaedia of Islam, V.I, p. 14.

١٩- الطبري : تاريخ الأمم والملوك، طبعة ١٩٣٩م، ج٦، ص٨٧؛ حسن إبراهيم حسن : تاريخ الإسلام السياسي، ج٢، ص١٩؛

Cambridge : Medieval History, v.2, p. 364 ; Gibb. H.A.R: Mohammedanism, New York, 1949, p. 7.

٢٠- فاروق عمر : العباسيون الأوائل، ج١، ص١٧٨.

٢١- نفس المرجع، ج١، ص١٦٨.

٢٢- نفس المرجع، ج١، ص١٧٣؛ فاروق عمر : طبيعة الدعوة العباسية، ص٢٨١.

٢٣- عبدالمنعم ماجد : العصر العباسي الأول، ج١، ص٧٨.

٢٤- فاروق عمر : المرجع السابق، ج١، ص١٧٢-١٧٣.

٢٥- حسن إبراهيم حسن : تاريخ الإسلام السياسي، ج٢، ص١٢٤؛ أحمد مختار العبادي : في التاريخ العباسي والفاطمي، ص٥١؛ عطية أحمد القوصي : تاريخ الدولة العباسية، دار الثقافة العربية، د.ت، ص٩٩.

٢٦- ابن طباطبا : الفخري في الآداب السلطانية، ص ص ١٤٦، ١٤٧؛ محمد جمال الدين سرور : الحياة السياسية في الدولة العربية الإسلامية، ص١٩٥؛ فاروق عمر : العباسيون الأوائل، ج١، ص ص١٧٠، ١٧١.

٢٧- ابن طباطبا : الفخري في الآداب السلطانية، ص١٤٨؛ فاروق عمر: العباسيون الأوائل، ج١، ص١٧٤.

٢٨- نفس المرجع، ج١، ص١٩٧.

٢٩- الطبري : تاريخ الأمم والملوك، ج٦، ص١٥٨؛ حسن إبـراهيم حسـن : تاريخ الإسلام السياسي، ج٢، ص١٢٥؛ محمد جمال الدين سرور : الحياة السياسية في الدولة العباسية، ص١٩٥.

٣٠- الطبري : تاريخ الأمم والملوك، ج٦، ص١٦٠ وما والاها؛ أحمد مختـار العبادي : في التاريخ العباسي والفاطمي، ص٥١.

٣١- ابن دحية الكلبي : النبراس في تاريخ خلفاء بني العباس، تحقيـق عبـاس العزاوي، بغداد، ١٩٤٦م، ص٢٩؛ السيد عبدالعزيز سالم : العصر العباسي الأول، ج٣، ١١٢؛ عصام الدين عبدالرؤوف الفقي : الدولة العباسية، مكتبة نهضة الشرق، ١٩٨٧م، ص٢٩؛ عطية أحمد القوصي : تـاريخ الدولـة العباسية، ص١٠١.

٣٢- الطبري : تاريخ الأمم والملوك، ج٦، ص١٨٤ وما والاها؛ احمد مختـار العبادي : في التاريخ العباسي والفاطمي، ص ص٥١، ٥٢.

٣٣- أحمد أمين : ضحى الإسلام، ج٣، القـاهرة، ١٩٣٥م، ص ٣٨٦؛ السـيد عبدالعزيز سالم : العصر العباسي الأول، ج٣، ص١١٣ وما والاها.

٣٤- حسن إبراهيم حسن : تاريخ الإسلام السياسي، ج٢، ص١٣٣-١٣٤؛ محمد جمال الدين سرور : الحياة السياسية فـي الدولـة العربيـة الإسـلامية، ص١٩٩؛ عطية أحمد القوصي : تاريخ الدولة العباسية، ص١٠٣.

٣٥- أحمد مختار العبادي : في التاريخ العباسي والفاطمي، ص ص٥٢ ، ٥٣.

٣٦- لم يكن انضمام أهل الحجاز إلى محمد بسبب ميولهم العلوية، ولكن بسـبب معاداتهم للدولة العباسية دولة أهل العراق وخراسان (انظر فاروق عمـر: العباسيون الأوائل، ج١، ص١٩٧).

٣٧- الدينوري : الأخبار الطوال، ص٣٨٥؛ فاروق عمر : العباسيون الأوائـل، ج١، ص٢٠٢، ٢٠٣؛ أحمد مختـار العبـادي : فـي التـاريخ العباسـي والفاطمي، ص ص٥٢، ٥٣؛ عطية أحمد القوصي : تاريخ الدولة العباسية، ص١٠٣.

٣٨- فاروق عمر : العباسيون الأوائل، ج١، ص ص٢٠٢، ٢٠٣.

٣٩- نفس المرجع، ج١، ص٢١٣؛ أحمد مختار العبادي : في التاريخ العباسي والفاطمي، ص٦٧.

٤٠- الدينوري : الأخبار الطوال، ص٣٨٦؛ الطبري : تاريخ الأمم والملوك، ج٦، ص٤١٠ وما والاها؛ حسن إبراهيم حسن : تاريخ الإسلام السياسي، ج٢، ص١٣٨ ، ١٣٩.

٤١- نفس المرجع، ج٢، ص١٤٠؛ محمد جمال الدين سرور : الحياة السياسية في الدولة العربية الإسلامية، ص ص٢٠١، ٢٠٢.

٤٢- عبدالمنعم ماجد : العصر العباسي الأول، ج١، ص٢٢٠.

٤٣- الذهب المسبوك في ذكر من حج من الخلفاء والملوك، تحقيق جمال الدين الشيال، القاهرة، ٢٠٠٠م، ص ص٦٧ ، ٦٨.

٤٤- قام أبو جعفر المنصور بتأدية فريضة الحج عام ١٣٦هـ في عهد أبي العباس السفاح الذي أوعز إليه بأن تكون له إمارة الحج بدلاً من أبي مسلم الخراساني الذي كان يرى نفسه ندًا للمنصور، وقد استاء أبو مسلم من هذا التصرف، وقال " أما وجد الخليفة سنة أخرى يولي أخاه الحج فيها "؛ الذهبي : سير أعلام النبلاء، ج٦، تحقيق حسين الأسد، بيروت، ١٩٨٢م، ص٦٠، ٦١؛ ابن خلدون : العبر وديوان المبتدأ والخبر، مج٣، القسم الأول، دار الكتاب اللبناني، ص ص٣٨٣، ٣٨٤؛ أحمد مختار العبادي : في التاريخ العباسي والفاطمي، ص٤٥؛ حسن أحمد محمود، أحمد إبراهيم الشريف : العالم الإسلامي في العصر العباسي، ص١٠٢، ١٠٣.

٤٥- كان المنصور إذا لم يحج يذهب إلى بيت المقدس ويصلي في مسجدها، عبدالمنعم ماجد : العصر العباسي الأول، ج١، ص٢٢٠، حاشية ١.

٤٦- انظر : ابن الأثير : الكامل في التاريخ، مج٦، بيروت، د. ت، ص١٩ وما والاها؛ أبو الفداء : المختصر في أخبار البشر، ج٢، بيروت، د.ت، ص٧.

٤٧- ابن كثير : البداية والنهاية، ج١٠م، بيروت، ١٩٨٣م، ص١٢٧.

٤٨- الطبري : تاريخ الأمم والملوك، ج٦، ص ص٣٤٨، ٣٤٩.

٤٩- نفس المصدر، ج٦، ص ص٣٤٩، ٣٥٠؛ حسن ابراهيم حسن : تاريخ الإسلام السياسي، ج٢، ص٣٩.

٥٠- ابن دحية الكلبي : النبراس في تاريخ خلفاء بني العباس، ص٢٩؛ أبوالفداء: المختصر في أخبار البشر، ج٢، ص٧.

٥١- الخطيب البغدادي : تاريخ بغداد، دار الكتب العلمية، بيروت، د.ت، ص٦٥؛ المقريزي : الذهب المسبوك، ص٧٣.

٥٢- سليمان عبدالغني مالكي : بلاد الحجاز، الرياض، ١٩٨٣م، ص١٦٢.

٥٣- الطبري : تاريخ الأمم والملوك، ج٦، ص٣٧٢؛ المقريزي : الذهب المسبوك، ص٧٦.

٥٤- نفس المصدر، ص٧٨.

٥٥- نفس المصدر، ص٨٢.

٥٦- نفس المصدر، ص٨١.

٥٧- اليعقوبي : تاريخ اليعقوبي، مج٢، دار صادر، بيروت، د.ت، ص٤٣٠؛ المقريزي : الذهب المسبوك، ص٧٩ وما والاها.

٥٨- خرج الوليد بن طريف الشاري الشيباني على هارون الرشيد عام ١٧٨هـ وانتصر على جيوشه أكثر من مرة، فقتل والي نصيبين، ثم مضى إلى أرمينية وأذربيجان وعاث فيها فسادًا، ثم عاد إلى الجزيرة عام ١٧٩هـ وعبر نهر دجلة حتى وصل إلى حلوان واشتدت شوكته وكثر أتباعه، فبعث الرشيد يزيد بن مزيد الشيباني وسرعان ما حلت الهزيمة بجند الوليد بن طريف وقتل. الطبري : تاريخ الأمم والملوك، ج٦، ص٤٦٥.

٥٩- كان الخلفاء العباسيون إذا ذهبوا إلى المدينة ينزلون دار العمالة في المدينة، وهي دار جدهم العباس التي اتخذها مروان مركزًا له ومن يومها سميت بدار مروان، وكانت في هذه الدار حجرة لجلوس الخليفة تُعرف بحجرة القبة العظمى لأنه كان عليها قبة عظيمة أروقتها مغطاة بالستور وأنها كانت

توقد في بعض نواحيها بالشمع، فكان الخليفة يجلس على بساط وليس تحته وسادة ولا مصلى تواضعًا. عبدالمنعم ماجد : العصر العباسي الأول، ج١، ص ص٢٢٤، ٢٢٥.

٦٠- ذكر المقريزي أنه لم يعرف من ملوك الدنيا ملكًا حج ماشيًا سوى ملكين: هرقل بن هرقل الذي حج من حمص إلى ايلياء ــ بيت المقدس ــ ماشيًا ووافاه كتاب الرسول (ص) في سفره هذا يدعوه إلى الإسلام، والملك الثاني هارون الرشيد، (الذهب المسبوك، ص٨٠).

٦١- كان هذا القسم قد أقسمه الرشيد لأخيه الهادي بخصوص جارية لموسى الهادي تسمى " أمة العزيز " وكان موسى يحبها حبًا شديدًا، وكانت تحسن الغناء، وبينما كانت تغني له يومًا خشي أن يموت ويتزوج بها هارون الرشيد، فاستدعى هارون وأخبره بما وقع في خاطره واستحلفه بالأيمان المغلظة من الطلاق والعتاق والحج ماشيًا حافيًا أن لا يتزوجها، فحلف له واستحلف الجارية فحلفت له، ومات الهادي بعد شهرين ثم تزوجها الرشيد وكفر عن قسمه بالحج ماشيًا. ابن كثير : البداية والنهاية، ج١٠، ص١٦٤.

٦٢- ابن الأثير : الكامل في التاريخ، مج٣، ص١٧٣؛ يوسف أحمد : المحمل والحج، ج١، القاهرة، ١٩٣٧م، ص ص١٨٨، ١٨٩؛ فريد رفاعي : عصر المأمون، دار الكتب، ١٩٢٧م، ص٢٤٤ وما والاها.

٦٣- الأزرقي : أخبار مكة، مكة، ١٩٩٤م، ص١٥٤؛ علي حبيبة : العباسيون في التاريخ، القاهرة، ١٩٧٩م، ص٢١٨.

٦٤- يحدثنا المسعودي عن آخر حجة لهارون الرشيد بقوله " وفي سنة ثمان وثمانين ومائة حج الرشيد، وهي آخر حجة حجها فذُكر عن أبي بكر بن عياش ــ وكان من عليه أهل العلم ــ أنه قال وقد اجتاز الرشيد بالكوفة في حال منصرفه من هذه الحجة : لا يعود إلى هذا الطريق ولا خليفه من بني العباس بعده أبدًا، فقيل له : أضرب من الغيب ؟ قال نعم، قيل : بوحي، قال نعم، قيل : إليك ؟ قال لا إلى محمد (ص) وكذلك أخبر عنه على المقتول في هذا الموضع وأشار إلى الموضع الذي قتل فيه علي بالكوفة رضي الله

عنه. (مروج الذهب ومعادن الجوهر، تحقيق محمد محي الدين عبدالحميد، ج٣، ١٩٦٤م، ص ص٣٥٣، ٣٥٤).

٦٥- يرى جمال الدين الشيال أن عدم قيام الخلفاء بالحج بعد الرشيد يرجع إلى شغلهم بما أصاب الدولة من ضعف وانقسام، (المقريزي: الذهب المسبوك، ص٨٩، حاشية ٤).

٦٦- عبدالمنعم ماجد : العصر العباسي الأول، ج١، ص٢٢٠.

٦٧- المقريزي : الذهب المسبوك، ص٨٩.

٦٨- عبدالمنعم ماجد : العصر العباسي، ج١، ص٢٢٠.

٦٩- ذكر الماوردي أن أمير الحاج ينظر في عشرة أشياء " أحدها جمع الناس في مسيرهم ونزولهم حتى لا يتفرقوا، والثاني ترتيبهم في المسير والنزول وإعطاء كل طائفة منهم مقادًا حتى يعرف كل فريق منهم مقاده إذا سار، ويألف مكانه إذا نزل، والثالث أن يرفق بهم في السير حتى لا يعجز عنه ضعيفهم ولا يضل عنه منقطعهم، والرابع أن يسلك بهم أوضح الطرق وأخصبها ويتجنب أجدبها وأوعرها، والخامس أن يرتاد لهم المياه إذا انقطعت والمراعي إذا قلت. والسادس أن يحرسهم إذا نزلوا ويحوطهم إذا رحلوا حتى لا يختلطهم ذاعر ولا يطمع فيهم متلصص، والسابع أن يمنع عنهم من يصدهم عن المسير ويدفع عنهم من يحصرهم عن الحج، بقتال إن قدر عليه أو ببذل مال إن أجاب الحجيج إليه. والثامن أن يصلح بين المتشاجرين ويتوسط بين المتنازعين، والتاسع أن يقوم زائغهم ويؤدب خائنهم ولا يجاوز التعزير إلى الحد، والعاشر أن يراعى اتساع الوقت حتى يؤمن القوات ولا تلجئهم ضيقة إلى الحث في المسير، فإذا وصل إلى الميقات أمهلهم للإحرام وإقامة سنته، فإذا كان الوقت متسعًا عدل بهم إلى مكة ليخرجوا مع أهلها إلى المواقف، وإن كان الوقت ضيقًا عدل بهم عن مكة إلى عرفة خوفًا من فواتها فيفوت الحج بها ... " (الأحكام السلطانية، مصر، ١٢٩٨هـ، ص١٠٣ وما والاها).

٧٠- جميل نخلة المدور: كتاب حضارة الإسلام في دار السلام، مصـــر ١٨٨٨م، ص٦٩؛ حسن إبراهيم حسن: تاريخ الإسلام السياسي، ج٢، ص٤٣٩-٤٤٠.

٧١- جميل نخلة المدور : حضارة الإسلام في دار السلام، ص٦٩ وما والاها.

٧٢- ابن الأثير : الكامل في التاريخ، مج٦، ص٤٩.

٧٣- عبدالمنعم ماجد : العصر العباسي الأول، ج١، ص٢٢٤.

٧٤- ابن خلدون : العبر وديوان المبتدأ والخبر، مج٣، ص٤٤٤.

٧٥- البداية والنهاية، ج١٠، ص١٣٢.

٧٦- المقريزي : الذهب المسبوك، ص٨٢.

٧٧- نفس المصدر، ص٨٢.

٧٨- الكامل في التاريخ، مج٦، ص١٧٢.

٧٩- عمر رضا كحالة : أعلام النساء، ج٢، مؤسسة الرسالة، ص٢٧.

٨٠- جميل نخلة المدور: كتاب حضارة الإسلام في دار السلام، ص٣٣٨-٣٣٩.

٨١- عبدالمنعم ماجد : العصر العباسي الأول، ج١، ص٢٢٤.

٨٢- الذهب المسبوك، ص٦٩.

٨٣- عبدالمنعم ماجد : العصر العباسي الأول، ج١، ص٢٢٢.

٨٤- المقريزي : الذهب المسبوك، ص ص٦٨، ٦٩.

٨٥- المفرد : المصنعة وهو مكان كالحوض يجمع فيه ماء المطر؛ (ابن منظور: لسان العرب، ج٤، دار المعارف، مصر، ١٩٨١م، ص٢٥٠٩).

٨٦- الركية : البئر تحفر، الجمع رُكى أو ركايا (ابن منظور : لســان العــرب، ج٣، ص١٧٢٢).

٨٧- ابن الأثير : الكامل في التاريخ، مج٦، ص٥٥؛ ابن خلدون : العبر وديوان المبتدأ والخبر، مج٣، ص٤٤٤.

٨٨- ابن كثير : البداية والنهاية، ج١٠، ص١٣٣.

٨٩- ذكر نظير حسان سعداوي أن بعض المؤرخين قد ظن خطـأ أن الخليفـة المهدي هو أول من رتب البريد في الإسلام ضاربين صفحًا على مجهودات أبيه أبي جعفر المنصور ومن سبقه من خلفاء بني أمية. (نظام البريد فـي الدولة الإسلامية، دار مطبعة مصر، ١٩٥٣م، ص٥٨).

٩٠- السيوطي : تاريخ الخلفاء، تحقيق قاسم الشماعي الرفاعي، محمد العثماني، دار القلم، بيروت، ص٣١٥؛ نظير حسان سعداوي : نظام البريد في الدولة الإسلامية، ص٥٨.

٩١- ابن كثير : البداية والنهاية، ج١٠، ص١٣٣.

٩٢- عبدالمنعم ماجد : العصر العباسي الأول، ج١، ص٢٢٣.

٩٣- عمر رضا كحالة : أعلام النساء، ج٢، ص ص٢٧ ، ٢٨.

٩٤- عبدالمنعم ماجد : العصر العباسي الأول، ج١، ص٢٢٣.

٩٥- رحلة ابن جبير : دار الكتاب اللبناني، ج١، ص٢٢٣.

٩٦- إبراهيم رفعت : مرآة الحـرمين، ج١، مطبعـة دار الكتـب المصـرية، ١٩٢٥م، ص٢١٠.

٩٧- سليمان عبدالغني مالكي : بلاد الحجاز، ص١٣٣.

٩٨- نفس المرجع، ص ص١٣٤، ١٣٥؛ عمر رضا كحالة : أعلام النساء، ج٢، ص٢٧.

٩٩- إبراهيم رفعت : مرآة الحرمين، ج١، ص٢١٤.

١٠٠- الفاكهي : أخبار مكة في قديم الدهر وحديثـه، ج١، مكـة، ١٩٩٤م، ص ص١٦٢، ١٦٥.

١٠١- سليمان عبدالغني مالكي : بلاد الحجاز، ص١٦١.

١٠٢- إبراهيم رفعت : مرآة الحرمين، ج١، ص٢٣٧.

١٠٣- الفاكهي : أخبار مكة في قديم الدهر وحديثه، ص١٦٥؛ سليمان عبـدالغني مالكي : بلاد الحجاز، ص١٦٢.

١٠٤- ابن الأثير : الكامل في التاريخ، مج٦، ص٧٦؛ إبراهيم رفعت : مرآة الحرمين، ج١، ص٢٣٨.

١٠٥- الفاكهي : أخبار مكة، ص١٦٥.

١٠٦- إبراهيم رفعت : مرآة الحرمين، ج١، ص٢٣٨؛ يوسف أحمد : المحمل والحج، ح١، ص١٤٨.

١٠٧- سليمان عبدالغني مالكي : بلاد الحجاز، ص١٦٩.

١٠٨- ابن كثير : البداية والنهاية، مج١٠، ص ص١٣٢، ١٣٣؛ عبدالمنعم ماجد : العصر العباسي الأول، ج١، ص٢٢١-٢٢٢.

١٠٩- ابن خلدون : العبر وديوان المبتدأ والخبر، ص٤٤٤.

١١٠- عبدالمنعم ماجد : العصر العباسي الأول، ج١، ص٢٢٢.

١١١- لم يكن الخلفاء العباسيون أو من كسوا الكعبة في الإسلام، فقد كساها النبي (ص) وأبو بكر الحبر اليمانية، وكساها عمر وعثمان القباطي المصرية، وكساها عثمان أيضًا البرود اليمانية وهو أول من ظاهر لها بين كسوتين، وكان عمر ينزع كسوتها كل سنة ويستبدل لها جديدة، ويقسم الأولى بين الحاج، وكساها عبدالله بن عمر ما كان يجلل به بدنه من القباطي والحبرات والأنماط، وكساها كذلك معاوية. وكانت تكسى الديباج يوم عاشوراء، والقباطي في اليوم التاسع والعشرين من رمضان، وكساها الديباج يزيد بن معاوية وابن الزبير وعبدالله بن مروان، وكساها هشام بن عبدالملك ديباجًا غليظًا، وأغلب كسوة من كان قبله من متاع اليمن. (الأزرقي : أخبار مكة، ص١٦٩-١٧٠؛ يوسف أحمد : المحمل والحج، ج١، ص٢٣٦-٢٣٧؛ إبراهيم رفعت : مرآة الحرمين، ج١، ص٢٨٢).

١١٢- كانت كسوة الكعبة تصنع في دور الطراز بالمدن المصرية وبخاصة تنيس وشطا وتونة ودمياط. (المقريزي : الذهب المسبوك، ص٧٤، حاشية ٤).

١١٣- المقريزي : المواعظ والاعتبار في ذكر الخطط والآثار، ج١، دار صادر، بيروت، ص١٨١؛ يوسف أحمد، المحمل والحج، ج١، ص٢٣٧.

١١٤- ذُكِر أن المهدي استفتى الإمام مالك في إعادة الكعبة إلى ما كانت عليه من بناية ابن الزبير فقال مالك : دعها فإني أخشى أن يتخذها الملـوك ملعبـة فتركها على ما هي. (ابن كثير : البداية والنهاية، ج١٠، ص١٣٢).

١١٥- الأزرقي: أخبار مكة، ص١٧٦؛ المقريزي: الذهب المسبوك، ص ص٧٥،٧٣؛ جميل نخلة المدور : حضارة الإسلام في دار السلام، ص١٠٧-١٠٨.

١١٦- المقريزي : المواعظ والاعتبار في ذكر الخطط والآثـار، ج١، ص١٨١؛ يوسف أحمد : المحمل والحج، ج١، ص٢٣٨.

١١٧- كان الأمويون يرسلون كسوتين للكعبة : إحداها قباطي وأخرى من الحرير، الأولى في رمضان، والثانية في المحرم. (عبـدالمنعم ماجـد : العصـر العباسي الأول، ج١، ص٢٢١، حاشية ٤).

١١٨- كانت الكسوة قبل عهد المأمون سوداء اللون كشعار العباسيين. (عبـدالمنعم ماجد، العصر العباسي الأول، ج١، ص٢٢١).

١١٩- الأزرقي : أخبار مكة، ص١٧٠؛ إبراهيم رفعت، مـرآة الحـرمين، ج١، ص٢٨٣.

١٢٠- عبدالمنعم ماجد : العصر العباسي الأول، ج١، ص٢٢٣-٢٢٤.

١٢١- لم يكن الخلفاء العباسيون أول من اهتم بإرسال الهدايا إلى الكعبة وتحليتها، فقد سبقهم في الجاهلية الفرس حيث أهدى ساسان بن بابك من ملوك الفرس للكعبة غزالين من ذهب وجواهر وسيوفٍ كثيرة من الذهب ودُفِنّ ذلك فـي زمزم، وقد عثر عبدالمطلب جد الرسـول (ص) علـى هـذين الغـزالين فأهداهما للكعبة ... ويقال : إن كلاب بن مرة أول من جعل فـي الكعبـة السيوف المحلاة بالذهب والفضة ذخيرة لها. ولما فتح عمر بـن الخطـاب مدائن كسرى كان مما بُعث إليه هلالان فعلقهما في الكعبة، وفي العصـر الأموي بعث عبدالملك بن مروان بالشمسيتين وقدحين من قوارير، وبعـث ابنه الوليد بقدحين، وبعث الوليد بن يزيد بالسرير (الكرسـي) وبهلالـين، (الأزرقي : أخبار مكة، ص١٤٧؛ مطهر بن طـاهر المقدسـي : البـدء

والتاريخ، ج٤، مؤسسة الخانجي، مصر، ١٩٠٧م، ص١١٤؛ إبراهيم باشا رفعت : مرآة الحرمين، ص٢٧٨-٢٧٩.

١٢٢- الأزرقي : أخبار مكة، ص١٤٧-١٤٨؛ يوسف أحمد : المحمل والحج، ج١، ص٢١٦-٢١٧.

١٢٣- لم يكن عهد هارون الرشيد أول ما علق في الكعبة فقد سبقه (صحيفة قريش) التي كُتبت في عهد الرسول (ص) وذلك عندما رأت قريش ارتفاع راية الإسلام اجتمعوا وتآمروا أن يكتبوا كتابًا يتعاقدون فيه على بني هاشم وبني المطلب أن لا ينكحوا إليهم ولا ينكحوهم ولا يبيعوا منهم شيئًا ولا يتبايعوا منهم، ولا يقبلوا منهم صلحًا أبدًا حتى يسلموا رسول الله (ص) للقتل، وكتبوه في صحيفة بخط " منصور بن عكرمة " وقيل " بغيض بن عامر " فشلت يده، وعلقوا الصحيفة في جوف الكعبة في هلال المحرم سنة سبع من البعثة النبوية فانحاز بنو هاشم وبنو المطلب إلى أبي طالب فدخلوا معه في شعبه إلاّ أبو لهب فكان مع قريش، فأقاموا على ذلك سنتين حتى جهدوا وكان لا يصل إليهم شيء إلاّ سرًا، ثم قال رجلان في نقض الصحيفة فأطلع الله نبيه على أن الأرضة أكلت جميع ما فيها من القطيعة والظلم فلم تدع إلاّ اسم الله تعالى، فلما أنزلت لتمزق وجدت كما قال الرسول (ص). (ابن هشام : السيرة النبوية، ج١، ص٣٣٩).

١٢٤- الطبري : تاريخ الأمم والملوك، ج٦، ص٤٧٥-٤٧٦؛ ابن الأثير : الكامل في التاريخ، مج٦، ص١٧٣؛ السيوطي : تاريخ الخلفاء، ص٣٣١.

١٢٥- يذكر أن هذين الكتابين ظلا معلقين في جوف الكعبة حتى مات هارون الرشيد، وبعد وفاته بسنتين في خلافة الأمين طلب الفضل بن الربيع من محمد بن عبدالله بإتيانه بهما فنزعهما من الكعبة وذهب بهما إلى بغداد فأخذهما الفضل فخرقهما وأحرقهما بالنار. (الأزرقي : أخبار مكة، ص١٦٠؛ يوسف أحمد : المحمل والحج، ج١، ص١٩٦).

١٢٦- الأزرقي: أخبار مكة، ص١٥٤؛ يوسف أحمد : المحمل والحج، ج١، ص١٨٩.

المصادر والمراجع

أولاً : المصادر :

١- **ابن الأثير (علي بن أحمد بن أبي الكرم، ت ٦٣٠هـ) :**

- الكامل في التاريخ، مج٦، بيروت، ١٩٨٤م.

٢- **ابن جبير (محمد بن أحمد بن جبير، ت ٦١٤هـ) :**

- رحلة ابن جبير، دار الكتاب اللبناني، ١٩٨٠م.

٣- **ابن خلدون (عبدالرحمن بن محمد ٨٠٨هـ) :**

- العبر وديوان المبتدأ والخبر، مج٣، دار الكتاب اللبناني، ١٩٩٢م.

٤- **ابن دحية الكلبي (أبو الخطار عمر) :**

- النبراس في تاريخ خلفاء بني العباس، تحقيق عباس العزاوي، بغداد، ١٩٤٦م.

٥- **ابن سعد (محمد ت ٢٣٠هـ) :**

- الطبقات الكبرى، ج١، دار صادر، بيروت، ١٩٦٨م.

٦- **ابن طباطبا (محمد بن علي بن طباطبا المعروف بابن الطقطقي) :**

- الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية، مصر ١٣١٧هـ.

٧- **ابن كثير (عماد الدين أبو الفدا إسماعيل، ت ٧٧٤هـ) :**

- البداية والنهاية، ج١٠، ١٩٨٣م.

٨- **ابن منظور (أبو الفضل محمد بن مكرم، ت ٧١١هـ) :**

- لسان العرب، ج٣، ج٤، دار المعارف، مصر، ١٩٨١م.

٩- **ابن هشام (أبو محمد عبدالملك بن هشام المعافري، ت ٢١٣هـ) :**

- السيرة النبوية، تحقيق محمد فهمي السرجاني، ج١، دار التوفيقية، الأزهر، ١٩٧٨م.

١٠- **أبو الفدا (إسماعيل بن علي، ت ٧٣٢هـ) :**

- المختصر في أخبار البشر، ج٢، بيروت، د.ت.

١١- الأزرقي (أبو الوليد محمد بن عبدالله، ت ٢٣٣هـ) :

- أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار، بيروت، ١٩٧٩م.

١٢- البلاذري (أحمد بن يحيى بن جابر، ت ٢٧٩هـ) :

- أنساب الأشراف، تحقيق محمد حميد الله، ج١، دار المعارف، مصر، ١٩٤٥م.

١٣- الخطيب البغداد (أبو أحمد بن علي، ت ٤٦٣هـ) :

- تاريخ بغداد، ج١، دار الكتب العلمية، بيروت، د. ت.

١٤- الدينوري (أبو حنيفة أحمد بن داود، ت ٢٨٢هـ) :

- الأخبار الطوال، تحقيق عبدالمنعم عامر، بغداد، د.ت.

١٥- الذهبي (شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان، ت ٧٤٨هـ) :

- سير أعلام النبلاء، ج٦، تحقيق حسين الأسد، بيروت، ١٩٨٢م.

١٦- السخاوي (شمس الدين) :

- التحفة اللطيفة في تاريخ المدينة الشريفة، ج٢، ١٩٧٩م.

١٧- السيوطي :

- تاريخ الخلفاء، تحقيق قاسم الشماعي الرفاعي، محمد العثماني، دار القلم، بيروت، د.ت.

١٨- الشهرستاني (أبو الفتح محمد بن عبدالكريم، ت ٥٤٨هـ) :

- الملل والنحل، ٥ أجزاء، القاهرة، ١٣١٧هـ.

١٩- الطبري (أبو جعفر محمد بن جرير الطبري، ت ٣١٠هـ) :

- تاريخ الأمم والملوك، ج٦، طبعة ١٩٣٩م.

٢٠- الفاكهي (أبو عبدالله محمد بن إسحاق بن العباس) :

- أخبار مكة في قديم الدهر وحديثه، تحقيق عبدالملك عبدالله، ج١، مكة، ١٩٩٤م.

٢١- **الماوردي (أبو الحسن علي البصري، ت ٤٥٠هـ) :**

- الأحكام السلطانية، مصر، ١٢٩٨هـ.

٢٢- **المسعودي (أبو الحسن علي، ت ٤٥٠هـ) :**

- مروج الذهب ومعادن الجوهر، تحقيق محمد محيي الدين عبدالحميد، ١٩٦٤م.

٢٣- **مطهر بن طاهر المقدسي :**

- البدء والتاريخ، ج٤، مؤسسة الخانجي، مصر، ١٩٠٧م.

٢٤- **المقريزي :**

- الذهب المسبوك في ذكر من حج من الخلفاء والملوك، تحقيق جمال الدين الشيال، القاهرة، ٢٠٠٠م.

٢٥- **ياقوت الحموي (شهاب الدين أبو عبدالله الحموي الروم، ت ٦٢١هـ) :**

- معجم البلدان، ٥ أجزاء، بيروت، ١٩٨٤م.

٢٦- **اليعقوبي :**

- تاريخ اليعقوبي، مج١، دار صادر، بيروت، د. ت.

ثانيًا : **المراجع** :

١- **إبراهيم رفعت :** مرآة الحرمين، ج١، دار الكتب المصرية، ١٩٢٥م.

٢- **أحمد أمين :** ضحى الإسلام، ج٣، القاهرة، ١٩٣٥م.

٣- **أحمد مختار العبادي :** في التاريخ العباسي والفاطمي، دار النهضة العربية، بيروت، د.ت.

٤- **جميلة نخلة المدور :** كتاب حضارة الإسلام في دار السلام، مصر، ١٨٨٨م.

٥- **حسن إبراهيم حسن :** تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي، ج٢، القاهرة، ١٩٨٦م.

٦- **حسن أحمد محمد، أحمد إبراهيم الشريف** : العالم الإسـلام فـي العصـر العباسي، دار الفكر العربي، د.ت.

٧- **سليمان عبدالغني مالكي** : بلاد الحجاز، الرياض، ١٩٨٣م.

٨- **السيد عبدالعزيز سالم** : العصر العباسي الأول، الإسكندرية، ١٣٩٨هـ.

٩- **عصام الدين عبدالرؤوف الفقي** : الدولة العباسية، مكتبة نهضـة الشـرق، ١٩٨٧م.

١٠- **عطية أحمد القوصي** : تاريخ الدولة العباسية، دار الثقافة العربية، د.ت.

١١- **علي حبيبة** : العباسيون في التاريخ، القاهرة، ١٩٧٩م.

١٢- **عمر رضا كحالة** : أعلام النساء، ج٢، مؤسسة الرسالة، د.ت.

١٣- **فاروق عمر** : - طبيعة الدعوة العباسية، بيروت، ١٩٧٠م.

العباسيون الأوائل، بيروت، ١٩٧٠م.

١٤- **فريد رفاعي** : عصر المأمون، دار الكتب، بيروت، ١٩٢٧م.

١٥- **محمد جمال الدين سرور** : الحياة السياسية في الدولة العربية الإسـلامية، دار الفكر العربي، ١٩٦٠م.

١٦- **نظير حسان سعداوي** : نظام البريد في الدولـة الإسـلامية، دار مطبعـة مصر، ١٩٥٣م.

١٧- **يوسف أحمد** : المحمل والحج، ج١، القاهرة، ١٩٣٧م.

ثالثاً : **المراجع الأجنبية** :

1- **Cambridge :** Medieval History, V.2, Cambridge, 1975.

2- **Encyclopedia of Islam**, V.1, Leyden.

3- **Gibb, H.A.R :** Mohammedanism, New York, 1949.

4- **Shaban, M.A. :** The Abbasid Revolution, Cambridge, 1970.

أثر الأندلس الحضاري في الإدارة
على المغرب في عصري المرابطين والموحدين

د. يحيى بن حمزة الوزنة السليماني
جامعة أم القرى – كلية الشريعة
قسم التاريخ والحضارة الإسلامية

مقدمة :

لقد أقام المسلمون في الأندلس حوالي ثمانية قرون أثروا وتأثروا بمـــا كـــان موجود من الحضارة، ونظرًا لأهمية الأندلس لما تتمتع به من موقع اســـتراتيجي، ولقربه من المغرب، فقد قمنا بدراسة أثر الأندلس الحضـــاري فـــي الإدارة علـــى المغرب في عصري المرابطين والموحدين، تضمنت الدراسة :

أولاً : الوزارة والحجابة، حيث نجد في الأندلس تعدد في مناصب الوزارة لا نجده في نظام الوزارة بالشرق، حيث كانت السلطة مركزة في يد وزير واحـــد أو اثنان قلما وجد فالوزارة في الأندلس كانت قريبة الشبه بنظام الوزارات الحديثة، أما الحاجب في الأندلس لم يكن ذلك الرجل الذي يقف بباب الخليفة ليحجبه عن الخاصة والعامة، كما كان الحال في الشرق وإنما قصد به رئيس الـــوزارة أو مـــا يســـمى بالوزير في المشرق.

ثانيًا : تدوين الدواوين وقد قامت عند المرابطين والموحدين من بعدهم على نفس النمط المعمول به في العدوة الأندلس، لأن رؤساء هذه الدواوين كـــانوا مـــن الأندلس.

ثالثًا : القضاء والقضاة، نجد أن القضاء في المشرق اتسم بطابع المركزيـــة بينما اتبع في الأندلس نظام اللامركزية.

رابعًا : العدالة، عرفت في الأندلس وهي وظيفة دينية تابعة للقضاء، وقد طبق نفس نظام الوظيفة في دولة المرابطين والموحدين.

خامسًا : الحسبة، كانت في الأندلس نوعًا من أنواع القضاء، ولقد اعتمد المغاربة على المؤلفات الأندلسية في الحسبة.

سادسًا : الشرطة عرفت في الأندلس منذ عهد مبكر، وقد اتبع المرابطون والموحدون نفس النظام المتبع في الأندلس.

هذا ما توفر للدراسة وبالله التوفيق.

الوزارة والحجابة :

وجدت خطة الوزارة في الأندلس منذ قيام الدولة الأموية، ويشهد بذلك ابن عذاري[1] الذي أورد في ترجمة كل أمير أموي وعدد وزرائه، وأحيانا يذكر أسماءهم أيضًا، وكان منصب الوزير في بادئ الأمر يشبه مدلوله ما كان سائدًا في بقية أنحاء العالم الإسلامي، ثم جاء الأمير عبدالرحمن الثاني (٢٠٧-٢٣٨هـ/ ٨٢٢-٨٥٢م) والذي أعاد ترتيب الجهاز الحكومي في الأندلس، وأجرى تعديلات في الوظائف العامة التي كانت الوزارة واحدة منها فخصصها بعناية، وقسمها إلى عدة وزارات مختلفة، وقد أمدنا كل من ابن حيان وابن خلدون وابن سعيد، بمعلومات هامة عن هذه القاعدة الثانية في الدولة، فقال ابن حيان[2] " والأمير: عبدالرحمن أول من ألزم الوزراء على الاختلاف إلى القصر كل يوم، والتكلم معهم في الرأي، والمشورة لهم في النوازل، وأفرد لهم بيتًا رفيعًا داخل قصره مخصوصًا بهم، يقصدون إليه ويجلسون فيه فوق أرائك، قد نضدت لهم فكان يستدعيهم إذا شاء إلى مجلسه جماعة وأشتات، ويخوض معهم فيما يطالع به من أمور مملكته، ويفحص معهم الرأي فيما يبرمه من أحكامه، وإذا قعدوا في بيتهم (أي بيت الوزارة) أخرج رقاعه ورسائله إليهم بأمره ونهيه، فينظرون فيما يصدر إليهم من عزائمه .. وجرى على ذلك من تلاهم "[3]. ويشير ابن عذاري إلى أن وزراء الأمير عبدالرحمن الثاني كانوا تسعة، وأن رزق كل واحد كان ثلاثمائة دينار[4].

ولم يحدد ابن عذاري المدة المستحقة لهذا الراتب، وإن كان يبدو أنه عن كل شهر في الغالب[5]، وهذا يعتبر قليلاً إذا قورن براتب الوزير في بغداد أو القاهرة أو في قرطبة فيما بعد[6]، كما أمدنا ابن خلدون ببعض التفصيلات عن اختصاص كل وزير في الخطبة بقوله " وأما دولة بني أمية بالأندلس فأبقوا اسم الوزير في مدلوله أول الدولة، ثم قسموا خطته أصنافا، وأفردوا لكل صنف وزيره، فجعلوا لحسبان المال وزيرًا، وللترسيل وزيرًا، وللنظر في حوائج المتظلمين وزيرًا، وللنظر في أحوال أهل الثغور وزيرًا، وجعل لهم بيتًا يجلسون فيه على فرش منضدة لهم، وينفذون أمر السلطان هناك كل فيما جعل له، وأفرد للتردد بينهم وبين الخليفة واحد

منهم ارتفع عنهم بمباشرة السلطان في كل وقت، فارتفع مجلسه عن مجالسهم وخصوه باسم الحاجب، ولم يزل الشأن إلى أخر دولتهم "[٧].

هذا ويضيف ابن سعيد المغربي أن مناصب الوزارة في الأندلس، كانت لأهميتها كالمتوارثة عندهم في البيوت والعائلات المعلومة[٨]. من هذه النصوص السابقة، نفهم أنه كان يوجد بالأندلس على عهد الدولة الأموية، وزارة متعددة المناصب لها رئيس وزراء وهو الحاجب الذي يتصل بالخليفة وهذا التعدد في مناصب الوزارة، لا نجده في نظام الوزارة بالشرق العربي، حيث كانت السلطة مركزة في يد وزير واحد قلما وجد وزيران، أما في الأندلس فكل ناحية من نواحي الإدارة العامة لها وزير مختص بها، ثم هناك الرئاسة العامة وهي الحجابة، وهناك بيت خاص لانعقاد مجلس الوزراء في قصر الخليفة، فالوزارة في الأندلس كانت قريبة الشبه بنظم الوزارات الحديثة، وهي في هذا تختلف عن نظام الوزارة المعروف في المشرق في العصر الوسيط[٩].

وفي عهد الخليفة عبدالرحمن الناصر لقب " ذو الوزارتين " على بعض الوزراء والحجاب في الأندلس، وقد سبق أن استخدم هذا اللقب في الشرق أيضًا على عهد العباسيين، ومثال ذلك الخليفة المأمون الذي منحه لوزيره الفضل بن سهل، والمراد بتلك التسمية هي أن صاحبها يجمع بين السلطتين المدنية والعسكرية معًا، ولهذا يقال أيضًا صاحب السيف وصاحب القلم، وقد يجمعان معًا، فيقال " ذو الوزارتين " أو " ذو الرياستين "[١٠].

إلا أنه يبدو أن استعمال هذا اللقب في الأندلس قد اختلف في مدلوله عن المشرق، إذ يلاحظ أن الخليفة عبدالرحمن الناصر[١١]، أنعم به على وزيره أحمد بن عبدالملك بن شهيد سنة ٢٣٧هـ/٩٣٩م نتيجة للهدايا الثمينة الفاخرة، التي أتحفه بها هذا الوزير الثري، عندئذ ضاعف له الخليفة راتبه ولقبه بذي الوزارتين[١٢].

ولما ضعفت الخلافة الأموية في الأندلس، أخذ نفوذ الحاجب يقوى شيئًا فشيئًا حتى استبد بكل أمور المملكة دون الخليفة، وصار اختصاصه يشمل الشئون المدنية والعسكرية، وينبغي الإشارة هنا إلى ما سبق أن بينا آنفًا، وهو أن الحاجب في الأندلس، لم يكن الرجل الذي يقف بباب الخليفة ليحجبه عن الخاصة والعامة، كما

كان الحال في الشرق، وإنما قصد به رئيس الوزارة أو ما يسـمى بـالوزير فـي المشرق[١٣].

ولقد برز من هؤلاء الحجاب الأقوياء في الأندلس جعفر بن عثمان المصحفي ثم المنصور ابن أبي عامر وأبناؤه من بعده، وحسبنا أن نقتبس هنا بعض فقـرات لابن عذاري يصف بها مدى النفوذ، الذي بلغه المنصور بن أبي عامر بقوله " وفي سنة ٣٧١هـ تسمى ابن أبي عامر، ودعى له على المنابر استيفاء لرسوم الملوك، فكانت الكتب تنفذ عنه، من الحاجب المنصور بن أبي عامر إلـى فـلان، وأخـذ الوزراء بتقبيل يده، ثم تابعتهم على ذلك وجوه بني أمية، فكان من يدخل عليه مـن الوزراء وغيرهم يقبلون يده، وينحنون له عند كلامه ومخاطبته، فانقاد لذلك كبيرهم وصغيرهم .. فساوى محمد بن أبي عامر الخليفة في هذه المراتب، وشاركه في تلك المذاهب ولم يجعل فرقًا بينهم وبينه إلا في الاسم وحده في تصدير الكتب عنه، حتى تناهت حاله في الجلالة، وبلغ غاية العز والقدرة[١٤].

ويبدو أن لقب وزير في ذلك الوقت، قد أخذت مكانته تضعف نتيجة لازديـاد سلطة الحاجب في الدولة[١٥].

ولما سقطت الدولة الأموية وقامت على أنقاضها دويـلات ملـوك الطوائـف استخدم بعض هؤلاء الملوك لقب الحاجب مثل سابور الفارسي، أول من استقل منطقة بطليوس وباديس بن حبوس، ملك غرناطة، وأحمد بن قاسم، أمير ولاية البونت مـن أعمال بلنسية. كذلك زاد استعمال الألقاب التشريفية المزدوجة في أيام ملوك الطوائف مثل " ذو الوزارتين " و" ذو الرياستين " و" ذو السيادتين " و" ذو المجدين " بالإضافة إلى ألقاب الملك والسلطنة والخلافة، وهكذا انحطت مرتبة الوزير عندهم، وصـارت تمنح للطبقة الوسطى من الموظفين والكتاب وشيوخ القرى[١٦].

أما في بلاد المغرب، فنلاحظ أن الدول الإسلامية الأولى التي قامت هناك لم يظهر فيها لقب وزير، باستثناء دولة الأغالبة، التي اتخذ بعض أمرائها وزراء فـي دولتهم مثل الأغلب بن عبدالله المعروب بغلبون، الذي كان وزيرًا لأخيـه الأميـر زيادة الله الأول بن الأغلب[١٧]، ومثل نصر بن حمزة وزير أبي العباس محمد بـن الأغالب[١٨]، وعبدالله بن الصائغ الذي كان وزيرًا وصاحب البريد في عهد زيـادة

الله الثالث الأعلى[١٩]، إلا أنه يلاحظ أن نفوذ وزراء الأغالبة كان ضعيفًا، حتى كان لقب الوزير عندهم يكون لقبًا تشريفيًا، ولعل السبب في ذلك يرجع إلى أن الأغالبة ــ رغم استقلالهم ــ كانوا يحكمون باسم خلافة بغداد، وقد اعتادوا أن يكونوا عمالاً لها من قديم في هذه المنطقة مما جعلهم يباشرون أعمالهم بأنفسهم منذ بداية دولتهم[٢٠]. أما الأدارسة في فاس والرستميون في تاهرت، والمداريون في سجلماسة، والفاطميون أبان حكمهم في المغرب، فعلى الرغم من أنهم استعانوا بمن يعاونهم في الحكم، إلا أنهم لم يطلقوا عليهم لقب وزير، فالفاطميون مثلاً لم يتخذوا الوزراء إلا في القاهرة ومنذ أيام الخليفة العزيز (٣٦٥-٣٨٣هـ) وفي ذلك يقول المقريزي : " وأول من قبل له الوزير في الدولة الفاطمية الوزير يعقوب بن كلس وزير العزيز بالله "[٢١].

ويقال أن الخليفة المعز لدين الله، اتخذ جوهر الصقلي وزيرًا له سنة ٣٤٧هـ بالمغرب[٢٢] استنادًا إلى قول المقريزي : " وجوهر هذا مملوك رومي، رباه المعز لدين الله وكناه بأبي الحسين، وعظم محله عنده في سنة سبع وأربعين وثلاثمائة، وصار في رتبة الوزارة، فصير قائد جيوشه "[٢٣]، ولكن هذه العبارة قد تعني أن جوهر الصقلي، قد ارتفع شأنه عند مولاه المعز حتى صار في مرتبة الوزير، ولكنه لم يحمل لقب وزير، بل كان قائدًا لجيوش الدولة، وقد يؤيد ذلك قول ابن خلدون بصدد خطة الوزارة " ثم جاءت دولة الشيعة بإفريقية والقيروان، وكان للقائمين بها رسوخ في البداوة فأغفلوا أمر هذه الخطط أولاً "[٢٤].

على أن الفاطميين وإن كانوا قد أغفلوا خطة الوزارة في المغرب، إلا أنهم لم يغفلوا خطة الحجابة منذ قيام دولتهم، وقد أعطانا ابن عذاري قائمة بأسماء حجاب الخليفة عبيد الله المهدي بقوله : " واستحجب أبا الفضل جعفر بن علي، وأبا أحمد جعفر بن عبيد، وأبا الحسن طيب بن إسماعيل المعروف الحاضن، وأبا عيد عثمان ابن سعيد المعروف باسم السجلماس "[٢٥].

ويلاحظ أن معظم هؤلاء الحجاب كانوا من القادة العسكريين الذين شاركوا في الأعمال الحربية برًا وبحرًا ولاسيما في صقلية، وهم في هذا يشبهون حجاب الأغالبة الذين حكموا هذه البلاد قبل الفاطميين[٢٦].

ولما دانت المغرب لسلطة المرابطين في عهد يوسف بن تاشفين عمل على تطبيق النظام الإداري المتتبع في الأندلس على بلاده في العدوة المغربية[٢٧]، فاستعان المرابطون بالوزراء في إدارة البلاد، فاتخذوا لأنفسهم الوزراء العسكريين من أشراف لمتونة على وجه الخصوص، وأشراف صنهاجه على وجه العموم[٢٨]. كما اتخذوا وزراء كتاب من الفقهاء[٢٩] للإشراف عل ديوان الإنشاء لإذاعة المراسيم والبراءات، وتحرير الرسائل، وختمها بخاتم الأمير[٣٠].

وقد وجد يوسف بن تاشفين وخلفاءه في الأندلس، معينًا لا ينضب من هؤلاء الكتاب، الذين تألق نجمهم في سماء الأدب، وشهد الناس لهم بالبلاغة والفصاحة، وكانت وفود هؤلاء الكتاب تعبر البحر إلى العدوة ويصحبهم الأمراء عندما ينقلون إلى المغرب، فعلت كلمتهم على كلمة أدباء العداوة، وكادوا يحتكرون صنعة الكتابة والإنشاء، خصوصًا أن الدولة كانت قد بدأت تقيم نوعًا من العلاقات الدبلوماسية مع كثير من الدول، فكان الأمراء بحاجة إلى طائفة مثقفة تفهم لغة الوفود، وتجيد من الدول، وكان كتاب الأندلس يتميزون أيضًا بمعرفتهم للغات النصارى الأجنبية[٣١]، وقد عبر عبدالواحد المراكشي عن كثرة عدد كتاب الأندلس في بلاط أمير المسلمين على بن يوسف بن تاشفين بقوله : " لم يزل أمير المسلمين من أول إمارته يستدعى أعيان الكتاب من جزيرة الأندلس، وصرف عنايته لذلك حتى اجتمع له منهم ما لم يجتمع لملك "[٣٢].

ومن أعلام الكتاب الأندلسيين الذين استخدمهم المرابطون يحيى بن همام السرقسطي، وعبدالملك أبي الخصال، وطلحة بن عبدالعزيز بن سعيد البطلوسي، وأحمد بن أبي جعفر بن محمد القضاعي، وأبو القاسم بن الجد المعروف بالأحد، وأبو بكر محمد بن محمد المعروف بابن القبطرنة، وعبدالمجيد بن عبدون، وأبو عبدالله محمد بن أبي الخصال، وعبدالرحمن بن جعفر بن أحمد المعافري، وعلي بن عبدالعزيز الإمام الأنصاري،و محمد بن سلميان الكلاعي المعروف بأبي بكر بن القصيرة، ويحيى بن محمد بن يوسف الأنصاري ويكنى أبو بكر بن الصيرفي، وابن الصائغ، ومحمد بن أحمد بن محمد بن إبراهيم المعروف بابن السقاط، وأبو جعفر أحمد بن عطية القضاعي[٣٣].

ولما جاءت دولة الموحدين، أغفلت في البداية خطة الوزارة، للبداوة ثم سار خلفاء الموحدين في الاستعانة بكتاب الأندلس في شغل وظائف الكتابة، فقد استخدم عبدالمؤمن ميمون الهواري كاتبًا له، وهو من سكان قرطبة، وكان أديبًا فقيهًا[٣٤]. كما استخدم أيضًا أبا الحسن بن عياش وهو من أهل قرطبة[٣٥]، وعلى نفس السياسة سار الخليفة يوسف بن عبدالمؤمن[٣٦]، حين استخدم أبا الحسن بن عياش الذي كان كاتبًا لوالده من قبل[٣٧]، كذلك استخدم المنصور الموحدي أبا عبدالله محمد بن عبدالرحمن بن عباس من أهل برشانه من أعمال المرية ببلاد الأندلس والذي ظل كاتبًا مدة حكم المنصور الموحدي ثم ابنه الناصر من بعده[٣٨].

وكما اتخذ الحكام المرابطون والموحدون الوزراء الكتاب المركزيين في العاصمة مراكش، فقد اتخذ أمراء الأقاليم لأنفسهم الكتاب لمعاونتهم في الأعمال الإدارية، وكان معظم هؤلاء الوزراء الإقليميين من الأندلسيين أيضًا، فقد اتخذ سير ابن أبي بكر، ولي اشبيلية، الكاتب ابن عبدون الذي ظل يكتب له إلى أن استدعاه يوسف بن تاشفين، ليتولى مهمة الكتابة في مراكش[٣٩]، واتخذ أبو سعيد بن أبي محمد عبدالمؤمن، الذي ولي غرناطة، الكاتب حمد بن أحمد بن جبير[٤٠] من أهل شاطبة، ثم رحل عنه، وكتب لأبي سعيد عثمان بن عبدالمؤمن والي سبتة[٤١]، وأبوحفص الذي اتخذ أبا الحسن بن عباس[٤٢] القرطبي كاتبًا له، وتوجه معه إلى تلمسان إلى أن استدعاه الخليفة الموحدي يوسف بن عبدالمؤمن لشغل وظيفة الكتابة لديه[٤٣].

أما بالنسبة لخطة الحجابة، فيبدو أن المرابطين لم يتخذوا حاجبًا في دولتهم[٤٤]، أما بالنسبة لدولة الموحدين فيقول ابن خلدون في مقدمته " ولما جاءت دولة الموحدين من بعد ذلك أغفلت الأمر أولاً للبداوة، ثم صارت إلى انتحال الأسماء والألقاب، وكان اسم الوزير في مدلوله ثم اتبعوا دولة الأمويين وقلدوها في مذاهب السلطان، واختاروا اسم الوزير لمن يحجب السلطان في مجلسه، ويقف بالوفود والداخلين على السلطان عند الحدود في تحيتهم وخطابهم والآداب التي تلزم من الكون بين يديه "[٤٥]. لذلك نجد من وزراء الخليفة عبدالمؤمن من يقوم بمهمة الحجابة وذلك حين تولى ابنه أبو حفص مهمة الحجابة له[٤٦]، ولما تولى الحجابة

لوالده عبدالمؤمن من قبل[٤٧] ثم تولى الحجابة أبى العلاء إدريس بن جـامع الـذي تولى الحجابة ليوسف بن عبدالمؤمن[٤٨].

أما حجاب خلفاء الموحدين بعد ذلك فأغلبهم كان من الموالي الخصيان أمثال كافور، وعنبر، وفضيل، وريحان، ومبشر، وفارح[٤٩]، وأغلب الظن أنهم كانوا من فتيان أو مماليك الخليفة وأن مهمتهم كانت قاصرة على خدمته وملازمته في جلوسه في غدواته وروحاته[٥٠].

تدوين الدواوين :

وطبيعي أن يتخذ المرابطون الدواوين بعد أن اتخذ الأمراء الوزراء الكتـاب لمعاونتهم في إدارة شئون الدولة، فاتخذ يوسـف بـن تاشـفين الـدواوين سـنة ٤٦٤هـ/١٠٧١م، يقول ابن عذاري " فدون يوسف الدواوين ورتب الأجناد وطاعته البلاد "[٥١]، وطبيعي أيضًا أن تكون هذه الدواوين على نفس النمط المعمول به في العدوة الأندلسية ما دام رؤساء هذه الدواوين كانوا من الأندلس، وكـان مـن هـذه الدواوين ديوان الرسائل أو الإنشاء يرأسه الكاتب[٥٢]، وبجانب هذا الديوان كانـت هناك الدواوين الخاصة بمالية الدولة، التي كانت موزعة بين أربعة دواوين وهم : ديوان الغنائم ونفقات الجند، وديوان الضرائب، وديوان الجباية، وديـوان مراقبـة الدخل والخرج[٥٣].

ولما جاءت دولة الموحدين، سارت على نفس المـنهج فـي إدارة الـبلاد، فاتخذوا الدواوين المختلفة، وكان في مقدمتها ديوان الإنشاء الذي يختص بالمراسيم والرسائل الموجهة إلى الولاة والقضاة[٥٤]، وقد شد فيه خلفاء الموحدين نخبة ممتازة من الأدباء كان معظمهم من الأندلس، الذين قاموا بكتابة رسائل الخلفاء، وكان مما يلحق بديوان الإنشاء كتب التوقيعات والظهائر وكل ما يمهد بالعلامة[٥٥].

كما كان هناك ديوان الجيش الذي يتفرع إلى ديوانين، الأول : هـو ديـوان العسكر الذي يختص بالجند النظامي والحرب والعبيد، ووظيفتـه إحصـاء الجنـد ومعرفة حاجاته المتجددة[٥٦]، وكان يرأس هذا الديوان رجل من العسكريين حيـث يكون ملمًا بالشئون العسكرية[٥٧]، ويعمل معه عدد من الموظفين لمعاونته في أعمال

الديوان[٥٨]. أما الديوان الثاني : فهو ديوان التمييز الذي يهتم بتنظيم المشتركين في المعارك المقبلة والتنسيق بين الكتائب المختلفة[٥٩]، وكان على رأس هذا الديوان كاتب[٦٠]، وكان لهذا الديوان السجلات التي تكتب فيها أسماء من يدخلون في الفرق التي ستحارب بعد تمييزهم أو اختيارهم الذين يقرر لهم العطاء، وقد أورد أحمد بن القاسم في ترجمته لأبي مدين شعيب أحمد المتصوفين بالمغرب، المتوفى (٥٩٤هـ/١١٩٧م) قصة انضمام أبي في سجلات ديوان التمييز، التي توضح مدى نفوذ الأندلسيين وهيمنتهم على هذا الديوان، فيقول على لسان أبي مدين شعيب "دخلت مدينة سلا ثم مراكش فأخلني الأندلسيون الذين كانوا بها في جملة الأجناد وكتبوني في ديونهم فكانوا يأكلون عطائي ولا يعطون إلا القليل "[٦١].

كما اتخذ الموحدون ديوانًا للشئون المالية في الدولة عرف بديوان الأعمال المخزنية، ويقوم هذا الديوان بتحصيل الأموال العامة وإنفاقها في متطلبات الدولة، والرقابة على العمال والمشرفين ومحاسبتهم[٦٢].

القضاء والقضاة :

كانت خطة القضاة في الأندلس تختلف اختلافا جوهريًا عن خطة القضاء في المشرق، فقاضي القضاة في المشرق متأثر بالمنصب القضائي الساساني (موبذان موبذ)[٦٣]، وتعريبه قاضي القضاة، فهو قاضي الدولة كلها، ومن سواه من القضاة في الأقاليم والأمصار نواب عنه، فهو المتصرف فيهم تعيينًا وعزلاً، لهذا كان يلقب بقاضي القضاة، ومن عداه بالقاضي فقط أو قاضي بلد كذا. أما قاضي الجماعة في الأندلس فهو قاضي الحضرة أو العاصمة، وكان مقره الدائم في قرطبة، والجماعة هنا تفسر بالجماعة الإسلامية التي استقرت في العاصمة الجديدة قرطبة، ولهذا فإن سلطته كانت قاصرة على العاصمة قرطبة ونواحيها فقط، بمعنى انه لم يكن له سلطان على بقية القضاة في الكور والمدن الأندلسية فهم مستقلون بأنفسهم وليسوا نوابًا عنه، بمعنى أن قاضي الجماعة لا يمتاز عن بقية القضاة إلا من الناحية الأدبية فقط بحكم كونه قاضيًا للعاصمة، ومستشارًا للخليفة، وإمامًا للصلاة في أيام الجمعة والأعياد[٦٤]. وهكذا نجد أن القضاء في المشرق اتسم بطابع المركزية بينما اتبع في الأندلس نظام اللامركزية الذي يناسب بيئته المحلية.

وأقام المرابطون نظامهم القضائي مستندين في ذلك إلى نفس النظام القضائي المتبع في الأندلس[٦٥]، كما أسندوا مهمة القضاء لكثير من الأندلسيين[٦٦] الذين وقع على عاتقهم ترسيخ هذا النظام في المغرب، ومارس القضاة اختصاصاتهم في المسجد حيث كان مجلس حكمهم[٦٧]، فقد أورد النباهي في ترجمته للقاضي أبي عبدالله محمد بن سليمان، قاضي مالقة والمتوفى سنة (٥٠٠هـ/١١٠٦م) كيف كان يقضي في مسجد مدينته يقول " وكان قعود القاضي أبي عبدالله المذكور لتنفيذ الأحكام المذكورة من داخل مالقة "[٦٨]، وكان للقضاة حجاب ينظمون دخول المتخاصمين عليهم[٦٩]، كما كان لهم كتاب يقومون بكتابة ما يصدره القاضي من أحكام[٧٠]، وقد كان من بين هؤلاء الكتاب أندلسيون مثل علي بن عبدالله بن ابراهيم ابن عبيدالله الأنصاري من الجزيرة الخضراء، وقد استوطن مدينة سبته وكتب للقاضي أبي موسم عمران بن عمران، وتوفى سنة (٥٧٠هـ/١١٧٤م)[٧١].

وبالرغم من استعانة خلفاء الموحدين بقضاة من خريجي مدرسة الحفاظ التي أنشأها الخليفة عبدالمؤمن لتخريج طبقة من الموظفين، الذين شغلوا مناصب الإدارة في الدولة، منها وظيفة القضاء[٧٢]، إلا انه مع ذلك استعان ولاة الأمر في دولة الموحدين بعدد كبير من قضاة الأندلس[٧٣]، كأبي القاسم أحمد بن بقي قاضي الجماعة في مراكش وهو من أهل غرناطة[٧٤]، والقاضي أبو جعفر بن أحمد بن مضاء من أهل قرطبة، الذي تولى القضاء للخليفة يوسف بن عبدالمؤمن في فاس، ثم تولى قضاء الجماعة بحاضرة الدولة مراكش[٧٥]، وأبو العباس أحمد بن محمد ابن أحمد البكري[٧٦] من أهل شرش، وقد استوطن مدينة سلا[٧٧] بالمغرب، وتولى القضاء بها ثم انتقل إلى مكناسة لتولي القضاء[٧٨] بها. وكثيرًا ما انتقل هؤلاء القضاة الأندلسيون بين المدن الأندلسية والمغربية، فالقاضي أبو محمد عبدالله بن سليمان بن داود بن عبدالرحمن بن حوط الله الأنصاري، ولي القضاة بأشبيلية وميروقة ومرسية وقرطبة بالأندلس، ثم ولي القضاء بسبته وسلا، ثم عاد إلى مرسية وتوفى بغرناطة سنة (٦١٢هـ/١٢١٥م)[٧٩]، والقاضي أبو موسى عيسى بن عمران بن دافال الوردميشي، ولي القضاة بأشبيلية ثم بمراكش، وتوفى سنة (٥٧٨هـ/١١٨٢م).

ومن قضاة الأندلس من جمع بين وظيفتي القضاء بالمغرب والأندلس كالقاضي ابن رشد قاضي الأندلس، حين استدعاه الخليفة عبدالمؤمن ليضيف إليه قضاء المغرب بجانب قضاء الأندلس(٨١).

العدالة " الشروط " :

عرفت الأندلس العدالة(٨٢) منذ عهد مبكر، وهذه الوظيفة كما يقول ابن خلدون " هي وظيفة دينية تابعة للقضاء، ومن مواد تصريفهن وحقيقة هذه الوظيفة القيام عن أذن القاضي بالشهادة بين الناس فيما لهم وعليهم تحملاً عند الأشهاد، وأداء عند التنازل، وكتبًا في السجلات تحفظ به حقوق الناس وأملاكهم وديونهم وسائر معاملاتهم. وشرط هذه الوظيفة الاتصاف بالعدالة الشرعية والبراءة من الجرح، ثم القيام بكتب السجلات والعقود من جهة إحكام شروطها الشرعية وعقودها، فيحتاج حينئذ إلى ما يتعلق بذلك من الفقه، ولأجل هذه الشروط، وما يحتاج إليه من المران على ذلك، والممارسة له، اختص ذلك ببعض العدول، وصار الصنف القائمون به كأنهم مختصون بالعدالة، وليس كذلك، وإنما العدالة من شروط اختصاصهم بالوظيفة(٨٣).

وقد كان لتلك الوظيفة في دولة الموحدين خطة قائمة بذاتها نظرًا لأهميتها ودقتها ويقوم بمهمتها الفقهاء الموثقون(٨٤)، وكان الموثقون يقومون بإنجاز عقود الميراث والبيع والشراء والزواج والطلاق طبقًا لأحكام الشريعة الإسلامية، فكان عملهم مزيجًا من عمل المحاكم والمأذونين وإدارة المساحة في عصرنا الحاضر(٨٥)، وقد تولى هذا المنصب في عهد الموحدين طائفة كبيرة من فقهاء التوثيق الأندلسيين، نذكر منهم على سبيل المثال : الفقيه بيبش بن محمد بن أحمد ابن خلف بن بيبش العبري، نشأ بمدينة بلنسية ودرس الفقه حتى نبغ فيهن ثم قام بتدريسه، ثم تولى خطة الشورى، وخطة الأحكام، وكان بصيرًا بعقد الشروط مدركًا لصحة الأحكام، ثم تطوع لحرب النصارى في جيش الخليفة يوسف بن عبدالمؤمن حين سار لغزو مدينة وبزة سنة (٥٦٧هـ/١١٧١م)، ثم توفى سنة (٥٦٨هـ/١١٧٢م).

ثم إبراهيم بن الحاج أحمد بن عبدالرحمن بن سعيد خالد الغرناطي، الذي درس على أقطاب عصره بغرناطة وقرطبة، وبرع في الفقه والحديث، ومارس عقد الشروط، وتولى القضاء في عدة جهات، ثم توفى سنة (٥٧٩هـ/١١٨٣م)، ومنهم محمد بن أيوب بن محمد بن وهب، من أهل بلنسية، وكان من أشهر الفقهاء، وانتهت إليه الرياسة في عقد الشروط والفتيا[٨٧].

الحسبة:

كانت الحسبة في الأندلس نوعًا[٨٨] من أنواع القضاء التي تميزت بسرعة البت، وبينه وبين القضاء الذي تطورت عنه، أوجه ائتلاف واختلاف[٨٩]، وترجع نشأة الحسبة في الأندلس لما قبل عصر الأمير هشام بن عبدالرحمن، أي قبل سنة (١٧٧هـ/٧٨٨م)، لأن الحسبة كانت معروفة في الأندلس في عصر هذا الأمير الأموي.

وقد ارتبطت نشأة هذه الخطة وفصلها عن القضاء بالحاجة إلى تغيير المناكر في الطرقات والأسواق بصورة أكثر فاعلية، لذلك كان المحتسب يُعرف بصاحب السوق، نظرًا لأن أكثر نشاطه ينحصر في الأسواق والأماكن العامة، وكان يتقلد وظيفته من القاضي، بعد أخذ موافقة الأمير أو والي المدينة[٩٠].

وكانت الجولات التفتيشية التي يقوم بها المحتسب في الأسواق تتم على نحو معلوم، فيركب المحتسب دابته وحوله أعوانه ومعهم المكاييل والموازين المعتمدة، فيزن الخبز، لأن الخبز عند الأندلسيين معلوم الأوزان، محدد الأسعار، فلربع الدرهم رغيف، على وزن معلوم، ولثمن الدرهم رغيف يناسبه، كما كان اللحم يجرى بيعه بسعر محدد مكتوب على ورقة، والويل لمن أهمل التسعيرة، أو تلاعب فيها بالزيادة أو بالنقص، فكان المحتسب إذا كشف بائع اللحم يرسل صبيًا صغيرًا للشراء ثم يختبر الكمية، فإذا وجد فيها نقصًا ترصد معاملته لأناس آخرين، فإذا تأكد لديه عزّره على حسب جرمه بالتجريس، وهو التشهير بالمطفف في الأسواق أمام جمهور من الناس، وبالضرب، فإن تاب بقى على حاله يمارس نشاطه في السوق، وإذا عاد إلى التطفيف أخرج من السوق وقد ينفى من البلد[٩١].

وقد لاحظ المقريزي[٩٢] أن الحسبة في الأندلس، تحتوي على مجموعة قوانين وأحكام، تدارسها أهل الأندلس، كما يتدارسون أحكام الفقه لمعرفة القضاء، والإفتاء بسبب أهميتها، وتعلقها بالحياة العامة.

ولاشك أن محور هذه الدراسة كان كُتب الأندلسيين الذين اهتموا بالحسبة وكتبوا عنها خلاصة تجاربهم العملية مثل ابن عبدون الإشبيلي، والسقطي المالقي، وابن عبدالرءوف، وعمر بن عثمان الجرسيفي، فهذه المؤلفات خاصة منها كتاب (السقطي) تعتبر من خير ما ألف في ميدان الحسبة، نظرًا للصبغة العملية التي تميز الكتاب، والتجربة الطويلة، التي اكتسبها مؤلفه من رحلاته وممارساته للخطة في بلده مالقة في القرن السادس الهجري.

على أن جميع كتب الحسبة في الأندلس كانت تعالج الموضوع في إطار المذهب المالكي الذي عليه جمهور المسلمين[٩٣]، وإذا كان السقطي المالقي على رأس أعلام رجال الحسبة في القرن السادس الهجري، فقد كان من أعلام رجال الحسبة في عصر المرابطين بالأندلس محمد بن مكي بن طالب القيسي، المتوفى سنة (٤٧٤هـ/١٠٨١م) الذي جمع بين وظيفتي الشرطة والنظر في الأحباس والسوق بقرطبة[٩٤].

ومن أشهر رجال الحسبة في دولة الموحدين بالأندلس عبدالمنعم بن محمد الخزرجي الغرناطي، المتوفى سنة (٥٩٨هـ/١٢٠١م) الذي اشتهر بين الناس بابن الفرس، وقد ولي خطة القضاء في عدة مدن ومنها شتر، وحيان، ووادي آش، وغرناطة، وجمع له النظر في الحسبة والشرطة[٩٥].

أما في المغرب الأقصى فيبدو أن البذور الأولى لنشأة نظام الحسبة، ترجع إلى العهد الإدريسي في مدينة فاس، ويظهر أن الحسبة اكتسبت أهمية خاصة في تاهرت وفي واحات الصحراء التي التجأ إليها الأباضية بعد سقوط الدولة الرستمية على يد أبي عبدالله الشيعي المحتسب، وطبيعي أن يهتم المرابطون في المغرب[٩٦] بالحسبة خاصة وأن زعيم المرابطين الروحي عبدالله بن ياسين، كان ينكر على الناس بعض عاداتهم، وواصل مهمته في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فكان يؤدب الذي لا يسعى لصلاة الجماعة بضربه عشرين سوطًا، ومن فاتته ركعة مع

الجماعة ضربه خمسة أسواط، وعندما استولى المرابطون على مدينة سجلماسة سنة (٤٤٧هـ/١٠٥٥م) قطعت المزامير وأحرقت المتاجر التي كان يباع فيها الخمر، وقضى على مظاهر الجور والعسف[٩٧].

وكان لوظيفة الحسبة عند الموحدين أهمية خاصة في سلم الإدارة، حيث يأتي المحتسب في أول السلم، ويظهر أنه كان يرأس المجموعة التي كان يقف معها في التشريفة، ثم يأتي بعده بقية الموظفين، وأولهم على الترتيب صاحب السكة، ثم رجال الجيش، ثم المؤذنون، ثم الطلبة، ثم أهل الحزب (الحفاظ)، ثم الرماة، وأخيرًا العبيد[٩٨].

وبلغ من اهتمام الموحدين بتلك الوظيفة أن المنصور الموحدي أمر أن يدخل عليه أمناء السوق وأشياخ الحضر في كل شهر مرتين، يسألهم عن أسواقهم وأسعارهم وحكامهم[٩٩].

ومن أشهر من تولى الحسبة في مراكش من الأندلسيين الشاعر ميمون بن علي بن عبدالخالق[١٠٠]، ولكن بالرغم من اهتمام المرابطين والموحدين بخطة الحسبة في المغرب، فإن أصحاب السوق في المغرب في تلك الفترة اعتمدوا فيما يبدو على المؤلفات الأندلسية لأنه لم يعثر حتى الآن على أي كتاب للحسبة من تأليف أحد المغاربة، وربما كان ذلك لأن الحسبة كانت في الأندلس في تلك الفترة تمثل عهدها الذهبي كما سبق الحديث عنها، وربما كان أيضًا لأن أغلب من تولوا الحسبة في المغرب في تلك الفترة كانوا أندلسيين.

الشرطة :

عرفت الأندلس نظام الشرطة منذ عهد مبكر، إلا أنه لم يعظم أمر الشرطة إلا في دولة بني أمية[١٠١]، وصاحب الشرطة هو الموظف الموكول إليه إقامة القضايا وتطبيق العقوبات[١٠٢]. ومنذ أن تأسست دولة المرابطين اتخذ ولاة الأمر الشرطة، ولكنهم أطلقوا على هذه الوظيفة اسم صاحب الليل، حيث يشير التادلي في تعريف أبي العباس بن العريف، أحد متصوفي المغرب بقوله " أن أصل أبي العباس بن العريف من طنجة، وإنما سمي والده بالعريف لأنه كان بطنجة صاحب الليل "[١٠٣].

ولما جاء الموحدون اهتموا بوظيفة الشرطة، فكانت عندهم مــن المناصــب الإدارية الهامة(١٠٤)، وفي ذلك يقول ابن خلدون في مقدمتــه " وأمــا فـــي دولـــة الموحدين بالمغرب فكان لها ـــ أي وظيفة الشرطة ـــ حظ مـــن التنويـــه وإن لـــم يجعلوها عامة، وكان لا يُليها إلا رجالات الموحدين وكبراؤهم "(١٠٥).

وظهر اهتمام الموحدين بالشرطة في عهد يوسف بن عبدالمؤمن الـــذي زود المدن المغربية بأحسن الرجال الممتازين من الشرطة(١٠٦)، وأشار ابن عبدون إلـــى بعض التنظيمات المتعلقة بصاحب الشرطة، ومنهم اتخاذه للأعوان كي يســـاعدونه في تأدية وظيفته(١٠٧).

كذلك خصص للأسواق رجال مـــن الشـــرطة لحمايتهـــا مـــن اللصـــوص والمتسللين، وقد أشار إلى ذلك التادلي في ترجمته لأبي عبدالله محمد بـــن حســـام التاونتي المعروف بابن الميلي، وأصله من تاونت من عمل تلمسان، وتوفي في سنة (٥٩٠هـ/١١٩٣م)، يقول التادلي " أن ابا عبدالله خرج بالليل فقبض عليه حـــرس السوق وظنوا أنه سارق، فأوجعوه ضربًا إلى أن قيل هذا ولي من أولياء الله تعالى فخلوا عنه "(١٠٨).

وهكذا نرى من خلال دراستنا كيف أثر الأندلس فـــي المجـــال الحضـــاري والإداري على المغرب في عصري المرابطين والموحدين، وإذا كان هناك تقصيرًا ما فأرجو المغفرة من الله تعالى ثم المعذرة من القارئ الفاضل، ثم أدعو الله العلـــي القدير أن يجعل أعمالنا خالصة لوجه الكريم، وأن ينفعنا بها يوم الدين، وأن يغفـــر لي ولوالدينا وللمؤمنين، أنه القادر على ذلـــك، وآخـــر دعونـــا أن الحمـــد لله رب العالمين، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

الحواشي :

١- **ابن عذاري** : البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، تحقيق إحسان عباس، بيروت، ١٩٦٧م، ج٢، ص١-١٥٠.

٢- **ابن حيان** : المقتبس في أخبار بلد الأندلس، تحقيق محمود علي مكـــي، بيروت، ١٩٧٣م، ج٢، ص١٩٦.

٣- **ابن حيان** : المقتبس، ج٢، ص١٦٩-١٧٠.

٤- **ابن القوطية** : تاريخ افتتاح الأندلس، مدريد، ١٩٢٦م، ص٦١-٦٢.

٥- **أحمد مختار العبادي** : دراسات في تاريخ المغرب والأندلس، إسكندرية، ١٩٨٤م، ص١٤٣.

٦- **ابن عذاري** : البيان المغرب، ج٢، ص١٢١.

٧- **ابن خلدون** : المقدمة، دار الشعب، القاهرة، ١٩٦٨م، ص٢٣٩-٢٤٠.

٨- **المقري** : نفح الطيب، تحقيق محمد محي الدين عبدالحميـــد، القـــاهرة، ١٩٤٩م، ج١، ص١٩٩-٢٠٠م.

٩- **أحمد مختار العبادي** : دراسات في تاريخ المغرب، ص١٤٥-١٤٦.

١٠- **محمد الخضري** : محاضرات في تاريخ الأمم الإسلامية، ج٢، القاهرة، ١٩١٦م.

١١- **المقري** : المرجع السابق، ج١، ص٣٣٣-٣٣٤.

١٢- **أحمد مختار العبادي** : المرجع السابق، ص١٤٧.

١٣- **أحمد مختار العبادي** : المرجع السابق، ص١٤٧.

١٤- **أحمد مختار العبادي** : المرجع السابق، ص١٥٠.

١٥- **أحمد مختار العباس** : المرجع السابق، ص١٥٠-١٥١.

16- **Levi-Provencal :** Histoire, Tome, 3, p. 20-21.

١٧- **ابن عذاري :** البيان المغرب، ج١، ص١٢٤-١٢٥.

١٨- **ابن عذاري :** المصدر السابق، ج١، ص١٤٢.

١٩- **ابن عذاري :** المصدر السابق، ج١، ص١٨٣.

٢٠- **أحمد مختار العبادي :** دراسات في تاريخ المغرب، ص١٣٩.

٢١- **المقريزي :** الخطط، طبع بولاق، ١٢٧٠هـ، ج٢، ص٣٠٤.

٢٢- **حسن إبراهيم حسن وطه شرف :** المعز لـدين الله ـ مجلـة الجمعيـة التاريخية المصرية ـ العدد الأول، ١٩٤٩م، ص١٤٦-١٤٧.

٢٣- **المقريزي :** المصدر السابق، ج٢، ص٢٠٥.

٢٤- **ابن خلدون :** المقدمة، ص٢١٣-٢١٤.

٢٥- **ابن عذاري :** البيان المغرب، ج٢، ص٢١٩.

٢٦- **أحمد مختار العبادي :** دراسات في تاريخ المغرب، ص١٤١.

٢٧- **حسن أحمد محمود :** قيام دولة المرابطين، دار الفكر العربي، القـاهرة، ١٩٦٧م، ص٣٦١.

28- **Atkinson William (C) :** A History of Spain and Poy Tugal, London, 1961, p. 55.

٢٩- **أحمد مختار العبادي :** المرجع السابق، ص١٥٢.

٣٠- **حسن إبراهيم :** النظم الإسلامية، مكتبة النهضة المصـرية، القـاهرة، ص١٨٠.

٣١- **حسن أحمد محمود :** المرجع السابق، ص٣٥٩-٣٦٠.

٣٢- **المراكشي** : المعجب، تحقيق محمد زينهم دار الفرحاني، القاهرة، ١٩٦٨م، ص١٧٣.

٣٣- **ابن عذاري** : البيان المغرب، ج٢، ص٢١٩.

٣٤- **أحمد مختار العبادي** : دراسات في تاريخ المغرب، ص١٤١.

٣٥- **أحمد مختار العبادي** : المرجع السابق، ص١٤١.

٣٦- **ابن صاحب الصلاة** : المن بالإمامة على المستضعفين بأن جعلهم الله أئمة وجعلهم الوارثين، تحقيق عبدالهادي النازي، بيروت، ١٩٦٤م، ص٢٢٣.

٣٧- **ابن صاحب الصلاة** : المصدر السابق، ص١٦٠.

٣٨- **المراكشي** : المعجب، ص١٦٠.

٣٩- **ابن أبي زرع** : الأنيس المطرب، تحقيق محمد الهاشمي القيلالي، الرباط، ١٩٣٦م، ج٢، ص١٧٥.

٤٠- **المراكشي** : المصدر السابق، ص٢٢٤.

٤١- **المراكشي** : المصدر السابق، ص٨٧.

٤٢- **ابن القاضي** : جدوة الاقتباس فيمن حل من الاعلام مدينة فاس، طبع حجر، فاس، ١٢٠٩هـ/ ص١٧٢-١٧٣.

٤٣- **ابن عذاري** : البيان المغرب، ج٤، ص٧٣.

٤٤- **حسن علي حسن** : الحضارة الإسلامية، القاهرة، ١٩٨٣م، ص١٢٢.

٤٥- **ابن خلدون** : المقدمة، ص٢١٤.

٤٦- **النويري** : نهاية الأرب، دار الكتب المصرية، ١٩٨٥م، ج٢٤، ص١٧١-١٧٥.

٤٧- **ابن أبي زرع** : الأنيس المطرب، ج٢، ص١٧٤.

٤٨- **ابن صاحب الصلاة** : المن بالإمامة، ص٤٧٣.

٤٩- **المراكشي** : المصدر السابق، ص٢٦٣، ٣١١-٣٢٣.

٥٠- **أحمد مختار العبادي** : المرجع السابق، ص١٥٩.

٥١- **ابن عذاري** : المصدر السابق، ج٤، ص٢٣.

٥٢- **حسن إبراهيم حسن** : تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي، النهضة المصرية، القاهرة، ١٩٦٧م، ج٤، ص٣٣١.

٥٣- **حسن علي حسن** : الحضارة الإسلامية، ص١٤٧.

٥٤- **حسن علي حسن** : المرجع السابق، ص١٤٧.

٥٥- **محمد عبدالله عنان** : عصر المرابطين والموحدين، القاهرة، ١٩٦٥م، القسم الثاني، ص٦٢٣.

٥٦- **ابن صاحب الصلاة** : المن بالإمامة، ص٥٣.

٥٧- **محمد عبدالله عنان** : المرجع السابق، القسم الثاني، ص٦٣٨.

٥٨- **عبدالعزيز عبدالله** : تاريخ المغرب، ج١، ص١٢٦.

٥٩- **ابن صاحب الصلاة** : المصدر السابق، ص٤٣٤.

٦٠- **حسن علي حسن** : المرجع السابق، ص١٤٨.

٦١- **التادلي** : المعزى في أخبار مناقب الشيخ سيدي أبي يعزى، ورقة ٦٩، مخطوطة بدار الكتب المصرية، رقم ١٢٤٩، فقه مالكي.

٦٢- **محمد عبدالله عنان** : عصر المرابطين والموحدين في المغرب والأندلس، القاسم الثاني، ص٦٢٣.

٦٣- **حسن علي حسن** : الحضارة الإسلامية، ص١٤٨-١٤٩.

٦٤- **أحمد مختار العبادي** : الإسلام في أرض الأندلس، مجلة عـالم الفكـر، المجلد العاشر، العدد الثاني، الكويت، ١٩٧٩م، ص٣٦٨.

٦٥- **إبراهيم حركات** : المغرب عبر التاريخ، الدار البيضاء، ١٩٦٥م، ص٢١٥.

٦٦- **حسن علي حسن** : المرجع السابق، ص١٦٤.

67- **Terrasse** : Histoire du Maroc, Paris 1949, p.309.

٦٨- **النباهي** : تاريخ قضاة الأندلس، تحقيق ليفي بروفنسال، مصر، ١٩٤٨م، ص١٠٠.

٦٩- **حركات** : المغرب عبر التاريخ، ص٢١٧.

٧٠- **ابن القاضي** : جذوة الاقتباس فيمن حل من أعلام مدينـة فـاس، طبـع حجر، فاس ١٢٠٩هـ، ص١١٣-١١٤.

٧١- **ابن القاضي** : المصدر السابق، ص٣٠٥.

٧٢- **يوسف أشباخ** : تاريخ الأندلس في عهد المرابطية، ترجمة محمد عبدالله عنان، القاهرة ١٩٤٠م، ج٢، ص٥٢.

73- **Terrasse** : Histoire, p. 309.

٧٤- **النباهي** : المصدر السابق، ص١١٧.

٧٥- **المراكشي** : المعجب، ص٢٤٧.

٧٦- **ابن عذاري** : البيان المغرب، ج٤، ص٧٣.

٧٧- **حسن علي حسن** : الحضارة الإسلامية، ص١٧٠.

٧٨- **النباهي** : المصدر السابق، ص١١٢.

٧٩- **ابن أبي زرع** : الأنيس المطرب، ج٢، ص١٧٥.

٨٠- **ابن القاضي** : جذوة الاقتباس، ص١٥٧.

٨١- **حسن علي حسن** : المرجع السابق، ص١٦٦.

٨٢- **العدالة هي الوظيفة التي عرفها المشرق باسم الشروط أو التوثيق.**

٨٣- **ابن خلدون** : المرجع السابق، ص٢٠٠.

٨٤- **عبدالله علي علام** : الدولة الموحدية بالمغرب في عهد عبدالمؤمن بن علي، دار المعارف، القاهرة، ١٩٧١م، ص٢٦٧.

٨٥- **عبدالله علي علام** : المرجع السابق، ص٣١٤-٣١٥.

٨٦- **عبدالله علي علام** : المرجع السابق، ص٣١٥.

٨٧- **عبدالله علي علام** : المرجع السابق، ص٣١٥.

٨٨- **حسين مؤنس** : فجر الأندلس، الدار السعودية، ١٩٩٢م، ص٦٣٩. ،

٨٩- **أحمد مختار العبادي** : المجمل في تاريخ الأندلس، القاهرة، ١٩٥٨م، ص١٦٢.

٩٠- **ليفي بروفنسال** : ثلاث رسائل أندلسية في الحسبة، باريس، ١٩٣١م، ص٢٠-٢١.

٩١- **المقري** : نفح الطيب، ج١، ص٢٠٣-٢٠٤.

٩٢- **المقري** : المصدر السابق، ج١، ص٢٠٣-٢٠٤.

٩٣- **ابن بشكوال** : الصلة، الدار المصرية للتأليف والترجمة ، القاهرة ١٩٩٦م، ج٢، ص٥٢٣.

94- **Sanvoget Cahen,** Introduction Histoire dorient Musulmon, Paris, 1961, p. 223.

٩٥- **ابن الزبير** : صلة الصلة، نشر ليفي بروفنسال، الرباط، ١٩٣٨م، ص١٧-١٨.

٩٦- **السلاوي** : الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، تحقيق جعفر الناصري، ومحمد الناصري، الدار البيضاء، ١٩٥٤م، ج١، ص٩٩-١٠٠.

٩٧- **ابن أبي زرع** : الأنيس المطرب، ص٨٠.

٩٨- **المراكشي** : المعجب، ص١٨٨، ٣٢٩.

٩٩- **المراكشي** : المعجب، ص٢٨٥.

١٠٠- **المراكشي** : المعجب، ص١٨٨، ٣٢٩.

١٠١- **المراكشي** : المعجب، ص٢٨٥.

١٠٢- **ابن القاضي** : المصدر السابق، ص٣٣٨-٣٥٧.

١٠٣- **التادلي** : التشوف إلى رجال التصوف، الرباط، ١٩٥٨م.

١٠٤- **محمد المرير** : الأبحاث المسامية في المحاكم الإسلامية، مجلة تطوان، ١٩٥٢م، ج٢، ص٦٥.

١٠٥- **ابن خلدون** : المقدمة، ص٢٢٤.

106- **Scoot,** History, Vol 2, p. 305.

١٠٧- **ابن عبدون** : ثلاث رسائل أندلسية، الرباط ١٩٦٣م، ص١٧.

١٠٨- **التادلي** : التشوف، ص٢٧٥.

قائمة المصادر والمراجع :

١- إبـــراهيم حركـــان : - المغرب عبر التاريخ، الدار البيضاء، ١٩٦٥م.

٢- أحمد مختار العبادي : - دراســات فــي تــاريخ المغــرب والأنــدلس، الإسكندرية، ١٩٨٤م.

- الإسلام في الأرض الأندلسية، مجلة عالم الفكــر، المجلد العاشر، العدد الثاني، الكويت، ١٩٧٩م.

- المجمل في تاريخ الأندلس، القاهرة، ١٩٥٨م.

3- Atkinson William a history of Spain and Poy Tugal, London, 1961.

٤- التـــــــــــادلي : - التشوف إلى رجال التصوف، الرباط، ١٩٥٨م.

- المعزى في أخبار مناقب الشيخ سيد أبى المعزى، ورقة ٦٩، مخطوط بدار الكتب المصرية، رقــم ١٢٤٩، فقه مالكي.

5- Terasse, Histoire du Moroc, Paris, 1949.

٦-حسن إبراهيم وطه شرف: - المعــز لــدين الله، مجلــة الجمعيــة التاريخيــة المصرية، العدد الأول، ١٩٤٩م.

٧- حسن إبراهيم حسن : - النظم الإسلامية، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة

- تاريخ الإســلام السياســي والــديني والثقــافي والاجتماعي، النهضة المصرية، القاهرة ١٩٦٧م.

٨- حسن أحمد محمــود : - قيام دولة المرابطين، دار الفكر العربي، القاهرة، ١٩٦٧م.

٩- حسن علــي حســن : - الحضارة الإسلامية، القاهرة، ١٩٨٣م.

١٠- حســين مــؤنس : - فجر الأندلس، الدار السعودية، ١٩٩٢م.

١١- ابـــن حيـــان : - المقتبس في أخبار الأندلس، تحقيق محمود علـــي مكي، بيروت، ١٩٧٣م.

١٢- ابـــن خلـــدون : - المقدمة، بيروت، ١٩٠٠م.

١٣- ابـــن الزبيـــر : - صلة الصلة، نشر ليفـــي بروفنســـال، الربـــاط، ١٩٣٨م.

١٤- ابـــن أبـــي زرع : - الأنيس المطرب بروضة القرطاس، تحقيق محمد الهاشمي الفيلالي، الرباط، ١٩٣٦م.

١٥- الســـــــــلاوي : - الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، تحقيـــق جعفر الناصري، ومحمد الناصري، الدار البيضاء ١٩٥٤م.

16- Sanvg et Cahen, Introduction Histoire dorlent Musulmon, Paris, 1961.

17- Scott, S.P. : A History of the Moorish in Europe V.II, III Philadelphia, London, 1904.

١٨- ابـــن بشـــكوال : - الصلة، الدار المصرية للتأليف والترجمة، القاهرة ١٩٦٦م.

١٩- عبدالمنعم علي علام: - الدولة الموحدية بالمغرب في عهد المـــؤمن بـــن علي، دار المعارف، القاهرة، ١٩٧١م.

٢٠- عبدالعزيز عبدالله : - تاريخ المغرب، بيروت، ١٩٦٢م.

- مظاهر الحضارة، الدار البيضاء، ١٩٧٤م.

٢١- ابـــن عبـــدون : - ثلاثة رسائل أندلسية، الرباط، ١٩٦٣م.

٢٢- ابـــن عـــذاري : - البيان المغرب في أخبـــار الأنـــدلس والمغـــرب، تحقيق إحسان عباس، بيروت، ١٩٦٧م.

٢٣- **ابـــن القاضـــي :** - جذوة الاقتباس فيمن حل من الأعلام مدينة فاس، طبع حجر، فاس، ١٢٠٩هـ.

٢٤- **ليفـــي بروفنســـال :** - ثلاثة رسائل أندلسية في الحسبة، باريس، ١٩٣١م

- Levi-Provencal: History, Tome, Paris, 1931.

٢٥- **محمـــد الخضـــري :** - محاضرات في تاريخ الأمم الإسلامية، القـــاهرة، ١٩١٦م.

٢٦- **محمد عبدالله عنان :** - عصر المـــرابطين والموحـــدين فـــي المغـــرب والأندلس، القاهرة، ١٩٦٥م.

٢٧- **محمـــد المريـــر :** - الأبحاث السامية في المحاكم الإســـلامية، مجلـــة تطوان، ١٩٥٢م.

٢٨- **المراكشـــــــي :** - المعجب، تحقيق محمد زيـــنهم، دار الفرحـــاني، القاهرة، ١٩٨٨م.

٢٩- **المقـــــــــري :** - نفح الطيب في غصن الأندلس الرطيب، تحقيـــق محي الدين عبدالحميد، القاهرة، ١٩٤٩م.

٣٠- **المقريـــــــزي :** - الخطط، طبعة بولاق، ١٢٧٠هـ.

٣١- **النبـــــــاهي :** - تاريخ قضاة الأندلس، تحقيق ليفـــي بروفنســـال، مصر، ١٩٤٨م.

قلعة كوكب

ودورها في الصراع بين المسلمين والصليبيين

د. منى سعد محمد الشاعر
أستاذ التاريخ الإسلامي المساعد
قسم التاريخ كلية الدراسات الإنسانية
جامعة الأزهر ــ فرع البنات

نبذة عن نشأة القلاع ببلاد الشام :

احتلت القلاع مكانة هامة في عصر الحروب الصليبية بين المسلمين والصليبيين، ويرجع إلي كثرتها المذهلة وانتشارها ببلاد الشام آنذاك الدور الكبير في تطور الأحداث بينهما. ومما تجدر الإشارة إليه أن كلا من المسلمين والصليبيين تسارعوا فيما بينهم واهتموا اهتماما كبيرا بإنشاء القلاع خلال تلك الفترة، فلم يتركوا مضيقا أو سفح جبل يشرف على واد أو نهير دون أن يبنوا عليه قلعة تشرف على هذا أو ذاك، كما لم يتركوا مدينة دون أن يشيدوا خارجها أو على جبل يشرف عليها قلعة أو حصنا منيعا، إذ كان الهاجس وراء ذلك هو الحماية والمنعة[١].

ولقد ازداد نشاط الصليبيين بإنشاء القلاع بعد استيلائهم على بيت المقدس في عام ٤٩٢ هـ/ ١٠٩٩م[٢]، وتأسيس مملكة بيت المقدس الصليبية في عام ٤٩٣هـ/١١٠٠م، حيث أدركوا ضرورة الحفاظ عليها في أيديهم. ومما تجدر الإشارة إليه أن المملكة الصليبية في الشرق احتلت موقعا جغرافيا جعلها عرضة بصفة مستمرة للهجوم من قبل القوى الإسلامية المجاورة، ذلك أن الأراضي التي خضعت لتلك المملكة شملت الإمارات الصليبية الممتدة على طول الساحل الشامي من الشمال إلى الجنوب وهي إمارة أنطاكية وطرابلس ومملكة بيت المقدس الصليبية، بالإضافة إلى إمارة الرها الصليبية[٣] بالجزيرة الفراتية التي استعادها المسلمون بعد حوالي خمسين عاما من استيلاء الصليبين عليها.

وعلى الرغم من أن الإمارات الصليبية قد تميزت بامتداد طولي على الساحل بلغ ما بين أربعمائة وخمسمائة ميل إلا أن عرضها انحصر فيمـا بـين خمسـين وسبعين ميلا، هذا بالإضافة إلى وجود مدينتي دمشق وحلب الإسلاميتين القـويتين اللتين استعصى على الصليبيين إخضاعهما على الجانب الصحراوي لتلك الإمارات الصليبية مما شكلتا عائقا دائما في مواجهة امتداد نفوذ الوجود الصليبي وتوسعه في المنطقة؛ وبذلك ظل المسلمون قادرين على حرية التحرك على طول الساحل الممتد بتلك المملكة الصليبية الأمر الذي أدى بالصليبيين إلى ضرورة إقامة نظام دفـاعي عنها تمثل في إنشاء الحصون والقلاع الصليبية في بلاد الشام[٤].

وقد بدا إنشاء القلاع بصورة واضحة على عهد أول ملـوك مملكـة بيـت المقدس الصليبية بلـدوين الأول(١١٠٠ – ١١١٨م)[٥]، الـذي أظهـر اهتمامـا واضحا بإنشائها، وخطا خطوات واسعة من أجـل إنشـاء العديـد مـن القـلاع والحصون، التي كان من أهمها حصـن صـافيتا[٦]، وقلعـة تـورون[٧]، وقلعـة الشقيف[٨]، وقلعة الحبيس جلدق[٩]، وقلعة الشوبك[١٠]، وقلعة الجرية[١١].

واستمر نشاط حركة بناء القلاع على أشده في عهد بلـدوين الأول، وزادت تلك الحركة نشاطا في عهد الملك بلدوين الثاني (١١١٨- ١١٣١م)، حيـث تـم الاستيلاء على بانياس[١٢]، وإنشاء قلعة الصبيبة[١٣] فوق جبل الشـيخ (Hermon) الذي تكسوه الثلوج خلال موسم الشتاء، لسد الطريق بـين دمشـق وأعـالي نهـر الأردن.

كما نشطت حركة البناء والتعمير للقلاع والحصون بصورة واضحة علـى عهد ملك بيت المقدس الصليبي فولك أنجو[١٤] (١١٣١ – ١١٤٣م) ؛ ففي الفترة من ١١٣٧ إلى ١١٤٢م شيدت سلسلة قوية من القلاع في الجنوب الغربي من عسقلان، ضـمت كـلا مـن قلعـة الحـارس الأبـيض[١٥] (Blache Garde) وقلعـة ابلين[١٦](Ibelin) التي أنشأهما الفرسان الاسبتارية[١٧] في عـام ٥٣٨هـ/١١٤١م؛ والمعروف أن عسقلان كانت آخر المرافئ التي بقيت في أيدي المسلمين لذلك اهتم فولك أنجو بتشييد تلك الحصون لسد الطريق من مصر إلى فلسطين[١٨].

نشأة قلعة كوكب :

وفي عهد فولك أنجو أنشئت قلعة كوكب التي عرفت بقلعة بلفوار (Belvoir) أو كوكب الهواء، وذلك منذ أن عهد فولك أنجو إلى فرق الفرسان الرهبان في الأراضي المقدسة المعروفة بالاسبتارية والداوية[١٩] مهمة الترتيبات الدفاعية عن مملكة اللاتين، فقام فرسان الاسبتارية ببناء قلعة كوكب في عام ٥٣٧هـ/١١٤٠م[٢٠]، وفي نفس العام قام فرسان الداوية ببناء قلعة صفد[٢١] في الجليل العلوي[٢٢].

وقد أنشأ الاسبتارية قلعة كوكب على أعلى الجبل المطل على مدينة طبرية[٢٣]، حيث يبلغ طولها ثمان وخمسون درجة وعرضها اثنان وثلاثون درجة وعشرون دقيقة[٢٤]، ويعدها المؤرخون من القلاع الكبيرة إذ تبلغ مساحتها ٣٨ × ٣٢٠ قدما[٢٥]، وتشكل بمنعتها أحد الحصون القوية التي تقع ضمن خط الدفاع الثاني عن مملكة بيت المقدس الصليبية نظرا لندرة الدفاعات الطبيعية في الجنوب مما جعلها غير مؤثرة في الحماية، لذلك أمكن الاستعاضة عنها بإنشاء العديد من القلاع والحصون، وبهذا أصبح للصليبيين بمملكة بيت المقدس خطان دفاعيان هما:

١- خط الدفاع الأول: وهو للدفاع عن الأرض الممتدة في الصحراء شرق نهر الأردن ممثلا في قلعة الصبيبة في جنوب جبل الشيخ للتحكم وكشف أي تقدم يرد من جهة دمشق، وقلعة كرك مؤاب في شرق البحر الميت وعلى مقربة منه، وقلعة الشوبك في صميم صحراء الأردن وشمال خليج العقبة .

٢- خط الدفاع الثاني: ويقع غرب نهر الأردن ويعتمد على قلعتي تورون وصافيتا اللتان كانتا تشرفان بالتتابع على الطرق المؤدية من أعالي الأردن إلى صيدا أو عكا، وعلى قلعة كوكب التي تشرف على المخاضة الهامة في جنوب طبرية[٢٦]؛ ويؤكد هذا ياقوت الحموي[٢٧] بذكره لموقع قلعة كوكب بأنها تقع " على الجبل المطل على مدينة طبرية حصينة رصينة تشرف على الأردن "، لذا كانت تتحكم في مخاضات نهر الأردن إلى الجنوب من طبرية[٢٨].

ومما يدعو إلى التساؤل كثرة انتشار القلاع الصليبية ببلاد الشام آنذاك؛ هل كان الهدف من وراء كثرتها وانتشارها حماية مملكة بيت المقدس الصليبية فحسب؟ أم كانت هناك عوامل أخرى دعت الصليبيين إلى تشييد وانتشار هذا الكم الهائل من تلك القلاع والحصون؟.

والحقيقة أنه من الممكن تقسيم دوافع الصليبيين لتشييد القلاع ببلاد الشام إلى عدة عوامل منها :

١- طبيعة الموقع الجغرافي للوجود الصليبي في بلاد الشام: يلاحظ أن المناطق التي سيطر عليها الصليبيون خاصة مملكة بيت المقدس وإمارتي أنطاكيا وطرابلس الصليبيتين كانت تحاط بالبلاد الإسلامية من عدة جوانب مما جعلها عرضة بصفة مستمرة لمحاولات استردادها من قبل القوات الإسلامية المجاهدة آنذاك[٢٩].

٢- نقص العنصر البشري للصليبيين ببلاد الشام: فقد عانى الصليبيون في الأصل من تلك المشكلة المزمنة التي لازمت تاريخ وجودهم في بلاد الشام، ذلك أنه بعد نجاح الحملة الصليبية الأولى في إقامة كيانات صليبية في المنطقة عاد الكثيرون منهم إلى الغرب الأوربي؛ كما أن مقدم الإمدادات الأخرى إلى الصليبيين في بلاد الشام لم يكن ليسد ذلك العجز في العنصر البشري لديهم[٣٠]، الأمر الذي جعلهم يلجأون إلى إقامة التحصينات الدفاعية من القلاع والحصون للتغلب على هذا النقص[٣١].

٣- تأمين طرق الحج المسيحي: لقد قدم الصليبيون إلى بلاد الشام تحت شعار ظاهري وهو تأمين طرق الحج، الأمر الذي كان يمثل دعاية سياسية للقيادة الصليبية بأوروبا، لذا عمل الصليبيون على تشييد العديد من القلاع والحصون على طرق الحج من الساحل إلى كنيسة القيامة الأمر الذي جعلهم يشيدون عدة حصون بين يافا والقدس كان من أهمها قلعة شقيف أرنون وغيرها من القلاع[٣٢].

٤- محاولة حماية الرهبان من خطر العمليات العسكرية المحتدمة بين المسلمين والصليبيين: فقد لجأ الصليبيون أيضا إلى إقامة تلك القلاع لحماية عناصر الرهبان من خطر تلك العمليات[٣٣].

٥- استخدام تلك القلاع كمراكز إدارية آمنة ببلاد الشام[٣٤].

٦- اتخاذ تلك القلاع كحصون منيعة لمحاولة إسقاط المدن الإسلامية المجاورة لها مثل " قلعة صنجيل" التي شيدها ريموند الصنجيلي (Raymond de Saint Gilles) عام ٤٩٨ هـ / ١١٠٤م من أجل إسقاط مدينة طرابلس التي طال حصارها من قبل القوات الصليبية، و" قلعة إسكندرونه " من أجل إسقاط مدينة صور التي استعصيت عليهم بفضل مناعتها الطبيعية التقليدية، وكذلك تشييد العديد من القلاع الحصينة من أجل إسقاط مدينة عسقلان وضمها إلى السيطرة الصليبية[٣٥].

الطراز المعماري لقلعة كوكب :

لقد انتشر بناء القلاع والحصون في بلاد الشام بعد تأسيس مملكة بيت المقدس الصليبية كما ذكر آنفا، والتي على أثرها ازداد نشاط حركة بناء القلاع منذ بداية القرن الثاني عشر الميلادي، وكان أهم ما يميز طابع بناء القلاع والحصون في تلك الفترة الطابع النورماني المربع على غرار القلاع الفرنسية[٣٦]، مع إضافة بناء سور بسيط مدعم بالأبراج المربعة الموزعة على مساحات طويلة نسبيا، أو ذات نتوءات واضحة على غرار القلاع البيزنطية؛ وهذا ما يؤكد تأثر الصليبيين في بناء تلك القلاع واستفادتهم من القلاع البيزنطية التي كانت موجودة في بلاد الشام في تلك الأونة، هذا فضلا عما نقلوه معهم من أساليب البناء الحربية مما كان متبعا في الغرب آنذاك[٣٧].

ولا شك أن تأثر الصليبيين يرجع إلى بداية المسيرة الطويلة لجيوشهم عبر أسيا الصغرى والأراضي البيزنطية عام ١٠٩٧م في طريقهم إلى بلاد الشام وما رأوه من أساليب التحصينات البيزنطية التي حازت إعجاب الكثير من قادتهم في تلك الأونة[٣٨].

أما عن قلعة كوكب فقد طُبق عليها الطراز المعماري البيزنطي حيث بنيت القلعة من الحجر الأسود المنحوت علي هيئة حصن كبيـر مربـع يمتـد أطـول أضلاعه نحو ٣٨٠ قدما، ويحيط به خندق حول ثلاثة من جوانبه، أما الجانب الرابع فيطل على هوة سحيقة. وتحتوي الأركان على أبراج مربعة الشكل، مقامة في وسط ثلاثة من ستائر القلعة[٣٩]، أي أنها محصنة ببرج في كل زاوية من زوايا السـاحة المطوقة. ويوجد مدخل للقلعة في كل من سوريها الشرقي والغربي محاطـا مـن الجانبين ببرجين لذا فقد بلغ عدد أبراج القلعة سبعة أبراج حيث لم يقم في سـورها الشرقي البرج الثامن كما هو معمول به في القلاع الأخـرى نظـرا لأن سـورها الشرقي محمي بمنحدر تل شديد الانحدار في وادي نهر الأردن ولا يحتـاج إلـى وسيلة دفاعية إضافية؛ وتتميز كافة الأبراج السبعة - عدا واحد منها- بجوانب يزيد كل منها عن ٣٠ قدما ويتراوح بروزها المعتاد بين ١٥ و ٢٠ قدما[٤٠].

ويعتبر الحصن المربع الذي طبق على قلعة كوكب من أهم السمات البـارزة التي واكبت طرز عمارة القلاع الصليبية في الأراضي المقدسة منذ البدايـة، وإن كان له بعض المساوئ، حيث لا يسمح للحامية بالانسحاب عندما تضطرها ظروف الحصار ذلك، ولكن تغلب الصليبيون على ذلك بإدخال بعض التحسينات وذلك بحفر خندق كبير يحيط بتلك القلاع . وقد طبق ذلك أيضا على قلعة كوكب وغيرها مـن القلاع الصليبية التي أنشئت في تلك الفترة(القرن السادس الهجري/ القرن الثـاني عشر الميلادي) مثل قلعة صهيون[٤١]، والكرك، والصبيبة، والشقيف، وعثليـث[٤٢] التي تعرف أيضا بقلعة الحاج(Pelerin)[٤٣].

وقد جمع أسلوب بناء قلعة كوكب بين المتانة والمنعـة؛ وهـذا مـا جعـل المؤرخون والجغرافيون المسلمون المعاصرون يصفونها بالحصانة والمنعة، وأنها "قلعة حصينة" رصينة"[٤٤]، " راسية" راسخة" شماءُ شامخة"[٤٥]؛ كمـا وصـفها العماد الأصفهاني وهو شاهد عيان بأنها " حصنٌ لا يرام، وركنٌ لا يضام، ومعقـلٌ لا يُسامى ولا يُسام، وذروة" لا تفرَع، ومروة لا تقرّع، وعقيلة" لا تفترع، وبكـر" لا تخطب، وقلعة" لا تطلب"[٤٦]؛ كما قال فيها العماد أيضا على لسان مقدم الاسبتارية "هي كوكبنا المتلالىء، ومنكبنا العالي، ومعقلنا المحكم، ومعقدنا المبرم، وحصـننا

الحصين، ومكاننا المكين، ولنا منه المربع المريع، والمنبع المنيع، والمحل المحلى، والمَعلمُ المُعَلى، وهي قفل من البلاء على البلاد، وموئل من الخطوب الشداد"[٤٧].

ويتضح من هذه النصوص وغيرها مما ورد في المصادر الإسلامية مـدى حصانة قلعة كوكب، وأنها كانت تمثل أحد أهم الخطوط الدفاعيـة الهامـة للقـوى الصليبية ببلاد الشام. وتدل رواية العماد الأصفهاني وهو شاهد عيان لأحداث تلـك الفترة على حصانة ومتانة تلك القلعة والتي كانت تمثل أصعب الحصون الصـليبية أمام القوات الإسلامية، فضلا على أن الرواية أشارت إلى اعتماد الصليبيين عليهـا واعتبارها حصنهم الحصين أمام القوات الإسلامية؛ كما تضمنت الرواية أيضا طرفا من الطراز المعماري للقلعة واصـفا إيـاها بـ " المربع المريع"، ولعل هذا يتفق مع استنباط الطراز المعماري للقلعة كما سبق ذكره.

محاولات السلطان صلاح الدين فتح قلعة كوكب :

مما سبق يتضح أن إنشاء معظم القلاع الصليبية في بلاد الشام كـان تحـت إشراف الفرسان الاسبتارية أو الفرسان الداوية وذلك بناء على ما قام به فولك أنجو ملك مملكة بيت المقدس الصليبية بإسناد مهمة الدفاع في الأراضي المقدسـة إلـى فرق الفرسان الرهبان . ومنذ أن أنشأ الاسبتارية قلعة كوكـب وأصـبحت تحـت سيطرتهم اعتنوا بتحصينها تحصينا منيعا وشحنوها بالقوات والمؤن اللازمة بحيث أصبحت أحد القلاع الهامة للصليبيين في الشام؛ ويشير ابن شداد(٤٨) إلـى ذلـك فيقول في حصن كوكب " كان حصنا قويا، وفيه رجال شداد من بقايا السيف وميرة عظيمة ".

وقد دخلت قلعة كوكب حلقة من حلقات الصراع الإسلامي الصليبي؛ وكـان يمثل القوى السياسية الإسلامية في تلك الأونة الدولة الأيوبية في مصر والشام، التي تحملت عبء توحيد الجبهة الإسلامية للجهاد ضد الصـليبيين، بـدءا بمؤسسـها السلطان الكبير صلاح الدين الأيوبي، الذي بذل جهودا مضنية مـن أجـل توحيـد الجبهة الإسلامية من النيل إلى الفرات[٤٩].

والحقيقة أنه أثناء انشغال السلطان صلاح الدين بتوحيد الجبهة الإسلامية لـم يخل الأمر من حدوث مناوشات بين المسلمين والصليبيين حول القـلاع والمـدن

والحصون التي في أيدي الصليبيين محاولة من السلطان صلاح الدين فـتح تلـك القلاع والحصون وتمهيدها للدولة الإسلامية، وإن كانت تلك المحاولات غير حاسمة في تحقيق انتصار مميز في تلك الفترة(٥٠).

ومن أبرز المناوشات التي حدثت بين صلاح الدين والصليبيين حـول قلعـة كوكب والبلدان المجاورة لها تلك التي حدثت في عام ٥٧٨هـ / ١١٨٢ م على إقليم الغور(٥١) وحصن كوكب الذي تشرف عليه؛ وكان سبب هذه الهجمة من المسـلمين ما قام به أرناط صاحب الكرك في صيف عام ٥٧٧ هـ / ١١٨١م من تناسي للعهد المعقود بين صلاح الدين وملك مملكة بيت المقـدس الصـليبية بلـدوين الرابـع (١١٧٤- ١١٨٥م)(٥٢) وخرج على رأس قوة من رجاله إلى صحراء العرب حتى وصل إلى تيماء(٥٣) قاصدا بذلك التوجه إلى المدينة المنورة.

ولما علم فروخ شاه بن أخي صلاح الدين ونائبه على دمشق بخروج أرنـاط لمهاجمة الأراضي المقدسة عمد إلى غزو الأردن وتخريب أعمال الكرك ونهبهـا وهي تابعة لأرناط مما حمل أرناط بالإسراع والعودة إلى إمارته للدفاع عنها، ولكن بعد أن نهب قافلة إسلامية كبيرة كانت متجهة من دمشق إلى مكة المكرمة وسـلب منها ثروة ضخمة(٥٤).

لا شك أن هذه الغارة التي قام بها أرناط على القافلة الإسلامية المتجهة إلـى الأراضي المقدسة أدت إلى نقض الهدنة بين السلطان صلاح الدين وملك مملكة بيت المقدس الصليبية بلدوين الرابع الذي فشل في إقناع أرناط بـرد أسـرى الحجـاز ومتاع القافلة التي استولى عليها، لذلك خرج صلاح الدين من مصر قاصـدا بـلاد الشام في المحرم من عام ٥٨٧ هـ / مايو ١١٨٢م وقصد أولا أيلة على خليج العقبة وهي للصليبيين فهاجمها ثم توجه منها إلى حصن الكرك وعندما علم أن الصليبيين اجتمعوا بحشودهم هناك للحيلولة دون دخوله دمشق وربما لمهاجمته(٥٥). وقد عمد صلاح الدين إلى الاحتراز في سيره ليصل إلى دمشق، فالتزم الأطراف، وفي أثناء الطريق مر على حصن الشوبك، وأغار عليه، ودمر مزارع القمح التابعة للصليبيين هناك(٥٦)؛ وفي نفس الوقت كان عز الدين فرخشاه ابن أخي صلاح الـدين ونائبـه على دمشق، قد خرج من دمشق وأغار على طبرية وعكا، واستولى على شـقيف

أرنون، وأخذ منه الكثير من الغنائم، ما يقدر بألف أسير وعشرين ألف رأس غـنم، ثم اتجه إلى الضفة الشرقية لنهر الأردن شرقي بحيرة طبرية، وهاجم حصن حبيس جلدك وهو للصليبيين، واستولى عليه بعد حصار دام حوالي خمسة أيام، وسار عنه بعد أن ترك فيه حامية إسلامية، وأصبح هذا الحصن للمسلمين[٥٧].

وعندما وصل صلاح الدين إلى دمشق في ١٧ من صفر ٥٧٨ هـ / ١١٨٢م أخذ يعيد تنظيم قواته، وعندما أتم له ذلك خرج من دمشق متوجها إلى طبرية فـي ربيع الأول ٥٧٨ هـ / ١١٨٢م، وخيم بالأقحوانه[٥٨] بالأردن، في حين أرسل ابـن أخيه فرخشاه إلى بيسان فهاجمها ودخلها عنوة وغنم ما فيها؛ وفي نفس الوقت قامت الأعراب بمهاجمة جنين واللجون[٥٩] وغيرهما من البلاد الأخرى حتى قاربوا مرج عكا؛ لذلك ترك الصليبيون طبرية التي كانوا قد خيموا بها وتوجهوا إلـى قلعـة كوكب، وتحصنوا بها. ولما علم صلاح الدين بنقل الصليبيين مخيمهم إلـى قلعـة كوكب أسرع بالانضمام إلى قوات ابن أخيه عز الدين فرخشاه، وتقـدمت القوتـان لملاحقة الصليبيين في قلعة كوكب[٦٠] ذلك الحصن المنيع الذي يشرف على إقلـيم الغور والطريق المؤدي إلى الناصرة[٦١].

وتحت قلعة كوكب اشتبك المسلمون والصليبيون في القتال " حيث تقدم صـلاح الدين إليهم، وأرسل العساكر عليهم يرمونهم بالنشـاب فلـم يبرحـوا ولـم يتحركـوا لقتال"[٦٢]، لذا أمر صلاح الدين ابني أخيه فرخشاه وتقي الدين عمر بأن يحمـلا علـى الصليبيين في القلعة، فحملا عليهم، واشتد القتال تحت القلعة، واستشهد جماعـة مـن المسلمين، وانتهت المعركة بانتصـار المسلمين، ثم رجع السـلطان صـلاح الـدين إلى دمشق مظفـرا بعد أن "أثخن فيهم وفي بلادهم " تحت قلعة كوكب[٦٣].

ويصور ابن شاهنشاه[٦٤]، وقد كان شاهد عيان لتلك المعركة التي كانت على قلعة كوكب، فيقول:" أن الفرنج قد اطلبوا بخيلهم ورجلهم فاشتغل السلطان بترتيـب الأطلاب[٦٥] وتحريض الناس على الجهاد فجعل والدي الملك المظفر في الميمنـة وعمي عز الدين فرخشاه في الميسرة وقرب الفرنج منا فرأوا من العدة والناس مـا هالهم فلجأوا إلى حصن كوكب فسبقت أطلاب الميسرة وجالت الجاليشية[٦٦] ترميهم بالسهام وعطف عليهم والدي ومن معه من الميمنة، وكنا في واد صعب ومضـيق

وتواترت على الفرنج الحملات فطحنهم الأبطال، فصـــاروا بـــين قتيـــل وأســـير، وانهزموا على أعقابهم لائذين بالحصن، وكان ذلك يوم الخميس ثان عشـــر ربيـــع الأول وأقمنا باقي يوم الخميس ويوم الجمعة لجمعهم منازلين ولخروجهم محاولين".

يتضح من هذه الرواية أنه على الرغم من أن المسلمين قد حققوا النصر على الصليبيين في ميدان المعركة تحت قلعة كوكب إلا أنهم لم يستطيعوا إخراجهم منها عندما تحصنوا بداخلها، مما يؤكد أن صلاح الدين لم يواصل حملته عليهم في داخل القلعة نظرا لامتناع هذا الحصن الحصين الذي كان بمثابة خط دفاع أساسي لهـــم؛ ولعل هذا ما جعل وليم الصوري يصور هو الأخر هذا بأنه نصر للصـــليبيين[٦٧]. وبالفعل لم ينل صلاح الدين منهم داخل القلعة وأكتفي فقط بما حققه مـــن إغـــارات وانتصارات سريعة، وعاد من فوره إلى دمشق ليواصل جهوده من أجـــل تحقيـــق وحدة الجبهة الإسلامية، وليتفرغ فيما بعد للمواجهة الفعلية مع الصليبيين، ويشـــير سميل[٦٨] إلى أن صلاح الدين في غزواته فـــي الفتـــرة مـــن ٥٧٨ هـ/ ١١٨٢ - ٥٧٩هـ/١١٨٣م لم يواجه صعوبة في حصن من الحصون بل لم يواجه أي مكـــان محصن هام إلا قلعة كوكب التابعة للاسبتارية.

على أية حال فبعد أن عاد السلطان صلاح الدين إلى دمشق بدأ يعيد ترتيب قواته لتوحيد الجبهة الإسلامية وذلك في الفترة مـــن ٥٧٨ هـ - ٥٨١ هـ / ١١٨٢ م - ١١٨٦ م، ونجح في ذلك إلى حد كبير[٦٩]، ثم تفرغ بعـــدها كليـــة إلـــى جهـــاد الصليبيين[٧٠]، حيث كان اللقاء الحاسم بين المسلمين والصليبيين في موقعة حطين في ١٤ربيع الآخر عام ٥٨٣ هـ / ١١٨٧م، والتي انتصر فيهـــا المســـلمون علـــى الصليبيين، وعلى أثرها اجتاح صلاح الدين ساحل الشام، وفتح بيت المقدس في يوم الجمعة ٢٧ رجب عام ٥٨٣ هـ / أكتوبر ١١٨٧م. وبعد أن تمكن صلاح الدين من تقويض الوجود الصليبي في فلسطين لم يبق أمامه في شمال الشام سوى إمـــارتي أنطاكية وطرابلس الصليبيتين وبعض الحصون التابعة لهما مثل حصـــني الأكـــراد والمرقب[٧١]، بالإضافة إلى مدينة صور، وبعض القلاع الأخرى في جنوب الشام؛ لذلك كان على صلاح الدين أن يبدأ هجماته بالاستيلاء على بعض القـــلاع الهامـــة للصليبيين في إقليم الجليل ومنها قلعتي كوكب و صفد[٧٢].

والحقيقة أنه بعد هزيمة الصليبيين في حطين هرب عدد كبير منهم إلى قلعة كوكب التابعة للاسبتارية، وحصن صفد التابع للداوية، ويشير ابن الأثير[٧٣] إلى ذلك فيقول: " كان حصن كوكب للاسبتار وحصن صفد للداوية وهما قريبان من حطين موضع المصاف فلجأ إليهما جمع ممن سلم من الداوية والاسبتار فحموهما"، وتمكن الصليبيون من تحصين هذين الحصنين بعد الفرار إليهما، لذلك أرسل صلاح الدين في عام ٥٨٣ هـ / ١١٨٧م بعض القوات الإسلامية بقيادة الأمير سيف الدين أخو جاولي الأسدي إلى حصن كوكب معقل الاسبتارية الحصين، وتمكنت الحامية الإسلامية التي أرسلها صلاح الدين لحصار قلعة كوكب من حفظ الطريق للمجتازين من المسلمين ومنع الصليبيين من قطعه على المسلمين، لذلك أمن الناس طوال الفترة التي كانت فيها هذه الحامية الإسلامية محاصرة لقلعة كوكب[٧٤].

ولقد ظلت الحامية الإسلامية محاصرة قلعة كوكب طوال شهر شوال يتناوب أفرادها على الحراسة ليلا، ولما كانت أخر ليلة من شوال" غفل الذي كانت نوبته في الحراسة، وكان قد صلى ورده من الليل إلى السحر وكانت ليلة كثيرة الرعد والبرق والريح والمطر فلم يشعر المسلمون وهم نازلون إلا و الفرنج قد خالطوهم بالسيوف ووضعوا السلاح فيهم فقتلوهم أجمعين"[٧٥].

لعل هذه الرواية توضح مدى حصانة قلعة كوكب التي ظل المسلمون محاصرين لها حوالي شهر دون جدوى؛ كما تدل أيضا على أن الصليبيين المتحصنين بها ومعظمهم من الاسبتارية كانوا على يقظة دائمة حتى أتيحت لهم الفرصة ففاجئوا المسلمين وهاجموهم وتمكنوا من القضاء على الحامية الإسلامية بأكملها، ثم تحصنوا مرة أخرى بالقلعة بعد أن استولوا على طعام وسلاح المسلمين ليكون ميرة لهم[٧٦]، " فقوا بذلك قوة عظيمة أمكنتهم أن يحفظوا قلعتهم"[٧٧].

فتح قلعة كوكب (٥٨٤ هـ / ١١٨٨م) :

لما علم صلاح الدين بالكارثة التي حلت بالحامية الإسلامية التي كانت محاصرة قلعة كوكب وقتلهم على يد الصليبيين، وكان حينذاك محاصرا لصور، أرسل من فوره الأمير صارم الدين قيماز النجمي[٧٨] على رأس خمسمائة فارس إلى قلعة كوكب لمواصلة حصارها والتضييق على الصليبيين فيها حتى يفرغ من

أمر صور، ولما طال أمر صور وانتهى الشتاء سار عنها صلاح الدين إلى عكا، ثم قرر المسير بنفسه إلى قلعة كوكب لفتحها وذلك في المحرم عام ٥٨٤هـ/١١٨٨م[٧٩]. ويشير ابن الأثير إلى أن السلطان صلاح الدين سار إلى كوكب لفتحها " ظنا منه أن ملكها سهل وأن أخذها وهو في قلة من العساكر متيسر فلما رآها عالية منيعة أدرك أن الوصول إليها متعذر"[٨٠].

يبدو أن السبب الذي ذكره ابن الأثير من أن صلاح الدين ظن أنه يستطيع بتلك القوات القليلة التي كانت معه أن يفتح قلعة كوكب ليس بصحيح لأن قائدا مثل صلاح الدين الأيوبي لا يقدم على عمل دون أن يكون مدروسا، ولكن السبب الصحيح، كما يبدو، أن صلاح الدين بعد حصاره لصور وعكا دون جدوى قرر أن يتجه إلى قلعة كوكب ليستطلع أحوالها، خاصة بعد مقتل الحامية الإسلامية التي كانت تحت قيادة سيف الدين جاولي؛ يؤكد هذا ابن شداد[٨١] حيث ذكر أن سبب "بداءته بكوكب أنه قد جعل حولها جماعة يحفظونها من أن ترحل بهم قوة أو جماعة، فخرج الإفرنج ليلا وأخذوا غرتهم وكبسوهم بعقربلا وقتلوا مقدمهم "، يضاف إلى ذلك أن صلاح الدين كان قد فتح البلاد الساحلية في الجنوب فيما عدا صفد وكوكب والكرك وكان " يختار أن لا يبقي في وسطها ما يشغل قلبه"[٨٢].

ويتضح من الرواية السابقة أن صلاح الدين أراد أن يفتح كوكب وصفد والكرك لاستكمال فتوحاته العريضة في الساحل الجنوبي، ونظرا لأنه يعلم مدى حصانة قلعة كوكب، لذلك أراد أن يسبق عملية الفتح الجدي بحملة استطلاعية تمهد له عملية الفتح؛ ولهذا، فبعد أن استطلع صلاح الدين أحوال قلعة كوكب عاد إلى دمشق بعد أن طلب من قيماز النجمي الاستمرار على حصارها[٨٣]. كما يبدو أيضا أن صلاح الدين رأى عدم جدوى استكمال الفتح في تلك الآونة في الساحل الجنوبي للشام سواء بالنسبة لكوكب و صفد وصور والكرك، وقرر أن يتجه إلى الإمارات الصليبية في شمالي الشام لفتحها ثم معاودة استكمال عملية الفتح مرة أخرى في جنوب الشام بعد أن يكون قد أمن ظهره من أخطار تلك الإمارات الصليبية الكبيرة في شمال الشام؛ ولعل هذا يؤكد أيضا أن حملته على كوكب كانت استطلاعا لأحوالها وليس لفتحها.

وعلى أية حال، فبعد أن عاد صلاح الدين إلى دمشق في ربيع الأول من عام ٥٨٤ هـ / ١١٨٨م أعد قواته لاجتياح شمال الشام وتقويض الوجود الصليبي فيـــه، كما استنفر القوات الإسلامية في جميع البلاد للجهاد؛ وقد توافدت تلك القوات إلـــى حمص التي اتخذها قاعدة للانطلاق منها إلى شمال الشام، ثم انطلق صلاح الـــدين بالقوات ففتح بانياس في أقصى شمال إمارة طرابلس، وتوغل في إمارة إنطاكيـــة، واستولى على جبلة وفتح اللاذقية أكبر مواني إمارة إنطاكية، كما هـــاجم حصـــن صهيون، وفتحه في مدة قصيرة ، وأخذت معاقل إمارة أنطاكية تتساقط فـــي يـــد صلاح الدين حتى فتح معظمها بحيث لم يبق منها في أيدي الصليبيين إلا مـــدينتي أنطاكية وطرابلس، وحصني الأكراد والمرقب التابعين لصـــليبي الاســـبتارية[٨٤]، وبذلك غدت إمارتا أنطاكية وطرابلس على حد تعبيـــر المـــؤرخ أبـــو شـــامة[٨٥] "مقصوصتي الجناح ".

بعد أن فتح صلاح الدين شمال الشام وأقر الصلح مع بوهيمندالثالث (١١٦٣ – ١٢٠١م) حاكم إنطاكية وطرابلس[٨٦] توجه من فوره لاستكمال الفتح في جنوب الشام[٨٧]، على الرغم من أنه قد أشير عليه بعودة القوات كل إلى جهته، ولكنـــه " أبى ذلك وقال هذه الحصون كوكب وصفد والكرك في وسط بلاد الإسلام فلابد من البدار إلى فتحها "[٨٨].

وبعد أن نظم صلاح الدين قواته ، سار إلى صفد وحاصرها ونصب عليهـــا المجانيق ، ولما اشتد عليها الحصار، نفدت أقوات الصليبيين بداخلها، فاضـــطروا إلى طلب الأمان، وذلك بعد أن كاد صلاح الدين أن يفتح القلعة عنوة، لولا طلـــبهم الأمان، فأمنهم، وفتح القلعة وتسلمها من الصليبيين[٨٩].

ومما تجدر الإشارة إليه أنه أثناء حصار صلاح الدين لصفد اتفق الصليبيون المجتمعون في صور على نجدة قلعة كوكب، حيث قالوا" إن فتح المســـلمون قلعـــة صفد لم تبق كوكب ولو أنها معلقة بالكوكب وحينئذ ينقطع طمعنا من هذا الطـــرف من البلاد "[٩٠]، مما يدل على مدى أهمية تلك القلعة للصليبيين وكونها خط دفـــاع أساسي لهم. لذلك اتفقت كلمتهم على نجدة كوكـــب، وإرســـال المـــؤن والســـلاح والرجال إليه، فأرسلوا حوالي مائتي رجل مسلحين لنجدة كوكب، وســـاروا لـــيلا

لدخولها ونجدتها، ولكن كانت الحامية الإسلامية المحاصرة لها في تلك الأونة بقيادة صارم الدين قيماز النجمي على حذر كبير من الصليبيين، لذلك فقد علمت بأخبار هذه النجدة قبل وصولها إلى القلعة، فخرج قيماز النجمي بنفسه على رأس بعض القوات للقبض على أفراد هذا المدد؛ وبالفعل وصل المدد الصليبي وقد أكمن لهم المسلمون في الشعاب والكهوف، فخرج عليهم صارم الدين قيماز النجمي ومن معه من القوات حتى قضى على هذا المدد جميعه " ولم يفلت منهم أحد"[91]. وفي ذلك يشير ابن الأثير[92] إلى أن صارم الدين قيماز قد أسر مقدمين من الفرسان الاسبتارية، وأرسلهم إلى صلاح الدين وهو محاصرا لصفد ، فأمر بحبسهما.

وبذلك يكون صارم الدين قيماز النجمي قد ثأر للحامية الإسلامية التي قتلها الصليبيون من قبل أثناء حصارها قلعة كوكب، حيث قضى صارم الدين على جميع أفراد المدد الصليبي بحيث " لم يفلت منهم أحد" على حد تعبير ابن الأثير[93].

وبعد أن فرغ صلاح الدين من أمر صفد سار عنها إلى كوكب، وحاصرها ، وأرسل إلى الصليبيين المجتمعين بها يعرض عليهم الأمان، ولكنهم رفضوا، وامتنعوا بالقلعة، فشدد صلاح الدين عليهم الحصار على الرغم من صعوبة ذلك نظرا لشدة برودة الجو، وانهمار الأمطار التي لم تنقطع ليلا أو نهارا مما أعاق المسلمين عن فتحها بعض الوقت. وطال حصار المسلمين لقلعة كوكب، وهم يحاولون اقتحامها مرة بعد أخرى دون جدوى؛ لذلك قرر صلاح الدين الزحف على باشورة القلعة وأمر بهدمها، فتقدم النقابون إلى الباشورة وأخذوا يهدمونها والرماة يحمونهم بالنشاب والجروخ[94]، ولم يجرؤ أحد من الصليبيين أن يتقدم لدفع المسلمين عن هدم باشورة القلعة؛ وتمكن النقابون من هدمها، فسقطت الباشورة وتقدم المسلمون إلى سور القلعة الأعلى. ولما رأى الصليبيون عزم المسلمين وتصميمهم على هدم القلعة ودخولها اضطروا إلى طلب الأمان من السلطان صلاح الدين فاستجاب لهم وأمنهم، وتسلم القلعة منهم في منتصف ذي القعدة ٥٨٤هـ/١١٨٨م، وسيرهم إلى صور، فوصلوا إليها واجتمعوا إلى من بها من الصليبيين[95]. وبفتح كوكب وصفد أصبح للمسلمين من " حد أيله إلى أقصى أعمال بيروت "[96] لا يفصل بينهم غير مدينتي صور في الجنوب وإنطاكية في الشمال[97].

نيابة قلعة كوكب :

بعد فتح قلعة كوكب في منتصف ذي القعدة ٥٨٤ هـ / ١١٨٨ م عرض السلطان صلاح الدين الأيوبي نيابة القلعة على عدد من الأمراء، ولكنهم رفضوا تولي نيابة تلك القلعة" فولاها قيماز النجمي على كره منه"(٩٨). و يبدو أن صارم الدين قيماز النجمي لم يستمر طويلا على نيابة قلعة كوكب حيث أصبحت فيما بعد إقطاعا للأمير عز الدين أسامة أحد كبار الأمراء الصلاحية، فورد في أحوال البلاد والقلاع بعد وفاة السلطان صلاح الدين الأيوبي بأن" عز الدين أسامة بيده كوكب وعجلون"(٩٩). وقد كان الأمير عز الدين أسامة من الأمراء الذين تمتعوا بمكانة رفيعة في العهد الصلاحي، وكان له دور كبير في الجهاد ضد الصليبيين زمن الحملة الصليبية الثالثة؛ وعندما كان نائبا عن السلطان على بيروت قام بمهاجمة مقدمة قوات ملك الإنجليز ريتشارد قلب الأسد التي وصلت إلى بيروت أثناء وجود ريتشارد بقبرص، فهاجمها عز الدين أسامة واستولى على خمس سفن منها مملوءة بالمؤن والعتاد(١٠٠).

والحقيقة لم تحدد المصادر بالضبط متى أقطع عز الدين أسامة قلعتي كوكب وعجلون، ولكن يبدو أن السلطان صلاح الدين قد اقطعهما اياه، هذا بالإضافة إلى إقطاعه بيروت بعد تصديه لمقدمة حملة ريتشارد قلب السد وانتصاره عليها(١٠١).

موقف الأمير عز الدين أسامة من انقسام البيت الأيوبي عقب وفاة صلاح الدين :

ظل الأمير عز الدين أسامة يتولى أمر قلعة كوكب منذ أن عهد إليه السلطان صلاح الدين الأيوبي نيابتها، واستمر على ذلك حتى بعد وفاة السلطان في عام ٥٨٩ هـ / ١١٩٣م(١٠٢). والحقيقة أنه بعد وفاة صلاح الدين انقسم البيت الأيوبي على أثر الوحشة التي حدثت بين ابنيه الأفضل صاحب دمشق والعزيز عثمان صاحب مصر(١٠٣). ولتوضيح موقف عز الدين أسامة صاحب كوكب وعجلون من هذا الانقسام لابد من الإشارة إلى التقسيم الإداري للدولة الأيوبية بعد وفاة صلاح الدين حتى يتسنى معرفة إلى أي الأقسام الإدارية كانت تتبع قلعة كوكب.

فمن خلال استقراء المصادر والمراجع التاريخية وجد أن دمشق كانت مركزا للقسم الإداري الممتد من دمشق إلى الداروم(١٠٤) حتى قرب الحدود المصرية،

ويضم هذا القسم الساحل وبيت المقدس وبعلبك وصرخد[١٠٥] وبصرى[١٠٦] وبانياس وهونين[١٠٧] وتبنين[١٠٨] وكوكب وعجلون؛ وكان يتولى هذا القسم الملك الأفضـــل أكبر أبناء السلطان صلاح الدين والمعهود له بالسلطنة بعد أبيه[١٠٩]، في حين كانت حلب في يد الملك الظاهر غازي ومصر في يد الملك العزيز عثمان ابني الســلطان صلاح الدين، وبالكرك والشوبك والبلاد الشرقية الملك العادل سيف الدين أبو بكــر أخو صلاح الدين، وكانت حماة وأعمالها في يد الملك المنصور محمــد، وحمــص وأعمالها في يد الملك المجاهد أسد الدين شيركوه، وبعلبك في يد الملك الأمجد بهرام شاه بن فرخشاه بن شاهنشاه بن أيوب[١١٠].

مما سبق يتضح أن عز الدين أسامة صاحب كوكب كــان حســب التقســيم الإداري خاضعا سياسيا للملك الأفضل بن صلاح الدين. والحقيقة أن الأحوال فـــي دمشق وأعمالها لم تسر في الطريق الصحيح، حيث أن الملك الأفضل بن صــلاح الدين استوزر في دمشق ضياء الدين بن الأثير[١١١] الذي استأثر بجميـــع أمــور الأفضل والبلاد التابعة له، وأساء معاملة أمراء الأفضل خاصة الأمراء الصــلاحية كبار أمراء أبيه، بل وحسّن للأفضل طردهم من البلاد التابعة له[١١٢]؛ لذلك سار إلى مصر عدد كبير من كبار الأمراء الصلاحية من بينهم الأمير فخر الدين جهاركس، والأمير فارس الدين ميمون القصري، والقاضي الفاضل[١١٣] وغيرهم مــن كبــار الأمراء الذين التحقوا بخدمة الملك العزيز عثمان صاحب مصر، وتقربــوا منـــه، وأخذوا يحرضونه على قصد دمشق[١١٤]، فاستجاب الملك العزيز لكلمـــة الأمـــراء الصلاحية وخرج بالفعل لقصد دمشق في عـــام٥٩٠ هـ / ١١٩٤م، فوصـــل إليهـــا وحاصرها، وكاد الملك الأفضل أن يـُـهزم ويدخل العزيز دمشق لــولا اســـتنجاد الأفضل بعمه الملك العادل صاحب الجزيرة الذي قدم لنجدته، وإصلاح الأمر بـــين الأخوين؛ وبالفعل نجح العادل في ذلك وتم عقد صلح بين الأخوين، ورفع العزيـــز الحصار عن دمشق، وعاد إلى مصر؛ ولم يستمر الصلح طويل بـــين الأخـــوين، خاصة وأن الوزير ابن الأثير استمر على سيطرته وتسلطه في حين انشغل الأفضل باللعب واللهو[١١٥].

أما عن الأمير عز الدين أسامة الصلاحي، الذي كان ما يزال في خدمة الملك الأفضل، فقد استاء هو الآخر من الوزير ضياء الدين بن الأثير، لذلك توجه أيضا إلى مصر والتحق بخدمة الملك العزيز عثمان، الذي أحسن استقباله، وأكرمه غاية الإكرام(١١٦). ولما استقر عز الدين أسامة في مصر أخذ يطلع الملك العزيز على دقائق الأمور في دمشق، ومدى فساد الأحوال بها بسبب الوزير ابن الأثير، وأخذ يحرض الملك العزيز على ضرورة إنقاذ البلاد التي في يد الملك الأفضل، وحسّن له قصد دمشق مرة أخرى، وعمل على تقوية عزم الملك العزيز على ذلك حيث كان مما قاله له " إن لم تنصر الدولة الصلاحية خذلت وإن تصبها ابتذلت، وأخوك الملك الأفضل قد غلب على اختياره وحكم عليه وزيره الضياء الجزري، وقد أفسد أحوال الدولة، فهو يتصرف فيها برأيه الفاسد، ويحمل أخاك على مقاطعتك ومباينتك، فإن أعفيت أغفلت وإن أمهلت أهملت، وإن لنت غلظوا وإن نمت تيقظوا، ولا تلتزم باليمين فإن من شرطها صفو الوداد وصحة النية، ولم يوجد ذلك فحنثهم في إيمانهم قد تحقق وبرأت أنت من العهد، فاقصد البلاد وقادتها في يدك قبل أن يحصل للدولة من الفساد ما لا يمكن تلافيه"(١١٧).

ولعل هذا النص يبين بدقة الوضع الذي أدركه الأمير عز الدين أسامة في دمشق، لذلك رأى أن ينقذ الدولة الصلاحية من الضياع وأن يطلع الملك العزيز على ذلك الوضع السيئ الذي أضحت فيه دمشق وأعمالها. ولم يمض وقت طويل على وصول عز الدين أسامة إلى مصر حتى وصل أحد كبار الأمراء الصلاحية، وهو الأمير شمس الدين بن السلار، فارا أيضا من فساد الأحوال في دمشق مما زاد من تحريض الملك العزيز وعزمه على قصد دمشق(١١٨).

وقد أكد هذا للملك العزيز عدم مقدرة أخيه الملك الأفضل على السيطرة على الأمور في دمشق مما يهدد كيان الدولة الأيوبية، لذلك أعد العدة لقصد دمشق مرة أخرى، وخرج إليها في عام ٥٩١ هـ / ١١٩٥م ، فاستنجد الملك الأفضل بأخيه الملك الظاهر صاحب حلب، وعمه الملك العادل صاحب الجزيرة، الذي أسرع بالقدوم إلى دمشق وأقام بها، واطلع على اختلال الأحوال بها، وسوء تدبير الملك الأفضل، لذلك أقام في دمشق ليصلح أحوالها(١١٩).

وعندما اقترب الملك العزيز صاحب مصر من دمشق، نجح الملك العادل في إحداث فـُـرقة في جيشه الذي كان يضم عددا كبيـرا مـن الأمـراء الأسـدية والصلاحية، فاستمال إليه الأمراء الأسدية وهم معظم جيش الملك العزيـز. وشـك الملك العزيز في ولائهم له مما اضطره للعودة إلى الديار المصرية(١٢٠)؛ ثم تحالف الملك الأفضل مع عمه الملك العادل على قصد الديار المصرية بعد أن اتفقا علـى اقتسامها في حالة الاستيلاء عليها على أن يكون للملك العادل ثلثها وللملك الأفضل الثلثين(١٢١). وانضم إلى حلفهما عدد كبير من الأمراء من بينهم عـز الـدين بـن المقدم، وسابق الدين عثمان بن الداية نائب شـيزر(١٢٢)، وعـز الـدين جرديـك النوري(١٢٣) نائب القدس؛ وقد سار الأفضل على أثر ذلك إلى القدس وتسلمه مـن عز الدين جرديك وعوضه عنها ببيسان وقلعة كوكب التي في إقطاع عـز الـدين أسامة الصلاحي، بالإضافة إلى الجولان(١٢٤) والمَنِيحة(١٢٥) اللتين أقطعتا له(١٢٦).

ويوضح هذا أن الملك الأفضل أصبح له التصرف على قلعة كوكب خاصـة بعد رحيل عز الدين أسامة عنها إلى مصر والدخول في طاعة الملك العزيزعثمان؛ ولا شك أنه أراد أن يعاقبه على تركه طاعته بالسيطرة على القلاع التابعـة لـه ومنحها لغيره؛ ولعل فعله هذا كان بإيعاز من وزيره الضياء بن الأثير الذي كـان مفوضا إليه أمر المملكة.

على أية حال فقد تقدم الملك الأفضل بصحبة عمه الملك العـادل قاصـدين الديار المصرية في عام ٥٩١ هـ / ١١٩٥م ، فلما نزلوا إلى بلبيس حاصروها، حتى ضاق الأمر على الملك العزيز بالقاهرة، مما اضطره إلى مراسلة عمه الملك العادل يطلب منه الصلح ورفع الحصار، فاستجاب الملك العادل، وتقرر الأمر بينهما على الصلح الذي كان من شروطه أن يقيم الملك العادل في مصر ليصلح أحوالهـا، وأن يعود الأمراء الأكراد والأسدية إلى خدمة الملك العزيز عثمان مرة أخرى، وأن يرد عليهم إقطاعياتهم(١٢٧).

لاشك أن شرط رد الإقطاعيات كان ساريا أيضا على الملك الأفضل، ولـذا كان عليه رد الإقطاعيات التي أخذت من الأمراء الصلاحية الذين ساروا إلى خدمة الملك العزيز عثمان في مصر ومنهم عز الدين أسامة الذي أخذت منه قلعة كوكب

وسلمت إلى عز الدين جرديك النوري . وبناء على هذا الشرط فقد ردت قلعة كوكب إلى عز الدين أسامة مرة أخرى ؛ يؤكد ذلك ما ذكره ابن واصل في حوادث عام ٥٩٢ هـ / ١١٩٦م من أن الملك العزيز قرب إليه "عز الدين أسامة صاحب عجلون وكوكب"[١٢٨] وهذا يؤكد عودة كوكب إلى يد عز الدين أسامة ثانية.

هكذا استقر الصلح بين كل من الملك العادل وابن أخيه الملك العزيز عثمان؛ كما اصطلح الأخوان، الأفضل والعزيز، وبالفعل خرج الملك العزيز إلى بلبيس والتقى بعمه وأخيه، وتم الصلح بينهم[١٢٩]؛ الذي على أثره عاد الملك الأفضل إلى بلاد الشام في حين أقام الملك العادل بمصر في صحبة الملك العزيز، وصار إليه الأمر والنهي والحكم والتصرف فيها[١٣٠].

ومما تجدر الإشارة إليه أن عز الدين أسامة صاحب كوكب زاد تقربه من الملك العزيز عثمان أثناء إقامة الملك العادل في مصر عام ٥٩٢ هـ / ١١٩٦م حتى أصبح يتولى كل أموره، بل أصبح صاحب سره وحاجبه " وصار الواسطة بينه وبين عمه"[١٣١]. ويتضح من هذا أن عز الدين أسامة كان قريبا أيضا من الملك العادل، بل ومواليا له حتى أصبح هو الواسطة بينه وبين ابن أخيه الملك العزيز عثمان؛ بل ربما يكون هو الذي أوعز إلى الملك العزيز عثمان بإظهار الطاعة إلى عمة الملك العادل؛ وأصبح على أثر ذلك عز الدين أسامة مقربا من كل من الملك العادل والملك العزيز عثمان وظل على ولائه لهما.

ولما مات الملك العزيز عثمان في عام ٥٩٥ هـ / ١١٩٩م اختلف الأمراء حول من يقوم على أتابكية ابنه الملك المنصور، واجتمع الأمراء وتشاوروا في هذا الأمر، وقد عرضت المصادر الإسلامية رأي الأمراء حول هذا الأمر، خاصة القاضي الفاضل الذي كان أحد الفارين من بلاط الملك الأفضل بن صلاح الدين، حيث قال للأمراء في هذا الصدد عندما اجتمعوا على استدعاء الأفضل " قد أصبتم الرأي واخترتم الذي اختاره السلطان الملك الناصر – رحمه الله – لكم وهو ألين عريكة وأسهل تناولا من غيره"[١٣٢]. وفي النهاية استقر رأي الأمراء بعد مراجعة القاضي الفاضل على استدعاء الملك الأفضل بن السلطان صلاح الدين ليقوم على

أتابكيته الملك المنصور[١٣٣]. وعلى هذا تم استدعاء الملك الأفضل بن صلاح الدين من صرخد، الذي أسرع إلى الاستجابة والقدوم إلى مصر متنكرا في أواخر صفر ٥٩٥ هـ / ١١٩٨م خشية من أتباع الملك العادل[١٣٤].

أما عن موقف عز الدين أسامة فيبدو أنه لم يكن موجودا وقت تشاور الأمراء واستدعاء الملك الأفضل للقدوم إلى مصر، ولعله كان موجودا في قلعة كوكب؛ ولما علم بذلك انضم إلى الأمراء الذين رفضوا قدوم الملك الأفضل إلى مصر وكان على رأسهم الأمير فخر الدين جهاركس و فارس الدين ميمون القصري وزين الدين قراجا وأسد الدين قرا سنقر[١٣٥]، وأسرعوا بمكاتبة الملك العادل للقدوم إلى مصر والقيام على أتابكية الملك المنصور بدلا من الملك الأفضل. يؤيد ذلك أنه لما قدم الملك الأفضل إلى بلبيس خرج فخر الدين جهاركس ومن معه من الأمراء المعارضين من مصر قاصدين القدس حيث نجحوا في استمالة ختلج العزي[١٣٦] والي القدس، كما "استمالوا عز الدين أسامة وميمون القصري فقدما عليهم ومع ميمون القصري سبعمائة فارس منتخبة"[١٣٧]. واتفقت كلمة هؤلاء الأمراء على مكاتبة الملك العادل واستدعائه ليقوم على أتابكية الملك المنصور، وراسلوه في هذا الأمر، وكان حينذاك مشغولا بحصار ماردين؛ فلما وصلت كتبهم إليه طلب منهم ألا يفارقوا أماكنهم حتى يحل الموقف في ماردين[١٣٨]، إلا أن الملك الأفضل كان قد دخل القاهرة في تلك الآونة، وقام بالفعل على أتابكية الملك المنصور[١٣٩].

ولم تطل فترة تولي الأفضل لأتابكية الملك المنصور إذ ما لبث الملك العادل أن ترك حصار ماردين لابنه الكامل، وتوجه إلى دمشق للتصدي لابن أخيه الملك الأفضل الذي زحف على دمشق التابعة له للاستيلاء عليها؛ ولما وصل العادل إلى دمشق قدم إليه الأمراء الصلاحية الذين كانوا في القدس ومن بينهم عز الدين أسامة، وانضم الجميع إلى قوات الملك العادل، ولم يمض وقت طويل حتى تمكن الملك العادل والأمراء الصلاحية من إنزال الهزيمة بالملك الأفضل في دمشق، أضطر على أثرها الملك الأفضل أن يسرع بالعودة إلى مصر لحفظها من أن تقع في يد الملك العادل؛ وأدرك العادل ذلك فترك دمشق وسار ومن معه من الأمراء لملاحقة الملك الأفضل في مصر[١٤٠].

ولما وصل الملك العادل إلى مصر أرسل إلى الملك الأفضل بأن يترك الديار المصرية ويذهب إلى صرخد، فاستسلم له وطلب منه الشام عوضا عن مصر[١٤١]، فرفض العادل طلبه، ولم يسلمه من البلاد سوى الخابور[١٤٢] وحـــاني[١٤٣] وجبـــل جور[١٤٤] وسميساط[١٤٥]؛ وعلى هذا دخل العادل مصر بمن معه من الأمراء ومـــن بينهم عز الدين أسامة صاحب كوكب؛ وتولى العادل أتابكية الملك المنصور في ٢٢ من ربيع الآخر ٥٩٦ هـ / ١٢٠٠م، ولم يمض أكثر من أسبوع حتى استقل بالسلطنة في مصر والشام والجزيرة[١٤٦]. ولكن استوحش الأمراء الصلاحية منه ذلك، ومالوا مرة أخرى إلى الملك الأفضل وكان على رأس هؤلاء الأمراء الخـــارجين فـــارس الدين ميمون القصري الذي كان بنابلس آنذاك، فراسل إلى الملك العادل يقول " إنما دخلنا في طاعتك ووافقناك مراعاة لولد الملك العزيز ابن أســـتاذنا خوفـــا مـــن أن يتطرق إلى ملكه ضرر، والواجب أنك تعيده إلى ملكه وإلا حصل الفساد في قلوب الجند ودخل الوهن على الدولة "[١٤٧]؛ ولم يعبأ السلطان العادل بهذا التهديد، وأرسل إلى ميمون القصري بأن يعود إلى الطاعة وإلا يخرج من البلاد، لذلك حاول ميمون القصري جمع الأمراء الصلاحية حوله فاستجاب له بعضهم، ثم انضم هو وبعـــض الأمراء إلى الملك الظاهر صاحب حلب[١٤٨].

وتجدر الإشارة هنا إلى موقف عز الدين أسامة صاحب كوكب وهـــو مـــن الأمراء الصلاحية من هذا؛ فالحقيقة أن عز الدين أسامة لم يكن موجودا في مصر ولا في بلاد الشام وقت خروج ميمون القصري على السلطان العـــادل، بـــل كـــان موجودا في مكة حيث خرج في عام ٥٩٦ هـ / ١٢٠٠م أميرا للحاج الشامي وذلك بعد قيام الملك العادل على أتابكية الملك المنصور[١٤٩]. وقد كان عز الدين أســـامة موافقا على سلطنة العادل ولم يكن ضمن الأمراء الصلاحية الذين خرجـــوا عـــن طاعته مع ميمون القصري، ويدل على ذلك أنه عندما عاد عز الدين أســـامة مـــن الحج في عام ٥٩٧ هـ / ١٢٠١م خرج إليه الملك الأفضل من صرخد لاستمالته إليه وإلى الأمراء الصلاحية الخارجين على الملك العادل فأظهر له عز الـــدين أســـامة الطاعة، ثم أرسل إلى السلطان العادل يخبره بهذا، ويشير إلى ذلك ابن واصل فيقول " وكان عز الدين أسامة صاحب - عجلون وكوكب- أميـــر الحـــاج فـــي الســـنة الماضية، فلما رجع من الحج نزل إليه الملك الأفضل من صرخد ودعاه إلى موافقته

فأجابه وحلف له وعرفه الملك الأفضل جلية الحال، فكتب عز الدين أسامة إلى الملك العادل فأخذ حذره وتيقظ لنفسه"(١٥٠).

هكذا أظهر عز الدين أسامة الطاعة إلى الملك الأفضل حتى تتاح له الفرصة لمراسلة السلطان العادل ليعرفه جلية الأمر ويحذره؛ وعندما علم السلطان العادل بذلك أرسل من فوره ابنه الملك المعظم عيسى إلى صرخد لمحاصرة الملك الأفضل ومن معه من الأمراء الصلاحية بها. ولما علم الملك الأفضل بقدوم الملك العادل ترك صرخد وتوجه إلى أخيه الملك الظاهر صاحب حلب في العاشر من جمادى الأولى ٥٩٧ هـ / ١٢٠١م؛ في حين انضم عز الدين أسامة إلى الملك المعظم عيسى، وطلب من الأمراء الصلاحية مساندته في محاربة الملك الأفضل والظاهر صاحب حلب، وحدث نقاش كبير بين عز الدين أسامة وبين الأمراء الصلاحية حول هذا الأمر، واحتد النقاش بينهم حتى تعدى أحد الصلاحية وهو الفارس البلي الصلاحي " فأغلظ البلي القول وتعدى إلى الفعل باليد"(١٥١)، ولما اشتد الصدام بين الفارس البلي وعز الدين أسامة إلى حد الضرب ثارت الصلاحية على عز الدين أسامة وقبضوا عليه فاستجار بميمون القصري الذي أجاره وأعاده إلى دمشق(١٥٢).

استمر ميمون القصري ومن معه من الأمراء الصلاحية على عدائهم للسلطان العادل، في حين ظل عز الدين أسامة صاحب كوكب وعجلون على الولاء والطاعة له حتى بعد أن سيطر العادل على الأمور في البلاد وتمكن من القضاء على الخارجين عليه؛ ويشير إلى ذلك ابن واصل في حوادث ٦٠٧ هـ/١٢١٠م بعد صلح الملك العادل مع الملك الظاهر صاحب حلب بأنه " وصل إليه عز الدين أسامة صاحب عجلون وكوكب"(١٥٣).

ويؤكد هذا استمرار عز الدين أسامة على الولاء والطاعة للسلطان العادل، كما يوضح أنه كان يريد للبلاد من يصلح للقيام على السلطنة وليس هناك أفضل من السلطان العادل الذي نجح في جمع شمل الدولة الأيوبية من جديد وتوحيدها مرة أخرى بعد فترة طويلة من الانقسام والاضطراب بعد وفاة أخيه السلطان صلاح الدين.

استيلاء الملك المعظم عيسى على قلعة كوكب :

لما تولى الملك العادل السلطنة في مصر والشام والجزيرة قسم البلاد بين أبنائه الثلاثة، فولى الملك الكامل أمر مصر، والملك المعظم عيسى على دمشق وأعمالها، والملك الأشرف موسى على بلاد الجزيرة، وجعل لنفسه الإشراف العام على جميع البلاد[١٥٤]. و لما كانت دمشق من نصيب الملك المعظم عيسى فقد طمع في قلعة كوكب وغيرها من القلاع التي كانت في يد الأمراء الصلاحية. ويبدو أن الملك المعظم عيسى قد عرض هذا الأمر على عز الدين أسامة ولكنه ماطله؛ يؤكد ذلك ما رواه ابن واصل من إ نه " قيل إن جماعة من الأمراء كانوا أشاروا على أسامة بتسليم كوكب وعجلون إلى الملك المعظم ويأخذ عوضا عنهما فما فعل"[١٥٥]، مما يؤكد طمع الملك المعظم عيسى بن السلطان العادل في الاستيلاء على قلعة كوكب.

ويقال أن سبب طمع الملك المعظم عيسى في كوكب وغيرها من أملاك عز الدين أسامة أن السلطان العادل اكتشف في عام ٦٠٧ هـ / ١٢١٠م مراسلات بين عز الدين أسامة والملك الظاهر صاحب حلب مما أدخل الشك في قلب السلطان العادل، لذلك طلب من عز الدين أسامة القدوم إلى مصر للتحقق من هذا الأمر[١٥٦].

على أية حال فقد قدم عز الدين أسامة إلى خدمة السلطان العادل في مصر عام ٦٠٧ هـ / ١٢١٠م [١٥٧]؛ وفي العام التالي (٦٠٨ هـ / ١٢١١م) وصل الملك المعظم عيسى بن السلطان العادل إلى مصر، وانتهز فرصة وجود عز الدين أسامة في خدمة أبيه بمصر ليجبره على التنازل عن قلعة كوكب؛ وكان المعظم عيسى قد اجتمع مع أبيه وأخويه الكامل والفائز على دمياط، حيث أطلعهم على كتاب بين أسامة والملك الظاهر صاحب حلب[١٥٨]، مما يؤكد أن الملك المعظم عيسى أراد أن يوقع بعز الدين أسامة ليستولي منه على قلعة كوكب. ويبدو أن عز الدين أسامة أدرك هذا، فأراد ألا يقع في الفخ الذي نصبه له الملك المعظم عيسى ليتنازل عن قلعة كوكب؛ لذلك أعد العدة للهرب من مصر في جماعة من مماليكه منتهزا فرصة تواجد السلطان العادل وأبنائه في دمياط، فخرج مظهرا الخروج للصيد، ولما علم

الملك المعظم عيسى بذلك فطن إلى خطة عز الدين أسامة في الهرب، لذلك لم يضع وقتا وخرج بنفسه على رأس بعض القوات خلف عز الدين أسامة ليلحق به(١٥٩).

لما علم عز الدين أسامة أن الملك المعظم عيسى خرج في أثره ليلحق به أراد أن يضلله، لذلك اضطر أن يترك مماليكه في الرملة وأسرع وحده في الحركة دون مماليكه بحيث لم يكن معه سوى أحدا الإدلاء من العربان ليدله على أيسر الطرق وأقصرها للوصول إلى حصونه في كوكب أو عجلون ليعتصم بها. ولكن يبـدو أن الحركة السريعة قد أرهقت عز الدين أسامة خاصة وأنه كان مريضا، فدائما ما كان يعتريه وجع في المفاصل، لذلك لم يستطع مواصلة السير حيث أصابه ألـم شـديد بالمفاصل مما اضطره إلى النزول بأرض الداروم؛ وفي نفس الوقت كـان الملـك المعظم عيسى قد اقترب هو الآخر منها حتى وصلها؛ ويشير أبو شامة(١٦٠) إلى أن الملك المعظم عيسى" ساق مسيرة ثمانية أيام في ثلاثة أيام".

ويبدو أن عز الدين أسامة حاول أن يختبأ عن أعين الملك المعظـم عيسـى ولكن" عرفه شخص وأخبر الملك المعظم به "(١٦١)، فسار إليه الملك المعظم عيسى بنفسه، وأخذ أسامة بصحبته إلى صهيون وأنزله بها وأكرمه، ثم قال له " أنت شيخ كبير وبك نقرص وما تصلح لك قلعة، سلم إليَّ كوكب وعجلون وأنا أحلف لك على مالك وجميع أسبابك وتعيش بيننا مثل الوالد"(١٦٢)، ورفض عز الدين أسـامة هـذا العرض من قبل الملك المعظم عيسى، بل سبه ووبخه على طلبه هذا، فما كان من المعظم عيسى إلا أن قبض عليه وأرسله إلى حصن الكرك واعتقله به، وظل عـز الدين أسامة معتقلا بالكرك حتى وفاته بها(١٦٣). ولم يحدد المؤرخون العام الـذي مات فيه عز الدين أسامة، وإن كان يفهم من الأحداث أنه مات في نفس العام الذي اعتقل فيه بالكرك وهو ٦٠٨ هـ / ١٢١١م، يؤيـد ذلـك مـا ذكـره المؤرخـون المعاصرون في حوادث ذلك العام(٦٠٨ هـ / ١٢١١م) من أنه انقضى في " أمـر الصلاحية بانقضاء زين الدين قراجا والأمير فخر الدين جهاركس وعز الدين أسامة وصفت حصونهم للملك العادل والملك المعظم بعده "(١٦٤).

وبعد أن قبض الملك المعـظم عيسى على عز الدين أسامة صاحب كوكب وعجلون سار بنفسه على رأس بعض القوات إلى قلعة كوكب فحاصـرها، وشـدد

الحصار عليها حتى اضطر مماليك عز الدين أسامة بها إلى التسليم ،" على عوض أخذوه "[١٦٥]؛ وتسلم الملك المعـظم عيسى قلعة كوكب في عام ٦٠٨ هـ / ١٢١١م.

ومما تجدر الإشارة إليه أن الملك المعـظم عيسى بعد أن استولى على قلعة كوكب استولى أيضا على معـظم أموال وأملاك عز الدين أسامة بهـا " وكانـت جميع أمواله وذخائره بكوكب فاستصفيت جميعها "[١٦٦].

هدم قلعة كوكب (٦٠٨ هـ / ١٢١١ م) :

بعد أن تسلم الملك المعظم عيسى قلعـة كوكـب أمـره السـلطان العـادل بهدمها[١٦٧]. والحقيقة أن فكرة هدم قلعة كوكب لم تكن جديدة على عهد السـلطان العادل، بل ظهرت هذه الفكرة من قبل على عهد السلطان صلاح الدين وذلك عندما خرج السلطان في شوال من عام ٥٨٨هـ / ١١٩٢م ليتفقد أحوال بيت المقدس، ثم وصل إلى قلعة بيسان، وكانت مهدمة مهجورة ، فقال السلطان صلاح الـدين لمـا رآها خربة " الصواب بناء هذه وتخريب كوكب"[١٦٨]. وعلى الـرغم أن السـلطان صلاح الدين قد بات تلك الليلة في قلعـة كوكـب " وصّـعد نظـر رأيـه فيهـا وصّوب"[١٦٩] مما يدل على أن السلطان بات ليلته يستكشف أحوال القلعـة، ثـم صوب رأيه القائل بهدمها، إلا أن هذا الرأي لم يخرج إلى حيز التنفيذ على عهده، وربما يرجع هذا لانشغال السلطان بتفقد أحوال بلاد الشام بقية ذلك العام، وأعقـب ذلك مرضه في مستهل العام التالي ثـم وفاتـه فـي ٢٧ مـن صـفر ٥٨٩ هـ / ١١٩٣م[١٧٠]، مما يدل على أن الوقت لم يتح له تنفيذ فكرة هدم قلعة كوكب.

ولعل سبب تطلع السلطان صلاح الدين إلى هدم قلعة كوكب ما أشار إليه أبو شامة عن كوكب وصفد والكرك والشوبك بأنه " كانت هذه الحصون الأربعة ضيقة المسلك صعبة المدرك"[١٧١]. ويبدو أن السلطان صلاح الدين كان يخشى أن يستعيد الصليبيون السيطرة عليها فتكون عقبة للمسلمين في وسط بلادهم، وربما يكن هذا هو السبب الذي من أجله فكر السلطان العادل وابنه المعظم عيسى في هـدم قلعـة كوكب، كما قد يكون هذا هو سبب انتزاعها من عز الدين أسامة لهدمها خاصة وأن عز الدين أسامة كان يرفض هدم القلاع التي كانت تحت يده. ويدل علـى ذلـك موقف عز الدين أسامة من قلعة بيروت التي طلب منه السلطان العادل هدمها فـي

عام ٥٩٣ هـ / ١١٩٦م حتى لا يسيطر الصليبيون عليها ولكنه رفض وتعهد للسلطان العادل بالحفاظ عليها والتصدي للصليبيين وبالفعل احتفظ عز الدين أسامة بالقلعة وجعل فيها بعض الأجناد لحمايتها، ولكن لم يصمد هؤلاء الأجناد في القلعة فخشوا من الخطر الصليبي المجاور لهم، وتركوا القلعة خالية في عام ٥٩٤هـ/١١٩٧م، ولما علم الصليبيون بذلك هاجموها واستولوا عليها في نفس العام[١٧٢].

ولعل هذا كان أدعى للملك المعظم عيسى أن يستولي على القلعة ويهدمها ليأمن شر الصليبيين، خاصة وأن هذه القلعة كانت من قبل إحدى خطوط الدفاع الرئيسة لديهم. وبالفعل بدأ الملك المعظم عيسى في هدم قلعة كوكب بعد أن استولى عليها من مماليك عز الدين أسامة في عام ٦٠٨ هـ / ١٢١١م وعفى أثرها، وأمر السلطان العادل بأن تستخدم حجارتها في بناء قلعة الطور في عام ٦٠٩هـ/١٢١٢م[١٧٣].

محاولة صليبي الاسبتارية الاستيلاء على قلعة كوكب :

ظلت قلعة كوكب على حالها من الهدم والتخريب، ومع ذلك فقد كانت حلما لصليبي الاسبتارية إذ حاولوا أن يستعيدوا السيطرة عليها مرة أخرى حتى لاحت لهم الفرصة في عام ٦٤١ هـ / ١٢٤٤ م- أي بعد ضياعها من أيديهم بحوالي سبعة وخمسين عاما منذ أن فتحها صلاح الدين الأيوبي في عام ٥٨٤ هـ / ١١٨٨م - مستغلين النزاع الذي حدث في البيت الأيوبي بعد وفاة السلطان الكامل الأيوبي في عام ٦٣٥ هـ / ١٢٣٨م[١٧٤] حتى اعتلى ابنه الصالح نجم الدين أيوب عرش السلطنة في الديار المصرية في ذي القعدة عام ٦٣٧ هـ / يونيو ١٢٤٠م[١٧٥]. وزاد الخلاف والنزاع بين أبناء البيت الأيوبي خاصة بين السلطان الصالح أيوب من جهة وعمه الملك الصالح إسماعيل صاحب دمشق الذي تحالف وبقية ملوك البيت الأيوبي في الشام مع الصليبيين من جهة أخرى لغزو الديار المصرية والاستيلاء عليها.

وقد اشترط الصليبيون لإتمام هذا التحالف المقيت وتقديم يد المساعدة ضد السلطان الصالح نجم الدين أيوب عدة شروط من بينها تسليم قلعة كوكب لصليبي الاسبتارية والسماح لهم بإعادة بنائها[١٧٦]، بالإضافة إلى تسليم بيت المقدس وطبرية

وعسقلان للصليبيين والسماح لهم بأعمارهم، وأن يكون للصليبيين جزء من الديار المصرية إذا هُزم السلطان الصالح أيوب؛ ووافق الأيوبيون في الشام على هذه الشروط، كما رحب الصليبيون بهذا التحالف.

وبالفعل اتجه الصليبيون مباشرة ناحية بيت المقدس وعلى رأسهم رجال الدين، وتم تسلمه، وبدأت الكنائس تدق أجراسها معلنة عن بدأ نشاطها، وأعد كل من الداوية والاسبتارية الترتيبات اللازمة لإعادة تعمير وتحصين المدينة المقدسة، والقلاع والحصون التي منحت لهم[١٧٧]، في حين أعيد بناء قلعتي طبرية وعسقلان بعد تسلمهما. كما تسلم صليبو الاسبتارية قلعة كوكب وعزموا على إعادة عمارتها مرة أخرى[١٧٨]، ولكن يبدو أن الفرصة لم تتح لهم لإعادة بنائها حيث لم يمض وقت طويل إذ خرج الملك المنصور إبراهيم صاحب حمص بنفسه إلى عكا ليطلب من الصليبيين تنفيذ التحالف المبرم بينهم وقصد الديار المصرية، على أن تتجمع القوات الصليبية خارج عكا في صيف عام ٦٤٢ هـ / ١٢٤٤م، فاستجاب الصليبيون لذلك مما عرقل إعادة تعمير قلعة كوكب فتوقف البدء في التعمير تنفيذا للاتفاق المبرم بينهم وبين ملوك الأيوبيين بالشام؛ واستقر رأي الحلفاء على الزحف السريع إلى غزة[١٧٩]، وخرج ملوك الأيوبيين في الشام بقيادة الملك المنصور إبراهيم وبصحبتهم الصليبيون، وسار الجميع تحت راية الصليب لمهاجمة الديار المصرية[١٨٠].

وعندما علم السلطان الصالح أيوب بتحالف ملوك الأيوبيين بالشام مع الصليبيين استدعى الجند الخوارزمية من الشرق لنجدته؛ واستجاب الخوارزمية[١٨١] لطلب السلطان الصالح أيوب وعبروا الفرات في حوالي عشرة آلاف فارس في أوائل عام ٦٤٢ هـ / ١٢٤٤م؛ ولما وصلوا بلاد الشام تمكنوا من استرداد بيت المقدس وما مروا به من قلاع كانت تحت سيطرة الصليبيين[١٨٢].

أما عن قلعة كوكب التي أخذها الاسبتارية، وهي مهدمة خربة، نتيجة تحالفهم مع الصالح إسماعيل، والتي كانوا على أهبة الاستعداد لإعادة بنائها، فيبدو أن القوات الخوارزمية قد استردتها هي الأخرى أثناء عملية الاجتياح التي قاموا بها في المنطقة التي على أثرها استردوا بيت المقدس من الصليبيين في عام

٦٤٢هـ/١٢٤٤م، وواصلوا سيرهم حتى استردوا ما مر بهم من قلاع، وعاثوا فيها فسادا وتخريبا[١٨٣]، فضلا عن تخريبهم للأديرة والكنائس الصليبية[١٨٤]؛ ويؤكد ذلك أيضا أن الخوارزمية عندما توجهوا إلى بلاد الشام انقسموا إلى قسمين، أحدهما اجتاز بقاع بعلبك وقصد القسم الثاني غوطة دمشق؛ ونظرا لحصانة دمشق ومناعتها اتجهوا عنها صوب الجليل حيث استولوا على طبرية وغيرها من المدن والقلاع التي في طريقهم[١٨٥]، مما يؤكد اجتياح قلعة كوكب ضمن ما استردوه من قلاع.

وتؤكد المصادر الإسلامية المعاصرة اجتياح الخوارزمية لكل ما قابلهم من مدن وقلاع، وفي ذلك يشير ابن واصل بأنه " هجمت الخوارزمية القدس وبذلوا السيف فيمن كان فيه من النصارى ولم يبقوا على أحد منهم وسبوا زراريهم ونسائهم، ودخلوا كنيستهم المعروفة بقمامة فهدموا المقبرة التي يعتقد النصارى أنها مقبرة المسيح عليه السلام فنبشوا قبور النصارى وقبور ملوك الفرنج التي بالقمامة وأحرقوا عظام الموتى حتى وصلوا إلى غزة فنزلوا بها"[١٨٦].

ويتضح من الرواية السابقة أن الصليبيين عندما سمعوا باجتياح الخوارزمية لبيت المقدس فروا هاربين مما يدل على فرار صليبي الاسبتارية أيضا من قلعة كوكب، وبذلك تكون القلعة قد أعيدت إلى أيدي المسلمين مرة أخرى وهي على حالها من الهدم والتدمير؛ ويدل على ذلك أيضا أن سلاطين المماليك عندما قاموا بتصفية الوجود الصليبي ببلاد الشام لم يرد أي خبر عن تلك القلعة[١٨٧] مما يدل على أن بقاياها ظلت في أيدي المسلمين[١٨٨].

الخلاصة :

أن قلعة كوكب قد لعبت دورا كبيرا في مجريات الصراع بين المسلمين والصليبيين. وبالرغم من أن هذه القلعة قد بدأت بنشأة صليبية وظلت في الفترة من ١١٤١حتى ١١٨٨ م في أيدي الفرسان الاسبتارية الذين اتخذوا منها حصنا منيعا يتصدون به للمسلمين ويغيرون عليهم مما جعلها حجر عثرة في جنوب الشام ضد المسلمين؛ لذلك بذل السلطان الكبير صلاح الدين جهودا مضنية من أجل انتزاع تلك القلعة من أيدي الصليبيين حتى تكللت جهوده بالنجاح في فتحها عام ٥٨٤هـ/١١٨٨م؛ ونظرا لخطر تلك القلعة في وسط البلاد الإسلامية بجنوب الشام وخشية من أن تقع في أيدي الصليبيين مرة أخرى فكر السلطان صلاح الدين أكثر من مرة في هدمها، ولكن لم يخرج هذا الأمر إلى حيز التنفيذ إلا في عهد أخيه السلطان العادل الأيوبي الذي أدرك مدى خطرها لو وقعت في أيدي الصليبيين، لذلك أمر ابنه الملك المعظم عيسى بهدمها حتى تصدعت جدرانها وعفي أثرها؛ ومع ذلك ظل الصليبيون يتوقون للاستيلاء عليها مرة تلو الأخرى حتى تم لهم ذلك على يد الملك الصالح إسماعيل في عام ٦٤١ هـ /١٢٤٤م ضمن شروطهم لمساعدته في الاستيلاء على مصر وانتزاعها من السلطان الصالح أيوب، ولكن تمكن الجند الخوارزمية المحالفين للسلطان الصالح نجم الدين أيوب من استردادها وتسليمها وبيت المقدس إليه في عام ٦٤٢ هـ / ١٢٤٤م.

الهوامش :

١- عبد الرحمن زكي: القلاع في الحروب الصليبية، المجلة التاريخية المصرية، المجلد ٥ ١ لعام ١٩٦٩م، ص ٤٩ - ٥٣ .

٢- ابن القلانسي: تاريخ دمشق، تحقيق سهيل زكار، دار حسان، دمشق ١٩٨٣م، ص ٢٢٢ - ٢٢٣؛ فولشر الشارتي: تاريخ الحملة إلى القدس، ترجمة زياد العسلي، دار الشروق، عمان، الأردن ١٩٩٠م، ص ٧١ - ٧٧ .

- Grousset, R.: Histoire des Croisades et du Royaume Franc de Jerusalem, Paris 1948. Part I, pp 165-168.

٣- عن إمارة الرها الصليبية انظر: عليه عبد السميع الجنزوري: إمارة الرها الصليبية، القاهرة ١٩٧٥.

4- Fedden R.: Crusades Castles, London 1950, p.11;

- محمود محمد الحويري: الأوضاع الحضارية في بلاد الشام في القرنين الحادي عشر والثاني عشر من الميلاد، دار المعارف، القاهرة ١٩٧٩م، ص ١٨٤-١٨٥؛ محمد مؤنس عوض: الحروب الصليبية: دراسات تاريخية ونقدية، دار الشروق، عمان ١٩٩٩، ص ٧٣-٧٤.

٥- يعتبر بلدوين الأول أول ملوك مملكة بيت المقدس الصليبية، ذلك أن جود فري دي بواين لم يتوج ملكا ولم يحمل لقب ملك إنما كان حاكما أعلى لإمارة بيت المقدس؛ ولما مات جودفري توج بلدوين ملكا- ليكون أول ملوك مملكة بيت المقدس- في كنيسة العذراء ببيت لحم في ٢٥ ديسمبر ١١٠٠م؛ انظر: وليم الصوري : تاريخ الحروب الصليبية، (تاريخ الأعمال المنجزة فيما وراء البحار) ترجمة: سهيل زكار، دار الفكر، بيروت ١٩٩٠م، ج ١ ص ٤٤٤-٤٥٦؛ ارنست باركر: الحروب الصليبية، ترجمة السيد الباز العريني، بيروت ١٩٦٧ م، ص ٣٩ -٤٠؛

- Brehier, L.: L' Eglise et L' Orient au Moyen Age, Croisades, Paris, 1928, p. 86.

٦- قلعة صافيتا: وتسمى أيضا القلعة البيضاء لأنها مبنية بحجر ناصع البياض، وهي تشرف على الطريق بين مدينة طرطوس وحصن الأكراد الذي كان محور الدفاع والهجوم عند الصليبيين، وقد كانت من أول المعاقل التي شيدها الصليبيون في عام ١١٠٢ م؛ انظر: عبد الله عنان: قلاع الصليبيين والمسلمين في سوريا ، مجلة الهلال، عدد ٥ لسنة ١٩٣٤م، ص ٥٥٤؛ عبد الرحمن زكي: القلاع في الحروب الصليبية، المجلة التاريخية المصرية، المجلد ١٥ لسنة ١٩٦٩م، ص ٥٥ - ٥٦ .

٧- قلعة تورون: قلعة تشرف على الطريق الموصلة بين صور على الساحل ودمشق، أنشأها الصليبيون في عام ١١٠٧ م؛ انظر: عبد الرحمن زكي: القلاع في الحروب الصليبية ، ص ٥٦.

٨- الشقيف: حصن يقع على جبل مطل على بيروت وصيدا وقريب من بانياس؛ انظر: ابن شداد: الأعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة، ج ٢ ق ٢ تحقيق سامي الدهان ، دمشق ١٩٦٢م ص ١٥٤؛ ياقوت الحموي: معجم البلدان ، ج ٣ ، ص ٣٥٦ .

٩- قلعة الحبيس جلدق: وهى عبارة عن معقل أنشأه الصليبيون لمراقبة نهر اليرموك؛ انظر: عبد الرحمن زكي: القلاع في الحروب الصليبية، ص ٥٦.

١٠- الشوبك: قلعة حصينة في أطراف الشام بين عمان وأيلة والقلزم قرب الكرك، أنشأها الصليبيون حوالي سنة ١١١٥م ليعرقلوا طرق المواصلات بين مصر والشام؛ انظر: ياقوت الحموي: معجم البلدان ، ج ٣ ص ٣٧٠ ؛ وراجع: عبدالرحمن زكي: القلاع في الحروب الصليبية ، ص ٥٦ .

١١- قلعة الجرية: قلعة تشرف على شمال خليج العقبة في البحر الأحمر؛ انظر: عبد الرحمن زكي: القلاع في الحروب الصليبية ، ص ٥٦.

١٢- بانياس: أحد مدن الشام بينها وبين فلسطين بعض مدن دمشق وجميع مدن الأردن، كانت من الثغور الإسلامية الهامة، بها قلعة حصينة ويستدير بها سور؛ انظر: ابن الأثير: اللباب في تهذيب الأنساب، تحقيق مصطفى عبد الواحد، القاهرة ١٩٧١م، ج ١ ص ١٢٨؛ ابن جبير: رحلة ابن جبير، بيروت ١٣٨٤ هـ / ١٩٦٤ م، ص ٢٢٣.

١٣- قلعة الصبيبة وتعرف أيضا بقلعة النمرود: تقع في الشعاب الجنوبية لجبال لبنان الشرقية التي كانت تسمى جبل حرمون وحاليا تعرف بجبل الشيخ إلى الشمال مباشرة من مدينة بانياس بالجولان على الحدود بين سوريا وفلسطين قرب منابع نهر الأردن، انظر: فولغفانغ مولر فينر: القلاع أيام الحروب الصليبية، ترجمة محمد وليد الجلاد، دمشق ١٤٠٤ هـ /١٩٨٤م، ص ٥٢؛

- The Crusaders : Internet puppet: Theater, from : www.internetpuppets.org/ jhscrusaders. html. Pp. 1&2.

١٤- آنجو: نسبة إلى إقليم أنجو Anjau في شمال فرنسا والذي ينتمي إليه أسرة فولك الحاكمة به، انظر: رنيه كروسيه: الحروب الصليبية صراع الشرق والغرب، ترجمه عن الفرنسية أحمد إيبش، دمشق ٢٠٠٢، ص ٩٩.

١٥- قلعة الحارس الأبيض، وتعرف أيضا بتل الصافية أو الصافي: تقع في الجنوب الغربي من عسقلان، انظر: عبد الحمن زكي: القلاع في الحروب الصليبية ، ص ٥٨.

١٦- قلعة ابلين وتعرف أيضا بقلعة يبنه أو يبنا وتقع في الجنوب الغربي من عسقلان، أنشأها الاسبتارية في عام ١١٤١ م، انظر: عبد الرحمن زكي: القلاع في الحروب الصليبية، ص ٥٨.

١٧- الاسبتارية: من أقدم هيئات الفرسان الرهبان وتعرف أيضا بفرسان القديس يوحنا؛ وترجع نشأة تلك الجماعة إلى عام ١٠٩٩م حيث أمر البابا جريجوري بنشأتها لخدمة الحجاج وتمريضهم، ثم تطور رجالها وأصبحوا رجالا يلبسون

لامة القتال ويحاربون المسلمين؛ ولمزيد من التفاصيل عن تلك الجماعة ونشأتها وتطورها انظر:

- King , E.: The Knights Hospitallers in the Holy Land. London, 1931, pp. 1-51; جوناثان رايلي سميث: الاسبتارية: فرسان القديس يوحنا في بيت المقدس وقبرص (١٠٥٠- ١٣١٠م)، ترجمة صبحي الجابي، دمشق ١٤٠٩ هـ / ١٩٨٩م؛ رنيه كروسيه: الحروب الصليبية صراع الشرق والغرب، ص٩٩.

١٨- عبد الرحمن زكي: المرجع السابق، ص٥٨؛ سميل: الحروب الصليبية، ترجمة سامي هاشم، بيروت ١٩٨٢م، ص٢١٤- ٢١٥؛ ماير: تاريخ الحملات الصليبية، ج ١ ترجمة محمد فتحي الشاعر، القاهرة ١٩٩٩، ص١٣١.

١٩- الداوية(Templars): أطلق عليهم هذا الاسم لأن مقامهم الأول كان في هيكل سليمان بالمسجد الأقصى، وكانت في البداية جماعة متطوعة لخدمة الحجاج في طريقهم من القدس إلى الأماكن المقدسة التي شهدت تعميد السيد المسيح في الأردن وأطلقوا على أنفسهم اتباع جنود المسيح الفقراء؛ ثم أقدموا فيما بعد على حمل السلاح ضد المسلمين، ومن هنا اصطبغت تلك الجماعة بصبغة الحرب والقتال، وحصلوا من الملك بلدوين الثاني على مقر لهم في جناح القصر الملكي بالقرب من معبد سليمان، فعرفوا باسم فرسان المعبد (Knights of the Templars)؛ ولمزيد من التفاصيل عن الداوية انظر:

- Addison, :The history of Knights of Templars, London, 1942;

يوشع براور: عالم الصليبيين، ترجمة قاسم عبده قاسم، القاهرة ١٩٨١م، ص١٩٠؛ رنيه كروسيه: الحروب الصليبية صراع الشرق والغرب، ص٩٩.

٢٠- عبد الرحمن زكي: القلاع في بلاد الشام، ص ٥٨؛ سميل: الحروب الصليبية، ص ٢١٤- ٢١٥؛ ماير: تاريخ الحملات الصليبية، ج ١ ص ١٣١؛ رنيه كروسيه: الحروب الصليبية صراع الشرق والغرب، ص ٩٩.

٢١- صفد: مدينة في جبال عاملة المطلة على حمص بالشام وهي من جبال لبنان؛ انظر: ياقوت الحموي: معجم البلدان ، ج ٣ ص ٤١٢ .

٢٢- عبد الرحمن زكي: المرجع السابق، ص ٥٨، ٥٩ .

٢٣- ياقوت الحموي : معجم البلدان، بيروت ١٩٨٨م، ج ٤، ص ١٧.

٢٤- ابن شداد: الأعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة، ج٢، ق٢، ص١٦١.

٢٥- سميل: الحروب الصليبية، ص ٢٢٩.

٢٦- عبد الرحمن زكي: المرجع السابق، ص ٦٥؛ طبرية: بليدة على البحيرة المعروفة ببحيرة طبرية، وهى في طرف جبل الطور، وتعتبر من أعمال الأردن في طرف الغور بينها وبين دمشق ثلاثة مراحل؛ انظر: ياقوت الحموي: معجم البلدان،ج٤ ص ١٧.

٢٧- معجم البلدان : ج ٤، ص ٤٩٤.

28- Fedden R.: Crusades Castles, p. 22;

محمود الحويري: الأوضاع الحضارية في بلاد الشام ص١٨٤؛ ماير: تاريخ الحملات الصليبية،ج اص ١٣١.

29- Fedden, R.: Op. cit., p. 11;

محمود الحويري: المرجع السابق ، ص ١٨٤، ١٨٥.

٣٠- انتوني بردج: تاريخ الحروب الصليبية، ترجمة غسان سبانو ونبيل الجيرودي، دمشق ١٩٨٥م، ص ١١٨؛ ميخائيل زابوروف: الصليبيون في الشرق، ترجمة إلياس شاهين، موسكو ١٩٨٦ ، ص ١٥٧ ؛ محمد مؤنس عوض: المرجع السابق، ص ٧٤ .

31 - Fedden, R. : Op. cit. p. 4;

محمود الحويري: المرجع السابق ، ص ١٨٦ .

32- Fedden, R. : Op.cit. p. 16.

٣٣ – محمد مؤنس عوض: المرجع السابق، ص ٧٥.

٣٤– محمود الحويري: المرجع السابق ، ص ١٨٧.

٣٥– محمد مؤنس عوض: المرجع السابق، ص ٧٥.

36- Fedden, R. : Op. cit. p.27,

محمود الحويري: المرجع السابق، ص ١٨٨.

37- Archer, T. : The Crusades, London 1919, p361; Fedden, R.: Op. cit. p. 27;

عبد الرحمن زكي: القلاع في الحروب الصليبية، ص ٥٥– ٥٨.

٣٨– محمود الحويري: المرجع السابق، ص ١٨٨، ١٨٩.

٣٩– عبد الرحمن زكي: القلاع في الحروب الصليبية، ص ٥٨ –٥٩؛ سميل: المرجع السابق، ص ٢٣٠.

٤٠– سميل: المرجع السابق، ص ٢٢٩.

٤١– قلعة صهيون: قلعة تقع فوق جرف صخري متطاول ما بين خانقين عميقين في جبال النصيرية على مسافة خمسة عشر ميلا تقريبا شمال شرق مرفق اللاذقية البحري على استقامة، انظر: فولغفانغ مولر فينير: القلاع أيام الحروب الصليبية، ص ٥٠.

٤٢- قلعة عثليث: أحد القلاع الرئيسية على ساحل البحر المتوسط بين حيفا وقيسارية تحتضنها الأمواج من ثلاثة جوانب وتعرف بقلعة الحاج أو الحصن الأحمر؛ انظر:

- Fedden R.: Op. cit. pp. 22-28.

ناجلا محمد عبد النبي: عثليث وقلعتها في عصر الحروب الصليبية، بحث بمجلة كلية الدراسات الإنسانية، جامعة الأزهر، العدد العاشر لعام ١٩٩٢م، ص ٣٠٩.

43-Fedden R.: Op.cit. pp. 22-28.

٤٤- ياقوت: معجم البلدان : ج ٤ ص ٤٩٤ .

٤٥- ابن شداد: الأعلاق الخطيرة ، ج ٢ ق ٢ ص ١٦١ .

٤٦- العماد الأصفهاني: الفتح القسي في الفتح القدسي، تحقيق محمد محمود صبح، القاهرة د. ت. ص ١٧١.

٤٧- العماد الأصفهاني: المصدر السابق، ص ٢٧٠.

٤٨- ابن شداد: سيرة صلاح الدين- المسماة بالنوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية، تحقيق جمال الدين الشيال، القاهرة ١٩٦٤م، ص ٨٥ .

٤٩- عن جهود صلاح الدين في توحيد الدولة الأيوبية انظر: ابن الأثير: الكامل في التاريخ، بيروت ١٩٧٩م،ج ١١، صفحات متفرقة؛ ابن واصل: مفرج الكروب في أخبار ملوك بني أيوب، ج٢، تحقيق جمال الدين الشيال، القاهرة ١٩٥٧م، صفحات متفرقة؛ النويري: نهاية الأرب في فنون الأدب، ج٢٨، تحقيق محمد محمد أمين ومحمد حلمي محمد أحمد، القاهرة ١٩٩٢م، صفحات متفرقة؛ وراجع: سعيد عبد الفتاح عاشور: الأيوبيون والمماليك، القاهرة ١٩٩٦م، ص ٥٥ -٥٩.

٥٠- سعيد عاشور: الأيوبيون والمماليك، ص ٥٥ -٥٩؛ عمر عبد السلام تدمري: تاريخ طرابلس السياسي والحضاري عبر العصور، بيروت ١٩٨٤م، ٥٢٠-٥٢٧.

٥١- إقليم الغور: يطلق على غور الأردن بالشام بين بيت المقدس ودمشق، وهو منخفض بين أرض دمشق وأرض بيت المقدس، لذلك سمي بالغور، وبه نهر الأردن وبلاد وقرى كثيرة وعلى طرفه طبرية وبحيرتها، وأشهر بلاده بيسان وطبرية؛ انظر: ياقوت الحموي: المصدر السابق، ج٤ ص ٢١٦-٢١٧.

٥٢- بلدوين الرابع: تولى عرش مملكة بيت المقدس منذ وفاة عموري الأول عام ١١٧٤م وهو في الثالثة عشر من عمره. ولقد امتاز بلدوين بمواهب عالية إلا أنه إصيب بمرض الجذام منذ صغره مما جعله يعرف ببلدوين المجذوم؛ ولعل هذا أدى إلى عدم تركيز السلطة في يده وبالتالي تركها في يد غيره من الأمراء مما ساعد على انتشار الفوضى وعدم إحكام السيطرة على مملكة بيت المقدس؛ انظر: سعيد عبد الفتاح عاشور: الحركة الصليبية، القاهرة ١٩٩٤م، ج ٢، ص ٥٧٩؛ ارنست باركر: الحروب الصليبية، ص ٨٠؛

-Setton, K. M. (ed.,): A History of the Crusades, Pennsylvania, 1958, Vol. I. p.591.

٥٣- تيماء: بليدة في أطراف الشام بين الشام ووادي القرى تقع على طريق الحاج الشامي؛ انظر: ياقوت: المصدر السابق، ج٢ ص ٦٧.

٥٤- أبو الفدا: المختصر في أخبار البشر، القاهرة، د. ت.، ج ٣ ص ٦٣؛ ابن الوردي: تاريخ ابن الوردي، بيروت ، لبنان ١٤١٧هـ / ١٩٩٦ م، ج٢ ص ٨٧-٨٩؛ وراجع: سعيد عاشور: الحركة الصليبية، ج ٢ ص ٦٠٦؛ ارنست باركر: المرجع السابق، ص ٨٢.

٥٥- أبو شامة: كتاب الروضتين في أخبار الدولتين، ج ٢، بيروت د. ت. ص ٢٨؛ ابن واصل: المصدر السابق، ج٢ ص ١١٣،١١٤.

٥٦- سعيد عاشور: المرجع السابق، ج٢ ص٦٠٨؛ وليم الصوري: الحروب الصليبية، ترجمة حسن حبشي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٩٥م، ج٤ ص ٢٨٣.

٥٧- أبو شامة: المصدر السابق، ج٢ ص ٢٨؛ ابن واصل: المصدر السابق ، ج ٢ ص ١١٤، ١١٥؛ المقريزي: السلوك لمعرفة دول الملوك، تحقيق محمد عبد القادر عطا، بيروت ١٩٩٧م، ج ١ ص١٨٩.

٥٨- الإقحوانة: موضع بالأردن وهي من أرض دمشق تقع على شاطئ بحيرة طبرية؛ انظر: ياقوت الحموي: المصدر السابق، ج١ ص ٢٣٤.

٥٩- اللجون: بتشديد اللام الثانية وضم الجيم مع تشديدها، وهي بلد بالأردن بينه وبين طبرية عشرون ميلا، وبينه وبين الرملة مدينة بفلسطين أربعون ميلا؛ انظر: ياقوت الحموي: المصدر السابق، ج٥ ص ١٣.

٦٠- ابن الأثير: الكامل في التاريخ ، ج ١١ ص ٤٨١؛ ابن واصل: المصدر السابق ، ج ٢ ص ١١٥؛ المقريزي: المصدر السابق ، ج ١ ص٨٩ ١، وراجع: وليم الصوري: المصدر السابق، ج ٤ ص٢٩٠.

٦١- الناصرة: قرية بينها وبين طبرية ثلاثة عشر ميلا؛ انظر: ياقوت الحموي: المصدر السابق، ج٥ ص ٢٥١.

٦٢- ابن الأثير: المصدر السابق ، ج١١ ص ٤٨١ .

٦٣- ابن الأثير: المصدر السابق ج ١١ ص ٤٨١ ، وراجع: ابن واصل: المصدر السابق ، ج ٢ ص ١١٥ .

٦٤- ابن شاهنشاه : مضمار الحقائق وسر الخلائق، تحقيق حسن حبشي، القاهرة ١٩٦٨م ، ص ٩٥ ، ٩٦ .

٦٥- الأطلاب: جمع طلب، وهو عبارة عن تقسيم الجيش إلى مجاميع كانت بمثابة كتائب يكون على رأس كل مائتي فارس أو مائة فارس أو سبعين

فارس أمير مقدم، انظر: سعيد عاشور: مصر والشام في عصر الأيوبيين والمماليك، بيروت د.ت. ص ١٥٤؛ نظير حسان سعداوي: جيش مصر في أيام صلاح الدين، القاهرة ١٩٥٩م، ص ٩، حاشية ٢؛ محسن محمد حسين: الجيش الأيوبي في عهد صلاح الدين، بيروت ١٩٨٦م، ص ١٥٣.

٦٦- الجاليشية: معنى الجاليش في الأصل الراية العظيمة التي في رأسها خصلة من الشعر، ثم أطلق على مقدمة القلب في الجيش أو على الطليعة منه، انظر: محسن محمد حسين: الجيش الأيوبي في عهد صلاح الدين، ص١١١، حاشية١.

٦٧- وليم الصوري: المصدر السابق، ج ٤ ص ٢٩١.

٦٨- سميل: المرجع السابق، ص ٢١٠.

٦٩- ابن شاهنشاه: مضمار الحقائق، ص ١٤١- ١٤٧؛ ابن العديم: زبدة الحلب في تاريخ حلب، تحقيق سامي الدهان، دمشق ١٩٦٨م/ ١٣٨٧هـ، ج ٣ ص ٦٣، ٧٢؛ المقريزي: المصدر السابق، ج ١ ص ١٨٩، ١٩٠، وراجع: وليم الصوري: المصدر السابق، ج ٤ ص ٢٩٩ ، ٣٠٠ .

٧٠- ابن شداد : سيرة صلاح الدين، ص ٧٠ ؛ النويري : نهاية الأرب في فنون الأدب ، ج٢٨ ص٣٨٨، وراجع سعيد عاشور: الأيوبيون والمماليك، ص٥٩.

٧١- المرقب: بلد و قلعة حصينة تشرف على سواحل بحر الشام، وعلى مدينة بانياس، وهو على ساحل جبلة بين طرابلس واللاذقية، أنشأه المسلمون في عام ٤٥٤ هـ / ١٠٦٢م، ثم استولى عليه الصليبيون وأصبح تابعا للفرسان الاسبتارية منذ عام ١١٨٦م؛ انظر: ابن الشحنة: الدر المنتخب في تاريخ مملكة حلب، تحقيق عبد الله محمد الدرويش، دمشق ١٩٨٤م، ص ٢٦٧؛ عبد الرحمن زكي: القلاع في الحروب الصليبية ، ص ٥٩ – ٦١.

٧٢ – سعيد عاشور: الأيوبيون والمماليك ، ص ٦٤ – ٦٧ .

٧٣- ابن الأثير: المصدر السابق ، ج ١١ ص ٥٨٨ .

٧٤- ابن الأثير: المصدر السابق ، ج ١١ ص ٥٨٨؛ ابن واصل: المصدر السابق، ج ٢ ص ٢٤٦-٢٤٧.

٧٥- ابن الأثير: المصدر السابق، ج ١١ ص ٥٥٨؛ وراجع: ابن واصل: المصدر السابق، ج٢ ص ٢٤٧.

٧٦- العماد الأصفهاني: الفتح القسي في الفتح القدسي، ص ١٧٧- ١٧٩؛ ابن الأثير: المصدر السابق، ج ١١ ص ٥٥٨؛ ابن شداد: سيرة صلاح الدين، ص ٨٤؛ ابن واصل: المصدر السابق، ج٢ ص ٢٤٧.

٧٧- ابن الأثير: المصدر السابق، ج ١١ ص ٥٥٨، وراجع ابن واصل: المصدر السابق، ج٢ ص ٢٤٧.

٧٨- الأمير صارم الدين قيماز النجمي: كان مملوكا لوالد الملوك الأمير نجم الدين أيوب بن شاذي والد السلطان الكبير صلاح الدين الأيوبي ثم أصبح على عهد السلطان صلاح الدين الأيوبي من كبار الأمراء الصلاحية؛ انظر: ابن واصل: المصدر السابق، ج ٣ ص ٢٧.

٧٩- ابن الأثير: المصدر السابق، ج ١١ ص ٥٥٨؛ ابن شداد: سيرة صلاح الدين، ص ٨٥؛ ابن كثير: البداية والنهاية، بيروت ١٩٧٧م، ج ١٢ ص ٣٢٩؛ ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون، بيروت ١٩٧١م، ج ٥ ص ٣١٢.

٨٠- ابن الأثير: المصدر السابق ، ج ١٢ ص ٥.

٨١- سيرة صلاح الدين، ص ٨٤ .

٨٢- ابن الأثير: المصدر السابق ، ج ١٢ ص ٥.

٨٣- ابن الأثير: المصدر السابق ، ج ١٢ ص ٥؛ أبو الفدا: المصدر السابق ، ج٣ ص ٧٤؛ ابن الوردي: المصدر السابق ، ج ٢ ص ٩٧ .

٨٤- أبو شامة: الروضتين، ج ٢ص ١٢٥، ١٣٣؛ ابن شداد: المصدر السابق ، ص ٨٦ – ٩٠؛ ابن العديم: المصدر السابق، ج ٣ ص ١٠٢- ١٠٦، وراجع السيد الباز العريني: الشرق الأوسط والحروب الصليبية، القاهرة ، ١٩٦٢ ، ص ٨٤٤؛ حسين محمد عطية: إمارة أنطاكية الصليبية والمسلمون ١١٧١-١٢٦٨م/ ٥٦٧-٦٦٦هـ، الإسكندرية ١٩٨٩م، ص ٢١٠-٢١٧.

٨٥- الروضتين، ج٢ ص ١٣٣.

٨٦- تم عقد هدنة بين السلطان صلاح الدين الأيوبي وبوهيمند الثالث لمدة ثمانية أشهر في الفترة من شعبان ٥٨٤ حتى ربيع الأول ٥٨٥ هـ/ أكتوبر ١١٨٨- مايو ١١٨٩م؛ عن شروط هذه الهدنة انظر: العماد الأصفهاني: المصدر السابق، ص ٢٦٠؛ ابن الأثير: المصدر السابق، ج ١٢ ص ٩، وراجع حسين محمد عطية: المرجع السابق، ص ٢١٨.

٨٧- ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون، بيروت ١٩٧١م، ج ٥ ص ٣١٦ .

٨٨- ابن خلدون: المصدر السابق، ج ٥ ص ٣١٦.

٨٩- عن فتح صفد انظر: ابن شداد: سيرة صلاح الدين، ص٩٦، ٩٧؛ ابن واصل: المصدر السابق، ج٢، ص٢٧٢؛ النويري: المصدر السابق، ج ٢٨ ص٤١١.

٩٠- ابن الأثير: المصدر السابق ، ج ١٢ ص ٢٢.

٩١- ابن الأثير: المصدر السابق ، ج ١٢ ص ٢٢.

٩٢- الكامل، ج ١٢ ص ٢٢.

٩٣- الكامل، ج ١٢ ص ٢٢

٩٤- الجروخ: آلة حربية شبيهة بالمنجنيق، لأنها ترمي السهام، والنفط، والحجارة، ولكنها أخف منه، وتصنع من القرن، وليس من الخشب؛ كانت تستعمل من داخل السور للدفاع عن قلاع المدينة المحاصرة، انظر: إحسان هندي: الحياة

العسكرية عند العرب ، دمشق ١٩٦٤ م ، ص ١٢٧؛ محسن محمد حسن : المرجع السابق ، ص ٢٨٢ .

٩٥- ابن الأثير: المصدر السابق ، ج ١٢ ص ٢٢؛ ابن شداد: سيرة صلاح الدين، ص ٩٦؛ ابن خلدون: المصدر السابق ، ج ٥ ص ٣١٧ .

٩٦- ابن الأثير: المصدر السابق، ج ١٢ ص ٢٢.

٩٧- ابن الأثير: المصدر السابق، ج ١٢ ص ٢٢؛ ابن خلدون: المصدر السابق، ج٥ ص٣١٧.

٩٨- العماد الأصفهاني: الفتح القسي، ص ٢٧٤، وراجع الحنبلي: الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل، بيروت ١٩٧٣م، ج١ ص ٣٥٦.

٩٩- ابن واصل: المصدر السابق، ج ٣ ص ٤؛ ابن الوردي: تاريخ ابن الوردي، ج ٢ ص ١٠٦.

١٠٠- ابن واصل: المصدر السابق، ج ٢ ص ٣٤٩.

١٠١- ابن واصل: المصدر السابق، ج ٢ ص ٣٤٩، وراجع: محسن محمد حسين: الجيش الأيوبي في عهد صلاح الدين، بيروت ١٩٨٦م، ص ١٤١.

١٠٢- ابن واصل: المصدر السابق، ج٣ ص ٤.

١٠٣- عن أحداث انقسام البيت الأيوبي بعد وفاة السلطان الناصر صلاح الدين الأيوبي؛ انظر: سبط بن الجوزي: مرآة الزمان في تاريخ الأعيان، دائرة المعارف العثمانية، الدكن، الهند ١٩٥٢م،ج ٨ ق٢ص٤٦١- ٤٧٢؛ ابن نظيف الحموي: التاريخ المنصوري: تلخيص الكشف والبيان في حوادث الزمان، تحقيق أبو العيد دودو، دمشق ١٩٨١م، ص٢١١ -٢١٢؛ ابن الفرات: تاريخ ابن الفرات، مجلد ٤، ج٢، تحقيق حسن الشماع، البصرة ١٩٦٩م،ص١٥٧-١٧٠.

١٠٤- الداروم: قلعة بعد غزة للقاصد إلى مصر بينها وبين البحر مقدار فرسخ، خربها صلاح الدين لما ملك الساحل ، انظر: ابن عبد الحق : مراصد الإطلاع

في أسماء الأمكنة والبقاع ، تحقيق علي محمد البجاوي ، القاهرة ١٣٧٣هـ ، ١٩٥٤ م ، ج ٢ ، ص ٥٠٨ .

١٠٥- صرخد: مدينة قديمة من أعمال دمشق وقلعتها محدثة أنشئت قبل وفاة الشهيد نور الدين محمود بن زنكي؛ انظر: العمري: مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، الجزء الخاص بممالك مصر والشام والحجاز، تحقيق أيمن فؤاد، القاهرة ١٩٨٥م، ص ١٢٠.

١٠٦- بصرى : قصبة كورة حوران؛ انظر: ياقوت الحموي، المصدر السابق، ج١ ص٤٤١.

١٠٧- هونين: بلد في جبال عاملة مطلة على نواحي مصر؛ انظر: ياقوت الحموي، المصدر السابق، ج٥ ص ٢٤٠.

١٠٨- تبنين: بلد في جبال بني عامر المطلة على بانياس بين دمشق وصور؛ انظر: ياقوت الحموي، المصدر السابق، ج٢ ص ١٤.

١٠٩- العماد الأصفهاني: الفتح القسي، ص ٦٣٠-٦٣٣؛ أبوشامة: المصدر السابق، ج٢ ص ٢٢٤، ٢٢٥؛ ابن واصل: المصدر السابق، ج ٣ ص ٣،٤؛ الحنبلي: شفاء القلوب في مناقب بني أيوب، تحقيق ناظم رشيد، بغداد ١٤٠١هـ ص١٩٧.

١١٠- العماد الأصفهاني: الفتح القسي، ص ٦٣٣؛ أبوشامة: المصدر السابق، ج٢ ص ٢٢٥، ٢٢٦؛ ابن واصل: المصدر السابق، ج٣ ص ٣-٥؛ ابن دقماق: الجوهر الثمين في سير الملوك والسلاطين، تحقيق محمد كمال الدين، بيروت ١٩٨٥م، ص ١٩.

١١١- ضياء الدين ابن الأثير: هو نصر الله أبو الكرم، ولد بجزيرة ابن عمر في ٢٥ شعبان عام ٥٥٨ هـ ، ونشأ بها ثم انتقل مع والده إلى الموصل لتحصيل العلم، حفظ القرآن الكريم وكثير من الأحاديث النبوية الشريفة وشيئا من النحو واللغة. وقد التحق بخدمة السلطان الناصر صلاح الدين الأيوبي في عام

٥٨٧هـ ، ثم طلبه الملك الأفضل من أبيه فخيره السلطان صلاح الدين فأختار الذهاب إلى الأفضل الذي ولاه وزارته؛ انظر: ابن الأثير- ضياء الدين: رسائل ابن الأثير، نشر وتحقيق أنيس المقدسي، دار العلم للملايين، بيروت لبنان ١٩٥٩م؛ محمد زغلول سلام: ضياء الدين بن الأثير وجهوده في النقد، القاهرة ١٩٦٥م؛ محمد عبد الله الحمدان: بنو الأثير الفرسان الثلاثة، الرياض ١٩٧٣م / ١٣٣٤هـ ، ص ١٠٧-١٤٤.

١١٢- ابن واصل: المصدر السابق، ج ٣ ص١٠؛ ابن الوردي: تاريخ ابن الوردي ،، ج ٢ ص ١٠٦؛ المقريزي: السلوك لمعرفة دول الملوك، ج ١، ص ٢٢٨، ٢٢٩.

١١٣- القاضي الفاضل: هو أبو عبد الرحيم بن علي بن حسن اللخمي البيساني ثم العسقلاني ثم المصري محي الدين صاحب ديوان الإنشاء وشيخ البلاغة، كان وزيرا للسلطان صلاح الدين الأيوبي فجمع بين فنيّ الكتابة والسياسة وتدبير الملك، ونجح في كليهما نجاحا كبيرا، وكان سندا لصلاح الدين في كفاحه؛ انظر: القاضي الفاضل: إنشاءات القاضي الفاضل، تحقيق وتعليق فتحية عبد الفتاح النبرواي، القاهرة ١٩٨٥م.

١١٤- ابن واصل: المصدر السابق ، ج ٣ ص ٢٨ – ٣١؛ أبو الفدا: المصدر السابق ، ج ٣ ص ٩٠؛ ابن الوردي: المصدر السابق : ج ٢ ص ١٠٦ ، ١٠٩؛ المقريزي: المصدر السابق ، ج ١ ص ٢٢٩.

١١٥- ابو الفدا: المصدر السابق ، ج ٣ ص ٩٠؛ المقريزي : المصدر السابق ، ج ١ ص ٢٣٢ ، ٢٣٣.

١١٦- أبو شامة: الروضتين، ج ٢ ص ٢٢٩؛ ابن واصل: المصدر السابق، ج٣ ص ٣٨، ٣٩؛ ابن الفرات: تاريخ ابن الفرات، مجلد ٤ ج٢ ، ص ١٠٣.

١١٧- ابن واصل: المصدر السابق، ج ٣ ص ٣٩ ، وراجع ابن الفرات: المصدر السابق،ج٤ ق ٢ ص ١٠٣.

١١٨- ابن واصل: المصدر السابق ، ج ٣ ص ٣٩ ؛ ابن الفرات: المصدر السابق، ج ٤ ق ٢ص ١٠٣، ١٠٤؛ المقريزي: المصدر السابق ، ج ١ ص ٢٣٢، ٢٣٣.

١١٩- أبو شامة: المصدر السابق، ص ٢٢٩؛ ابن العديم: زبدة الحلب في تاريخ حلب، ج ٣ ص ١٣٢؛ ابن واصل: المصدر السابق، ج ٣ ص ٤١ – ٤٤؛ المقريزي: المصدر السابق ، ج ١ ص ٢٣٧.

١٢٠- أبو شامة: المصدر السابق، ص ٢٢٩؛ ابن العديم: المصدر السابق، ج٣ ص ١٣٣– ١٣٤؛ ابن الفرات: المصدر السابق، ج ٤ ق ٢ ص ١١٢.

١٢١- سبط بن الجوزي: مرآة الزمان، ج ٨ ق ٢، ص ٤٤١؛ ابن الفرات: المصدر السابق، مجلد ٤ ج ٢ ص ١١٨.

١٢٢- شيزر: كورة بالشام قرب المعرة بينها وبين حماة مسيرة يوم؛ انظر: ابن عبد الحق البغدادي: مراصد الاطلاع في أسماء الأمكنة والبقاع، ج٢ ص٨٢٦.

١٢٣- عز الدين جرديك النوري: هوعز الدين جرديك بن عبد الله النوري كان من أكابر أمراء السلطان العادل نور الدين الشهيد، ثم خدم السلطان صلاح الدين الأيوبي، وكان أميرا شجاعا مهيبا جوادا، ولاه صلاح الدين نيابة القدس إلى أن أخذها منه الملك الأفضل بن صلاح الدين، وكانت وفاته في عام ٥٩٤ هـ / ١١٩٨ م؛ انظر: أبو المحاسن: النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، القاهرة ١٩٣٦م، ج ٦ ص ١٤٣.

١٢٤- الجولان: قرية من نواحي دمشق وهي من عمل حوران؛ انظر: ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٢ ص ١٨٨.

١٢٥- المنيحة: بفتح الميم وكسر النون، وهي قرية من قرى دمشق بالغوطة؛ انظر: ياقوت الحموي: المصدر السابق، ج ٥ ص ٢١٧.

١٢٦- المقريزي: المصدر السابق، ج ١ ص ٢٣٨ ، ٢٣٩.

١٢٧- ابن العديم: المصدر السابق، ج٣ ص ١٣٤، ١٣٥؛ المقريزي: المصدر السابق، ج ١ص٢٣٩، ٢٤٠؛ أبو المحاسن : المصدر السابق، ج ٦ ص١٢٤.

١٢٨- ابن واصل: المصدر السابق، ج ٣ ص ٥٥.

١٢٩- ابن أيبك: الدر المطلوب في أخبار ملوك بني أيوب، تحقيق سعيد عبد الفتاح عاشور، القاهرة ١٩٧٢م /١٣٩٢هـ ، ص ١٢٥؛ المقريزي: المصدر السابق، ج ١ ص ٢٤٠، ٢٤١؛ أبو المحاسن: المصدر السابق، ج ٦ ص ١٢٤.

١٣٠- ابن واصل: المصدر السابق ، ج ٣ ص ٥٥؛ المقريزي: المصدر السابق، ج ١ ص ٢٤٠، ٢٤١.

١٣١- ابن واصل: المصدر السابق، ج ٣ ص ٥٥، وراجع المقريزي: المصدر السابق، ج ١ ص ٢٤٣.

١٣٢- ابن واصل: المصدر السابق، ج ٣ ص ٩٠.

١٣٣- سبط بن الجوزي: المصدر السابق، ج ٨ ق٢ ص ٤٦١؛ ابن واصل: المصدر السابق، ج ٣ ص ٨٧ - ٩٠؛ المقريزي: المصدر السابق ، ج ١ ص٢٥٨؛ أبو المحاسن: المصدر السابق ، ج ٦ ص ١٤٨.

١٣٤- ابن واصل: المصدر السابق ، ج ٣ ص ٩١ .

١٣٥- ابن واصل: المصدر السابق ، ج ٣ ص ٩١ ، ٩٢ .

١٣٦- ختلج العزي: هو صارم الدين ختلج العزي مملوك عز الدين فرخشاه بن شاهنشاه بن أيوب، ولاه الملك العزيز عثمان صاحب مصر ولاية القدس بعد وفاة الأمير سنقر الكبير والي القدس في عام ٥٩٤ هـ / ١١٩٨م؛ انظر: ابن واصل: المصدر السابق ، ج ٣ ص ٧٦ .

١٣٧- ابن واصل: المصدر السابق ، ج ٣ ص ٩٢، وراجع المقريزي: المصدر السابق ، ج ١ ص ٢٥٩.

١٣٨- لما وصلت كتب الأمراء إلى الملك العادل وهو محاصر لماردين علـم أن الملك الأفضل والملك الظاهر اتفقا على أن يستغل الأفضل انشـغال العـادل بحصار ماردين ويستولي على دمشق التابعة حينذاك للملك العادل لذلك أسرع الملك العادل لإنقاذ دمشق بعد أن ترك على حصار ماردين ابنه الملك الكامل؛ انظر: - أبو الفدا: المصدر السابق، ج٣ ص ٩٥؛ ابن الوردي: تاريخ ابـن الوردي، ج ٢ ص ١١١، ١١٢؛ أبـو المحاسـن: المصـدر السـابق ج ٦ ص١٤٧.

١٣٩- ابن واصل: المصدر السابق ، ج ٣ ص ٩٣؛ المقريزي: المصدر السابق ، ج ١ ص ٢٥٩.

١٤٠- سبط بن الجوزي، المصدر السـابق، ج٨ ق ٢ ص ٤٠٧؛ ابـن نظيـف الحموي: التاريخ المنصوري، ص ١١؛ ابن واصل: المصـدر السـابق ، ج ٣ ص١٠٩.

١٤١- ابن واصل: المصدر السابق ، ج ٣ ص ١٠٩ .

١٤٢- الخابور: اسم لنهر كبير بين رأس عين والفرات من أرض الجزيرة ويطلق اسمه على ولاية كبيرة واسعة؛ انظر: ياقوت الحموي: معجم البلـدان، ج ٢ ص ٣٣٤.

١٤٣- حاني: اسم مدينة بديار بكر بها معدن الحديد ويجلب منها إلى سائر البلاد؛ انظر: ياقوت الحموي: المصدر السابق، ج٢ ص ٢٠٨.

١٤٤- جبل جور: اسم كورة كبيرة متصلة بديار بكر من نواحي أرمينية؛ انظـر: ياقوت الحموي: المصدر السابق، ج٢ ص ١٠٢.

١٤٥- ابن واصل: المصدر السابق، ج ٣ ص١٥٠، ابن خلكان: وفيات الأعيان، تحقيق إحسان عباس، بيروت ١٩٧٠ م ج ٣ ص ٤٢٠، و سميساط: مدينة على شاطئ الفرات تقع غربي الفرات، وهى في طرف بلاد الروم ؛ انظر: ياقوت الحموي: معجم البلدان ، ج ٣ ص ٢٥٨.

١٤٦- سبط بن الجوزي: المصدر السابق، ج ٨ ق٢ ص ٤٧١؛ ابن نظيف الحموي: التاريخ المنصوري، ص ١٢؛ ابن واصل: المصدر السابق، ج ٣ ص ١٠٨- ١١٢؛ المقريزي: المصدر السابق، ج ١ ص ٢٦٤- ٢٦٦.

١٤٧- ابن واصل: المصدر السابق، ج ٣ ص ١١٧.

١٤٨- ابن واصل: المصدر السابق، ج ٣ ص ١١٧.

١٤٩- ابن واصل: المصدر السابق، ج ٣ ص ١١٩.

١٥٠- ابن واصل: المصدر السابق، ج ٣ ص ١١٩.

١٥١- ابن واصل: المصدر السابق، ج ٣ ص ١١٩.

١٥٢- ابن واصل: المصدر السابق، ٣ ص ١١٩.

١٥٣- ابن واصل: المصدر السابق، ج ٣ ص ٢٠٨.

١٥٤- ابن نظيف الحموي: التاريخ المنصوري، ص ٢٤، ٢٥؛ المقريزي: السلوك، ج١ ص٢٦٥ ، ٢٦٦أبو المحاسن: المصدر السابق ، ج ٦ ص٢٢٧.

١٥٥- ابن واصل: المصدر السابق ، ج ٣ ص ٢١٠ .

١٥٦- أبو شامة: الذيل على الروضتين- تراجم رجال القرنين، تحقيق محمد زاهد الكوثري، بيروت ١٩٤٧ م، ص ٨٠ ؛ أبو المحاسن: المصدر السابق، ج ٦ ص ٢٠٥، وراجع علي محمد عودة الغامدي: بلاد الشام قبيل الغزو المغولي، مكة المكرمة ١٩٨٨م، ص ٦٢.

١٥٧- ابن واصل: المصدر السابق ، ج ٣ ص ٢٠٨ .

١٥٨- أبو شامة: المصدر السابق، ص ٨٠.

١٥٩- أبو شامة: المصدر السابق ، ص ٨٠ ؛ ابن واصل: المصدر السابق ، ج ٣ ص٢٠٩؛ ابن العميد: أخبار الأيوبيين، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة ، د . ت، ص٦ .

١٦٠- الذيل على الروضتين، ص ٨٠،٨١.

١٦١ - ابن واصل: المصدر السابق ، ج ٣ ص ٢٠٩ .

١٦٢- أبو المحاسن: المصدر السابق، ج ٦ ص ٢٠٦.

١٦٣- أبو الفدا: المختصر في أخبار البشر، ج ٣ ص ١١٤؛ ابن الوردي : المصدر السابق ، ج ٢ ص ١٢٨؛ المقريزي : المصدر السابق ، ج ١ ص٢٩٣؛ أبو المحاسن: المصدر السابق، ص ٢٠٦.

١٦٤- ابن واصل: المصدر السابق ، ج ٣ ص ٢٠٩، وراجع أبو الفدا: المصدر السابق، ج ٣ ص ١١٤؛ - ابن الوردي : المصدر السابق ، ج ٢ ص ١٢٨؛ المقريزي: المصدر السابق، ج ١ ص ٢٩٣.

١٦٥- ابن واصل: المصدر السابق ،ج ٣ ص ٢٠٩.

١٦٦- ابن واصل: المصدر السابق، ج ٣ ص ٢١٠، وراجع: ابن العميد: أخبار الأيوبيين، ص ٦.

١٦٧- ابن واصل: المصدر السابق ، ج ٣ ص ٢٠٩؛ ابن الوردي: المصدر السابق ج ٢ ص ١٢٨ .

١٦٨- أبو شامة: عيون الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية، تحقيق أحمد البيسومي، دمشق ١٩٩٢م، ق ٢، ص ٢٧٦،٢٧٧.

١٦٩- أبو شامة: عيون الروضتين، ق ٢ ص ٢٧٧ .

١٧٠- ابن شداد: سيرة السلطان صلاح الدين، ص٢٤٦، ٢٤٧؛ أبو شامة: المصدر السابق، ق٢، ص ٢٨١ .

١٧١- أبو شامة: المصدر السابق، ق ٢ ص ١٨٤.

١٧٢- ابن الأثير: المصدر السابق، ج١٢، ص ١٢٦-١٢٩؛ أبو شامة: الذيل على الروضتين، ص ١١؛ ابن واصل: المصدر السابق، ج ٣ ص ٧١، ٧٢.

١٧٣- ابن الأثير: المصدر السابق، ص ٣٠٠؛ ابن واصل: المصدر السابق، ج٣، ص ٢١٥، ٢١٦؛ ابن كثير: البداية والنهاية، ج ١٣، ص ٦٣.

١٧٤- أبو شامة: الذيل على الروضتين، ص ١٦٥، ١٦٦؛ ابن واصل: مفرج الكروب، ج٥ ، تحقيق حسنين ربيع، القاهرة ١٩٧٧م ، ص ١٥٤.

١٧٥- سبط بن الجوزي: المصدر السابق، ج٨ ق ٢ ص ٧٢٨؛ ابن واصل: المصدر السابق، ج٥ ص٢٦٢-٢٦٦؛ الحنبلي: شفاء القلوب، ص٣٧٣-٣٧٤.

176- King, E. J.: Op cit., p. 231; Humphrey, S.: From Saladin to the Mongols, New York , 1977, p. 274.

177- King, E. J.: Op cit., p. 231; Humphrey, S.: From Saladin to the Mongols, New York , 1977, p. 274.

١٧٨- ابن واصل: المصدر السابق، ج٥ ص ٣٣١-٣٣٣؛ أبو الفدا: المختصر في أخبار البشر، ج ٣ ص ١٧٢؛ أبو المحاسن: المصدر السابق، ج٦ ص ٣٣٢، وراجع:

- Stevenson, W. B.: The Crusaders in the East, Cambridge, 1968, p. 322.

179-Archer, T.: The Crusades, London 1919, pp. 388- 389; Humphrey, S.: Op. cit., p 274.

١٨٠- سبط بن الجوزي: مرآة الزمان، ج ٨ ق ٢ ص ٧٤٦؛ ابن واصل: المصدر السابق، ج٥، ص ٣٣٣-٣٣٦، وراجع :

- Humphrey, S.: Op. cit., p. 274.

١٨١- الخوارزمية: وهم ينسبون إلى الدولة الخوارزمية التي ظهرت على مسرح الأحداث في شرق الدولة الإسلامية منذ عام ٤٩٠ هـ / ١٠٩٦م؛ وقد كان سقوطها بمقتل أخر سلاطينها جلال الدين منكبرتي عام ٦٢٨ هـ / ١٢٣١م. وبعد سقوط الدولة الخوارزمية بقي بعض شراذمها الذين انساحوا في أنحاء الدولة الإسلامية، وقد استعان بهم الملك الصالح نجم الدين أيوب بعد أن استأذن والده السلطان الكامل في ذلك فعملوا كجند مرتزقة لديه. عن تاريخ الدولة الخوارزمية انظر: بالتفصيل النسوي: سيرة السلطان جلال الدين منكبرتي، تحقيق حافظ حمدي، القاهرة ١٩٥٣م؛ عفاف سيد صبرة: التاريخ السياسي للدولة الخوارزمية، القاهرة ١٩٨٧م.

١٨٢- سبط بن الجوزي: المصدر السابق، ج ٨ ق ٢ ص٧٤٦؛ ابن واصل: المصدر السابق، ج ٥، ص ٣٣٧، ٣٣٩ ،

- Smail, R. C.: The Crusaders in Syria and Holly Land. U.S.A. 1973, p. 33.

١٨٣- ابن واصل: المصدر السابق، ج ٥، ص ٣٣٧، وراجع:

-Setton, K., M.,: Op. cit., II, p. 561; King, E. J.,: Op. cit., p. 208.

184- Duggan, A.: The story of the crusades, 1097- 1291, London, 1963, p. 229.

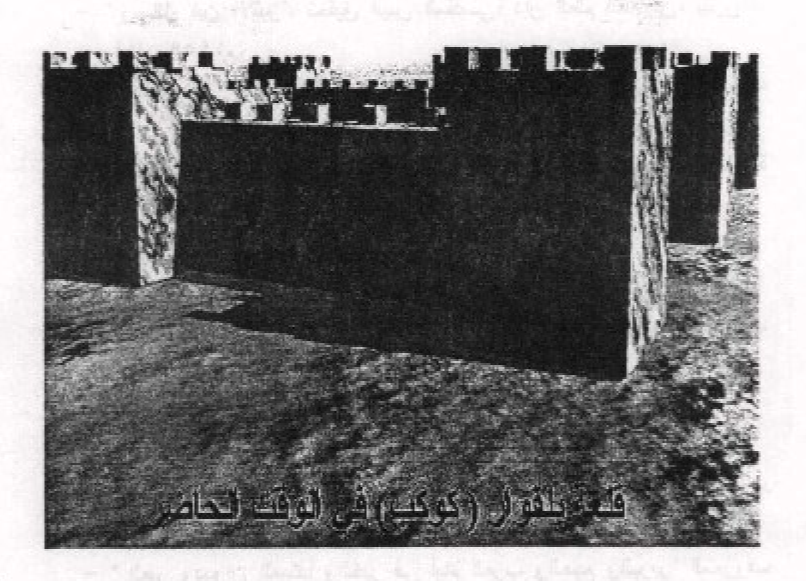
185- Prawer, J.: Histoire du Royaume Latin de Jerusalem, 2 Vols., Paris 1975, II, p. 310; Setton, K. M.,: Op. cit., II, p.561.

١٨٦- ابن واصل: المصدر السابق، ج ٥، ص ٣٣٧.

١٨٧- ابن عبد الظاهر: الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر، تحقيق عبد العزيز الخويطر، الرياض ١٩٧٦م، صفحات متفرقة؛ بيبرس الدوادار: التحفة الملوكية في الدولة التركية، تحقيق عبد الحميد صالح حمدان، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة ١٩٨٧م، صفحات متفرقة، زبدة الفكرة في تاريخ الهجرة، ج٩ تحقيق زبيدة عطا، جدة ، د . ت، صفحات متفرقة؛ سعيد عاشور: الحركة الصليبية، ج ٢ ص ٩٠٥ – ٩٣٦ ؛ محمد سهيل طقوش: تاريخ المماليك في مصر وبلاد الشام، ط ٢، بيروت، لبنان ١٩٩٩م، ص ١١١- ١٢٩، ١٨٠- ١٩٠، ٢٠٣- ٢٠٩.

١٨٨- ظلت قلعة كوكب بأنقاضها وأثارها في أيد المسلمين حتى اغتصبها الإسرائيليون عندما استولوا على فلسطين وبعض أجزاء من بلاد الشام المحيطة بها في أعقاب الحرب العالمية الثانية في القرن العشرين، وهي الأن تئن تحت نير الاحتلال الإسرائيلي في بيت شيعان Beit She'an. وعلى ما يبدو أن اليهود قد جددوا بناءها واحتفظوا باسمها القديم وهو" قلعة بلفوار" Citadel of Belvoir، الذي كان يطلقه عليها الصليبيون بدلا من اسمها المتعارف عليه في المصادر الإسلامية وهو قلعة كوكب؛ وربما يعتبر هذا تخليدا منهم لمكانة القلعة وأثرها في الصراع بين المسلمين والصليبيين، انظر:

-The Crusaders : Internet puppet: Theater, from : www.internetpuppets. org/ jhscrusaders.html., pp.1-2.



قلعة بلفوار Belvoir (كوكب) التي تقع في بيت شيعان (Beit She'an)
وهي لا تزال تئن تحت نير الاحتلال الإسرائيلي

(The Crusaders: Internet puppet: Theater, from:
www.internetpuppets.org/jhscrusaders.html., pp. 1-2. :نقلا عن)

قائمة المصادر والمراجع

أولا: قائمة المصادر والمراجع العربية والمترجمة :

١- **ابن الأثير(أبوالفتح ضياء الدين نصرالله أبوالكرم بن محمد بن عبد الكريم الشيباني)**، ت: ٦٣٧هـ/١٢٣٩م:

- " **رسائل ابن الأثير**"، تحقيق أنيس المقدسي، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان ١٩٥٩م.

٢- **ابن الأثير(عز الدين على بن محمد بن عبد الكريم الشيباني المعروف بالجزري)**، ت: ٦٣٠هـ / ١٢٣٢م:

- " **اللباب في تهذيب الأنساب**"، **تحقيق مصطفى عبد الواحد، القاهرة ١٩٧١م؛**

- " **الكامل في التاريخ** "، ١٣ جزءًا، بيروت ١٩٧٩.

٣- **ابن أيبك (أبو بكر بن عبد الله بن أيبك)**، ت: ٧٣٢ هـ / ١٣٣١م:

- " **الدرالمطلوب في أخبارملوك بني أيوب**"، تحقيق سعيد عبد الفتاح عاشور، القاهرة ١٩٧٢م/ ١٣٩٢هـ.

٤- **ابن جبير(أبو الحسن محمد بن أحمد الأندلسي)، ت ٦١٤ هـ / ١٢١٧م:**

- " **رحلة ابن جبير**" بيروت، ١٣٨٤هـ / ١٩٦٤ م.

٥- **ابن خلدون (عبد الرحمن محمد بن خلدون الحضرمي المغربي)**، ت: ٨٠٨ هـ / ١٤٠٥م:

- " **العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر**" المعروف بـ " **تاريخ ابن خلدون**"، بيروت ١٩٧١م.

٦- **ابن خلكان(أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر)**، ت: ٦٨١هـ/١٢٨٢م:

- " **وفيات الأعيان**"، **تحقيق** إحسان عباس، بيروت ١٩٧٠م، ١٩٧١م.

٧- **ابن دقماق(إبراهيم بن محمد بن أيدمر العلائي)**، ت: ٨٠٩ هـ /١٤٠٧م:

- " **الجوهر الثمين في سير الملوك والسلاطين**"، تحقيق محمد كمال الدين، بيروت ١٩٨٥م.

٨- ابن شاهنشاه(محمد بن تقي الدين عمر بن شاهنشاه صاحب حماة الأيوبي)، ت: ٦١٧ هـ / ١٢٢٠م:

- " مضمار الحقائق وسر الخلائق"، تحقيق حسن حبشي، القاهرة ١٩٦٨م.

٩- ابن الشحنة(أبو الفضل محمد بن الشحنة الحلبي الحنفي)، ت: ٨٩٠ هـ/١٤٨٥م:

- " الدر المنتخب في تاريخ مملكة حلب"، تقديم عبد الله محمد درويش، دمشق ١٩٨٤م.

١٠- ابن شداد(بهاء الدين أبو المحاسن يوسف بن رافع بن تميم)، ت: ٦٣٢هـ / ١٢٣٥م:

- " سيرة صلاح الدين الأيوبي- المسماة بالنوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية"، تحقيق جمال الدين الشيال، القاهرة ١٩٦٤م.

١١- ابن شداد(عز الدين محمد بن على بن إبراهيم)، ت: ٦٨٤هـ / ١٢٨٥م:

- " الأعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة"، الجز الأول بقسميه، تحقيق يحيى عبارة، دمشق ١٩٩١م، الجز الثاني بقسميه تحقيق سامي الدهان، دمشق ١٩٦٢م، الجزء الثالث ثلاثة أقسام، تحقيق يحيى عبارة، دمشق ١٩٧٨م.

١٢- ابن عبد الحق البغدادي(صفي الدين عبد المؤمن)، ت ٧٣٩هـ /١٣٣٨م

- " مراصد الإطلاع في أسماء الأمكنة والبقاع"، تحقيق علي محمد البجاوي ، القاهرة ١٣٧٣هـ ، ١٩٥٤ م.

١٣- ابن عبد الظاهر(القاضي محي الدين بن عبدالظاهر)، ت: ٦٩٢هـ/١٢٩٢م:

- " الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر"، تحقيق عبد العزيز الخويطر، الرياض ١٩٧٦م/ ١٣٩٦هـ.

١٤- ابن العديم(الصاحب كمال الدين أبو القاسم عمر بن هبة الله بن العديم)، ت: ٦٦٠هـ / ١٢٦١م:

- " زبدة الحلب في تاريخ حلب"، ثلاثة أجزاء تحقيق سامي الدهان، دمشق ١٩٦٨م.

15- ابن العميد(المكين جرجس بن العميد)، ت: ٦٥٨هـ / ١٢٦٠م:
- " أخبار الأيوبيين"، القاهرة د.ت.

16- ابن الفرات(ناصر الدين محمد بن عبد الرحيم بن الفرات)، ت: ٨٠٧هـ / ١٤٠٤م:
- " تاريخ ابن الفرات"، المجلد الرابع تحقيق حسن الشـماع، البصرة ١٩٦٩م.

17- ابن القلانسي (أبو يعلي حمزة بن أسد بن علي بن محمد التميمي)، ت: ٥٥٥هـ / ١١٦٠م:
- " تاريخ دمشق"، تحقيق سهيل زكار، دمشق ١٩٨٣م / ١٤٠٣هـ .

18- ابن كثير(عمادالدين أبوالفدا إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي الدمشقي)، ت: ٧٧٤هـ / ١٣٧٢م:
- " البداية والنهاية "، بيروت ١٩٧٧م.

19- ابن نظيف الحموي(أبو الفضائل محمد بن علي):
- " التاريخ المنصوري- تلخيص الكشف والبيان في حوادث الزمان"، تحقيق أبو العيد دودو، دمشق ١٩٨١م.

20- ابن واصل(جمال الدين محمد بن سالم بن واصل)، ت: ٦٩٧هـ / ١٢٩٧م:
- " مفرج الكروب في أخبار بنى أيوب "، الأجزاء ١-٣ تحقيق جمال الدين الشيال، القاهرة ١٩٥٣،١٩٦٠ م، الجزءان الرابع والخامس تحقيق حسنين ربيع، القاهرة ١٩٧٢ م، ١٩٧٧م.

21- ابن الوردي(سراج الدين أبو حفص عمر بن الوردي)، ت: ٧٥٠هـ / ١٣٤٩م:
- " تاريخ ابن الوردي"، بيروت ١٩٩٦م.

22- أبو شامة (شهاب الدين محمد عبدالرحمن بن إسماعيل)، ت: ٦٦٥هـ/١٢٦٦م:
- " كتاب الروضتين في أخبار الدولتين "، القاهرة ١٢٨٧هـ ؛
- " الذيل على الروضتين "، تحقيق محمد زاهد الكوثري، بيروت ١٩٤٧م؛
- " عيون الروضتين " ، تحقيق محمد البيسومي، دمشق ١٩٩١م .

٢٣- أبو الفدا (الملك المؤيد عماد الدين إسماعيل)، ت: ٧٣٢ هـ / ١٣٣١م:
- " المختصر في أخبار البشر" القاهرة د. ت.
٢٤- أبو المحاسن(جمال الدين أبو المحاسن يوسف بن تغرى بردى الأتابكى)، ت: ٨٧٤ هـ / ١٤٧٠م:
- " النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة"، القاهرة ١٩٣٦م.
٢٥- إحسان هندي :
- " الحياة العسكرية عند العرب"، دمشق ١٩٦٤م .
٢٦- أ رنست باركر:
- "الحروب الصليبية"، ترجمة السيد الباز العريني ، بيروت ١٩٦٧م.
٢٧- أنتوني بردج:
- " تاريخ الحروب الصليبية"، ترجمة غسان سبانو ونبيل الجيرودي، دمشق ١٩٨٥م.
٢٨- بيبرس الدوادار (ركن الدين بيبرس بن عبد الله المنصورى الناصري الدوادار الخطائى)، ت: ٧٢٥هـ / ١٣٢٥م:
- " زبدة الفكرة في تاريخ الهجرة"، جزء ٩ تحقيق زبيده عطا، جدة، د.ت.
- " التحفة الملوكية في الدولة التركية" ، تحقيق عبد الحميد صالح، القاهرة ١٩٨٧م .
٢٩- جوناثان رايلي سميث:
- " الاسبتارية: فرسان القديس يوحنا في بيت المقدس وقبرص (١٠٥٠-١٣١٠م)"، ترجمة صبحي الجابي، دمشق ١٤٠٩ هـ / ١٩٨٩م.
٣٠- حسين محمد عطية:
- " إمارة أنطاكية الصليبية والمسلمون ١١٧١-١٢٦٨م/ ٥٦٧-٦٦٦هـ "، الإسكندرية ١٩٨٩م.
٣١- الحنبلي (أحمد بن إبراهيم)، ت: ٨٧٦ هـ / ١٤٧١م:
- " شفاء القلوب في مناقب بني أيوب"، تحقيق ناظم رشيد، بغداد ١٤٠١هـ .

٣٢- **الحنبلي(القاضي مجير الدين الحنبلي)**، ت: ٩٢٨ هـ / ١٥٧١م:
- " **الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل**"، دار الجبل، بيروت ١٩٧٣م.
٣٣- **رنيه كروسيه:**
- " **الحروب الصليبية صراع الشرق والغرب**"، ترجمه عن الفرنسية أحمد إيبش، دمشق ٢٠٠٢.
٣٤- **سبط بن الجوزى(أبو المظفر يوسف بن قزاوغلى التركي)**، ت: ٦٥٤هـ/١٢٥٦م:
- " **مرآة الزمان**"، الجزء الثامن بقسميه تحقيق دائرة المعارف العثمانية، الهند، الدكن ١٩٥٢م.
٣٥- **سعيد عبد الفتاح عاشور:**
- " **الحركة الصليبية**"، **جزءان، القاهرة ١٩٨٢، ١٩٩٤م؛**
- " **الأيوبيون والمماليك" القاهرة ١٩٩٦م؛**
- " **مصر والشام في عصر الأيوبيين والمماليك**" ، بيروت د.ت.
٣٦- **سميل، ر. سي:**
- " **الحروب الصليبية**" ، ترجمة سامي هاشم، بيروت ١٩٨٢م .
٣٧- **السيد الباز العريني:**
- " **الشرق الأوسط والحروب الصليبية**"، القاهرة ١٩٦٢م.
٣٨- **عبد الرحمن زكى:**
- " **القلاع في الحروب الصليبية** "، بحث ضمن مجلة الجمعية التاريخية ، المجلد ١٥ لسنة ١٩٦٩م.
٣٩- **عبد الله عنان :**
- " **قلاع الصليبيين والمسلمين في سوريا**"، بحث ضمن مجلة الهلال عدد ٥ لسنة ١٩٣٤م.
٤٠- **عفاف سيد صبرة:**
- " **التاريخ السياسي للدولة الخوارزمية**"، القاهرة ١٩٨٧م.

٤١- علي محمد عودة الغامدي:
- " بلاد الشام قبيل الغزو المغولي" ، مكة المكرمة ١٩٨٨م.
٤٢- عليه عبد السميع الجنزوري:
- " إمارة الرها الصليبية"، القاهرة ١٩٧٥م.
٤٣- العماد الأصفهاني (عماد الدين أبو عبد الله بن صفي الدين أبو الفرج محمد بن نفيس الدين المعروف بالكاتب الأصفهاني)، ت: ٥٩٧ هـ / ١٢٠١م:
- "الفتح القسي في الفتح القدسي"، تحقيق محمد محمود صبح، القاهرة، د.ت.
٤٤- عمر عبد السلام تدمري:
- " تاريخ طرابلس السياسي والحضاري عبر العصور"، بيروت ١٩٨٤م.
٤٥- العمرى(القاضي ابن فضل الله العمري شهاب الدين أحمد بن يحيى)، ت: ٧٤٩ هـ / ١٣٤٨م:
- " مسالك الأبصار في ممالك الأمصار"، الجزء الخاص بممالك مصر والشام والحجاز تحقيق أيمن فؤاد، القاهرة ١٩٨٥م، وحقق نفس الجزء دوروينا كرا فولكسي، بيروت ١٩٨٦م.
٤٦- فولشر الشارتي :
- " تاريخ الحملة إلى القدس"، ترجمة زياد العسلي، دار الشروق، عمان، الأردن ١٩٩٠م.
٤٧- فولغفانغ مولر فينر:
- " القلاع أيام الحروب الصليبية"، ترجمة محمد وليد الجلاد، دمشق ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م.
٤٨- القاضي الفاضل(أبو عبد الرحيم بن علي بن حسن اللخمي البيساني)، ت: ٥٩٦ هـ / ١٢٠٠م:
- " إنشاءات القاضي الفاضل"، تحقيق وتعليق فتحية عبد الفتاح النبرواي، القاهرة ١٩٨٥م.
٤٩- ماير، إتش. إ :
- " تاريخ الحملات الصليبية ، ج١ ترجمة محمد فتحي الشاعر، القاهرة ١٩٩٩م.

٥٠- محسن محمد حسين:
- " الجيش الأيوبي في عهد صلاح الدين"، بيروت ١٩٨٦م.
٥١- محمد زغلول سلام:
- " ضياء الدين بن الأثير وجهوده في النقد"، القاهرة ١٩٦٥م.
٥٢- محمد سهيل طقوش :
- " تاريخ المماليك في مصر وبلاد الشام"، ط٢ بيروت- لبنان ١٩٩٩ م.
٥٣- محمد عبد الله الحمدان:
- " بنو الأثير الفرسان الثلاثة"، الرياض ١٩٧٣م / ١٣٣٤ هـ .
٥٤- محمد مؤنس عوض:
- " الحروب الصليبية- دراسات تاريخية ونقدية"، دار الشروق، عمان ١٩٩٩م.
٥٥- محمود محمد الحويري:
- " الأوضاع الحضارية في بلاد الشام في القرنين الحادي عشر والثاني عشر من الميلاد"، دار المعارف، القاهرة ١٩٧٩م.
٥٦- المقريزى (تقي الدين أحمد بن على)، ت: ٨٤٥ هـ / ١٤٤٢م:
- " السلوك لمعرفة دول الملوك ، تحقيق محمد عبد القادر عطا، بيروت ١٩٩٧م.
٥٧- ميخائيل زابوروف:
- " الصليبيون في الشرق" ، ترجمة إلياس شاهين، موسكو ١٩٨٦م.
٥٨- ناجلا محمد عبد النبي:
- " عثليث وقلعتها في عصر الحروب الصليبية"، بحث بمجلة كلية الدراسات الإنسانية، جامعة الأزهر، العدد العاشر لعام ١٩٩٢م.
٥٩- النسوي(شهاب الدين محمد بن أحمد المنشيء)، ت: ٦٣٩هـ / ١٢٤١م :
- " سيرة السلطان جلال الدين منكبرتي"، تحقيق حافظ حمدي، القاهرة ١٩٥٣م.
٦٠- نظير حسان سعداوي:
- " جيش مصر في أيام صلاح الدين" القاهرة ١٩٥٩م.
٦١- النويرى(شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب)، ت: ٧٣٣ هـ / ١٣٣٢م:
- " نهاية الأرب في فنون الأدب"، جـ ٢٩ تحقيق محمد ضياء الدين الريس، القاهرة ١٩٩٢م.

٦٢- وليم الصوري:
- " **تاريخ الحروب الصليبية - تاريخ الأعمال المنجزة فيما وراء البحار**"، الجزء الأول، ترجمة سهيل زكار، دار الفكر، بيروت ١٩٩٠ م؛
- " **الحروب الصليبية**"، أربعة أجزاء ترجمة حسن حبشي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٩٥م.

٦٣- **ياقوت الحموي(شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت الحموي الرومي)، ت:** ٦٢٦هـ/ ١٢٢٨م:
- " **معجم البلدان**" ٥ أجزاء، بيروت ١٩٧٧، ١٩٨٨م.

٦٤- **يوشع براور:**
- " **عالم الصليبيين**"، ترجمة قاسم عبده قاسم، القاهرة ١٩٨١م.

ثانياً : قائمة المراجع الأجنبية :

1- Addison, The history of Knights of Templars, London 1942.

2- Archer, T.: The Crusades, London 1919.

3- Brehier, L.: L' Eglise et L' Orient au Moyen Age Croisades, Paris 1928

4- Duggan, A., The story of the crusades, 1097- 1291, London 1963.

5- Fedden R.: Crusades Castles, London 1950.

6- Grousset, R.: Histoire des Croisades et du Royaume Franc de Jerusalem, 3 Volumes, Paris 1948.

7- Humphrey, S.: From Saladin to the Mongols, New York 1977.

8- King, E.: The Knights Hospitallers in the Holy Land, London 1931.

9- Prawer, J.: Histoire du Royaume Latin de Jerusalem, 2 Vols., Paris 1975.

10- 10-Setton, K. M. (ed.,): A History of the Crusades, 5 Vols., Pennsylvania 1958-1985.

11- 11-Smail, R. C.: The Crusaders in Syria and Holly Land. London 1973.

12- 12-Stevenson, W. B.: The Crusaders in the East, Cambridge 1968.

13- 13-The Crusaders: Internet puppet: Theater, from: www.internetpuppets. org/jhscrusaders. html.

ودورها السياسى والحضارى في العصر المملوكى
٦٤٨ – ٩٢٣هـ/ ١٢٥٠ – ١٥١٧م

د. محاسن الوقاد
كلية الآداب ــ جامعة عين شمس

مقدمة :

يتناول هذا البحث دراسة إحدى الوظائف العسكرية في البلاط المملوكى، وهى وظيفة أمير مجلس ودورها السياسى والحضارى، ويكتسب الموضوع أهميته من عدة اعتبارات هى :

- أن هذا الموضوع لم يحظ باهتمام المؤرخين الذين اهتموا بالكتابة التاريخية للحكام والسلاطين والأمراء، من حيث أعمالهم السياسية والعسكرية، ولم يعطوا ذات الاهتمام للنظم الإدارية بصفة عامة والإدارة المملوكية بصفة خاصة والتى تتضمن وظيفة أمير مجلس.
- وقد ترتب على هذا الإهمال من قبل بعض المؤرخين لهذه النظم الإدارية، أن الموضوع حظى بقليل من الاهتمام من قبل بعض الباحثين المحدثين، منهم حسن الباشا وكتابه "الفنون الإسلامية والوظائف على الآثار العربية"، ولذلك أخذت على عاتقى تناول هذا الموضوع بالدراسة والبحث إبان العصر المملوكى.

تواجه الباحثة فى موضوع وظيفة أمير مجلس عدة صعاب يمكن إجمالها على النحو التالي :

أولاً : تناثرت المادة المصدرية للموضوع تناثراً واضحاً، ولذلك يتطلب الأمر من الباحثة الاتجاه إلى كتب الحوليات والطبقات والوفيات والشواهد الأثرية، من أجل البحث عن الشذرات القليلة أو ربما وجد مصدر من المصادر التاريخية لا يحتوى على أية إشارات.

ثانياً : تتطلب دراسة الموضوع، الإحاطة الشاملة بكافة جوانب النظم الإدارية المملوكية، من أجل معرفة وضع وظيفة "أمير مجلس" بين باقى التكوين الإدارى لسلطنة المماليك، وتأثير تلك الوظيفة فى كافة جوانب تاريخ تلك السلطنة.

ينبغي علينا تعريف أمير مجلس لغة واصطلاحا، وبيان جذورها التاريخية حتى عصر سلاطين المماليك :

أولاً : أمير :

الأمير هو ذو الأمر أو المتسلط. وتستخدم هذه اللفظة كاسم وظيفة أو للدلالة على طبقة أو رتبة أو كلقب فخرى، وقد وردت بهذه الدلالات المختلفة فى الكتابات الأثرية على الآثار العربية(١).

ومن حيث استخدام اللفظة كاسم وظيفة كانت لفظة "الأمير" تعنى الوالى، وقد عرفت اللفظة بهذه الدلالة عند العرب قبل الإسلام، واستخدمت أيضاً فى صدر الإسلام، وكان العرب غير المسلمين يدعون الرسول (ص) أمير مكة والحجاز(٢). وكان الرسول (ص) إذا جهز جيشاً جعل له أميراً أى قائداً ورئيساً، وكذلك كان شأن الخلفاء الراشدين والأمويين والعباسيين وغيرهم(٣).

وقد أطلق على ولاة مصر فى العصر العباسى اسم الأمراء فى كتابات أثرية، منها كتابة أثرية بمرسوم على كتلة من الحجر من الأشمونين محفوظة بجامعة شيكاغو باسم الأمير الخصيب ابن عبد الحميد الذى كان أميراً على مصر فى عهد هارون الرشيد(٤).

وعلى الرغم من تمتع مصر بالاستقلال فى عصر الطولونيين والأخشيديين، فقد كان ولاتها يسمون أمراء(٥).

استخدم لفظ الأمير فى زمن الدولة الفاطمية للدلالة على طبقة أو مرتبة معينة كان يصل إليها المقربون من رجال الدولة، وربما كان الأمير فى أصله مملوكاً أو مولى ثم ترقى فى خدمة الخليفة أو أمير الجيوش إلى أن تأمر(٦).

انتقلت لفظة الأمير كدلالة على مرتبة أو طبقة إلى الدولة الأيوبية فى مصر عن الأتابكة والفاطميين، إذ من المعروف أن صلاح الدين الأيوبى الذى وزر لأخر الخلفاء الفاطميين كان فى الوقت نفسه نائباً عن السلطان نور الدين محمد ابن الأتابكى عماد الدين زنكى وبذلك ورثت الدولة الأيوبية كلا النظامين النورى الأتابكى والفاطمى، كما كان نور الدين يكاتب قائده صلاح الدين أثناء حكمه لمصر "بالأمير"(٧).

انتقل نظام التأمير من الدولة الأيوبية إلى دولة المماليك التى انبثقت بـــدورها من الدولة الأيوبية، وورثت أنظمتها، ولذلك نجدهم يسيرون على نهجهم فـــى إدارة البلاد وحكمها، فنظم الحكم واحدة فى الدولتين إذا استثنينا بعض النظم الجديدة التى أدخلوها فيما بعد واقتبسوها عن المغول بحكم اتصالهم وتأثرهم بهم[٨].

وكان الأمراء يكونون أرفع الفئات العسكرية فى عصر المماليك، ولم تقتصر مهمة الأمراء على الناحية العسكرية بل كانت تسند إليهم أيضاً فى كثير من الأحيان أهم الوظائف الإدارية فى الدولة، سواء ما كان منها بحضرة السلطان أو ما كـــان خارجاً عن الحضرة السلطانية، وأهم الوظائف المتصلة بالحضرة السلطانية التـــى كان يشغلها الأمراء، هى النائب والأتابك ورأس نوبة ثم أمير مجلس التـــى هـــى موضوع بحثنا[٩].

ثانياً : **مجلس** :

المجلس فى اللغة موضع الجلوس، وقد استعير للإشارة إلى شخص الجـــالس تعظيماً له عن التعبير عنه باسمه. وقد صار هذا اللفظ فى عرف كتاب المماليك أحد الألقاب الأصول التى ترد فى سلسلة الألقاب وتتفرع عليها باقى الصـــفات. وجـــاء استعمال هذا اللقب على أثر الكناية بمثله من ألقاب الاستعارة المكانية عن الخلفـــاء على سبيل التعظيم[١٠].

ظهر لقب "المجلس" فى الإسلام فى أيام بنى بويه[١١]، وقد وصلت إلينا وثائق تشير إلى أن لقب المجلس كان يستعمل للسلطان فى عصر السلاجقة، وفى الدولـــة الفاطمية أطلق اللقب على الوزراء من أمراء الجيوش وقد كانوا بمثابة السلاطين.

انتقل لقب "المجلس" من عصر الفاطميين والأتابكة إلى الدولة الأيوبية، فشاع استعماله فيها حتى أنه مذكور فى مكاتبات القاضى الفاضل ومن عاصره بكثرة، بل لا تكاد مكاتبه من مكاتباته الملكية تخلو من ذلك[١٢].

وفى العصر الأيوبى لم يكن لقب "المجلس" مقتصراً على السلطان وحده، بل استعمل إلى جانب ذلك لغيره من الأمراء الأيوبيين والوزراء[١٣]. ثم توســـع فـــى استعمال لقب المجلس فأطلق فى أواخر العصر الأيوبى على كبار الأمراء مما أدى

إلى انحطاطه دون مقام السلطان[١٤].

وفي عصر المماليك انحط لقب المجلس حتى أصبح أدنى الألقاب الأصول درجة، وأن كان أكثرها شيوعاً عند الكتاب، فصار من ألقاب أرباب السيوف والأقلام عامة[١٥]، وربما كان لانخفاض قيمة اللقب أثر كبير في عدم ظهوره في النقوش الأثرية إذ إن الآثار تعمل في العادة باسم كبار رجال الدولة ذوى الألقاب العالية[١٦].

وقد تناول كتاب عصر المماليك لقب المجلس بالتصنيف والتبويب، إذ إنه حتى ذلك الوقت لم تكن قد تحددت درجته وأقسامه وفروعه، فقد كان يأتى مفرداً أو ملحقاً بصفات نادرة كالرفيع[١٧] أو الكبير[١٨] أو بصفات معروفة كالعالى[١٩] والسامى، ولم يكن الفرق بين هذه جميعاً واضحاً أو محدداً بل كثيراً ما كان يستعمل أحدها لسلطان ولأحد القضاة من غير تفرقة[٢٠].

ثم ما لبث اللقب أن أخذ يتناوله نوع من التصنيف، فقد أشار ابن شيث إلى "المجلس السامى" وفروعه حين المكاتبة به عن السلطان فقرر أنه يكتب بالمجلس السامى عن السلطان إلى كبار رجال الدولة ولا يزاد عليه، كما وضح أن المجلس العالى أرقى من المجلس السامى[٢١].

ولم يقف التصنيف عند ذلك، بل تغير الوضع وازداد التصنيف تعقيداً في زمن المماليك فقد انقسم اللقب إلى عدة درجات أعلاها المجلس العالى بتشديد الياء مع الدعاء، ثم المجلس السامى بالياء المشددة ثم المجلس السامى بياء ساكنة، ثم مجلس مضافاً إلى اللقب الدال على الوضع دلالة خاصة "مثل مجلس الأمير" و"مجلس القاضى" و"مجلس الشيخ" و"مجلس الصدر"، وليس أدنى من ذلك إلى الإتيان باللقب الدال على الوضع مع حذف لفظ "مجلس" فيقال "الأمير" والقاضى والصدر والشيخ[٢٢].

مما سبق تتضح لنا التغيرات التى كانت تطرأ على درجات الوظائف وقيمتها من علو وانخفاض طوال زمن الدولة المملوكية.

عرفت وظيفة أمير مجلس زمن الفاطميين، وكان متوليها يسمى صاحب المجلس وهو الذى يتولى الإشراف على نظام جلوس الخليفة الرسمى فى القصر،

وكان يلقب بين موظفى البلاط بلقب "أمير الملك"[٢٣].

وهى إحدى وظائف البلاط العسكرية التى عرفت فى عصر الأيوبيين، ويبدو أنها انتقلت إليهم من السلاجقة والأتابكة، وقد وردت فى كتابة أثرية بنص جنائزى على شاهد من الحجر يرجع إلى عام ٦١٥هـ/١٢١٨م باسم سنجر عتيق الطونبا أمير مجلس المعظمى[٢٤].

انتقلت هذه الوظيفة من الدولة الأيوبية إلى دولة المماليك. ويشير القلقشندى بصدد صيغتها اللغوية أن الأفضل فى رأيه أن يقال "أمير المجلس" وتكون الألف واللام للعهد الذهنى: إما مجلس السلطان أو غيره[٢٥].

أما عن تعريف أمير مجلس وترتيبه بين وظائف العصر المملوكى، فقد كان أمير مجلس يتولى ترتيب مجلس السلطان وتدبير أمر حراسته حتى فى داخل قصره وحجرة نومه، كما كان يتحدث إلى الأطباء والكحالين والجراحين ومن شاكلهم، ولم يكن فى بلاط السلطان غير أمير مجلس واحد[٢٦].

وقد أصبحت الوظيفة زمن سلاطين المماليك من أهم وظائف البلاط بحيث صنفها القلقشندى فى المرتبة الرابعة[٢٧]، أما ابن شاهين، وصاحب ديوان الإنشاء فقد جعلاها فى المرتبة الثالثة بعد أتابك العسكر وأمير سلاح، كما أضافها صاحب الديوان إلى الأتابكية[٢٨].

أوجد هذه الوظيفة السلطان الظاهر بيبرس[٢٩] ويعتبر بيبرس أول من حدد اختصاصات صاحب هذه الوظيفة، ويؤكد ابن تغرى بردى أن وظيفة أمير مجلس كانت جليلة القدر، بل أكبر قدراً من أمير سلاح[٣٠].

ويذكر نفس المؤرخ أيضاً بقوله "وأظن هذه الوظيفة ما عظمت إلا فى زماننا هذا والذى قبله بمدة يسيرة" ويحتمل أن إمرة مجلس كانت أولاً هينة، فيكون صاحبها أمير طبلخاناه، ثم عظمت فى زماننا هذا[٣١].

نستنتج مما سبق أن وظيفة أمير مجلس كان من الممكن أن يتقلدها أمير طبلخاناه، ثم ما لبثت أن ارتفعت قيمتها ومكانتها وعظمت.

فقد ارتبطت الوظائف أبان العصر المملوكى بعدد من التقاليد المملوكية، إذ كان يشترط فى شاغل وظيفة أمير مجلس أن يكون صاحبها من مقدمى الألوف، أى أمير مائة مقدم ألف وهى أعلى درجات الأمراء(٣٢).

ويفهم من المصادر التاريخية أن وظيفة أمير مجلس لم تقتصر على البلاط السلطانى، بل كان لأمراء المئين والطبلخانات أيضاً أمراء مجالس من أتباعهم، وكان من عادة الأمير إذا خرج صحبه أكابر أجناده من أرباب الوظائف، ومنهم أمير مجلسه(٣٣).

ويلاحظ أن مهمة أمير مجلس الأمير مثل مهمة أمير مجلس السلطان من حيث تدبير أمر المجلس وحماية الأمير.

إمارة المجلس وتقاليدها :

جرت العادة عند تعيين أمير مجلس، فإنه يكتب له تقليد بذلك حسب تقاليد الدولة المملوكية، فكان السلطان يجلس بالأيوان المعروف بدار العدل بالقلعة فى الموكب السلطانى، وقد حضر أهل الدولة للخدمة، كما جرت العادة، ففى عام ٧٩٢هـ/١٣٨٩م خلع السلطان على الأمير كمشبغا الأشرفى الخاصكى واستقر أمير مجلس، وكان يوماً مشهوداً(٣٤). ويأتى بعد ذلك قاصد الملك العادل جكم، ومعه مرسومه بتقرير الأمير يشبك بن أزدمر أمير مجلس وذلك عام ٨٠٩هـ/١٤٠٦م(٣٥).

الألقاب والخلع والزى :

أ- الألقاب :

أمدتنا المصادر التاريخية بالعديد من الألقاب التى أطلقت على أمير مجلس زمن المماليك، وفيما يلى عرض لهذه الألقاب كما وردت فى المصادر المملوكية المعاصرة، ثم تحليل هذه الألقاب :

كانت ألقاب أمراء المئين التى تدخل فيها فئة أمير مجلس يخاطبون بأجل الألقاب، ونظراً إلى انقسام أمراء المئين إلى طبقات فيما بينهم فإن ألقابهم كانت تتفاوت أيضاً تبعاً لذلك، وقد ذكر ابن فضل الله العمرى أن ألقاب أمراء المئين

بالأبواب السلطانية كانت الجناب الكريم ثم الجانب العالى ثم المجلس العالى[٣٦].

أما ابن ناظر الجيش فأشار إلى ألقاب أمراء المئين كل منهم "الجناب العالى"، وجرت العادة فى عهد السلطان الناصر محمد بن قلاوون، إذا قدم أحد من الأمراء ألا يكتب له أولاً إلا "المجلس العالى" فإذا انتقل فى الإقطاع كتب له "الجناب العالى" ولكن بعد ذلك استقر الحال على أن يكتب لكل منهم "الجناب العالى"[٣٧].

أما بالنسبة للقلقشندى، فقد أوضح بالنسبة للطبقة الأولى من أمراء المئين كان يكتب لهم المقر الشريف، وإذا ولى أحدهم نظر وقف أو نحو ذلك، كان يقال فيه المقر الشريف العالى، وبالنسبة للطبقة الثانية منهم كانت يكتب لهم المرتبة وهى المقر الكريم، وكان يقال فيه المقر الكريم العالى المولوى، وبالنسبة للطبقة الثالثة منهم كان يكتب لهم بالمقر العالى، وكان يقال فيه المقر العالى المولوى[٣٨].

وقد وردت بعض ألقاب أمير مجلس فى عدة كتابات أثرية، وعلى بعض التحف. وسوف يتناول الباحث هذه الألقاب بالدراسة والتحليل :

المقر :

أصله فى اللغة موضع الاستقرار وقد استعير فى المكاتبات للإشارة إلى صاحب المكان تعظيماً له عن التفوه باسمه،وقد صار من الألقاب الأصول فى عصر المماليك، وكان يأتى دون "المقام" وأقدم الإشارات المعروفة لهذا اللفظ كلقب جاءت عند ابن شيث، عندما قرر أن لقب المقر الأشرف يستعمل للسلطان. مثله فى ذلك مثل المقام العالى أى أنه كان فى عهده أرفع الألقاب الأصول، وقد ظل اللقب من اختصاص السلطان حتى أواخر القرن ٧هـ/١٢م، فقد أطلق لقب "المقر العالى" على المنصور قلاوون فى العهد إليه بالسلطنة عام ٦٧٨هـ/١٢٧٩م[٣٩]. على أن اللقب لم يحتفظ مدة طويلة بمكانته الرفيعة فسرعان ما انخفض مركزه تاركاً لقب المقام وحده للسلاطين. ومما له دلالته أن الأمثلة المعروفة لاستعمال لقب "المقر" لسلاطين المماليك لا تعدو مثلاً واحداً وهو استعماله فى العهد بالسلطنة إلى المنصور قلاوون الذى سبقت الإشارة إليه[٤٠].

ومن المرجح أن لقب "المقر" لم ينفرد به السلطان وحده فى بداية عصر

المماليك، بل استعمل كذلك لكبار الأمراء. وتتفق دساتير الألقاب مع المراجع التاريخية والنقوش الأثرية فى أن لقب المقر لم يستعمل لسلاطين المماليك فى القرن ٨هـ/١٤م وما بعده، بل أخذت رتبته فى النزول شيئاً فشيئاً، ومن الجدير بالذكر أن نزول قيمة اللقب على مر الزمن يتفق مع نظرية تدهور الألقاب[٤١].

وتشير كتب الدساتير التى ترجع إلى القرن ٨هـ/١٤م أن اللقب كان خاصاً بكبار الأمراء وأعيان الوزراء من العسكريين، وكان يستعمل لهم فى المكاتبات الرسمية، بالإضافة إلى أنه كان يستعمل للمدنيين من الوزراء والكتاب فى المكاتبات غير الرسمية[٤٢].

وهكذا يلاحظ أن اللقب استمر يستعمل كذلك لأكابر الأمراء من العسكريين حتى أواخر عصر المماليك. كما يلاحظ أيضاً من الأمثلة التى وجدت فى المراجع التاريخية والمكاتبات تتفق مع الدساتير والنقوش فى إظهار فكرة تدهور لقب "المقر" على مدى عصر المماليك، فقد استعمل فى أوائل العصر المملوكى للسلطان المنصور قلاوون فى عهده، كما أشرنا من قبل ثم تدهورت قيمة اللقب حتى استعمله القلقشندى للقاضى محمد الجهنى صاحب دواوين الإنشاء[٤٣].

وصلتنا مشكاة بمتحف اللوفر فى باريس عليه كتابة أثرية تحمل هذا اللقب نصها: "برسم تربة المرحوم المقر الأشرف العالى السيفي تتكز بغا أمير مجلس الملكى الناصرى" أى أمير مجلس الملك الناصر حسن[٤٤].

الكريم :

هو الخالص من اللؤم، وهو فعيل إذا صار الكرم له سجية، وكان يطلق كلقب فخرى على العسكريين والمدنيين على السواء. وهو أحد التوابع المباشرة للألقاب الأصول فى عصر المماليك، فكان يأتى بعد "المقر" و "الجناب"، وقد جرى مصطلح كتاب ذلك العصر على أن يكون أقل رتبة من "الشريف"[٤٥].

ورد هذا اللقب فى كتابة أثرية بضريح الأمير سودون بالقاهرة، وهذا نصها: "أمر بإنشاء هذا المكان المبارك .. المقر الأشرف الكريم العالى المولوى الأميرى الكبيرى.. السيفي سودون أمير مجلس الديار المصرية الملكى الأشرفى" أى أمير

مجلس السلطان الملك الأشرف قانصوه الغورى[٤٦].

العالى :

من الألقاب الفروع فى عصر المماليك، وكان من الجائز أن يصف بالألقاب الأصول جميعها، وكانت رتبته أعلى من "السامى" الذى يشترك معه فى وصف "المجلس" وكان "العالى" أيضاً من الألقاب التى تجرى مجرى "التشريف" فكانت توصف به بعض أشياء على سبيل التشريف، وفى عصر المماليك البحرية، اطلق على متعلقات النائب الكافل، أو النواب بالممالك الشامية، فى حين كان "الشريف" لقباً على متعلقات السلطان، ولكنه فى عصر المماليك البرجية استقر الحال على استعمال "الشريف" و "العالى" لكل من السلطان ونوابه. وهنا نلاحظ أن قيمة اللقب آخذه فى الانحطاط على مر الزمن[٤٧].

وقد جاء هذا اللقب على كتابة أثرية، فقد وصلنا طست من النحاس كان فى مجموعة هرارى[٤٨]، يحمل اسم السيف طرجى أمير مجلس الملكى الناصرى نصها "المقر العالى المولوى السيفى طرجى أمير مجلس الملكى الناصرى"[٤٩].

المولوى :

يطلق فى اللغة على السيد، وعلى المملوك، والعتيق، وعلى المنتسب إلى قبيلة، وقد استعمل كلقب بمعنى السيادة أحياناً، وبمعنى الانتماء أحياناً أخرى. واستعمل اللقب أيضاً مضافاً إلى ياء النسب، فكان يقال "المولوى" وفى عصر المماليك صار لقب المولوى – فضلاً عن استعماله للسلاطين – يرد ضمن ألقاب كبار رجال الدولة من الأمراء والمدنيين[٥٠].

جاء هذا اللقب على مشكاة مموهة بالمينا عليها كتابة أثرية نصها "مما عمل برسم المقر العالى المولوى الأمير السيفى طقزدمر أمير مجلس الملكى الناصرى"[٥١].

الكبيرى :

أما لقب الكبيرى: فهو خلاف الصغير، ويقصد به رفيع الرتبة، وقد عنى

كتاب المماليك بهذه الصفة، وبينوا ترتيبها فى سلسلة الألقاب، فوضعوها تلو لقب التمييز، أى اللقب الدال على الوظيفة فكان يقال: "المقر العالى الأميرى الكبيرى" أو "الجناب العالى القاضوى الكبيرى"(٥٢).

السيفي :

وعن لقب السيفي، فقد دخل اللفظ فى تكوين كثير من الألقاب المركبة التى تحمل جميعها معنى من معانى القوة(٥٣).

الملكي :

وبالنسبة للقب الملكى، فهو لقب يطلق على الرئيس الأعلى للسلطة الزمنية، وهو لقب معروف فى اللغات السامية، وكان يستعمل أحياناً فى عصر المماليك مضافاً إليه ياء النسبة "الملكى" مثله مثل غيره من الألقاب(٥٤).

وردت الألقاب السابقة فى كتاب أثرية بضريح الأمير سودون جاء فيها: "امر بإنشاء هذا المكان المبارك.. المولوى الكبير سودون أمير مجلس بالديار المصرية الملكى الأشرفى"(٥٥).

المالكي :

وفيما يتعلق بلقب المالكى فهو من الالقاب الملكية فى العصر الإسلامى، شاع استعماله فى العصر المملوكى، ومن أمثلة ذلك وروده ضمن ألقاب الملك الأشرف شعبان، والملك الأشرف قايتباى، كما ورد ضمن ألقاب قانصوه الغورى فى بعض النقوش(٥٦).

هذا وقد استعمل اللقب مضافاً إليه ياء النسب فى عصر المماليك(٥٧).

وقد جاء هذا اللقب فى كتابة أثرية على مشكاة بمتحف اللوفر فى باريس وهذا نصها: "برسم تربة المرحوم.. المالكى.. تنكز بغا أمير مجلس الملكى الناصرى"(٥٨).

أما لقب المخدومى، فهو من الألقاب الرفيعة إذ إنه يشير إلى أن الملقب فى درجة تؤهله لأن يكون مخدوماً لعلو رتبته وسمو محله. ومهما يكن من أمر فإن هذا اللقب غالب الظهور بخصوص الأمراء فى حالة الإضافة إلى ياء النسب "المخدومى"(٥٩).

الناصري :

وبالنسبة للناصرى، فقد أطلق على بعض المماليك ومن أشهرهم الناصر محمد بن قلاوون(٦٠).

وردت الألقاب السابقة على الكتابات الأثرية "المخدومى" ورد على مشكاة بمتحف اللوفر فى باريس كما ذكرنا سابقاً وجاء نصها: "برسم تربة المرحوم ... المخدومى السيفى تتكز بغا أمير مجلس"(٦١).

أما لقب الناصرى فجاء على مشكاة مموهة بالمينا عليها كتابة أثرية باسم الأمير طقزدمر أمير مجلس السلطان حسن وهذا نصها" مما عمل برسم المقر العالى المولوى... طقزدمر أمير مجلس الملكى الناصرى"(٦٢).

الأشرف :

أفعل التفضيل من "شريف" بمعنى عال. وهو من "الألقاب التوابع" المتفرعة على "الألقاب الأصول" وهو أعلاها فى مصطلح دساتير الألقاب فى زمن المماليك، ودونه "الشريف" ثم "الكريم" ثم "العالى" ثم "السامى" ويعلل دارسو المصطلح هذا الترتيب تعليلاً لغوياً مبيناً على المعنى فيقولون مثلاً أن "أشرف" أرفع من "شريف" لأن "أشرف" أفعل تفضيل، ولذا فهو يقتضى الترجيح كما هو مقرر فى علم النحو(٦٣).

وقد ورد هذا اللقب على مشكاة بمتحف اللوفر فى باريس عملت حسب ما جاء عليها "برسم تربة المرحوم المقر الأشرف العالى السيفى تتكز بغا أمير مجلس الملكى الناصرى"(٦٤) أى أمير مجلس السلطان الملك الناصر حسن.

ويلاحظ هنا أن أمير مجلس لقب بالعديد من الألقاب زمن سلاطين المماليك والتى أن دلت على شيء فإنما تدل على المكانة الاجتماعية والسياسية والعسكرية التى تمتع بها أبان العصر المملوكى.

أما عن زى أمير مجلس، فلم تمدنا المصادر المعاصرة بمعلومات مباشرة عنها، ولكن يمكن للباحث أن يستنتج بصورة غير مباشرة من هذه المصادر ما كان

يرتديه أمير مجلس[٦٥]، حيث كان من أمراء المئين مقدمي الألوف، ولذلك فإن ما تحدثت عنه المصادر المملوكية المعاصرة بشأن ملابس هؤلاء يمكن تطبيقها بالقياس على أمير مجلس.

ويلاحظ أن الزى الفاخر الذى يرتديه المماليك ورجال الدولة ومن بينهم أمير مجلس، كانت الدولة تقوم بتوزيعه على رجالها؛ إذ من تقليد الدولة فى العصور الوسطى أن تكسو موظفيها من العمامة إلى السراويل فى الصيف والشتاء[٦٦]. فكانت الدولة زمن المماليك تقدم لرجالها الكسوة أو عوضاً عنها دراهم تسمى: دراهم الكسوة لشرائها[٦٧].

بالإضافة إلى ذلك، كانت الدولة تقدم ما يسمى التشاريف – جمع تشريف– أو الخلع أو الخلع السلطانية[٦٨]، ولعله من الصعوبة بمكان، بل من المتعذر تماماً تحديد الأجزاء التى كانت تتألف منها الخلعة، فهذه الكلمة لا تعنى بالضرورة الملابس فقط ولكنها تعنى أشياء أخرى، قد تكون فرساً كامل القماش، وإن كان أميزها الملابس[٦٩]، التى تتألف من فوقانى من الأطلس الأحمر[٧٠] الرومى من آسيا الصغرى، وتحته أطلس أصفر رومى وعلى الفوقانى طراز زركش ذهب وتحته سنجاب وله سجف من ظاهره مع الغشاء قندس[٧١]، وكلوته زركش بذهب وكلاليب ذهب وشاش لانس[٧٢] رفيع موصول به، فى طرفيه حرير أبيض مرقوم بألقاب السلطان، مع نقوش باهرة من الحرير الملون، مع منطقة ذهب، ثم تختلف أحوال المنطقة بحسب مقاديرها، فأعلاها من عمل بين عمدها[٧٣] بواكير وسطاً ومرصعة بالبلخش والزمرد واللؤلو، ثم ما كان ببيكارية[٧٤] واحد من غير ترصيع[٧٥].

فكانت الخلع تقدم غالباً عند تولية السلطان، حيث تكون لسائر أرباب المملكة، بحيث قد تصل إلى ألف ومائتى خلعة[٧٦]. كما توزع فى الأعياد مثل عيد الفطر وفى مناسبات مختلفة وقت لعب السلطان الكرة أو الخروج للصيد، أو دوران المحمل أو غير ذلك[٧٧].

وقد أطلق السلطان الظاهر بيبرس من التشاريف ما عم به سائر من فى خدمته من ملك وأمير ووزير ومقدمى الحلقة ومقدمى المماليك والبيوت السلطانية، وجميع الكتاب والقضاة وسائر أرباب الوظائف وذلك فى عام ٦٧٢هـ/١٢٧٣م[٧٨].

كما فوض السلطان المنصور قلاوون ولاية العهد لابنه الملك الأشرف صلاح الدين خليل، فركب بشعار السلطنة[٧٩]، من قلعة الجبل إلى باب النصر وعبر القاهرة وخرج من باب زويلة إلى القلعة وسائر الأمراء وغيرهم فى خدمته، وخلع على سائر أهل الدولة عام ٦٨٧هـ/١٢٨٨م[٨٠].

ومن أمراء المجلس الذين خلع عليهم السلطان نذكر الأمير طغاى تمر النظامى الذى خلع عليه السلطان المنصور صلاح الدين محمد بن المظفر حاجى واستقر أمير مجلس عوضاً عن اشقتمر وذلك عام ٧٦٣هـ/١٣٦١م[٨١].

وخلع السلطان الأشرف شعبان بن حسين أيضاً على الأمير أرغون شاه الأشرفي أمير مجلس عوضاً عن تلكتمر وذلك عام ٧٧١هـ/١٣٦٩م[٨٢].

ومن أمراء المجلس الذين خلع عليهم السلطان الظاهر برقوق الأمير الطنبغا الجوبانى، الذى استقر أمير مجلس عام ٧٨٤هـ/١٣٨٢م، كما خلع السلطان أيضاً على سائر أرباب الدولة، وكان يوماً مشهوداً كثرت فيه التهانى والأفراح[٨٣].

كذلك خلع السلطان الأشرف شعبان بن حسين على الأمير قطلوبغا البدرى واستقر أمير مجلس[٨٤].

وخلع السلطان المنصور على بن الأشرف شعبان على الأمير قراد مرداش الأحمدى واستقر أمير مجلس عوضاً عن الأمير بركة عام ٧٨٠هـ/ ١٣٧٨م[٨٥].

وفى عهد السلطان الظاهر برقوق خلع على الأمير أحمد بن الأمير يلبغا الخاصكى واستقر أمير مجلس عوضاً عن الأمير الطنبغا الجوبانى وذلك عام ٧٨٨هـ/١٣٨٦م[٨٦].

أما فى عام ٧٩٢هـ/١٣٨٩م فقد جلس السلطان الصالح المنصور أمير حاج بالإيوان المعروف بدار العدل من القلعة فى الموكب السلطانى، وحضر أهل الدولة للخدمة كما جرت العادة، فخلع السلطان على الأمير كمشبغا الأشرفى الخاصكى، واستقر أمير مجلس وكان يوماً عظيماً[٨٧]. وفى نفس العام خلع السلطان على الأمير أرغون شاه البيدمرى الظاهرى واستقر أمير مجلس[٨٨]. ومن الأمراء الذين خلع عليهم السلطان الظاهر برقوق الأمير اقبغا الطولوتمرى المعروف باللكاش

واستقر أمير مجلس عوضاً عن بيبرس عام ٨٠٠هـ/١٣٩٧م[٨٩].

وخلع السلطان الظاهر برقوق أيضاً على الأمير تمراز واستقر أمير مجلس عام ٨٠٢هـ/١٣٩٩م[٩٠]. وعلى الأمير سودون الطيار واستقر أمير مجلس عوضاً عن سودون الماردينى وذلك عام ٨٠٧هـ/١٤٠٤م[٩١].

وتشير المصادر أيضاً إلى أن السلطان الناصر فرج خلع على الأمير يلبغا الناصرى واستقر أمير مجلس عوضاً عن سودون الطيار عام ٨٠٩هـ/١٤٠٦م[٩٢].

ونقرأ فى المصادر المملوكية المعاصرة أن السلطان الناصر فرج خلع أيضاً على جانم أمير مجلس بامرة مائة بتقدمه ألفاً عام ٨١٣هـ/١٤١٠م[٩٣].

وتروى المصادر أيضاً فى أحداث عام ٨١٦هـ/١٤١٣م خلع السلطان المؤيد شيخ على الأمير سودون الأشقر واستقر أمير مجلس[٩٤]. وفى نفس العام عزل الأمير سودون الأشقر عن وظيفة أمير مجلس وخلع على الأمير الصصلانى باستقراره فى الوظيفة[٩٥]. ونقرأ فى المصادر أيضاً أن السلطان الأشرف برسباى خلع على الأمير جرباش من عبد الكريم بإمرة مجلس عوضاً عن اينال الجكمى عام ٨٢٩هـ/١٤٢٥م[٩٦].

ومن الذين خلع عليهم السلطان الأشرف برسباى واستقروا فى إمارة المجلس الأمير جرباش الكريمى المعروف بقاشق عام ٨٣١هـ/١٤٢٧م[٩٧].

وتشير المصادر إلى أن السلطان الظاهر خشقدم خلع على الأمير الشهابى أحمد بن العينى واستقر فى إمرة المجلس عام ٨٧٢هـ/١٤٦٧م[٩٨].

ونقرأ فى المصادر أيضاً أن السلطان الأشرف قايتباى خلع على تانى بك الجمالى الظاهرى، واستقر أمير مجلس عوضاً عن برسباى قرا بحكم وفاته عام ٨٩٤هـ/١٤٨٨م[٩٩].

وتشير المصادر المملوكية أيضاً إلى الأمير أزبك اليوسفى الذى خلع عليه السلطان الأشرف قايتباى وقرره فى إمرة المجلس عوضاً عن تانى بك الجمالى عام

٩٠١هـ/١٤٩٥م[١٠٠].

وتروى المصادر فى عام ٩٠٢هـ/١٤٩٦م خلع السلطان الناصر محمد بن قايتباى على الأمير تانى بك قرا، واستقر فى إمرة مجلس عوضاً عن الأمير أزبك اليوسفى[١٠١].

وآخر الأمراء الذين خلع عليهم السلطان واستقروا بإمرة المجلس المقر السيفى بخشباى من عبد الكريم الذى استقر أمير مجلس عوضاً عن اركماس بحكم انتقاله إلى إمرية السلاح عام ٩٢٢هـ/١٥١٦م[١٠٢].

ويلاحظ أنه كان لأمراء المئين الذين يشكل أمراء المجلس جزءاً منهم حظ موفور من الإنعامات التى كان يمنحها السلطان، فقد كانت تتفاوت بحسب مزية المنعم عليه عند السلطان وقربة منه[١٠٣].

ونتيجة لذلك كان لخاصة أمراء المئين ومنهم أمراء المجلس بطبيعة الحال، أنواع من الإنعامات كالعقارات الضخمة التى ربما أنفق على بعضها فوق مائة ألف دينار، وكساوى القماش المنوع، وكان السلطان إذا خرج إلى الصيد أنعم على أكابر أمراء المئين سنا وقدراً كل واحد منهم بألف مثقال من الذهب، هذا وقد كان أمراء المئين يحظون بأكثر إنعامات السلطان من الخيول، ذلك أنه قد جرت عادة السلطان أن ينعم على أمرائه بالخيول مرتين كل سنة، أما المرة الأولى فعند خروجه إلى مرابط خيوله على القرط فى أواخر ربيعها حين كان ينعم على الأخصاء من أمرائه بما يختاره من الخيول على قدر مراتبهم، وكانت خيول أمراء المئين منهم مسرجة ملجمة بكنابيش من زركش، والمرة الثانية فكانت عند لعب الكرة بالميدان الكبير، وكانت خيول أمراء المئين فى هذه المناسبة مثلها مثل خيول الطبلخانات مسرجة ملجمة بفضة يسيرة بلا كنابيش، وكانت لخاصة المقربين من أمراء المئين والطبلخانات زيادات فى ذلك بحيث كان يصل بعضها إلى مائة فرس فى كل سنة[١٠٤].

وكان أمراء المئين يحظون بأقرب الأماكن إلى السلطان عند جلوسه فى بعض المناسبات مثل جلوسه على السماط بالإيوان الكبير[١٠٥].

ولدينا بعض الأمثلة على الإنعامات التى منحها سلاطين المماليك لأمراء

المجلس، ففى عام ٧٥٩هـ/١٣٥٧م أنعم السلطان الناصر حسن على الأمير يلبغا الخاصكى بتقدمه ألفا وقرره أمير مجلس عوضاً عن تنكز بغا[١٠٦].

ثم أنعم السلطان الظاهر برقوق على الأمير إبراهيم ابن قطلو أقتمر بإمرة مائة واستقر أمير مجلس عام ٧٩١هـ/١٣٨٨م[١٠٧].

وفى عهد السلطان الظاهر جقمق، أنعم على جرباش من عبد الكريم بإمرة مائة وتقدمه الفا، وخلع عليه بإمرة مجلس، وتعتبر هذه المرة الثالثة التى يتولى فيها إمرة المجلس عوضاً عن يشبك السودونى بحكم انتقاله إلى إمرة سلاح وذلك عام ٨٤٢هـ/١٤٣٨م. واستمر على ذلك مدة طويلة[١٠٨].

ولدينا وصف تفصيلى لزى أمراء المئين[١٠٩]،الذى كان يختار منهم أمراء المجلس؛ تتميز بالأناقة الباهرة حتى قال المقريزى عنهم: "إنهم تأنقوا وتفاخروا فيه"[١١٠]. فكانوا يلبسون فوق ثيابهم ثوبين متميزين: القباء[١١١] "الفوقانى" أقصر من "التحتانى" ويكون طوله وأكمامه أقصر بلا تفاوت كبير عرف فيما بعد بالسلارى[١١٢] نسبة إلى الأمير سلار نائب السلطنة الذى أوجده، وكان قبل ذلك عبارة عن بغلطاق[١١٣]، يزدان باللؤلؤ والجواهر، والقباء التحتانى من قماش أملس أطلس أيضاً، لونه أصفر محلى بشعر سنجاب ومبطن داخله وأطراد بسجف[١١٤] بفرو قندس.

وفى فصل الشتاء وبخاصة فى الأيام الممطرة، كان الأمراء يرتدون عباءات مصنوعة من خامة خشنة لها وبر يطلق عليه اسم "جوقة" ولكن فى ايام المماليك الجراكسة تغيرت الأمور تغيراً عظيماً واصبح يرتديها عامة الناس[١١٥].

وفى الشتاء أيضاً كانت تصنع الملابس من الصوف الملون أو من الحرير غالى الثمن، وكانت تبطن بالفراء، وجرت العادة أن يستعمل الأمراء فرو السمور[١١٦] والوشق[١١٧] والقماقم[١١٨] والفنك أى السنار والسنجاب والرمادى والقندس[١١٩].

وفى فصل الصيف كانت جميع الملابس "الفوقانية" بيضاء وتصنع من قماش رخو يطلق عليه اسم "نصافى" أو ما يماثله من أقمشة أخرى[١٢٠].

أما فما يتعلق بمناطق الأمراء أى أحزمتهم التى عرفت أيضاً باسم الحياصة[١٢١]

فكانت تصنع من معدن ثمين أفخمها ما كان من الفضة المطلية بالذهب وصنعت أحياناً من الذهب الخالص المرصع بحجر اليشم وكان من المألوف أن ترصع بالأحجار الكريمة[١٢٢] ومن ثم كان للمناطق أو الحوائص قيمة عظيمة الشأن[١٢٣].

وبالنسبة لأغطية الرأس، فنلاحظ أن الشربوش كانت له المكانة الأولى، إذ يعتبر بصفة خاصة الطابع المميز لطبقة الأمير، وقد وصف المقريزى الشربوش بأنه "مثل شيء يشبه التاج، ويبدو كما لو كان مثلث الشكل يوضع على الرأس بغير عمامة (أى لا يلف حوله منديل)، وتشير المصادر التاريخية إلى أن لبس الشربوش قد وجد فى عصر الأيوبيين أو المماليك البحرية، على حين يؤكد المقريزى أن لبس الشربوش قد أبطل فى عصر المماليك الجراكسة[١٢٤].

وإلى جانب الشربوش كانت هناك الكلوتة وهى أخف من الشربوش العادى ولكنها لا تقل عنه مكانه من الناحية الرسمية، وأضحت الكلوته رمز الأمراء المئين[١٢٥].

وقد وجد نوع آخر من لباس الرأس وهو "الطاقية" وجمعها طواق "طواقى" وكانت تشبه "الكوفية" التى كان يلبسها الصبيان والبنات ثم لبسها الرجال والنساء، وفى زمن سلاطين المماليك الجراكسة لبسها الأمراء من جميع الطبقات، وكانت تصنع عامة من ألوان مختلفة، وكان ارتفاعها يبلغ سدس ذراع تقريباً، وقمتها مدورة ومسطحة، وفى عهد السلطان فرج بن برقوق عرف نوع من الطواقى التى أطلقت عليها المصادر التاريخية اسم الطواقى الجراكسة، وحدث تغير بسيط فى الجزء العلوى فيها فصنع غالباً على هيئة قبة صغيرة، كثر فيها الحشو بمادة الورق وزينت بفراء القندس بعرض ثمن ذراع تقريباً[١٢٦].

أما عن لباس القدم فقد أشتمل غالباً على حذاء برقبة طويلة يطلق عليه اسم خف[١٢٧]، وكان المألوف صنع خف الشتاء من جلد أصفر اللون يطلق عليه اسم "أديم"[١٢٨] وكانت الأخفاف ذات الرقاب تلبس أيضاً فى فصل الصيف، وكانت تزود أحياناً بأربطة؛ وكان يرتبط بالخف مهاميز مكفتة بالفضة أو الذهب، غير أن هذا كان سارياً فقط فى عصر المماليك البحرية، أما فى أواخر عصر المماليك الجراكسة فقد غدا من المستحيل التمادى فى مثل هذا البذخ[١٢٩]، وكان من المعتاد

ارتداء حذاء فوق الخف يطلق عليه اسم "سقمان"[١٣٠].

إقطاعات رواتب أمراء المجلس :

انتقل النظام الاقطاعى كاملاً عن السلاجقة إلى الدولة الأتابكية، فالدولة الأيوبية ثم إلى دولة المماليك، ويعتبر عصر المماليك العصر الذى اكتملت فيه النظم الاقطاعية آنذاك، فقد نشأ المماليك فى ظل هذا النظام زمن الأيوبيين وأقاموا دولتهم على أنقاض سادتهم من الأيوبيين، واعتبرت الأرض ملكاً للسلطان وجنوده، وكانت القاعدة العامة فى التوزيع الاقطاعى، وحدة القيراط إذ كان خراج مصر يقسم إلى أربعة وعشرين قيراطاً توزع أجزاؤها على القرى توزيعاً متناسباً مع طاقتها، وفى زمن المماليك اختص السلطان بأربعة قراريط للكلف والرواتب وغيرها على حين أن عشرة قراريط للأمراء والاطلاقات أى المنح والزيادات، أما العشر الباقية فهى للتوزيع بين الأجناد[١٣١].

وكان الإقطاع بالنسبة لأمراء المجلس دليلاً واضحاً على قدر منازلهم وقوة نفوذهم، وقد كانت الإقطاعات عبارة عن بلاد وأراض يستغلها مقطعها ويتصرف فيها كيفما يشاء. على أن الإقطاعات لم تقتصر على مختلف أنواع الأراضى بل تعدتها إلى جميع موارد الدولة من خراج الأراضى والجزية وزكاة المواشى والمعادن والعشر وغير ذلك من المكوس على اختلاف أصنافها، وربما كان فيها نقد يتناوله من جهاتها ويختلف باختلاف أربابها[١٣٢].

وكان السلطان إذ أقطع أميراً إقطاعاً كتب له بذلك كتاباً يسمى المنشور[١٣٣]، وكان توزيع الإقطاع يتم فى موكب حافل يعقد هذا الحفل بالقلعة، ويعرف بيوم العرض أو مجلس العرض[١٣٤].

ولم تكن هذه الإقطاعات وراثية أو حتى لها صفة الدوام. وكان إذا مات الأمير أو عزل مثلاً قبل استكمال سنة خدمته حوسب فى مستحق إقطاعه على مقدار مدته، وكان السلطان هو صاحب الحق فى تعيين آخر بدلاً منه[١٣٥].

ويفهم من المصادر التاريخية المعاصرة أن السلطان أحياناً كان ينعم بإقطاع أمير مجلس على أمير مجلس آخر ويسمى هذا إقطاع النقل، ومن ذلك ما حدث عام

٧٦٠هـ/١٣٥٨م حين توفى الأمير تنكز بغا الماردينى وأنعم السلطان الناصر حسن بإقطاعه على الأمير يلبغا العمرى، وصار من جملة مقدمى الألوف، ثم أنعم عليه السلطان بإمرة مجلس، وصارت له سمعة وكلمة نافذة(١٣٦).

وكثيراً ما كان السلطان ينعم على الأمراء بالإقطاعات ومن ذلك ما حدث عام ٨٠١هـ/ ١٣٩٨م فقد أنعم السلطان الظاهر برقوق على عدد من الأمراء بالإقطاعات، فأخذ الأمير سودون الماردينى إقطاع الأمير اللكاش، والأمير سيف الدين أرغون شاه الأقبغاوى واستقر أمير مجلس(١٣٧).

وأنعم السلطان الظاهر برقوق أيضاً على الأمير سيف الدين تمراز الناصرى أمير مجلس بإقطاع عام ٨٠٢هـ/١٣٩٩م(١٣٨).

وكثيراً ما كان يأخذ أمير مجلس إقطاع بعض الأمراء، ومن ذلك ما حدث عام ٨١٠هـ/١٤٠٨م فقد أنعم السلطان فرج بن برقوق على الأمير سودون بن عبد الله المعروف بالطيار بإقطاع جكم من عوض بحكم انتقال جكم إلى إقطاع يشبك، ثم استقر فى وظيفة أمير مجلس مدة طويلة عوضاً عن سودون الماردينى(١٣٩).

ومن أمراء المجلس الذين خلع عليهم السلطان جقمق الأمير تنم بن عبد الله من عبد الرازق وأنعم عليه بفرس بقماش ذهب، وأصبح أمير مجلس، كما منحه السلطان إقطاع الأمير قانى باى الحمزاوى، وهى إمرة مائة وتقدمه ألفاً واستمر على ذلك، إلى أن قام السلطان بتغير إقطاعه بإقطاع الأمير قراقجا الحسنى بعد موته وذلك فى عام ٨٥٢هـ/١٤٤٨م، ثم أنعم بإقطاع تنم وتقدمته على الأمير جرباش المحمدى عام ٨٥٣هـ/١٤٤٩م وتولى إمرة محلس(١٤٠).

وقد لعبت صلة القرابة بالسلطان دورها فى تولى بعض الأمراء وظيفة أمير مجلس بدون إقطاع، ومن ذلك ما حدث عام ٨٨٦هـ/١٤٨١م فقد خلع السلطان الأشرف قايتباى على قريبه أزدمر وقرره فى أمرة مجلس بغير إقطاع، ورتب له كل شهر ألف دينار(١٤١).

وفى نهاية الحديث عن إقطاع أمير مجلس لا يفوتنا أن نتحدث عن الراتب الذى كان يتمتع به أمير مجلس، وقد عرض بعض المؤرخين المحدثين للدخل الذى

تمتع به المملوك منذ شرائه وحتى ارتقائه المناصب العليا بالدولة، وترقيته إلى الرتب العليا "أعنى أمير مجلس" وما فى مستواها نقلاً عن القلقشندى، والمقريزى، فمثلاً كان مرتب كل منهم كما يلى :

	الحد الأدنى	الحد الأقصى	
مقدمو الحلقة	٢٥٠	١,٥٠٠	دينار
أمير عشرة	٧,٠٠٠	٩,٠٠٠	دينار
أميرة أربعين	٢٣,٠٠٠	٣٠,٠٠٠	دينار
أمير مائة مقدم ألف	٨٠,٠٠٠	٢٠٠,٠٠٠	دينار

كل هذا بخلاف ما كان لجميع الأمراء بحضرة السلطان من رواتب جارية فى كل يوم من اللحم والتوابل والخبز والعليق والزيت والكسوة والشمع لكل منهم على قدر منازلهم[١٤٢].

وفيما يتعلق بالنفقة التى أرسلها السلطان الأشرف قايتباى للأمراء فى عام ٨٩٣هـ/١٣٩٠م فقد وصفها ابن إياس بقوله: "بعث السلطان نفقات الأمراء المقدمين والعشرات فبلغت النفقة على الأمراء خاصة دون الجند مائة ألف دينار وثلاثة آلاف دينار، وكان الأمراء المعينون للتجريدة أحد عشر أميراً مقدم ألف ومنهم برسباى قرا أمير مجلس، وكان أمراء الطبلخانات والعشرات نحوا من خمسين أميراً؛ ثم أنفق على الجند، فأعطى لكل مملوك مائة دينار وجامكية أربعة شهور ثمانية آلاف درهم وثمن جمل سبعة أشرفية، فكانت جملة النفقة على الأمراء والجند نحوا من ألف ألف دينار عُد ذلك من النوادر، ولم يُسمع بمثل ذلك فيما تقدم من الدول الماضية أن أحداً من السلاطين فعل مثل ذلك"[١٤٣].

وفيما يتعلق بالنفقة التى منحها السلطان للأمراء ومنهم أمراء المجلس عند خروجهم للتجريدات العسكرية، فيبدو أنها تقلصت عما مضى، فنقرأ فى المصادر أنه فى عام ٩٢٢هـ/١٥١٦م ما نصه: "أرسل السلطان نفقة الأمراء المقدمين، فأرسل إلى الأمير أركماس أمير مجلس أربعة آلاف دينار، ويتعجب ابن إياس من ذلك بقوله: "وأين هذه النفقة من النفقة التى كان يرسلها الأشرف قايتباى للأمراء المقدمين عند خروجهم على تجاريد ابن عثمان، فكان يرسل للأتابكى أزبك عشرين

ألف دينار، وأمير مجلس مثل ذلك وبقية الأمراء أرباب الوظائف لكل واحد منهم خمسة عشر ألف دينار، وبقية الأمراء المقدمين لكل واحد منهم عشرة آلاف دينار حتى عُد ذلك من النوادر الغريبة ولم يفعل الأشرف قايتباى ذلك إلا فى آخر تجاريد ابن عثمان عام ٨٩٥هـ/١٤٨٩م، فبلغت نفقة الأمراء قاطبة دون الجند مائة ألف دينار وكسور(١٤٤).

وأحياناً كان السلطان يفرق على الأمراء التقادم الآتى من مشايخ العربان مثلما حدث فى عام ٩١٨هـ/١٥١٢م فقد فرق السلطان الغورى على الأمراء التقادم التى حصل عليها فأعطى الأتابكى سودون العجمى ثلاثمائة دينار وفرسين وخمسين رأس غنم وخمس بقرات، وأعطى الأمير أركماس أمير مجلس مائتى دينار وفرس وأربعين رأس غنم وأربع بقرات، ثم خلع على الأمراء المقدمين من أرباب الوظائف كاملة مخملة أحمر بسمور، وألبس بقية الأمراء المقدمين كوامل صوف بسمور قبل صعوده إلى القلعة(١٤٥).

اختصاصات أمير مجلس :

أمير مجلس والمراسم السلطانية :

كان من مهام أمير مجلس استقبال السفراء والوفود الرسمية القادمة إلى مصر من النيابات والممالك الخارجية، وقد وصف لنا القلقشندى وصفاً شاملاً عن طريقة استقبال السفراء الذين يفدون إلى مصر فى مهمات رسمية من قبل الملوك، وعن كيفية إنزالهم فى دار الضيافة ومقامهم فيها، وكيف كانوا يمثلون بين يدى السلطان لعرض ما معهم من الكتب عليه بقوله: "ولقد جرت العادة أنه إذا وصل رسول من ملك من الملوك إلى أطراف مملكته، كاتب نائب تلك الجهة السلطان وعرفه بوفوده وأستأذنه فى حضور الأشخاص إليه، فتبرز المراسيم السلطانية بحضوره، فإذا وقع الشعور بحضوره، فإن كان المرسل ذا مكانة عظيمة من الملوك خرج بعض أكابر الأمراء للقائه وأنزل بقصور السلطان"(١٤٦).

وكان الضيف لا يستطيع الجلوس إلا بعد أن يأذن له السلطان، عندئذ يجلسه الحاجب أو أمير المجلس فى المكان المعد له، كما كان عليه أن يجيب عن كل أسئلة السلطان(١٤٧).

بالإضافة إلى استقبال أمير مجلس للسفراء، كانت من مهامه أيضاً حضور مجلس السلطنة، فقد كان السلطان الناصر محمد يتولى تعيين كبار موظفى الدولة، مثل نائب السلطنة والوزير وكاتب السر والمحتسب ونظار الدواوين، كما كان له حق عزلهم وتأديبهم، كما كان يتولى النظر فى المظالم، وكان السلطان مطلق الحكم والتصرف، ولكنه إذا أراد البت فى مشروع أو إبرام صلح، عقد "مجلس السلطنة" وهو المجلس المعروف باسم "المشورة" برياسته وعضوية أتابك العساكر والخليفة والوزير وقضاة المذاهب الأربعة وأمراء المئين وعددهم أربعة وعشرون أميراً، وما كان السلطان يتكلم فى هذا المجلس بنفسه وإنما كان يتكلم بلسانه "المشير" والغرض من استعانة السلطان بالمشير الاحتفاظ بأبهة الملك لأن السلطان إذا أدلى برأى فى المجلس ثم نقضه الأعضاء، كان فى ذلك انتقاص من هيبته وإحراج لمركزه[١٤٨].

وجدير بالذكر أن أمراء المشورة لم يكتسبوا حقاً يخولهم حضور مجلس السلطنة، وإنما كان السلطان هو الذى يستدعيهم فكان عليهم واجب الحضور[١٤٩].

ويتولى أمير مجلس الأمور الخاصة بمجلس السلطنة، وكما ذكرنا من قبل يختار صاحب هذه الوظيفة من بين أمراء المئين[١٥٠]. ويشبه منصبه فى كثير من الوجوه منصب كبير الأمناء فى عصرنا هذا، إذا كان يهيمن على شئون البروتوكول، ويتمتع بحكم وظيفته بالجلوس فى حضرة السلطان[١٥١]. وقد ازداد قربة منه حتى أصبح يحرسه فى داخل قصره بل وفى حجرة نومه[١٥٢].

إلى جانب هذه الاختصاصات كانت توجد بعض الأعمال والأشغال الثانوية التى يتولى أمير مجلس القيام بها إلى أجل مسمى، فتطالعنا أغلب الكتابات المملوكية المعاصرة بأنه كان يختار أمير مجلس فى كثير من الأوقات من قبل السلطان وينتدب لنيابة الغيبة فى القاهرة، وذلك حينما يكون السلطان مضطراً إلى مغادرة الديار المصرية لأى سبب كان، فقد تم تعيين الأمير تمراز أمير مجلس لنيابة الغيبة، وأقام من الأمراء الأمير جكم من عوض فى عدة من الأمراء عام ٨٠٣هـ/١٤٠٠م[١٥٣]. وقد رشح الأمير آقبغا التمرازى أمير مجلس لنيابة الغيبة أثناء سفر السلطان الأشرف برسباى[١٥٤].

وتروى المصادر أن أمير مجلس كان يتولى أحياناً نيابة السلطنة بمصر ففى عام ٧٤٨هـ/١٣٤٧م خلع على الأمير بيبغا أرس أمير مجلس واستقر فى نيابة السلطنة[١٥٥]. وأشارت المصادر أيضاً إلى اشقتمر الماردينى أمير مجلس الذى خلع عليه واستقر فى نيابة طرابلس عام ٧٦٢هـ/١٣٦٠م[١٥٦].

ونقرأ فى المصادر أيضاً أنه فى عام ٧٩٢هـ/١٣٨٩م خلع السلطان برقوق على الأمير كمشبغا الأشرفي الخاصكى أمير مجلس واستقر فى نيابة دمشق بعد موت سودون طرنطاى[١٥٧].

وتروى المصادر التاريخية أن السلطان الأشرف قايتباى خلع على الأمير آقبغا التمرازى أمير مجلس واستقر فى نيابة الإسكندرية عام ٨٢٦هـ/١٤٢٢م[١٥٨].

وأشارت المصادر أيضاً أن السلطان الأشرف قايتباى خلع على الأمير جرباش الكريمى أمير مجلس واستقر فى نيابة طرابلس عام ٨٢٩هـ/١٤٢٥م[١٥٩].

بالإضافة إلى اختصاصات أمير مجلس السابقة فقد كان من مهامه أيضاً الخروج وراء المحمل والذهاب للحج مع السلطان، ومن ذلك ما حدث عام ٦٩٨هـ/١٢٩٨م حيث خرج السلطان المنصور لاجين للحج بمصاحبة بعض الأمراء، وكان من بينهم حسام الدين قرا لاجين أمير مجلس[١٦٠]. وفى عام ٧١٠هـ/١٣١٠م سافر السلطان الناصر محمد بن قلاوون لأداء فريضة الحج وكان معه الأمير سيف الدين طرجى أمير مجلس[١٦١]. وقد خرج الأمير قراد مرداش الأحمدى أمير مجلس وراء المحمل وتوجه لأداء فريضة الحج عام ٧٨٠هـ/١٣٧٨م[١٦٢].

أما فى عام ٧٨٤هـ/١٣٨٢م فقد عاد الأمير الطنبغا الجوبانى أمير مجلس من الحجاز بعد أداء فريضة الحج وعاد مع ركب الحج إلى مصر[١٦٣]. وبالنسبة لعام ٨٩٧هـ/١٤٩١م فقد خرج المحمل من القاهرة وكان أمير ركب المحمل الأمير تانى بك الجمالى أمير مجلس[١٦٤].

ويشير ابن اياس فى أحداث عام ٩٠٥هـ/١٤٩٩م حين عين السلطان الغورى الأمير قانصوه المحمدى المعروف بالبرجى أمير مجلس، كما أمره بالتوجه

كأمير حاج بركب المحمل، من القاهرة، ولما توجه إلى بركة الحاج استمر المحمل مقيماً بالبركة إلى الخامس والعشرين من شوال حتى عُد ذلك من النوادر، والسبب فى ذلك أن غلمان أمير الركب الأول هرب أكثرهم وتعطلت بالتالى أحوال المحمل(١٦٥).

ونقرأ فى المصادر المملوكية أيضاً عن دخول المحمل إلى القاهرة عام ٩٠٨هـ/١٥٠٢م، وكان أمير ركب المحمل اصطمر من ولى اليمن أمير مجلس(١٦٦).

امتدت أعمال أمير مجلس أيضاً إلى حفظ الثغور، ومن ذلك ما حدث عام ٨٢٠هـ/١٥١٤م، فقد خلع السلطان الأشرف برسباى على الأمير آقبغا التمرازى نائب الشام بأمرة مجلس، واستمر على ذلك إلى أن صدر مرسوم سلطانى بالتوجه إلى ثغر الإسكندرية لحفظ الثغر من هجمات الفرنج(١٦٧).

دور أمراء المجلس فى الحياة السياسية :

ويتساءل الباحث هل لعب أمراء المجلس دوراً فى الحياة السياسية إبان العصر المملوكى، للإجابة عن هذا التساؤل سوف نستعرض بعض الأحداث الهامة زمن سلاطين المماليك وبخاصة عصر المماليك الجراكسة لنرى موقف أمراء المجلس من هذه الأحداث، وهل شاركوا فيها سلباً أم إيجاباً بما يتناسب مع مكانتهم الاجتماعية والوظيفية، ومدى تأثرهم بها وتأثيرهم فى المجتمع المملوكى بعامة والشعب المصرى بخاصة.

فقد أشارت المصادر المملوكية المعاصرة إلى تلك الفتنة التى وقعت بين الأتابك برقوق وبين الأمير بركة الجوبانى، والتى حدثت فى عام ٧٨٢هـ/١٣٧٠م، حيث قام بركة بتحريض برقوق ضد الأمير أيتمش البجاسي بحجة أنه يعد العدة لحرب الأتابك برقوق، ولما تحقق برقوق وجد الأمر غير صحيح، ثم وقع الصلح بينهم جميعاً، مع التزام بركة بعدم التدخل فى أمور السلطنة، ولكن وللمرة الثانية علم برقوق بأن بركة يخامر عليه بل ويفكر فى قتله، واشتبك برقوق مع بركة وانتهى الأمر بينهما بتخلى مماليك بركة عنه، ثم قام برقوق بحبس الأمير قراد مرادش الأحمدى أمير مجلس وهو يومئذ من أصحاب بركة(١٦٨).

ونلاحظ هنا أن الأمير قراد مرادش أمير مجلس انضم إلى بركة فى هذه الفتنة ولم ينضم إلى برقوق، ربما لأن بركة كان محبباً للرعية وفيه كرم وحشمة، وكانت الناس تميل إليه أكثر من برقوق هذه واحدة، أما الثانية فيتبين لنا أن دور أمير مجلس لم يكن سلبياً بعيداً عن تلك الأحداث بل اشترك فيها وانضم إلى جانب بركة ضد برقوق وقام بالدفاع عنه حتى قبل أن يسجن.

وفى كثير من الأحيان كان أمير مجلس يقوم بتحريض الأتابك على الاستيلاء على دست السلطنة وإعلان نفسه سلطاناً على البلاد كما حدث فى عام ٧٨٣هـ/١٣٨٦م، فقد شجع الأمير الطنبغا الجوبانى أمير مجلس الأتابك برقوق وكان من أعيان خشداشيته وأصحابه بأن يعلن نفسه سلطاناً، غير أن الأتابك برقوق رفض هذه الفكرة وباءت محاولة أمير مجلس بالفشل(١٦٩).

ومع ذلك ظل الأمير الطنبغا الجوبانى أمير مجلس يحرض برقوق ويشجعه ويدعمه مع الأمراء، حتى أعلن برقوق سلطاناً على مصر بحضور الخليفة والقضاة وكبار الأمراء وذلك فى عام ٧٨٤هـ/١٣٨٢م(١٧٠).

وأحياناً أخرى كان أمير مجلس يخرج عن طاعة السلطان ويعلن العصيان عليه، ففى واقعة الأمير يلبغا الناصرى نائب حلب، والأمير منطاش نائب ملطية خرج أحمد بن يلبغا أمير مجلس عن طاعة السلطان برقوق، وانضم إلى يلبغا بل وصل به الأمر إلى تقديم يد الولاء والطاعة والإخلاص له، وكان من نتائج ذلك قيام السلطان برقوق بعزله من أمرة المجلس، وتعيين الأمر قرابغا البوبكرى أمر مجلس عوضاً عن أحمد بن يلبغا، وذلك فى عام ٧٩١هـ/١٣٨٨م(١٧١).

مازال الباحث يقوم برصد الأحداث السياسية أبان العصر المملوكى، ويتتبع من خلالها دور أمراء المجلس الذى لعبوه فى حياة السلاطين وبل والمجتمع المملوكى كله. ففى أثناء الفتنة التى حدثت بين يلبغا الناصرى ومنطاش، انضم كبار الأمراء إلى الناصرى عند دخوله إلى القاهرة ومن بينهم الأمير أحمد بن يلبغا أمير مجلس، ثم تبعه انضمام جماعة أخرى من الأمراء إلى الناصرى ومنهم الأمير سودون باق أمير مجلس ويبدى المؤرخ ابن تغرى بردى دهشته وتعجبه بقوله: "والعجب أن السلطان كان أنعم فى أمسه على الأمراء الذين توجهوا للناصرى لكل

أمير من أمراء الألوف عشرة آلاف دينار، ولكل أمير طبلخاناه خمسة آلاف دينـــار وحلفهم على طاعته ونصرته، وبعد ذلك انضموا إلى الناصرى، فلم يلتفت الناصرى لهم الالتفات الكلى، بل فعل معهم كما فعل مع غيرهم ممن توجه إليه مـــن أمـــراء مصر". ولما علم السلطان برقوق بنفاق الأمراء، علم أن دولته قد زالـــت، وأمـــر مماليكه والعامة بعدم التوجه إلى يلبغا الناصرى وانهزم برقوق وزالت الدولة كـــأن لم تكن(١٧٢). مما سبق يتبين لنا أن أمراء المجلس كان فى استطاعتهم ترجيح كفـــة على أخرى حتى ولو وصل الأمر إلى السلطان المملوكى نفسه.

ويفهم أيضاً من الروايات التاريخية أن بعض الناس كانت تشيع الأكاذيب من أجل التخلص من أمير مجلس كما حدث عام ٧٩٢هـــ/١٣٨٩م، فقد أشاع بعـــض الناس أن الأمير آقبغا الطولوتمرى المعروف باللكاش أمير مجلس والأميـــر يلبغـــا المجنون خامرا وخرجا عن طاعة السلطان، وبلغ اللكاش ذلك فقام بمقابلة السلطان وبرأ نفسه مما رمى به، وعرف السلطان أنها أكاذيب لا صحة لها، وسكن الأمـــر ونودى بالأمان والاطمئنان، بعد أن كادت تحدث فتنة فى جميـــع أرجـــاء القـــاهرة المملوكية(١٧٣).

وفيما يتعلق بالواقعة التى حدثت بين الأتابك أيتمش ويشبك الشـــعبانى ودور أمير مجلس فى هذه الواقعة، ففى عام ٨٠٢هـــ/١٣٩٩م ركبت جماعة كثيرة مـــن أمراء الألوف والطبلخاناه والعشرات والمماليك السلطانية، ومنهم الأمير أرغون شاه البيدمرى أمير مجلس إلى القصر السلطانى، فاستعد لهم يشـــبك الشـــعبانى وأمـــر مماليك الأطباق بلبس السلاح والاستعداد للقتال، واشتبك الفريقان ودارت الـــدائرة على أيتمش ومن معه من الأمراء عام ٨٠٢هـــ/١٣٩٩م(١٧٤).

وتروى المصادر التاريخية المعاصرة أن الأمير تنم الحسنى نائب الشام علم بهزيمة أيتمش وهو يومئذ من أصحابه المقربين، فخرج للقائه، وفى أثناء ذلك قـــدم على تنم كتاب السلطان الناصر فرج يأمره بالقبض على أيتمش وأصحابه، ولكن تنم حرض أيتمش على الخروج مع أصحابه لقتال السلطان والمصريين، أما فى القاهرة فقد أقسم الجميع على طاعة السلطان والسفر معه ضد الأمـــراء الخـــارجين علـــى الطاعة، ولكن علم السلطان أن الأمير تنم متجه إلى القـــاهرة فاســـتعد الســـلطان

والأمراء له وتجهزت العساكر المصرية وكان بينهم الأمير تمراز الناصرى أميــر مجلس، أما الأمير تنم فقد انضم إليه جماعة بعد أخرى من الأمراء والعساكر وكان بينهم الأمير أرغون شاه البيدمرى أمير مجلس، كما انضم إليـــه نائـــب طـــرابلس والأمير أحمد بن يلبغا أمير مجلس، ونائب حلب وحماه، وأعلنوا جميعـــاً الـــولاء والطاعة له، والتقى الفريقان ودارت الدائرة على تنم وأصحابه وتم القبض علـــيهم وكتبت البشائر إلى مصر والشام بالنصر وهزيمة الأميـــر أيـــتمش وتـــنم نائـــب الشام(١٧٥).

واتفق الأمراء المصريون على قتل جماعة من المقبوض عليهم، فـــذبح فـــى نفس الليلة الأمير الكبير أيتمش البجاسي، وأرغون شاه البيدمرى الظـــاهرى أميـــر مجلس، وأحمد بن يلبغا العمرى أمير مجلس، وآقبغا الطولوتمرى الظاهرى اللكاش أحد أمراء الألوف وأمير مجلس أيضا، وغيرهم من الأمراء ويلاحظ أن جميع من قتل من عظماء مماليك السلطان الظاهر برقوق(١٧٦).

وهناك الواقعة التى حدثت بين الأمير يشبك الشعبانى والأمير إينال باى بـــن قجماس، وأسبابها أن الأمير يشبك الدوادار أصبح مدبر الدولة وبيده جميع أمورها من الولاية والعزل، ولذلك قرار هو وعصبته عزل إينال باى من وظيفة الآخورية لأنها مرتبطة بالسلطان الناصر فرج، ولم يكن هذا هو السبب الوحيد فقـــد ربطـــت الأمير إينال باى رابطة المصاهرة مع السلطان، فقد كان إينال باى متزوج من ابنه السلطان برقوق وأخت السلطان الناصر فرج، فعظمم بذلك شـــأن إينـــال وخافـــه أصحاب يشبك وانقطعوا عن حضور الخدمة السلطانية، واستعد الفريقان للحـــرب، وصعد أعيان الأمراء إلى القلعة لمقابلة السلطان الناصر فرج وعلى رأسهم الأمير سودون الماردانى أمير مجلس ومقدمو الألوف والطبلخاناه والعشرات إلى جانـــب المماليك السلطانية، والتقى الفريقان ودارت الدائرة على الأمير يشبك ورحل إلـــى الشام مع الأمراء وذلك فى عام ٨٠٧هـ/١٤٠٤م(١٧٧).

وكادت تحدث فتنة كبيرة أثناء هروب السلطان الناصر فرج وتركه السلطنة، وقد تم تنصيب أخيه المنصور عبد العزيز، ففى عام ٨٠٨هـ/١٤٠٥م كثـــر قلـــق الأمير يشبك والأمراء على الناصر فرج خاصة مع مرض أخيه عبد العزيز، ولما

رأى القاضى سعد الدين بن غراب أمر يشبك الشعبانى فى إدبار عز عليه، لأن يشبك هو الذى أقامه فى وظيفته بعد وفاة السلطان الظاهر برقوق، ولذلك أخبره بمكان الناصر فرج، وأنه مقيم لديه، ولما علم بكل ذلك، أخذ يعد العدة من أجل عودة الملك الناصر فرج إلى منصب السلطنة والعمل على عزل أخيه، ولما علم الأتابك بيبرس وأصحابه بهذه الأحداث أصابهم الفزع والإضطراب لأن عودة الناصر فرج معناه القضاء عليهم، وبعد قليل خرج الناصر فرج من مخبئه فى موكب سلطانى عظيم، واستعد الأتابك بيبرس لقتاله ولكن هزم، وأرسل السلطان الناصر فرج الأمير سودون الطيار أمير مجلس وقبض عليه وأرسل إلى سجن الإسكندرية(١٧٨).

يتبين لنا اشتراك أمير مجلس فى الأحداث الجارية التى حدثت فى زمن المماليك، فقد استعان السلطان الناصر فرج بأمير مجلس فى وقت الأزمات والاضطرابات والفتن.

وفى بعض الأحيان كان أمير مجلس يخامر على السلطان بل ويتفق على التخلص منه وقتله، كما حدث فى عام ٨١٤هـ/١٤١١م فقد بلغ السلطان الناصر فرج أن طائفة من الأمراء المماليك اتفقوا على قتله، فأخذ يتتبع الأمر حتى وقف على خيوط المؤامرة عن طريق القبض على بعض المماليك وقام بمعاقبتهم، فاظهروا ورقة فيها خطوط جماعة كبيرة من أمراء المماليك، وكان مدبر المؤامرة الأمير جانم من حسن أمير مجلس، فأرسل السلطان جماعة من الأمراء من أجل القبض عليه، واشتبك الأمراء معه وقتله وأحضروا رأسه إلى السلطان وخمدت الفتنة(١٧٩).

وقمة الدور السياسى الذى لعبه أمراء المجلس فى الأحداث السياسية، وصول أمير مجلس إلى منصب السلطنة، ففى عام ٨٢٤هـ/١٤٢١م وقبل أن يتم دفن الملك المؤيد أبرم الأمير ططر أمير مجلس أمره واتفق مع الأمراء وقام بالقبض على الأمير "قجقار القردمى أمير سلاح" فارتجت القاهرة وخشى الناس من وقع فتنة وانقلاب، وتم تنصيب الملك المظفر أحمد بن المؤيد، وكان الأمير ططر يشغل وظيفة أمير مجلس ومنزلة جلوسه فى الميمنة تحت الأمير الكبير نائب الشام،

فأصبح الأمير ططر يجلس رأس الميمنة لغيبة الأمير الكبير، ومنزلة جلوس الأمير تنبك العلائى رأس الميسرة فوق أمير سلاح فى أيام المؤيد، فلما تسلطن الملك المظفر، أصبح المتحدث فى تدبير المملكة ابنه المظفر وتنبك ميق، وططر أمير مجلس، فلما دخل الأمراء الخدمة على العادة وقبل جلوس الأمراء أومأ الأمير ططر إلى الأمير تنبك بالجلوس على ميمنة السلطان مكان الأمير الكبير، ويجلس الأمير ططر على ميسرة السلطان فامتنع تنبك، فألح عليه ططر، فحلف تنبك وهدد بترك الإمرة، واتفقوا على الجلوس، تنبك فى الميسرة وططر فى الميمنة، وتحدث ناظر الجيش ولم يتكلم أحد، فسكت لعدم وجود من يجيبه، فعرض ططر على تنبك أن يتكلم بقوله: "أنت أغاتنا وأكبر منا سنا وقدرا، والأليق أن تكون أنت مدبر المملكة ونحن فى طاعتك نمتثل أوامرك وما ترسم به" فامتنع تنبك وأشار أن يكون ططر أمير مجلس هو مدبر المملكة والقائم بأمورها فامتنع ثم قبل، وانفضت الخدمة وخرج الأمراء مع السلطان إلى الدور السلطانية. وأعيد الملك المظفر إلى أمه بالحريم السلطانى، وخلع السلطان على الأمير ططر باستقراره نظام الملك وعلى تنبك باستقراره أمير مجلس عوضاً عن الأمير ططر(١٨٠).

وبالنسبة لغزوة قبرس ودور أمير مجلس فى أحداثها، ففى عام ٨٢٩هـ/١٤٢٥م خرجت جماعة كبيرة من أمراء الألوف والطبلخاناه والعشرات وجماعة من أعيان الخاصكية، وكان من بين مقدمى الألوف الأمير إينال الجكمى أمير مجلس مقدم العساكر المتجهة لقتال الفرنج والتقى الفريقان ودار قتال عنيف وانهزم الفرنج وتم أسر متملك قبرس مع كثرة عساكره وقلة عسكر المسلمين، وعاد الأمراء إلى مصر ومعهم الأسرى والغنائم ومن جملتها ملك قبرس الملك جينوس وهو راكب على بغل مقيد بالحديد وعن يمنيه إينال الجكمى أمير مجلس، ولما سمع الأشرف برسباى بالأحداث بكى من شدة الفرح ودقت البشائر بالنصر فى مدينة القاهرة المملوكية(١٨١).

بالإضافة إلى اختصاصات أمير مجلس السابقة كان من مهامه أيضاً الحكم بين الناس في غيبة السلطان، ففى عام ٨٣٦هـ/١٤٣٢م قرر السلطان برسباى الأمير آقبغا التمرازى أمير مجلس بالقاهرة للحكم بين الناس فى غيبة السلطان(١٨٢).

ويفهم من مؤرخى العصر المملوكى أن أعمال أمير مجلس امتدت أيضاً إلى مواراة الموتى، ففى عام ٨٠٦هـ/١٤٠٣م اشتد البرد وعظمت نكايته وانتشر الغلاء وقلت الأقوات، وانتشر الموت فى كل مكان، وكان يموت كل يوم من الجوع والبرد عدد كبير قام بمواراتهم الأمير سودون الماردينى أمير مجلس، وكان الماردينى يوارى كل يوم ما يزيد عن مائة(١٨٣).

يمكن تفسير هذا كله فى ضوء ارتباك أحوال الدولة بالشكل الذى جعل اختصاصات كل وظيفة غير محددة بشكل قاطع.

دور أمراء المجلس فى الحياة العسكرية :

امتدت أعمال أمير مجلس أيضاً إلى الخروج على رأس التجريدات العسكرية الحربية للجهاد، فنقرأ فى المصادر المعاصرة عن خروج تجريدة فى عام ٧٨٢هـ/١٣٨٠م حيث عين الأتابك(١٨٤) برقوق على رأس تجريدة عظيمة للخروج إلى العربان، وكان من بين أفرادها الأمر الطنبغا الجوبانى أمير مجلس(١٨٥).

وتشير المصادر أيضاً إلى تجريدة عام ٧٩١هـ/١٣٨٨م المتجهة إلى حلب بصحبة الأمراء المقدمين ومن بينهم أحمد بن يلبغا الخاصكى أمير مجلس، وبلغت نفقة أمراء الألوف مائة ألف درهم وخمسة آلاف درهم(١٨٦).

ونقرأ فى المصادر أيضاً عن تجريدة عام ٨٠١هـ/١٣٩٨م، فقد رسم السلطان الظاهر برقوق بتجهيز ستة من الأمراء المقدمين منهم الأمير أرغون شاه أمير مجلس، ورسم لكل منهم بثلاثين ألف درهم، ولكل من أمراء الطلبخاناه بعشرة آلاف درهم(١٨٧).

وهناك تجريدة خرجت عام ٨٠٣هـ/١٤٠٠م حيث أمر المرسوم السلطانى الأمير اسنبغا الحاجب بالقاهرة بالتوجه إلى الشام وحلب لمحاربة تيمور لنك، وكان من بين أفرادها الأمير تمراز أمير مجلس(١٨٨).

وتشير المصادر أيضاً إلى تجريدة عام ٨٠٥هـ/١٤٠٢م، حيث أصدر السلطان مرسومه بتعين تجريدة لمحاربة الفرنج، وكان بين أفرادها جماعة من الأمراء المقدمين منهم سودون الماردينى أمير مجلس، وأمراء الطبلخاناه والمماليك السلطانية واتجهوا جميعاً إلى دمياط والإسكندرية(١٨٩).

وبالنسبة لتجريدة عام ٨١٠هـ/١٤٠٧م المتجهة إلى البحيرة بسبب فساد العربان، فقد عين فيها السلطان الناصر فرج بن برقوق الأمير طوخ بانى بازق أمير مجلس على رأس التجريدة[١٩٠].

وتشير المصادر أيضاً إلى تجريدة عام ٨٤١هـ/١٤٣٧م المتجهة إلى حلب، حيث عين السلطان الأشرف برسباى ثمانية من الأمراء المقدمين، وكان آقبغا التمرازى أمير مجلس من ضمن أفراد التجريدة[١٩١].

وتشير المصادر المعاصرة أيضاً إلى تجريدة عام ٨٧٢هـ/١٤٦٧م، حيث رسم السلطان الظاهر خشقدم بتجهيز الأمراء ومنهم قرقماس الجلب أمير مجلس، كما تم تعيين عدد من أمراء الطبلخاناه والعشرات، بالإضافة إلى ألف مملوك من الجند، وأنفق السلطان على العسكر لكل مملوك مائة دينار، ثم أرسل نفقات الأمراء، فبعث للأتابكى أزبك خمسة آلاف دينار، وللأمير قرقماش الجلب أمير مجلس ثلاثة آلاف دينار، ولكل أمير مقدم ألف ألفى دينار، وحمل للأمراء الطبلخاناه لكل واحد خمسمائة دينار، وأمراء العشرات لكل واحد مائتى دينار، فبلغت جملة ما صرف على هذه التجريدة حوالى أربعمائة ألف دينار[١٩٢].

وتروى المصادر المملوكية أيضاً عن تجريدة خرجت إلى الرها فى عام ٨٣٤هـ/١٤٣٠م، واشترك فيها الأمير آقبغا التمرازى أمير مجلس[١٩٣].

ونقرأ فى المصادر عن تجريدة عام ٨٧٠هـ/١٤٦٥م المتجهة إلى البلاد الحلبية، وكان من ضمن أفرادها الأمير تمربغا أمير مجلس، وجماعة من أمراء الطلبخاناه والعشرات وعدد من المماليك السلطانية[١٩٤].

وتخبرنا المصادر فى أحداث عام ٨٧٢هـ/١٤٦٧م أن السلطان خشقدم أمر بخروج تجريدة إلى شاه سوار بن دلغادر، وكان على رأسها عدد من الأمراء المقدمين ثم الأمير تمربغا الظاهر أمير مجلس[١٩٥].

ونتيجة لاضطراب الأمور فى بلاد الشام وتدهورها أمر السلطان الغورى بتعيين تجريدة لتهدئة الأمور هناك، وصحب هذه التجريدة الأمير قانصوه البرجى أمير مجلس عام ٩٠٣هـ/١٤٩٧م.

وفى نفس العام أيضاً رسم السلطان بخروج تجريدة لتأديب الأمير آقبـردى الدوادار الذى هرب من مصر وحاصر الشام كما نهب الضياع التى حول دمشـق وحلب، وكان على رأس التجريدة الأمير قانصوه البرجى أمير مجلس(١٩٦).

وتشير المصادر المملوكية أيضاً إلى خروج تجريدة بسبب ثورة العربان على كاشف البحيرة، فرسم السلطان بخروج قانصوه البرجى أمير مجلس وذلـك عـام ٩٠٤هـ/١٤٩٨م(١٩٧).

تطالعنا أغلب الكتابات المملوكية المعاصرة بما لا يدع مجالاً للشك فـى أن أمير مجلس، قد اتسعت مجالات اختصاصاته فنجده يشرف أحياناً على شئون الرى وإصلاح الجسور وشق الترع وحفر القنوات، فيذكر ابن إياس فى حـوادث عـام ٨٦٦هـ/١٤م أو فى النيل، فتوجه الأمير قانم التاجر أمير مجلس وكسـر السـد، وكان يوماً مشهوداً(١٩٨).

وتشير المصادر المعاصرة أيضاً فى أحداث عام ٩١٧هـ/ ١٥١١م، توقـف النيل عن الزيادة ثم أوفى وزاد عن الوفاء، فنزل السلطان الغورى ومعه الأتابـك سودون العجمى والأمير أركماس أمير مجلس وغير ذلك من الأمـراء المقـدمين والعشرات، وقام بتخليق المقياس وفتح الخليج على العادة(١٩٩).

امتدت أعمال أمراء المجلس أيضاً إلى المساهمة فى إخماد الحرائق التى قـد تتعرض لها البلاد، ففى عام ٧٧٩هـ/١٤٧٤م وفى عهد السلطان المنصور على بن الأشرف شعبان وقع حريق بظاهر باب زويلة عند دار التفاح(٢٠٠)، فاحترقت هـذه الدار والربع(٢٠١)، ولولا سور المدينة لاحترق نصفها، وعندما تزايد أمر النار نزل الأمراء بمماليكهم لإطفاء النار ومعهم الأمير بركة أمير مجلس، ووصلوا إلى مكان الحريق، وهناك نزلوا عن خيولهم وصاروا يهجمون على السقائين في بيوتهم حتى يأتوا بماء القرب واستمرت النيران مشتعلة لمدة ثلاثة أيام حتى تم إخمادها(٢٠٢).

نستنتج مما سبق الأهمية التى وصلت إليها هذه الوظيفـة زمـن المماليـك، والدور الذى لعبه أمراء المجلس فى الحياة العسكرية من خلال اشتراكهم فى معظم التجريدات العسكرية.

مكانة أمير مجلس فى المجتمع المملوكى :

تمتع أمراء المماليك بصفة عامة بمكانة كبيرة فى المجتمع ومنزلة سامية عند السلاطين. فكثيراً ما نزل السلطان من قصره ليعود أميراً مريضاً، وإذا دخل علــى السلطان بعض الأمراء قام لهم، وإذا مات أحدهم مشى فــى جنازتــه، ولا عجــب فسلطان المماليك لم يكن أصله ونشأته سوى مملوك فأمير، ميزته قوته ومواهبه عن زملائه الأمراء(٢٠٣).

يشير المؤرخ ابن تغرى بردى فى أحداث عام ٧٣٧هــ/١٣٣٦م إلــى أن السلطان الناصر محمد بن قلاوون عقد عقد ابنه أبى بكر على ابنة الأميــر ســيف الدين طقز دمر الحموى الناصرى أمير مجلس بدار الأمير قوصون(٢٠٤).

ومما يدل على المكانة الاجتماعية التى احتلها أمير مجلس زواج الأمير سيف الدين تنكز بغا بن عبد الله الماردينى أمير مجلس من أخت السلطان حسن، فتخبرنا المصادر المملوكية عن وفاة الأمير سيف الدين تنكز أميــر مجلــس وزوج أخــت السلطان حسن وكان من أكابر الأمراء لاسيما فى دولة الناصر حسن وذلــك عــام ٧٥٩هــ/١٣٥٧م(٢٠٥).

ونقرأ فى المصادر المملوكية المعاصرة فى أحداث عام ٧٨٦هــ/١٣٨٤م نــزل السلطان برقوق من القلعة لزيارة الأمير الطنبغا الجوبانى أمير مجلس أثناء مرضه(٢٠٦).

وصل الأمر بأمير مجلس إلى أنه كان من الممكن أن يشفع للبعض فتقبل شــفاعته كما حدث فى عام ٧٩٠هــ/١٣٨٨م، فقد تم إطلاق سراح الأمير آقبغا الماردينى حاجب الحجاب بعد شفاعه صهره الأمير أحمد بن يلبغا العمرى أمير مجلس(٢٠٧).

وقد اعتبرت وظيفة أمير مجلس من الوظائف الرفيعة الســامية فــى دولــة المماليك، ففى عام ٧٩٢هــ/١٣٨٩م استقر الأمير بيبرس ابن أخت السلطان برقوق أمير مجلس عوضاً عن شيخ الصفوى(٢٠٨).

وفى كثير من الأحيان كان السلطان يسمح لبعض أمراء المجلس بــالجلوس أثناء الخدمة السلطانية رأس الميسرة والدليل على ذلك أن الأمر بيبغا بن عبــد الله المظفرى أنعم عليه بإمرة مائة وتقدمة ألف واصبح أمير مجلس، فيذكر ابن تغــرى بردى بقوله: "لكنه كان يجلس فى الخدمة السلطانية رأس الميسرة بخــلاف قاعــدة

أمراء المجلس وذلك مراعاة لمنزلته السالفة"[٢٠٩].

يتبين مما سبق المكانة الاجتماعية الكبيرة التى شغلها أمراء المجلس زمن المماليك، ومدى ما وصلت إليه هذه الوظيفة من مكانة سامية رفيعة لدى سلاطين المماليك.

ويتساءل الباحث هل وقع أمير مجلس تحت عقوبة المصادرة رغم المكانة الاجتماعية التى كانت له فى بعض الأحيان؟ للإجابة عن هذا التساؤل ينبغى أن نتعرض إلى ما أطلق عليه فى مصطلح العصر المملوكى اسم المصادرات، ونتعرف من خلالها هل طبقت على أمير مجلس أم لا؟

والمصادرة هى عقوبة مقررة واجبة النفاذ هدفها المال سواء كان بالضمان أو المطالبة أو بالاستيلاء عليه بالقوة لصالح الدولة دون أن يكون للشخص المعاقب حق الاعتراض، وهذا ما حدا ببعض الباحثين إلى القول بأن المصادرة عمل تعسفى مجاف للعدالة ودليل على فساد الإدارة، وفى عصر المماليك رادف لفظة المصادرة أربعة ألفاظ أخرى هى الغرامة، والحوطة، والعقوبة، والجناية، فالألفاظ مختلفة والمعنى واحد[٢١٠].

نقرأ فى المصادر المملوكية عن مصادرة طغاى تمر النظامى أمير مجلس الذى صادره السلطان الأشرف شعبان بن حسين عام ٧٦٩هـ/١٣٦٧م.

أما عن سبب المصادرة فهو إثارته للفتنة، وقد بلغت قيمة المصادرة جميع أمواله ومنحت لأمير آخر وآل به الأمر إلى السجن[٢١١].

وتشير المصادر أيضاً إلى بيبغا السابق أمير مجلس الذى صادره السلطان المنصور شعبان بن حسين فى عام ٧٧٨هـ/١٣٧٦م بسبب اتهامه بتدبير انقلاب وفتنة ضد السلطان، وقد بلغت المصادرة جميع أملاكه، وأعطاها السلطان للأمير إياس الصرغتمش، وانتهى به الأمر إلى القتل خنقاً[٢١٢].

وتروى المصادر المعاصرة أيضاً عن مصادرة أحمد بن العينى أمير مجلس، الذى تعرض للمصادرة فى عهد السلطان الأشرف قايتباى عام ٨٧٢هـ/١٤٦٧م والذى قام بمصادرته أمير دوادار كبير، وكان سبب مصادرته تغيرات فى الحكم، أما عن مبلغ المصادرة فهو ٢٦٩,٠٠٠ - ٣٥٠,٠٠٠، وقد تم وضع المبلغ فى الخزائن الشريفة، وانتهى به الحال إلى السجن، ثم أفرج عنه مرة ثانية[٢١٣].

كما يتحدث المؤرخون مرة ثانية عن أحمد بن العينى أميـر مجلـس الـذى صودر للمرة الثانية فى عهد السلطان الأشرف قايتباى فى عام ٨٧٣هـ/١٤٦٨م، أما عن سبب المصادرة فهو من أجل الإنفاق على حملة شاه سوار، وكـان مبلـغ المصادرة تدبير، ووصل به المطاف إلى الإفراج عنه، وقد نفذ المصادرة السلطان الأشرف قايتباى[٢١٤].

هكذا واصلت الدولة المملوكية مصادراتها لأمراء المجلـس حيـث سـجلت كتابات بعض المؤرخين المعاصرين حوالى أربع حالات مصادرة.

دور أمراء المجلس فى مجال الحضارة :

- الأعمال الفنية لأمراء المجلس :

أسهم أمراء المجلس ببعض الأعمال الفنية زمن سلاطين المماليك، يشهد بذلك بعض التحف التى صنعت برسمهم ووصلنا بعض منها، تمثلت فـى المصـنوعات الزجاجية والتحف المعدنية مما يوضح حالة الثراء التى عاشها أمراء المجلس زمن سلاطين المماليك.

ويلاحظ أن بعض هذه التحف صنعت برسم أمير المجلس قبل أن يتولى هذه الوظيفة، والبعض الأخر فى أثناء توليه لهذه الوظيفة أو عزله منها.

١- التحف الزجاجية :

لقد تفوق صناع الزجاج فى عصر المماليك فى صناعة الزجاج المموه بالمينا والذهب الذى لاقى إقبالاً شديداً فى شتى أنحاء العالم، ومن هذه التحف التى تخص أمراء المجلس المشكاوات[٢١٥].

ولدينا مشكاة فى مجموعة شيفر كتبت حين كـان صـاحبها أميـر مجلـس السلطان الملك الناصر محمد بـن قـلاوون، ونصـها "أميـر مجلـس الملكـى الناصرى"[٢١٦].

ولدينا كذلك مشكاة أخرى باسم الأمير طقز دمر الناصرى، محفوظة بالمتحف البريطانى، تزينها كتابات عربية على البدن، نصها: "مما عمل برسم المقر العـالى المولوى الأمير السفى طقز دمر أمير مجلس الملكى الناصرى" أى أميـر مجلـس السلطان الملك الناصر حسن ترجع إلى عام ٧٤٦هـ/١٣٤٥م[٢١٧].

وصلتنا مشكاة أخرى بمتحف اللوفر فى باريس عملت باسم الأمير تنكز بغا أمير مجلس المتوفى فى عام ٧٦٠هـ/١٣٥٨م، جاء نصها" برسم تربة المرحـوم المقر الأشرف العالى المولوى المالكى المخدومى السيفى تنكز بغا أميـر مجلـس الملكى الناصرى"(٢١٨) أى أمير مجلس السلطان الملك الناصر حسن.

أما الصناعات الخشبية، فقد بلغت درجة فائقة من الإبداع فى عصر المماليك، فأقبل الفنانون المشتغلون فى هذه المهنة على إنتاج التحف الخشبية الدقيقة لاسـيما المنابر والكراسى والدكك(٢١٩).

وقد وصلنا كرسى مصحف باسم المقر الأشرف السـيفى أزبـك اليوسـفى المتوفى عام ٩٠٤هـ/١٤٩٨م(٢٢٠).

٢- **التحف المعدنية :**

يعتبر العصر المملوكى بمثابة العصر الذهبى للصناعات المعدنية، إذ وصلت فيه منتجاتها إلى قمة نضجها الصناعى والفنى؛ فصنعت فى ذلك العصر كثير من الصناديق والثريات والطاسات والأوانى والكراسى المعدنية وغيرها. وقد ساعد على ذلك إقبال السلاطين وأمراء المماليك على اقتناء التحف المعدنية، مما كان له أكبر الأثر فى كثرة المنتجات المعدنية التى اتسمت بدقة صنعها وغنى زخارفها بكثير من العناصر النباتية والهندسية بالإضافة إلى رسوم الكائنات الحية الآدمية والحيوانية ورسوم الطير المحلق بجناحيه فى الهواء، مما أضفى على الزخارف الحياة وحركة نلمسها فى معظم ما وصلنا من تحف معدنية من هذا العصر ولا ننسى الكتابة العربية التى نقشت بالخطين الكوفى والنسخ أو بخط الثلث الذى اشتق من الخط الأخير(٢٢١).

وصلنا العديد من التحف المعدنية التى نجد من بينها تحف صـنعت برسـم بعض أمراء المجلس(٢٢٢)، ومن هذه التحف نذكر طستاً من النحاس باسـم الأميـر السيفى طرجى أمير مجلس الملكى الناصرى"(٢٢٣).

ولدينا طست أخر من النحاس عليه كتابة أثرية جاء فيها: "مما عمل برسـم الجناب العالى السيفى طشتمر رأس نوبة المقر الأشرف إيلبغا أمير مجلس الملكـى الناصرى"(٢٢٤).

ومن التحف المعدنية التى صنعت برسم بعض أمراء المجلس نشير أيضاً إلى زهرية من النحاس الأصفر محفوظة فى المتحف الإسلامى بالقاهرة تحت رقم ١٥١٢٥، عليها كتابات بخط النسخ تحمل اسم الأمير طقز تمر الناصرى، نصها: "مما عمل برسم المقر الأشرف العالى السيفى طقزتمر الساقى الملكى الناصرى"، وهى ترجع إلى عام ٧٤١هـ/١٩٤١م[٢٢٤].

٣- المنشآت المعمارية لأمراء المجلس :

كان لأمراء المجلس بعض الدور فى حركة الإنشاء والتعمير التى شهدها عصر سلاطين المماليك، وسوف تستعرض الباحثة أهم أعمالهم المعمارية، مع ملاحظة أن بعض هذه الأعمال قد انشئت قبل أن يتولى أمير مجلس وظيفته والبعض الأخر فى أثناء توليهم لهذه الوظيفة أو بعد عزلهم منها.

وقد تنوعت هذه العمائر بين عمائر دينية مثل المساجد الجامعة والخانقاوات والقباب والمدارس، وعمائر مدنية كالدور والقناطر والحمامات والأحكار.

أ- العمائر الدينية "المساجد" :

انتشر فى عهد سلاطين المماليك الاهتمام بتشييد المساجد التى أسهم فى انشاء بعضها أمراء المجلس أهمها:-

- جامع الطنبغا الماردينى أثر رقم ١٢٠ الموقع ٦ [٢٢٦] :

يقع هذا الجامع بجوار خط التبانة خارج باب زويلة، وكان قبل ذلك مقابر لأهل القاهرة، ثم عمر أماكن، فلما كان عام ٧٣٨هـ/١٣٣٧م، قام النشو بشرائها بثمن زهيد ثم هدمت، وبنى جامع الطنبغا الماردينى، وبلغ ما صرف على هذا الجامع خمسة عشر الف دينار، فضلاً عن الأخشاب والرخام، وجاء من أحسن الجوامع، وأقيمت فيه الخطبة فى عام ٧٤٠هـ/١٣٣٩م. [٢٢٧]

- جامع يلبغا الناصرى:

انشأ الأمير يلبغا الناصرى أمير مجلس جامعة بمدينة دمشق[٢٢٨].

- جامع قانم:

انشأ الأمير قانم التاجر أمير مجلس جامعة بأعالى منطقة الكبش [٢٢٩].

- **مسجد تانى بك قرا:**

انشأ الأمير تانى بك قرا أمير مجلس مسجده بجوار بيته عند خوخة القردمى[٢٣٠].

- **جامع تمراز:**

انشأ هذا الجامع الأمير تمراز أمير مجلس ويقع بجوار قنطره عمر شاه[٢٣١].

- **جامع أزبك اليوسفى:**

يقع بدرب البابا، ينسب للأمير أزبك اليوسفى أمير مجلس، وبعد تشييده أقيمت به الخطبة[٢٣٢].

الخانقاوات :

شهدت دولة المماليك إنشاء الكثير من الخوانق والذى اندرس أغلبها ولم يصلنا منها إلا بقايا قليلة بحالة غير مرضية. منها خانقاه عشقتمر أو اشقتمر الماردينى. انشأها الأمير عشقتمر أمير مجلس للصوفية وتقع تجاه حوش العرب تحت القلعة[٢٣٣].

القباب :

شهدت دولة المماليك أيضاً تشييد العديد من القباب نذكر منها: قبة الأمير قانم التاجر.

أنشأها الأمير قانم التاجر أمير مجلس السلطان الأشرف اينال بالخانكاه[٢٣٤].

المدارس :

انتشر زمن سلاطين المماليك الاهتمام بتشييد الكثير من المدارس، التى تثير الإعجاب بسبب ضخامتها وزخرفتها التى بنيت بفن معمارى رفيع[٢٣٥].

- **مدرسة قانى باى قرا :**

تقع هذه المدرسة بالقرب من سوق الخيل، انشأها الأمير قانى باى قرا أمير مجلس[٢٣٦].

مدرسة أزبك اليوسفى أثر رقم ٢١١[٢٣٧]:

أنشأها الأمير أزبك اليوسفى أمير مجلس، وتقع بدرب البابا [٢٣٨].

٢- العمائر المدنية :

الحمامات :

انتشر فى العصر المملوكى تشييد العديد من الحمامات، إلا أن جميعها اندرست ومنها:

حمام طقز دمر: ينسب للأمير طقز دمر الناصرى أمير مجلس، ويقع بمنطقة القلعة وجامع أحمد بن طولون ببركة الفيل(٢٣٩).

الربـاع(٢٤٠) :

- ربع خشكلدى البيسقى :

انشأ هذا الربع الأمير خشكلدى البيسقى أمير مجلس، لم يكتب له البقاء فقد احرقـه بعض المماليك(٢٤١). كما أنشأ الأمير طقزدمر ربع بالقرب من باب زويلة(٢٤٢).

القناطر :

قنطرة طقرز دمر :

انشأها الأمير طقز دمر، تقع هذه القنطرة بدرب الجماميز، الذى يبدأ من أخر شارع ضلع السمكة، وينتهى بشارع اللبودية تجاه حارة إسماعيل، وهى من القناطر القديمة التى ذكرها المقريزى واطلق عليها قنطرة طقز دمر، فذكر هـذه القنطـرة على الخليج الكبير بخط المسجد المعلق يتوصل منها إلى الخليج الغربى وحكر طقز دمر وغيره(٢٤٣).

الأحكار:

- حكر طقز دمر:

ذكر المقريزى أن "هذا الحكر كان بستاناً مساحته نحو ثلاثين فداناً، فاشـتراه الأمير طقز الحموى وقلع أخشابه، وأذن للناس فى البناء عليه فحكروه وانشأوا بـه الدور الجليلة وصار الحكم مسكن الأمراء والأجنـاد، وبـه السـوق والحمامـات والمساجد وغيرها(٢٤٤).

- **سبيل وصهريج الأمير تانى بك قرا :**

انشأ هذا السبيل الأمير تانى بك قرا بالقرب من سويقة عبــد المــنعم تجــاه الرملة، وانفق من ماله الكثير، كما شيد صهريجاً أيضاً(٢٤٥).

يتضح مما سبق الدور الذى لعبه أمراء المجلس فى مجال الحضارة سواء فى الأعمال الفنية أو المنشآت المعمارية والتى تنوعت وتعددت بــين عمــائر دينيــة وأخرى مدنية، كما يتبين لنا أن جميع هذه الأعمال بعضها يرجع إلى عصر سلاطين المماليك البحرية والبعض الأخر يرجع إلى عصر دولة سلاطين المماليك البرجية.

الخاتمة :

وفى ختام دراستنا عن أمراء المجلس فى العصر المملوكى، يتبين لنا أهمية الدور الذى لعبه أمير مجلس زمن المماليك، وبصورة جلية زمن المماليك الجراكسة.

وقد كان لاهتمام سلاطين المماليك بنظم ورسوم بلاطهم فى مصر أنه جعل لإمرة المجلس شأناً عظيماً، فقد كانت رسوم إمرة المجلس وتقاليده ذات شأن كبير وعظيم.

وتتضح أهمية وظيفة أمير مجلس من الألقاب التى لقب بها أمراء المجلس، والتى تدل على المكانة السياسية والعسكرية والاجتماعية التى تمتع بها هؤلاء ابان العصر المملوكى.

كذلك تمتع أمراء المجلس بالاقطاعات والرواتب، التى أن دلت على شىء فإنما تدل على قدر منازلهم وقوة نفوذهم.

كشفت هذه الدراسة أيضاً عن العديد من اختصاصات أمراء المجلس زمن المماليك والتى تعددت وتنوعت، فقد وصل الأمر ببعض أمراء المجلس أن تولوا نيابة الغيبة أثناء سفر السلطان، والبعض الأخر حكم بين الناس، وبعضهم كانوا بمثابة سفراء لدولة المماليك.

وبينت الدراسة من جهة أخرى أن بعض أمراء المجلس تولوا وظيفة نيابة السلطنة.

وأكدت هذه الدراسة على أن أمراء المجلس لعبوا دوراً فى الحياة العسكرية، فقد اشترك هؤلاء فى أغلب التجريدات الحربية زمن المماليك.

وأثبتت هذه الدراسة أيضاً الدور الكبير الذى لعبه أمراء المجلس فى الحياة السياسية والذى كشفت عنه الدراسة بجلاء، بل لقد وصل بعض أمراء المجلس إلى منصب السلطنة مثل السلطان ططر.

كما كشفت هذه الدراسة عن المكانة الاجتماعية التى تمتع بها أمراء المجلس

فى المجتمع المملوكى.

وأثبتت الدراسة بما لا يدع مجالاً للشك أن أمراء المجلس تعرضوا لعقوبة المصادرة رغم المكانة الاجتماعية التى كانت لهم.

والقت هذه الدراسة الضوء أيضاً على اسهام بعض أمراء المجلس فى الحياة الحضارية، من خلال ما تركوه لنا من أعمال فنية تتمثل فى التحف الزجاجية والمعدنية والمنشآت المعمارية سواء العمائر الدينية أو المدنية.

وكشفت هذه الدراسة كذلك عن تاريخ استقرار وعزل ووفاة هؤلاء الأمراء، كما كشفت أيضاً عن فترات شغلهم لهذه الوظيفة، وعن العدد الحقيقى لهؤلاء الأمراء، يضاف إلى هذا أيضاً أن كتب التراجم التى ترجمت لهؤلاء كانت تغفل أحياناً تاريخ توليهم أو عزلهم أو وفاتهم.

وبينت الدراسة من جهة أخرى أن وظيفة أمير مجلس كانت أرقى وأسمى من وظيفة حاجب الحجاب، والدليل على ذلك أن بعض الأمراء تولى إمرة المجلس بعد وظيفة الحجوبية، كما الحال مع الأمير جرباش من عبد الكريم الذى كان حاجب حجاب ثم رقى لوظيفة أمير مجلس، مما يدل على سمو وعلو ومكانة إمرة المجلس.

الجداول

١- ثبت بأسماء أمراء المجلس زمن المماليك البحرية *

٦٤٨ – ٧٨٤هـ / ١٢٥٠ – ١٣٨٢م

الاسم	تاريخ توليه	تاريخ عزله	تاريخ وفاته	المصادر
الأمير سابق الدين أمير مجلس	٦٥٨هـ/١٢٥٩م	–	٦٩١هـ/١٢٩١م	ابن تغرى بردي، النجوم الزاهرة، جـ٧، ص ١٠٥؛ الدليل الشافي، جـ١، ص ٣١١ رقم ١٠٥٦.
بدر الدين بيدار أمير مجلس	٦٨٧هـ/١٢٨٨م	–	٦٩٣هـ/١٢٩٤م	بيبرس الدوادار، زبدة الفكرة في تاريخ الهجرة، تحقيق زبيدة محمد عطا، ص ٢٤٦؛ العيني، عقد الجمان فى تاريخ أهل الزمان، تحقيق محمد محمد أمين، القاهرة ١٩٨٨م، ص ٣٧٠؛ ابن تغرى بردى المنهل الصافي، جـ٣، ص ٤٩٣ رقم ٧٣٤.
حسام الدين قرا لاجين	٧٠٨هـ/١٣٠٨م	–		بيبرس المنصورى، التحفة الملوكية فى الدولة التركية، تحقيق عبد الحميد صالح حمدان بيروت، ١٩٨٧م، ص ١٨٨.
طقز دمر بن عبد الله الحموى الناصرى الساقى، الأمير سيف الدين	٧٣٦هـ/١٣٣٥م		٧٤٦هـ/١٣٤٥م	ابن حبيب، تذكرة النبية، جـ٣، ص ٨٠؛ المقريزى، السلوك، جـ٢ ق ٣، ص ٦٩٨؛ ابن حجر، الدرر الكامنة، جـ٢، ص ٣٢٦، رقم ٢٠٤٢؛ ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، جـ١٠،ص ١٤٢؛ المنهل الصافي، جـ٦، ص٤٢ وما بعدها رقم ١٢٦١، الدليل الشافى، جـ١، ص ٣٦٦، رقم ١٢٥٨؛ محمد أحمد دهمان، ولاة دمشق فى عهد المماليك، ص ٤٦؛ محمود رزق، عصر سلاطين المماليك، جـ١، ص ١٣٠، الصفدي، الوافي، جـ١٦، ص ٤٦٥.
طرجى بن عبد الله الناصرى الساقى، الأمير سيف الدين أمير مجلس الناصر محمد بن قلاوون	٧٢٣هـ/١٣٢٣م	–	٧٣١هـ/١٣٣١م	ابن حبيب، تذكرة النبية فى أيام المنصور وبنيه، تحقيق محمد محمد أمين، مراجعة سعيد عاشور، القاهرة ١٩٨٢م، جـ٢، ص ٢١٣؛ ابن حجر، الدرر الكامنة في اعيان المائة الثامنة، نشره محمد سيد جاد الحق، ط ، القاهرة ١٩٦٦م، جـ٢، ص ٢١٧ رقم ٢٠٠٥؛ ابن تغرى بردى، المنهل الصافى والمستوفي بعد الوافى، تحقيق محمد محمد أمين، ونبيل عبد العزيز، القاهرة ١٩٨٥– ١٩٩٤م، جـ٦، ص ٣٧٨-٣٧٩، ترجمة ١٢٣٦؛ الدليل الشافى على المنهل الصافى، تحقيق محمد شلتوت، القاهرة ١٩٧٩م، ابن ايبك، كنز الدرر وجامع الغرر، الجزء التاسع وهو الدر الفاخر فى سيرة الملك الناصر، تحقيق هانس روبرت رويمر، القاهرة ١٩٦٠م، ، ص ٣٠٩؛ محمود رزق

* هذا الثبت مؤرخ بسنة الاستقرار – الوفاة كلما أمكن.

الاسم	تاريخ توليه	تاريخ عزله	تاريخ وفاته	المصادر
				عصر سلاطين المماليك، جـ١، ص ٥٩-٦٠، ١٢٣؛ مجهول تاريخ سلاطين المماليك، ص ١٦٩، ١٨٣؛ الصفدي، أعيان العصر وأعوان النصر، تحقيق علي أبو زيد ونبيل أبو عمشة، بيروت، ١٩٩٧، جـ٣، ص٣٣؛ الفهارس العامة إعداد قسم الدراسات والبحوث، دمشق، ١٩٩٨م؛ الوافي بالوفيات، جـ١٦، اعتناء وداد القاص، فيسبان، ١٩٨٢م، ص٤٢٣.
طغاى تمر النظامى أمير مجلس	٧٦٢هـ/١٣٦٠م	٧٦٩هـ/١٣٦٧م	٧٦٩هـ/١٣٦٧م	ابن تغرى بردي، النجوم الزاهرة، جـ١١، ص ٦؛ ابن إياس، بدائع النجوم، جـ١ ق٢، ص ٧٥، ١٥٩.
خليل بن قوصون	٧٦٥هـ/١٣٦٣م	٧٦٧هـ/١٣٦٥م	٧٧٨هـ/١٣٧٦م	المقريزي، السلوك، جـ٣ ق١، ص ٢٩٦؛ ابن إياس، بدائع الزهور، جـ١ ق٢، ص ١١.
أسنقتمر بن عبد الله الماريدنى الناصرى	٧٦٤ هـ/١٣٦٢م		٧٩١هـ/١٣٨٩م	ابن حجر، أنباء الغمر بأنباء العمر، الاجزاء من ١-٣ تحقيق حسن حبشي، القاهرة ١٩٦٩-١٩٧٢م، جـ١، ص ٣٨٤ ترجمة رقم ١١؛ الدرر الكامنة، جـ١ ص ٤١٦ رقم ٩٩١؛ ابن تغرى بردي، النجوم الزاهرة، جـ١١، ص ٣٨٧؛ المنهل الصافي، جـ٢ ص ٤٥١ رقم ٤٧٠؛ الدليل الشافي، جـ١، ص ١٣٤ رقم ٤٦٩؛ ابن طولون، إعلام الورى، ص ٣٠ رقم ٣٨؛ ابن إياس، بدائع الزهور، ط١ ق٢، ص ٥٨، ١٦٢.
جركتمر المنجكى جركتمر ابن عبد الله الأشرف	٧٦٨هـ/١٣٦٧م		٧٧٧هـ/١٣٩١م	المقريزى، السلوك، جـ٣ ق١، ص ٢٩٦؛ ابن تغرى بردي، النجوم الزاهرة، جـ١١، ص ١٤٦؛ الدليل الشافي، جـ١، ص ٢٤٤ رقم ٨٤١؛ ابن إياس، بدائع الزهور، جـ١ ق٢، ص ٥٨،١٦٢.
تلكتمر بن عبد الله بن بركة الناصرى	٧٦٩هـ/١٣٦٧م		٧٩٤هـ/١٣٩١م	المقريزى، السلوك، جـ٣ ق٢، ص ٧٧٦؛ ابن تغرى بردي، النجوم الزاهرة، جـ١٢، ص ١٢٩؛ المنهل الصافي، جـ٢، ص ٧٤٢، رقم ٢٥٣٢؛ الدليل الشافي، جـ١، ص ٢٢٠ رقم ٧٧١؛ ابن حجر، الدرر الكامنة، جـ٢، ص ٥٢ رقم ١٤١٣؛ الصرفى، نزهة النفوس، جـ١، ص ٣٥١ رقم ١٦٢؛ إياس، بدائع الزهور، جـ١، ق٢، ص ٧٥.
ارغون شاه الأشرفى اليوسفى	٧٧٠هـ/١٣٦٨م		٧٧٨هـ/١٣٧٦م	ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، جـ١١، ص ١٤٧؛ الدليل الشافي، جـ١، ص ١٠٧ رقم ٣٧٠؛ ابن إياس، بدائع الزهور، جـ١ ق ٢، ص ٨٤.
قطلوبغا البدرى	٧٧٨هـ/١٣٧٦م	٧٧٩هـ/١٣٧٧م	٧٩٠هـ/١٣٨٨	المقريزى، السلوك، جـ٣ ق٢، ص ٧٩٣؛ ابن تغرى بردي، النجوم الزاهرة، جـ١٢، ص ١٣٨؛ المنهل الصافي، جـ٢، ص ٥٤٥ رقم ١٨٧٠؛ ابن إياس، بدائع الزهور، جـ١ ق٢، ص ١٩٠.
الطنبغا السلطانى	٧٧٩هـ/١٣٧٧م	٧٧٩هـ/١٣٧٧م		ابن إياس، بدائع الزهور، جـ٢، ص ٢٠٣، ٢١٢.

الاسم	تاريخ توليه	تاريخ عزله	تاريخ وفاته	المصادر
بركة الجوباني	٧٧٩هـ/١٣٧٧م	٧٨٠هـ/١٣٧٧م		ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، جـ١١، ص ٢٠٤؛ ابن حجر، أبناء الغمر، جـ٢، ص ٢٣؛ المنهل، جـ١، ص ١٨٩ رقم ٦٦٠؛ ابن اياس، بدائع الزهور، جـ١ ق٢، ص ٢١، ٢٣٠.
قراد مرداش الأحمدى	٧٨٠هـ/١٣٧٧م			ابن حجر، الدرر الكامنة، جـ٣، ص ٣٢٩ رقم ٣٢٤٣؛ ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، جـ١٢، ص ١٣٤؛ المنهل الصافي، جـ٢، ص ٥٣٨ رقم ١٨٤٨؛ ابن اياس، بدائع الزهور، جـ١ ق٢، ص ٢٣٠.
الطنبغا بن عبد الله الجوباني اليلبغاوى	٧٨٤هـ/ ١٢٨٢م	٧٨٧هـ/١٣٨٥	٧٩٢هـ/١٣٨٩م	ابن حجر، إنباء الغمر، جـ١، ص ٤٠٤؛ ابن حجر، الدرر الكامنة، جـ١ ص ٤٣٥، رقم ١٠٥١؛ ابن الفرات، تاريخ ابن الفرات، تحقيق قسطنطين رزيق م٩ جـ١، بيروت ١٩٣٦، ص ٢٤٠، ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، جـ١٢، ص ١٢٠؛ الدليل الشافي، جـ١، ص ١٥٠؛ ابن اياس، بدائع الزهرو، جـ١ ق٢، ص ٤٤٠؛ ابن طولون، اعلام الورى، ص ٣١ ترجمة ٤١، ص ٣٢ ترجمة ٤٥؛ ولاة دمشق، ص ٢٤٨ – ٢٤٩.

٢- ثبت بأسماء أمراء المجلس زمن المماليك الجراكسة
٧٨٤ – ٩٢٣هـ/ ١٣٨٢ – ١٥١٧م

الاسم	تاريخ توليه	تاريخ عزله	تاريخ وفاته	المصادر
أحمد بن يلبغا العمرى الخاصكى الحسنى	٧٨٨هـ/١٣٨٦م		٨٠٢هـ/١٤٠٠م	ابن تغرى بردى، النجوم الزهرة، جـ١٣، ص ١٤؛ المنهل الصافى، جـ٢، ص ٢٦٨ رقم ٣٤١؛ الدليل الشافى، جـ١، ص ٩٧ رقم ٣٣٩؛ ابن إياس، بدائع الزهور، جـ١ ق٢، ص ٣٩٩؛ السخاوى، الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، ١٢ جزء فى ١٢ مجلد، القاهرة ١٣٥٣هـ، جـ٢، ٢٤٦ ترجمة ٦٨٤.
كمشبغا الأشرفى الخاصكى	٧٩٠هـ/١٣٨٨		٧٩٤هـ/١٣٩١م	المقريزى، السلوك، جـ٣ ق٢، ص ٧٨١؛ ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، جـ١٢، ص ٦؛ الدليل الشافى، جـ٢، ص ٥٥٩ رقم ١٩١٩؛ محمد أحمد دهمان، ولاة دمشق، ص ٢٦٦؛ ابن طولون، اعلام الورى، ص ٣٣ ترجمة ٤٩.
أسندمر السيفى أمير مجلس	٧٩١هـ/ ١٣٨٨م		٨٦١هـ/١٤٥٦م	ابن إياس، بدائع الزهور، جـ١ ق٢، ص ٤١٣؛ السخاوى، الضوء اللامع، جـ٢، ص ٣١٢ رقم ٩٨٧.
إبراهيم بن قطلقتمر أمير مجلس	٧٩١هـ/١٣٨٨م			ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، جـ١١، ص ٣٤١.
قرابغا بن عبد الله الأبوبكرى، الأمير سيف الدين، أمير مجلس	٧٩١هـ/١٣٨٨		٧٩٢هـ/١٣٨٩م	ابن إياس، بدائع الزهور، جـ١ ق٢، ص ٣٩٩؛ المقريزى، السلوك، جـ٣ ق٢، ص ٧٣٠؛ ابن تغرى بردى، الدليل الشافى، جـ٢، ص ٥٣٦.
شيخ بن عبد الله الصفوى الخاصكى،	٧٩٤هـ/١٣٩١			ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، جـ١٣، ص ٨؛ المنهل الصافى، جـ١، ص ٣٤٧ رقم ١١٩٢؛ السخاوى، الضوء

الاسم	تاريخ توليه	تاريخ عزله	تاريخ وفاته	المصادر
أمير مجلس الملك الظاهر برقوق				اللامع، جـ٣، ص ٣٠٨ رقم ١١٨٩؛ ابن إياس، بدائع الزهور، جـ١ ق٢، ص ٧٤٣.
أقبغا بن عبد الله الطولوتمرى الظاهري اللكاش	٨٠٠هـ/١٣٩٧م		٨٠٢هـ/١٣٩٩م	ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، جـ١٣، ص ١٥؛ المنهل الصافى، جـ٢، ص ٤٨٢ رقم ٤٨٦؛ الدليل الشافى، جـ١، ص ١٣٨ رقم ٤٨٥؛ ابن إياس، بدائع الزهور، جـ١ ق٢؛ ص ٤٩٦، ٥٨٢؛ السخاوى، الضوء اللامع، جـ٢، ص ٣١٨ رقم ١٠١٦.
أرغون شاه بن عبد الله البيدمرى الأقبغاوى	٨٠١هـ/١٣٩٨م		٨٠٢هـ/١٣٩٩م	ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، جـ١٣، ص ١٣؛ المنهل الصافى، جـ٢، ص ٣٠٣ رقم ٣٦٥؛ الدليل الشافى، جـ١، ص ١٠٥ رقم ٣٦٣؛ ابن إياس، بدائع الزهور، جـ١ ق٢، ص ٥١٣؛ السخاوى، الضوء اللامع، جـ٢، ص ٢٦٧ رقم ٨٢٦.
تمراز الناصرى سيف الدين	٨٠٢هـ/١٣٩٩م		٨١٥هـ/١٤١٢م	المقريزى، السلوك، جـ٤ ق١، ص ٢٠١؛ ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، جـ١٣، ص ١٨٤؛ الدليل الشافى، جـ١، ص٢٢٥، رقم ٧٨٧؛ ابن إياس، بدائع الزهور، جـ١ ق٢، ص ٥٦٤، ٥٧٣، ٨١٧؛ السخاوى، الضوء اللامع، جـ٢، ص ٣٨ رقم ١٥٦.
سودون بن عبد الله الماردينى الظاهرى، الأمير سيف الدين	٨٠٥هـ/١٤٠٢م	٨٠٧هـ/ ١٤٠٤م	٨١١هـ/١٤٠٨م	المقريزى، السلوك، جـ٤ ق١، ص ٨٩؛ ابن تغرى بردى، الدليل الشافى، جـ١، ص ٣٣١ رقم ١١٣٥؛ ابن إياس، بدائع الزهور، جـ١ ق٢، ص ٦٧٠، ٧٩٣؛ السخاوى، الضوء اللامع، جـ٣، ص ٢٨٥ رقم ١٠٨٢.

الاسم	تاريخ توليه	تاريخ عزله	تاريخ وفاته	المصادر
يلبغا الناصرى	٨٠٨هـ/١٤٠٥م		٨١٧هـ/١٤١٤م	ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، جـ١٤، ص ١٣٠؛ ابن إياس، بدائع الزهور، جـ١ ق٢ ص ٧٤٣؛ المنهل الصافى، جـ٢، ص ٧٩٤ رقم ٢٦٧٤؛ الصيرفى، نزهة النفوس، جـ٢، ص ٣٤٦ رقم ٥٢٨؛ السخاوى، الضوء اللامع، جـ١٠، ص ٢٩٠، رقم ١١٣٩.
سودون بن عبد الله الظاهرة، المعروف بالطيار، الأمير سيف الدين	٨٠٧هـ/١٤٠٤م		٨١٠هـ/١٤٠٧م	ابن حجر، إنباء الغمر، جـ٢، ص ٣٩٤ رقم ١٩؛ المقريزى، السلوك، جـ٤ ق١، ٦٦؛ ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، جـ١٣، ص ١٦٧؛ المنهل الصافى، جـ٦، ص ١١٥ وما بعدها، رقم ١١٣١؛ الدليل الشافى، جـ١، ص ٣٢٩، رقم ١١٢٨؛ ابن إياس، بدائع الزهور، جـ١ ق٢، ص ٧٠١، ٧٨٩؛ السخاوى، الضوء اللامع، جـ٣، ص ٢٨١، رقم ١٠٦٧.
طوخ بن عبد الله من تمراز الناصرى لمعروف ببينى بازق باللغة التركية غليظة الرقبة	٨١٠هـ/١٤٠٧م		٨١٢هـ/١٤٥٨م	ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، جـ١٦، ص ١٩١-١٩٢؛ الدليل الشافى، جـ١، ص ٣٧١، رقم ١٢٧٥؛ ابن إياس، بدائع الزهور، جـ١ ق٢، ص ٧٨٥؛ السخاوى، الضوء اللامع، جـ٤ ص ٩ رقم ٢٩.
جانم عبد الله من حسن شاه الظاهرى، سيف الدين	٨١٣هـ/١٤١٠م		٨٢٤هـ/١٤١٢م	المقريزى، السلوك، جـ٤ ق١، ص ٢٠١؛ ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، جـ١٣، ص ١١٨، ١٨٤؛ الدليل الشافى، جـ١، ص ٢٣٤ رقم ٨١١.
قجقار بن عبد الله القردمى	٨١٧هـ/١٤١٤م		٨٢٤هـ/١٤٢١م	ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، جـ١٤، ص ١٤؛ المنهل الصافى، جـ٢، ص ٥٣٤ رقم ١٨٣٠؛ ابن إياس، بدائع الزهور، جـ٢، ص ١٦.

الاسم	تاريخ توليه	تاريخ عزله	تاريخ وفاته	المصادر
يشبك بن أزدمر	٨٠٩هـ/١٤٠٦م		٨١٧هـ/١٤١٤م	ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، جـ١٤، ص ١٢٩؛ الدليل الشافى، جـ٢، ص ٧٨٦ رقم ٢٦٥٠؛ أبن إياس، بدائع الزهور، جـ١ ق٢، ص ٧٦٩؛ جـ٢، ص ١٤؛ السخاوى، الضوء اللامع، ص ٣٧٠، رقم ١٠٧٤.
سودون الأشقر	٨١٦هـ/١٤١٣م	٨١٦هـ/ ١٤١٣م	٨٢٧هـ/١٤٢٣م	ابن تغرى بردى، المنهل الصافى، جـ١، ص ٣٣١، رقم ١١٣٨؛ ابن إياس، بدائع الزهور، جـ٢، ص ٨؛ السخاوى، الضوء اللامع، جـ٣، ص ٢٨٢؛ رقم ١٠٦٩؛ الصيرفى، نزهة النفوس، جـ٣، ص ٦٠.
إينال بن عبد الله الصصلائى	٨١٦هـ/١٤١٨		٨٨١هـ/١٤٧٦م	ابن تغرى بردى، النجوم، جـ١٤، ص ١٣٦، المنهل، جـ١، ص ١٧٢ رقم ٦١٥؛ ابن أياس، بدائع الزهور، جـ٢، ص ٨؛ السخاوى، الضوء، جـ٢، ص ٣٢٧.
ططر بن عبد الله الظاهرى، السلطان الظاهر أبو الفتح	٨٢١هـ/١٤١٨م		٨٢٤هـ/١٤٢١م	المقريزى، السلوك، جـ٤ ق٢، ص ٥٨٢ وما بعدها؛ ابن حجر، أنباء الغمر، جـ٣، ص ٢٥٧ رقم ٧؛ ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، جـ١٤، ص ١٩٨ وما بعدها؛ المنهل الصافى، جـ٦، ص ٣٩٧ وما بعدها؛ الدليل الشافى، جـ١، ص ٣٦٣ رقم ١٢٤٥؛ ابن إياس، بدائع الزهور، جـ٢، ص ٧٠ وما بعدها؛ السخاوى، الضوء اللامع، جـ٤، ص ٧ رقم ٢٢؛ الشوكانى، البدر الطالع بمحاسن ما بعد القرن السابع، ط١ القاهرة ١٣٤٨هـ، جـ١، ص ٣٠٢، رقم ٢١٢.
آقبغا بن عبد الله التمرازى الأتابكى أمير	٨٢٥هـ/١٤٢١م	٨٢٦هـ/ ١٤٢٢م	٨٤٣هـ/١٤٣٩م	المقريزى، السلوك، جـ٤ ق٣، ص ١١٩٦؛ ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، جـ١٥، ص ٤٧٥؛ المنهل الصافى، جـ٢،

الاسم	تاريخ توليه	تاريخ عزله	تاريخ وفاته	المصادر
مجلس				ص ٤٧٦ وما بعدها ترجمة رقم ٤٨٤؛ الدليل الشافي، جـ١، ص ١٣٨ رقم ٤٨٣؛ ابن إياس، بدائع الزهور، جـ٢، ص ٨٢، ١٣٦، ١٥٤، ٢٢١؛ السخاوى، الضوء اللامع، جـ٢، ص ٣١٦ رقم ١٠١٢، محمود رزق، عصر سلاطين المماليك، جـ١، ص ١٤٣.
إينـال بـن عبـد الله النوروزى	٨٢٦هـ/١٤٢٢م		٨٢٩هـ/١٤٢٥م	ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، جـ١٥، ص ١٣٤؛ المنهل الصافي، جـ١، ص ١٧٣ رقم ٦١٧؛ ابن إياس، بدائع الزهور، جـ٢ ص ٨٨؛ السخاوى، الضوء اللامع، جـ٢، ص ٣٢٩ رقم ١٠٨٣.
جرباش بن عبد الله من عبد الكريم الظاهرى، الأمير سيف الدين ويعرف بقاشق تولى إمرة مجلس ثلاث مرات	الأولى ٨٢٩هـ/١٤٢٥م الثانية ٨٣١هـ/١٤٢٧م الثالثة ٨٤٢هـ/١٤٣٨م		٨٦١هـ/١٤٥٦م	ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، جـ١٦، ص ١٨٣؛ المنهل الصافي، جـ٤، ص ٢٥٦، رقم ٨٣٨؛ الدليل الشافي، جـ١، ص ٢٤٣ رقم ٨٣٦؛ حوادث الدهور فى مدى الأيام والشهور، جـ١، تحقيق فهيم محمد شلتوت، ١٩٩٠م، ص ٢٨؛ ابن إياس، بدائع الزهور، جـ٢، ص ١٠٩، ١١٩، ٣٢٧؛ السخاوى، الضوء اللامع، جـ٣، ص ٦٦ رقم ٢٧٢.
بيبغا بـن عبـد الله المظفرى	٨٣١هـ/١٤٢٧م		٨٣٣هـ/١٤٢٩م	ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، جـ١٠، ص ٢٩٣، جـ١٥، ص ١٥٩؛ المنهل الصافي، جـ١، ص ٢٠٧ رقم ٧٣٠؛ ابن إياس، بدائع الزهور، جـ٢، ص ١٢١؛ السخاوى، الضوء اللامع، جـ٣، ص ٢٢ رقم ١٠٦.
محمد جقمق العلاى أبو سعيد السلطان الظاهر	٨٣٧هـ/١٤٣٣م		٨٥٧هـ/١٤٥٣م	ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، جـ١٥، ص ٥٠٢؛ منتخبات من حوادث الدهور، جـ١، ص ٣٤٠؛ ابن إياس، بدائع الزهور، جـ٢، ص ١٥٤؛ السخاوى، الضوء اللامع، جـ٧، ص ٢١٠، رقم ٥١٩.

الاسم	تاريخ توليه	تاريخ عزله	تاريخ وفاته	المصادر
جار قطلو بن عبد الله الأتابكى	٨٣٠هـ/١٤٢٦م		٨٨٧هـ/١٤٨٢م	المقريزى، السلوك، جـ٤ ق٢، ص ٩٢٣؛ ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، جـ١٤، ص ٣٠٨؛ الدليل الشافى، جـ١، ص ٢٣٤ رقم ٨١٠؛ السخاوى، الضوء اللامع، جـ٣، ص ٥١، رقم ١٩٨.
تنبك ميق أمير مجلس	٨٢٤هـ/١٤٢١م		٨٢٦هـ/١٤٢٢م	ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، جـ١٤، ص ١٧٢، جـ١٥، ص ١١٧؛ الدليل الشافى، جـ١، ص ٢١٤، رقم ٧٥٣؛ السخاوى، الضوء اللامع، جـ٣، ص ٢٦، رقم ١٢٨.
يشبك بن عبد الله اليوسفى المؤيدى	٨٤٢هـ/١٤٣٨م	–		ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، جـ١٤، ص ٢٣٥؛ الدليل الشافى، جـ٢، ص ٧٨٦، ٧٨٧ رقم ٢٦٥٢؛ ابن إياس، بدائع الزهور، جـ٢، ص ٢٠٠؛ السخاوى، الضوء اللامع، جـ١٠، ص ٢٧٩ رقم ١٠٩٦؛ المنهل الصافى، جـ٢، ص ٤٧٨.
تنم بن عبد الله من عبد الرزاق، الأمير سيف الدين، أمير مجلس	٨٥٣هـ/١٤٤٩م	٨٥٧هـ/ ١٤٥٣م	٨٦٨هـ/١٤٦٣م	ابن تغرى بردى، النجوم، جـ١٦، ص ٣٣٠؛ المنهل الصافى، جـ٤، ص ١٧٥ وما بعدها رقم ٨٠١؛ الدليل الشافى، جـ١، ص ٢٢٩ رقم ٧٩٩؛ منتخبات من حوادث الدهور، جـ١، ص ١٥٣، ٢٠٧؛ ابن طولون، اعلام الورى بمن ولى نائباً من الأتراك بدمشق الشام الكبرى أو تاريخ الشام من قيام دولة المماليك فى مصر إلى صدر العهد العثمانى، تحقيق عبد العظيم حامد، القاهرة ١٩٧٣م، ص ٦١، رقم ٧٢؛ السخاوى، الضوء اللامع، جـ٢، ص ٤٤؛ أبن إياس، بدائع الزهور، جـ٢، ص ٢٧٢ن ٤١٧.

الاسم	تاريخ توليه	تاريخ عزله	تاريخ وفاته	المصادر
الأمير تنبك البردبكي الظاهري برقوق	٨٥٧هـ/١٤٥٣م	-	-	ابن تغري بردي، منتخبات من حوادث الدهور، جـ١، ص ٣٤٦.
جرباش المحمدي، الناصري، المعروف بكرد	٨٦١هـ/١٤٥٦م		٨٧٧هـ/١٤٧٢م	ابن تغري بردي، الدليل الشافي، جـ١ ص ٢٤٣ رقم ٨٣٧؛ ابن إياس، بدائع الزهور، جـ٢ ص ٣٤٢، جـ٣ ص ٨٣؛ السخاوي، الضوء اللامع، جـ٢، ص ٦٦ رقم ٢٧٠؛ محمود رزق، عصر سلاطين المماليك، جـ١، ص ١٩٠.
قانم من صفر خجا المؤيدي المعروف بالتاجر	٨٦٥هـ/١٤٦٠م	عزل ٨٦٩هـ/ ١٤٦٤	٨٧١هـ/١٤٦٦م	ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، جـ١٦، ص ٣٥١؛ الدليل الشافي، جـ٢، ص ٥٢٨، رقم ١٨١٤؛ ابن إياس، بدائع الزهور، جـ٢، ص ٣٨١، ص ٤٤٣؛ السخاوي، الضوء اللامع، جـ٦، ص ٢٠٠ رقم ٦٩٥؛ محمود رزق، عصر سلاطين المماليك، جـ١، ص ١٩٢.
قرقماش الجلب بن عبد الله الأشرفي المعروف بقريب الأشرف برسباي أمير مجلس في دولة المؤيد	الأولى ٨٦٥هـ/١٤٦٢م الثانية ٨٧٢هـ/١٤٦٧		٨٧٣هـ/١٤٦٨م	ابن تغري بردي، المنهل الصافي، جـ٢، ص ٥٤٢ رقم ١٨٦٠؛ ابن إياس، بدائع الزهور، جـ٢، ص ٣٧١، جـ٣، ص ٦؛ السخاوي، الضوء اللامع، جـ٦، ص ٢١٨ رقم ٧٢٦.
تمر بغا الظاهري الرومي، أبو سعيد السلطان الظاهر	٨٦٩هـ/١٤٦٤م	٨٧٢هـ/ ١٤٦٧م	٨٧٩هـ/١٤٧٤م	ابن تغري بردي، المنهل الصافي، جـ٤، ص ١٠٠ ترجمة ٧٨٤؛ الدليل الشافي، جـ١، ص ٢٢٣ رقم ٧٨٢؛ السخاوي، الضوء اللامع، جـ٣، ص ٤٠-٤١ رقم ١٦٧؛ ابن إياس، بدائع الزهور، جـ٢، ص ٤٢٩، جـ٣، ص ١٠٥، ١٢٣.

الاسم	تاريخ توليه	تاريخ عزله	تاريخ وفاته	المصادر
جانى بك قلقشيز	٨٧٢هـ/١٤٦٧م			ابن إياس، بدائع الزهور، جـ٢، ص ٤٦٢؛ محمود رزق، عصر سلاطين المماليك، جـ١، ص ١٩٣.
أحمد بن عبد الرحيم بن بدر الدين محمد العينى الحنفى شهاب الدين	٨٧٢ هـ/١٤٦٧		٩٠٩هـ/١٥٠٣م	إبن إياس، بدائع الزهرو، جـ٢، ص ٣٦٠، ٤٦٩، ٤٧٥.
لاجين الظاهرى جقمق	٨٧٤هـ/١٤٦٩م		٨٨٦هـ/١٤٨١م	ابن تغرى بردى، المنهل الصافى، جـ٢، ص ٥٦٧ رقم ١٩٤٤؛ ابن إياس، بدائع الزهور، جـ٣، ص ٤٢، ١٨٢؛ السخاوى، الضوء اللامع، جـ٦، ص ٢٣٢، رقم ٨٠٣.
أزدمر من مزيد، قريب الأشرف قايتباى	٨٨٦هـ/١٤٨١م	٨٩٣هـ/ ١٤٨٧م	٨٩٩هـ/١٤٩٣م	ابن إياس، بدائع الزهور، جـ٣، ص ١٩٠، ٢٩٨.
برسباى قرا	٨٩٣هـ/١٤٨٧م			ابن طولون، مفاكهة الخلان فى حوادث الزمان، تحقيق محمد مصطفى، جـ١، القاهرة ١٩٦٢، ص ٩٦؛ ابن إياس، بدائع الزهور، جـ٢، ص ٢٤٩.
تانى بك الجمالى الظاهرى جقمق	الأولى ٨٩٤هـ/١٤٨٨ الثانية ٨٩٦هـ/١٤٩٠م		٩٠٨هـ/١٩٠٢م	ابن طولون، مفاكهة الخلان، جـ١، ص ١٢٢، ٢٨٢؛ ابن إياس، بدائع الزهور، جـ٣، ص ٢٦٥، ٢٨٠، ٤٦٥، جـ٤، ص ٤٨.
أزبك اليوسفى الظاهرى	٩٠١هـ/١٤٩٥م		٩٠٤هـ/١٤٩٨م	ابن إياس، بدائع الزهور، جـ٣، ص ٣١٦، ٣٣٥، ٤١٤.
تانى بك قرا الأينالى	٩٠٢هـ/١٤٩٦م		٩٠٥هـ/١٤٩٩م	ابن إياس، بدائع الزهور، جـ٣، ص ٣٦٠، ٣٦٥، ٣٧٤، ٤٣٠.

الاسم	تاريخ توليه	تاريخ عزله	تاريخ وفاته	المصادر
قانصوه المحمدى المعروف بالبرجي	٩٠٣هـ/١٤٩٧م	٩٠٦هـ/ ١٥٠٠م	٩١٠هـ/١٥٠٤م	أبن أياس، بدائع الزهور، جـ٣، ص ٣٧٧، جـ٤، ص ٦٦.
أصطمر من ولى الدين	٩٠٦هـ/١٥٠٠م		٩١٤هـ/١٥٠٨م	أبن إياس، بدائع الزهور، جـ٤، ص ١٢، ١٥، ١٤٥.
خشكلدى البيسقى، الظاهرى خشقدم	٩٠٦هـ/١٥٠٠م	٩٠٦هـ/ ١٥٠٠م	٩٠٨هـ/١٥٠٢م	أبن إياس، بدائع الزهور، جـ٣، ص ٤٥٤، جـ٤، ص ٩، ٤٦.
سودون بن عبد الله العجمى	الأولى ٩٠٨هـ/١٥٠٢م الثانية ٩١٠هـ/١٥٠٤م	٩١٠هـ/ ١٥٠٤م	٩٢٢هـ/١٥١٦م	أبن إياس، بدائع الزهور، جـ٤، ص ٢١٣؛ محمود رزق، عصر سلاطين المماليك، جـ١، ص ٢٢٧.
سيباى	٩١٠هـ/١٥٠٤م	٩١٠هـ/ ١٥٠٤م		ابن طولون، مفاكهة الخلان، جـ١، ص ٢٩٠، ٣٥٦؛ ابن إياس، بدائع الزهور، جـ٤، ص ٦٧.
أركماس من طراباى من ولى الدين	٩١٧هـ/١٥١١م	-	-	أبن إياس، بدائع الزهور، جـ٤، ص ٢١٣، ٢٣٢، ٢٩٢.
يخشباى من عبد الكريم، وقيل من قانم	٩٢٢هـ/١٥١٦م		٩٢٣هـ/١٥١٧م	أبن إياس، بدائع الزهور، جـ٥، ص ١٠٨، ١٥٦.

ثبت بأسماء أمراء المجلس زمن المماليك البحرية *

الأمير قحقرا أمير مجلس			٦٩٣هـ/ ١٢٩٣م	بيبرس المنصوري، التحفة المملوكية، ص ١٣٩.
الأمير علاء الدين مغلطاي أمير مجلس	–	–	٧١٢هـ/ ١٣١٢م	مجهول، تاريخ سلاطين المماليك، ص ١٥٨؛ العيني، عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان، حوادث وتراجم ٦٩٩ – ٧٠٧هـ/ ١٢٩٩ – ١٣٠٧م، تحقيق محمد محمد أمين، القاهرة ١٩٩٢، ص ٢٥٨.
سيف الدين تنكز بغابن عبد الله الماردينى أمير مجلس	–	–	٧٥٩هـ/ ١٣٥٧م	ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، جـ١٠، ص ٣٣١.
يلبغا العمرى الناصرى			٧٦٠هـ/ ١٣٥٨م	محمود رزق سليم، عصر سلاطين المماليك، جـ١، ص ١٥٢.
بيبغا السابقى			٧٧٨هـ/ ١٣٧٦م	ابن إياس، بدائع الزهور، جـ١ ق٢، ص ١٨٤، ١٨٦، ١٧٩.
سودون باق أمير مجلس			٧٩٣هـ/ ١٣٩٠م	المقريزى، السلوك، جـ٣ ق٢، ص ٧٥٣؛ ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، جـ١١، ص ٢٨١؛ الدليل الشافى، جـ١، ص ٣٣٠، رقم ١١٣٣.

* حسب سنة الوفاة فقط.

ثبت بأسماء أمراء المجلس زمن المماليك الجراكسة *

قلمطاوى بن عبــد الله العثمانى الظاهرى			٨٠٠هـ/١٣٩٧	المقريزى، السلوك، جـ٣ ق٢، ص ٩١٢؛ ابن تغرى بــردى، النجوم الزاهرة، جـ١٢، ص ١٦٣؛ الدليل الشافى، جـ٢، ص ٥٤٨ رقم ١٨٨٤.

* حسب سنة الوفاة فقط.

الهوامش :

(١) الفنون الإسلامية والوظائف على الآثار العربية، جـــــ١، القـــاهرة ١٩٦٥م، ص١١٥؛ الألقاب الإسلامية فى التاريخ والوثائق والآثار، القـــاهرة ١٩٥٧م، ص١٧٩.

(٢) ابن خلدون، مقدمة ابن خلدون، ط الخامسة، بيروت ١٩٨٤م، ص٢٢٧؛ حسن الباشا، الفنون الإسلامية، ص١١٦.

(٣) الماوردى، الأحكام السلطانية والولايات الدينية ط(١)، القـــاهرة ١٩٦٠، ص ٣٠ وما بعدها، القلقشندي، ضوء الصبح المسفر وجنى الروح المثمر، تصحيح محمود سلامة، ط١، القاهرة ١٩٠٦م، ص ٣٤١؛ ابـــن خلـــدون، المقدمـــة، ص٢٢٧؛ حسن الباشا، الفنون الإسلامية، ص١٣٧؛ سيدة إســـماعيل كاشـــف، مصر فى فجر الإسلام من الفتح العربى إلى قيام الدولة الطولونيـــة، سلســـلة تاريخ المصريين العدد ٨٢، القاهرة، ١٩٩٤م، ص٧٧.

(٤) **Et. Combe J. Sauvaget et G. Wiet (eds.), Repertorire chronologique d'epigraphie arabe, le Caire, tome V, p. 198,**
حسن الباشا، الفنون الإسلامية، ص١٢١

(٥) حسن الباشا، الألقاب الإسلامية، ص١٨١؛ الفنون الإسلامية، ص١٢١.

(٦) المقريزى، المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، لبنان، ١٩٥٩م، ص١٧؛ حسن الباشا، الفنون الإسلامية، ص١٤٦.

(٧) أبو شامة، الروضتين في تاريخ الدولتين، جـــ١، مطبعة النيل، ١٢٨٧هـــــ، ص١٦٩، حسن الباشا، الفنون الإسلامية، جـــ١، ص١٥٠.

(٨) المقريزى، الخطط، جـــ٢، ص ٢١٩ – ٢٢٠،
جمال الدين الشيال، تاريخ مصر الإسلامية الجزء الثانى، العصـــــران الأيوبى والمملوكى، القاهرة ١٩٩٦م، ص١٠٩

(٩) القلقشندى، صبح الأعشى، جـــ٤، ص ١٤ – ٣٩؛ ضوء الصبح، ص ٢٤٥ – ٢٤٩؛ حسن الباشا، الفنون الإسلامية، جـــ١، ١٥٩.

(١٠) حسن الباشا، تاريخ الألقاب والمراسم فى الإسلام، رســـالة دكتـــوراه غيـــر

منشورة، كلية الآداب، جامعة القاهرة، ١٩٥٢م، ص ٣٩٩ وما بعدها؛ الألقاب الإسلامية، ص٤٥٥.

(١١) القلقشندى، صبح الأعشى، جـ٧، ص٨٥.

(١٢) القلقشندى، صبح الأعشى، جـ٥، ص ٤٩٨؛ حسن الباشا، الألقاب الإسلامية، ص٤٥٦.

(١٣) حسن الباشا، تاريخ الألقاب والمراسم، ص٤٠٠.

(١٤) المقريزى، السلوك لمعرفة دول الملوك، قام بنشره محمد مصطفى زيادة، جـ١، ق٢، القاهرة ١٩٣٦م، ص ٣٥٦ – ٣٥٧؛ حسن الباشا، الألقاب الإسلامية، ص٤٥٦.

(١٥) المقريزى، السلوك؛ جـ١ ق٢، ص ٣٥٧

(١٦) حسن الباشا، تاريخ الألقاب والمراسم، ص٤٠١.

(١٧) **J. Sauvaget, Repertoire, X, p. 31 No. 3701.**

(١٨) **J. Sauvaget, Repertoire, XII, p. 182.**

(١٩) القلقشندى، صبح الأعشى، جـ٧، ص ٨٥؛

J. Sauvaget, Repertoire, XI, p.33, No. 4215.

(٢٠) القلقشندى، صبح الأعشى، جـ٧، ص٨٥؛ حسن الباشا، تاريخ الألقاب والمراسم، ص٤٠٢؛

J. Sauvaget, Repertoire, XI, p.36, No. 4383.

(٢١) ابن شيث، معالم الكتابة ومغانم الإصابة، بيروت ١٩١٣م، ص٤٩؛ حسن الباشا، تاريخ الألقاب، ص٤٠٢.

(٢٢) حسن الباشا، تاريخ الألقاب والمراسم، ص ٤٠٢، ٤٠٣، الألقاب الإسلامية، ص ٤٥٨.

(٢٣) المقريزى، المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، ط لبنان ١٩٥٩م، جـ١، ص ٣٨٦؛ ابن شداد، تاريخ الملك الظاهر، اعتناء أحمد حطيط، قيسبادن ١٩٨٣م، ص٢٢؛ القلقشندي، صبح الأعشى، جـ٣، ص٤٨٥؛= =عبد المنعم ماجد، نظم دولة سلاطين المماليك ورسومهم فى مصر، دراسة شاملة لنظم

البلاد ورسومه، ط٢، جـ٢، القاهرة ١٩٨٢م، ص٣١؛ محمد أحمد دهمان، معجم الألفاظ التاريخية فى العصر المملوكى، دمشق ١٩٩٠م، ص٢٢.

(٢٤) **J. Sauvaget, Repertoire, x, p.151, No. 3816.**

(٢٥) القلقشندى، صبح الأعشى، جـ٥، ص٤٥٥؛ ضوء الصبح، ص٣٤٣؛ حسن الباشا، الفنون والوظائف، جـ١، ص٢٥٩.

(٢٦) ابن شداد، تاريخ الملك الظاهر، ص٢٢٢؛ العمرى، التعريف بالمصطلح الشريف، تحقيق محمد حسين شمس الدين، بيروت ١٩٨٨، ص٢٥٨؛ العين، السيف المهند فى سيرة الملك المؤيد شيخ المحمودى، تحقيق فهيم شلتوت، مراجعة محمد مصطفى زيادة، القاهرة، ١٩٦٧م، ص٣٠٧؛ ابن تغرى بردى، المنهل الصافى والمستوفى بعد الوافى، تحقيق محمد محمد أمين، ونبيل عبد العزيز، القاهرة ١٩٨٥ - ١٩٩٤م، جـ١، ص٧٩؛ النويرى، نهاية الأرب في فنون الأدب، جـ٣٠، ص٤١٨.

Max Van Berchem, Materiaux pour corpus inscriptionum Arabicarum, premiere partie, Egypte, Paris, 1903, XIX, p. 585, No.3; Lane-poole, The Art of the Saracens in Egypt, Beirut, 1886, pp. 31–218; D. Ayalon, The Encyclopedia of Islam, art. Amir Madjlis, I, Leiden, 1990, p. 457–458.

(٢٧) القلقشندى، صبح الأعشى، جـ٤، ص١٨؛ ضوء الصبح، ص٢٤٦؛ حسن الباشا، الفنون الإسلامية، جـ١، ص٢٥٩.

(٢٨) ابن شاهين، زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك، باريس، تحقيق بول رافيس ١٨٩١م، ص١١٤؛

الخالدى، المقصد الرفيع الحاوى إلى صناعة الإنشاء، مخطوط مصور بمكتبة جامعة القاهرة، تحت رقم ٢٤٠٤٥، ورقة ١٢٤؛

Van Berchem, Materiaux pour Corpus, I, p. 274, No.2

(٢٩) ابن شاهين، زبدة كشف الممالك، ص١١٤؛ السيوطى، حسن المحاضرة فى أخبار مصر والقاهرة، ط بيروت ١٩٩٧م، جـ٢، ص٨٥؛ القلقشندى، صبح الأعشى، جـ٥، ص٤٥٥؛ ابن إياس، بدائع الزهور فى وقائع الدهور المعروف

بتاريخ مصر، طبعة محمد مصطفى، جـ١ ١٩٨٢ - ١٩٨٤م، ق٢، ص ٣٢٣؛ على إبراهيم حسن، دراسات فى تاريخ المماليك البحرية فى عصر الناصر بوجه خاص، القاهرة ١٩٤٤م، ص١٩٠؛ محمد جمال الدين سرور، الظاهر بيبرس وحضارة مصر فى عصره، القاهرة ١٩٣٨م، ص١٣٣؛ حسن إبراهيم، على إبراهيم، النظم الإسلامية، ط١، ١٩٣٩م، ص٢١٣؛ ماجد، نظم المماليك، جـ٢، ص٤٨.

(٣٠) ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة، طبعة دار الكتب المصرية جـ٧، القاهرة ١٩٧١م، ص ١٨٥

- poole, the art of Saracens, p.31-Lane

(٣١) ابن تغرى بردى، المنهل الصافى، جـ٦، ص٣٧٩؛ سعيد عاشور، الظاهر بيبرس، أعلام العرب، العدد ١٤، ١٩٦٣م، ص١٣٢.

(٣٢) القلقشندى، صبح الأعشى، جـ٨، ص٢٢٩؛ ضوء الصبح، ص ٢٤٦؛ ابن شاهين، زبدة كشف الممالك ص١١٤؛ سعيد عاشور، المجتمع المصرى فى عصر سلاطين المماليك، ط١، القاهرة ١٩٦٢، ص١٨؛

Gaudefroy – Demonbynes,. La Syrie a lepoque des Mamlukes, Paris, 1923, p. 57 .

(٣٣) القلقشندى، صبح الأعشى، جـ٤، ص٦١؛ ضوء الصبح، ص٢٦٤.

(٣٤) المقريزى، السلوك، جـ٣ ق٢، ص ٧٠٧.

(٣٥) أبو إياس، بدائع، جـ١ ق٢، ص ٧٦٩.

(٣٦) العمرى، التعريف بالمصطلح الشريف، ص ٧٣-٧٤؛ حسن الباشا، الفنون الإسلامية، ص٢٥٨؛ محاسن الوقاد، صرغمتش الناصرى: الأمير الحاكم دراسة فى السيرة الذاتية ٧٣٧-٧٥٩هـ/١٣٣٦-١٣٥٧م، المؤرخ المصرى يصدرها قسم التاريخ، كلية الآداب، جامعة القاهرة، العدد الخامس والعشرون، يناير ٢٠٠٢م، ١٢١ وما بعدها.

(٣٧) ابن ناظر الجيش، كتاب تثقيف التعريف بالمصطلح الشريف، تحقيق ودلف فسلى، القاهرة، ١٩٨٧م، ص ١٨٨-١٨٩.

(٣٨) القلقشندى، صبح الأعشى، جـ١٢، ص٢٨٥.

(٣٩) الخالدى، المقصد الرفيع، ورقة ١٥٩؛ القلقشندى، صبح الأعشى، جـ١٠، ص ١١٦-١١٨، حسن الباشا، تاريخ الألقاب والمراسم، ص ٤٢٩؛

Wiet. G. Catalogue general du musee arabe du Caire , objets en cuirre. Le Caire, 1932, p. 225 No. 301; CataLogue general du musee arabe du Caire, Lampes et bouteilles en verre Emaille, Le Caire 1982; p. 183 Sauvaget, Repertoire, XV, p. 192; Mayer. L. A. Saracenic Heraldry, Oxford, 1933, pp. 211-223 , 240; Hiba Ali YuSuf, L'Eclairage a L'Epoque Mamluke en Egypte, These de doctorat, Paris, 2001, Tome I. P.239.

(٤٠) حسن الباشا، تاريخ الألقاب والمراسم، ص ٤٢٩؛ الألقاب الإسلامية، ص٤٨٩.

(٤١) حسن الباشا، تاريخ الألقاب والمراسم، ص ٤٣٠؛ الألقاب الإسلامية، ص٤٩٠.

(٤٢) القلقشندى، صبح الأعشى، جـ٦، ص ١٥٤ - ١٦١.

(٤٣) حسن الباشا، تاريخ الألقاب والمراسم، ص ٤٢٣؛ الألقاب الإسلامية، ص٤٩٢.

(٤٤) Mayer, Saracenic Heraldry, p. 223; Sauvaget, Repertoire, XV, p. 192; Hiba yusuf, L'eclairage a L'epoque Mamluke, Tome II, PL. XLVI.

(٤٥) حسن الباشا، الألقاب الإسلامية، ص ٣٤٧؛

Mayer, Saracenic Heraldry, p. 211; Wiet, Lampes, p. 183.

(٤٦) Van Berchem, Materiaux pour corpus, I, p.584, No. 397; Mayer, Saracenic Heraldry, p. 211.

(٤٧) حسن الباشا، الفنون الإسلامية، جـ١، ص ٣٩٠-٣٩١.

(٤٨) حسن الباشا، الألقاب الإسلامية، ص ٢٦٠.

(٤٩) Mayer, Saracenic Heraldry p. 240; Sauvaget, Repertoire, XIV. P. 274.

(٥٠) حسن الباشا، الألقاب الإسلامية، ص ٥١٧ - ٥١٨؛

Hiba Yusup, L'Eclairage a l'Epoque Mamluke, Tome, I, pp. 240-241.

(٥١) Sauvaget, repertoire, XV, pp. 191-192, No. 5911-5912, Wiet, Lampes, p. 183.

(٥٢) حسن الباشا، الألقاب الإسلامية، ص ٤٣٦- ٤٣٧.

(٥٣) حسن الباشا، الألقاب الإسلامية، ص ٣٤١؛ محاسن الوقاد، صــر غــتمش الناصرى، ص ١٢٣؛

Hiba Yusuf, L'Eclairage a I'Epoque Mamluke, Tome, II, PL. XL., VI..

(٥٤) حسن الباشا، الألقاب الإسلامية، ص ٤٥٦، ٥٠١.

(٥٥) Mayer, Saracenic Heraldry, p. 211; Wiet, Lampes, p. 183.

(٥٦) حسن الباشا، الألقاب الإسلامية، ص ٤٤٤؛

, Mayer, Saracenic Heraldry, p. 223.

(٥٧) القلقشندى، صبح الأعشى، جــ٦، ص ٢٥.

(٥٨) Mayer, Saracenic Heraldry, p. 223; Hiba Yusuf, L'Eclairage a' I'Epoque Mamluke , Tome, II, PL. XL VI.

(٥٩) حسن الباشا، الألقاب الإسلامية، ص ٤٦٤.

(٦٠) حسن الباشا، الألقاب الإسلامية، ص ٥٢٥؛ محاســن الوقــاد، صــر غتمش الناصرى، ص ١٢٤.

(٦١) Mayer, Saracenic Heraldry, p. 223; Hiba Yusuf, L'Eclairage a' I'Epoque Mamluke, Tome I, p. 244.

(٦٢) Sauvaget, Repertoire, XV, pp. 191-192, No. 5911 - 5912.

(٦٣) حسن الباشا، الألقاب الإسلامية، ص ١٦٠ - ١٦١.

(٦٤) Mayer, Saraceinc Heraldry, pp. 211-223- 240; Sauvaget, Repertoire, XV, p.192, XIV, p. 274; Wiet, Lampes, p.183; Hiba Yusuf, L'Eclairage a I'Epoque Mamluke, Tome, I, p.240.

(٦٥) سبق وأن تناولت الباحثة موضوع الحجابة والحجاب أبان العصر المملوكى، واستشفت ملابس الحجاب أيضاً بصورة غير مباشرة مــن بطــون المصــادر المملوكية المعاصرة على اعتبارهم من أمراء المئين مقدمى الألوف.

(٦٦) القلقشندى، صبح الاعشى، جـ٤، ص ٥٥؛ المقريزى، الخطط، جـ٢، ص ٢٥٥؛ ماجد، نظم المماليك، ص ٦٤.

(٦٧) ماجد، نظم المماليك، ص ٦٤.

(٦٨) القلقشندى، صبح الاعشى، جـ٤، ص ٥٢،٥٤، جـ١١، ص ٢٤٦؛ المقريزى، الخطط، جـ٣، ص ٣٥٢؛ ابن شاهين، زبدة كشف الممالك، ص ١٠٨ – ١٠٩؛ ابن عبد الظاهر، الروض الزاهر فى سيرة الملك الظاهر، تحقيق عبد العزيز الخويطر، ط١، ص٧٢ الرياض ١٩٧٦م.

(٦٩) القلقشندى، صبح الأعشى، جـ٤، ص ٥٢، ٥٤، جـ١١ ص ٢٦؛ المقريزى، السلوك، جـ١ ق٢، ص ٥٧٠، مجهول، تاريخ سلاطين المماليك، ص ٩٧، ١٦٣، ٢١١؛ ابن اياس، بدائع الزهور، جـ٤، ٣٣٢، ٣٣٣، ٣٧٢؛ ماجد، نظم المماليك، جـ٢، ص ٦٥؛ ماير ل.م، الملابس المملوكية، ترجمة صالح الشيتى، مراجعة عبد الرحمن فهمى، القاهرة ١٩٧٢م، ص ١٠٣.

(٧٠) يقال حرير أطلس، يعنى حريرية، خيوط ستان أى حرير ناعم جداً، عن هذا الكلحة انظر :

Dozy, Supplement aux dictionnaires arabes, I, Leiden, 1881, p.281.

(٧١) القندس، وقندز، نوع من الجرو الأوربى يستخدم جلده، انظر ماير، الملابس، ص ٤٧، هامش ١؛ و **Dozy , Supplement, p. 410**.

(٧٢)عن هذه الكلمة انظر أيضاً **Dozy, Supplement, p. 551**.

(٧٣) أسماء دروع، ربما تكون مبطنة، عن هذه الكلحة انظر : **Dozy, Supplement, p. 542**؛ وأيضاً محاسن الوقاد، الحجابة زمن سلاطين المماليك، ٦٤٨ – ٩٢٣هـ/ ١٢٥٠ – ١٥١٧م، حولية التاريخ الإسلامى، والوسيط، المجلد الثالث ٢٠٠٣، ص ١١٩، هامش ٩٣.

(٧٤) بيكارية جمعها بواكير وهى قطع مبطنة معدنية هندسية مرصعة بالزمرد واللؤلوء، انظر : **Dozy, Supplement, p. 136**.

(٧٥) القلقشندى، صبح الأعشى، جـ٤، ص ٥٢–٥٣؛ المقريزى، الخطط، جـ٢،

ص ٢٧٧-٢٧٨؛ ماير، الملابس المملوكية، ص ١٠٥.

(٧٦) المقريزى، الخطط، حـ٣، ص ٣٧٠ - ٣٧١.

(٧٧) المقريزى، الخطط، جـ٣، ص ٣٧٠، القلقشندى، صبح الاعشى، جـ٤، ص ٥٣، ٥٤؛ ابن شاهين، زبدة كشف الممالك، ص ١٠٨-١٠٩؛ ابن عبد الظاهر، الروض الزاهر، ص ٧٢؛ ماجد، نظم سلاطين المماليك، ص ٦٥.

(٧٨) المقريزى، السلوك، جـ١ ق ٢، ص ٦١٢.

(٧٩) المقصود بشعار السلطنة أنواع الملابس والأدوات والترتيبات التى كان السلطان يظهر بها فى المواكب الحفلة مثل موكب السلطنة وموكب الركوب لكسر الخليج عند وفاء النيل وموكب صلاة العيدين ونحوهما، المقريزى، السلوك، جـ١ ق ٢، ص ٤٤٣ هامش جـ١١.

(٨٠) القلقشندى، صبح الاعشى، جـ٤، ص ٥٢، ٥٤، ط١، ص ٤٢٦؛ السخاوى، التبر المسبوك فى ذيل السلوك، المطبعة الأميرية ١٨٩٦م، ص ٢٠٨؛ المقريزى، السلوك جـ١ ق ٢، ص ٥٧٠؛ ابن شاهين، زبدة كشف الممالك، ص ١٠٨-١٠٩، ابن اياس، بدائع الزهور، جـ٤، ٣٣٢؛ ماجد، نظم المماليك، جـ٢، ص ٦٥.

(٨١) المقريزى، السلوك، جـ٣ ق ١، ص ٧٥.

(٨٢) المقريزى، السلوك، جـ٣ ق ١، ص ١٨١.

(٨٣) المقريزى، السلوك، جـ٣ ق ٢، ص ٤٧٨.

(٨٤) ابن اياس، بدائع الزهور، جـ١ ق ٢، ص ١٩٠.

(٨٥) ابن إياس، بدائع الزهور، جـ١ ق ٢، ص ٢٣٠.

(٨٦) المقريزى، السلوك، جـ٣ ق ٢، ص ٥٤٨.

(٨٧) المقريزى، السلوك، جـ٣ ق ٢، ص ١٠٧، المنهل، جـ٣، ص ٥٩.

(٨٨) أبن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، جـ١٢، ص ٩٤.

(٨٩) أبن تغرى بردى، المنهل الصافى، جـ٢، ص ٤٨٢.

(٩٠) أبن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، جـ١٢، ص ١٩٧.

(٩١) المقريزى، السلوك، جـ٣ ق٣، ص ١١٤٠؛ ابن تغرى بردى، النجوم

الزاهرة، جـ١٢، ص ٣٠٨.

(٩٢) أبن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، جـ١٣، ص ٥٠.

(٩٣) أبن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، جـ١٣، ص ١١٨

(٩٤) أبن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، جـ١٤، ص٨.

(٩٥) أبن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، جـ١٤، ص ١٠.

(٩٦) أبن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، جـ١٤، ص ٣٠٤.

(٩٧) أبن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، جـ١٤، ص ٣١٨ – ٣١٩.

(٩٨) أبن إلياس، بدائع الزهور، جـ٢، ص ٤٦٩.

(٩٩) أبن إياس، بدائع الزهور، جـ٣، ص ٢٦٥.

(١٠٠) أبن إياس، بدائع الزهور، جـ٣، ص ٣١٦.

(١٠١) أبن إياس، بدائع الزهور، جـ٣، ص ٣٤٧.

(١٠٢) أبن إياس، بدائع الزهور، جـ٥، ص ١٠٨.

(١٠٣) القلقشندى، ضوء الصبح، ص ٢٦٢؛ محاسن الوقاد، الحجابة زمن سلاطين المماليك، ص ١١٩.

(١٠٤) القلقشندى، صبح الاعشى، جـ٤، ص ٥٤؛ ضوء الصبح، ص ٢٦١؛ حسن الباشا، الفنون والوظائف، جـ١، ص ٢٥٦؛ محاسن الوقاد، الحجابة، زمن المماليك، ص١١٩.

(١٠٥) القلقشندى، ضوء الصبح، ص ٢٦٢؛ حسن الباشا، الفنون ص ٢٥٧.

(١٠٦) المقريزى، السلوك، جـ٣ ق ١، ص ٤٣.

(١٠٧) المقريزى، السلوك، جـ٣ ق٢، ص ٦٤٧.

(١٠٨) أبن تغرى بردى، المنهل الصافى، جـ٤، ص٣٥٦ وما بعدها.

(١٠٩) القلقشندى، صبح الأعشى، جـ٤، ص ٥٢؛ المقريزى، الخطط، جـ٣، ص ٣٦٩؛ السيوطى، حسن المحاضرة، جـ٢، ص ١٤؛ ماجد، نظم المماليك، جـ٢، ص ٥٢؛ محاسن الوقاد، الحجابة زمن سلاطين المماليك، ص ١٢١.

(١١٠) المقريزى، إغاثة الأمة بكشف الغمة، نشره محمد مصطفى زيادة، جمال الدين الشيال، القاهرة ١٩٤٠م، ص ٢٦٩؛ محاسن الوقاد، الحجابة زمن

المماليك، ص ١٢٢.

(١١١) القباء جمع أقبية، ثوب يلبس فوق الثياب سمى بذلك لاجتماع أطارفه، انظر العمرى، مسالك الأبصار فى ممالك الأمصار، تحقيق أيمن فؤاد سيد، القاهرة ١٩٨٥م، ص ٣٤؛ ماير، الملابس المملوكية، ص ٤٠؛

Dozy, Supplement, I, p. 352.

(١١٢) وصف القباء السلارى بأنه قصير الطول والكم؛ المقريزى، الخطط، جـ٣، ص ١٦٠؛ وأيضا : **Dozy, Supplement, I, p 678.**

(١١٣) بغلطاق، جمعها بغالطيق أو بغالطق وهى لفظة فارسية تعنى قباء له كم قصير من قماش بعلبك، العمرى، مسالك الابصار، ص ٣٤؛ ماير، الملابس المملوكية، ص ٤٤، هامش ٥؛

Çarl Johan Lamm, Mamluk Costume a Survey, Zeitschrift der Deutschen Morgenlandischen Gesellschaft, Wiesbaden, 1954, pp. 507–509.

(١١٤) أنظر **Dozy, Supplement, I, P. 43.**

(١١٥) المقريزى، الخطط، جـ٢، ص ٩٨؛ محاسن الوقاد، الحجابة زمن سلاطين المماليك، ص ١٢٣.

(١١٦) السمور بفتح السين والميم المضمومة هو حيوان برى يشبه السنور وزعم بعض الناس أنه النمس، وهو حيوان جرئ ليس فى الحيوانات أجرأ منه على الإنسان، لا يؤخذ إلا بالحيل ولحمه حار والترك يأكلونه وجلده لا يدبغ كسائر الجلود، الدميرى، حياة الحيوان، ص ٢٨، ويتخذ منه نفيس الفراء التى يلبسها الملوك وأكابر الأعيان لحسنها ودفئها وأحسنه ما كان منه شديد النعومة مائلا إلى السواد. القلقشندى، صبح الاعشى، جـ٢، ص ٤٩؛ محاسن الوقاد، الطبقات الشعبية فى القاهرة المملوكية (٦٤٨- ٩٢٣هـ/ ١٢٥٠-١٥١٧م) سلسلة تاريخ المصريين العدد ١٥٢، القاهرة ١٩٩٩م، ص ١٠١ هامش ١١٤.

(١١٧) الوشق، نوع من فراء الذئاب، الدميرى حياة الحيوان، جـ٢، ص ٣٢٤؛ محاسن الوقاد، الطبقات الشعبية، ص ١٠١.

(١١٨) القماقم، حيوان يشبه السنجاب إلا أنه أبرد منه مزاجاً وأرطب ولهذا هـو أبيض ويشبه جلده الفنك وهو أعز قيمة من السنجاب تؤخذ منـه الفـراء التـى تستعمل فى الزينة عند الأغنياء كسلاطين المماليك وأمـرائهم وأشـباههم مـن الأثرياء فى القاهرة فى العصور الوسطى، الدميرى، حياة الحيوان، جـ٢، ص ١٩٧؛ المقريزى، السلوك، جـ٢ ق١، ص ٩٨؛ محاسـن الوقـاد، الطبقـات الشعبية، ص ١٠١.

(١١٩) القلشندى، صبح الأعشى، جـ٤، ص ٤٠؛ المقريزى الخطط، جـ٢، ص ٢١٧؛ السخاوى، التبر المسبوك، ص ٣٤٦.

(١٢٠) القلقشندى، صبح الأعشى، جـ٤، ص ٤٠؛ أبن اياس، بـدائع الـدهور، جـ٤، ص ٢٥٩، ٢٦٢.

(١٢١) المقريزى، الخطط، جـ٢، ص ٩٩؛ القلقشندى، صبح الاعشى، جــ٤، ص ٤٠؛ والحياصة المنطقة بكسر الميم، وهى ما يشد فى الوسط وهـى مـن الألات القديمة فقد روى أن أمير المؤمنين على بن أبى طالب رضى الله عنـه كانت له منطقة، ولم يستخدم الحياصة الملوك، وإنما يلبسها الملك للأمراء عنـد إلباسهم الخلع والتشاريف وتختلف بحسب درجة الأمير، فمنها ما يكون من ذهب مرصع بالفصوص ومنها ما ليس كذلك. القلقشنندى، صبح الأعشى، جـ٢، ص ١٣٤؛ وكان السلطان إذا ركب للعب الكرة وزع حوائص من ذهب على بعض الأمراء، القلقشندى، صبح الأعشى، جـ٤، ص ٥٥؛ والحياصة سير فى الحزام، والحياصة سير طويل يشد به حزام الدابة، أبن منظور، لسان العـرب، طبعـة بولاق ١٣٠١هـ، ط بيروت ١٩٢٦م، جـ٧، ص ٢٨٥؛ والحوائص مفردهـا حياصة ويقصد بها الحزام الذى يوضع حول الوسط ويكون مرصعا بالأحجـار الكريمة أنظر :

Dozy, Dictionnaire detaille des noms des vetements chez les Arabes, Amstedam, 1985, pp. 145–146.

(١٢٢) القلقشندى، صبح الأعشى، ص ٤٠، المقريزى، السلوك، جـ١ ق٣، ص٧٢٦.

(١٢٣) المقريزى، الخطط، جـ٢، ص ٩٩؛ أبن إياس، بدائع الزهور، ج١، ص١٧٣.

(١٢٤) المقريزى، الخطط، جـ٢، ص ٩٩؛ المقريزى، السلوك، جـ١ ق٢، ص٤٩٣، هامش ١ ص ٢٥١، هامش ١ ص ٥٠١؛ محاسن الوقاد، الحجابة زمن المماليك، ص١٢٤.

(١٢٥) العمرى، مسالك الابصار، ص ٣٤، هامش ٦؛ والكلوتة جمعها كلوتات، وهى غطاء للرأس يلبس وحده أو بعمامة؛ القلقشندى، صبح الأعشى، جـ٤، ص ٣٩؛ السيوطى، حسن المحاضرة، جـ٢، ص ١١٠، ١١١؛ والكلوته كلمة فارسية أنظر : **Dozy, Supplement, II, p. 484**.

(١٢٦) المقريزى، الخطط، جـ٢، ص ١٠٤؛ محاسن الوقاد، الحجابة زمن المماليك، ١٢٥.

(١٢٧) حذاء برقبة طويلة، العمرى، مسالك الأبصار، ص ٣٤، هامش ٨؛ ماير، الملابس المملوكية ، ص ٦٣، هامش ٥.

(١٢٨) أدم أدماً أصلح وألف والصانع الجلد، أصلحه بنزع الزائد من أدمه، الأديم، الجلد وأديم كل شيء: ظاهره، إبراهيم أنيس، المعجم الوسيط، ط ١٩٧٢م، جـ١، ص ١٠؛ محاسن الوقاد، الطبقات الشعبية، ص ١١٤.

(١٢٩) القلقشندى، صبح الأعشى، ج٤، ص٤١؛ ماجد، نظم المماليك، ج٢، ص٩٨.

(١٣٠) المقريزى، الخطط، جـ٢، ص ٩٨؛ عن هذه الكلمة انظر :

Dozy, Supplement, I, P. 73.

(١٣١) إبراهيم طرخان، النظم الاقطاعية فى الشرق الأوسط فى العصور الوسطى، القاهرة ١٩٦٨م، ص ٢٣، ٣٠، ٦٣-٦٤؛ مصر فى عصر دولة المماليك الجراكسة، القاهرة ١٩٦٠م، ص ٢١٥؛ محاسن الوقاد، الحجابة زمن المماليك، ص ١٢٦.

(١٣٢) ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، جـ٩، ص٥٢؛ إبراهيم طرخان، مصر فى عصر دولة المماليك، ص٢١٦؛ محاسن الوقاد، الحجابة زمن المماليك، ص١٢٦؛ سعيد عاشور، مصر فى عصر دولة المماليك، القاهرة ١٩٦٠م، ص٢٣.

(١٣٣) المنشور وجمعه مناشير، وهى كل ما يصدر عن السلطان من مكاتبات لا تحتاج إلى ختم كالمكاتبات الخاصة بالولاية ومنح الإقطاعات، وجباية

ضرائبها، العمرى، التعريف بالمصطلح، ص١٢٥؛ ابن الصيرفى، قانون ديوان الرسائل، ط١، القاهرة ١٩٠٥م، ص١١٠؛ القلقشندي، صبح الأعشى، جـ١٣، ص١٥٨؛ سعيد عاشور، العصر المماليكى، ص٤٧٧؛ حسن الباشا، الفنون والوظائف، ص١٦٤.

(١٣٤) المقريزى، السلوك، جـ١ ق٣، ص ٨٤٤، ٨٤٦؛ ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، جـ٨، ص ٩٣ – ٩٥، جـ١٠ هامش ٤؛ على ابراهيم حسن، الجيش والبحرية فى عصر المماليك، القاهرة، بدون تاريخ، ص٣٦.

(١٣٥) القلقشندي، صبح الأعشى، جـ٤ن ص ٦٢؛ حسن الباشا، الفنون والوظائف، جـ١، ص١٦٤.

(١٣٦) ابن اياس، بدائع الزهور، جـ٢، ص ٥٦٨.

(١٣٧) المقريزى، السلوك، جـ٣ ق٢، ص ٩٢١.

(١٣٨) ابن اياس، بدائع الزهور، جـ١ ق٢، ص ٥٦٤.

(١٣٩) ابن تغرى بردى، المنهل الصافى، جـ٦، ص ١١٥ – ١١٧.

(١٤٠) ابن تغرى بردى، المنهل السافى، جـ٤، ص١٧٥.

(١٤١) ابن اياس، بدائع الزهور، جـ٣، ص١٩٠.

(١٤٢) القلقشندى، صبح الأعشى، جـ٤، ص٥٠؛ المقريزى، الخطط، جـ٢، ص ٣٥٠ – ٣٥١؛ على ابراهيم، دراسات فى تاريخ المماليك، ٣٤٦؛ محمود نديم، الفن الحربى للجيش المصرى فى العصر المملوكى البحرى، القاهرة، ١٩٨٣م، ص ٤٥؛ جمال جرجس يوسف، القضاء فى العصر المملوكى مع تحقيق مخطوطة نزهة النظار فى قضاة الأمصار، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الآداب، جامعة عين شمس، ١٩٧٢م، ص ١٤٥؛

D.Ayalon, Studies on the Structure of Mamluk Army, XVI, I, pp. 37-38, 257-296;

محاسن الوقاد، الحجابة زمن سلاطين المماليك، ص١٢٨.

(١٤٣) ابن اياس، بدائع الزهور، جـ٣، ص ٢٥١ – ٢٥٢.

(١٤٤) ابن اياس، بدائع الزهور، جـ٥، ص٢٩.

(١٤٥) ابن إياس، بدائع الزهور، جـ٤، ص ٢٩٤؛ محاسن الوقاد، الحجابة، زمن سلاطين المماليك، ص١٢٩-١٣٠.

(١٤٦) القلقشندى، صبح الأعشى، جـ٣، ص ٥٨-٥٩؛ على إبراهيم، تاريخ المماليك، ص ٢٠٩؛ The Encyclopedia of Islam, p.48;، محاسن الوقاد، الحجابة، زمن المماليك، ص١٣٩.

(١٤٧) سعيد عاشور، العصر المماليكى، ص ٤١٥؛ محاسن الوقاد، الهدايا والتحف زمن سلاطين المماليك البحرية، ٦٤٨ – ٧٨٤هـ/ ١٢٥٠ – ١٣٨٢م، ص١٩٧.

(١٤٨) مجهول، تاريخ سلاطين المماليك، ص١٤٦؛ ابن شاهين، زبدة كشف الممالك، ص١٠٦.

(١٤٩) القلقشندى، صبح الأعشى، جـ٤، ص٤٥؛ على ابراهيم، دراسات فى تاريخ المماليك البحرية، ص١٩٠.

(١٥٠) ابن شاهين، زبدة كشف الممالك، ص١١٤.

(١٥١) على إبراهيم، دراسات فى تاريخ المماليك، ص١٩٠.

(١٥٢) **Lane – Poole, The art of the Saracens, p. 31;**
على إبراهيم، دراسات فى تاريخ المماليك، ص ١٩١.

(١٥٣) المقريزى، السلوك، جـ٣ ق٣، ص ١٠٤٠؛ ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، جـ١٢، ص٢٢٩.

(١٥٤) ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، جـ١٤، ص٣٧٣.

(١٥٥) ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، جـ١٠، ص١٨٩.

(١٥٦) ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، جـ١١، ص٦.

(١٥٧) ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، جـ١٢، ص٣٧.

(١٥٨) ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، جـ١٤، ص٢٥٧.

(١٥٩) ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، جـ١٤، ص٣٠٦.

(١٦٠) ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، جـ٨، ص١٧٦.

(١٦١) ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، جـ٩، ص٥٨.

(١٦٢) المقريزى، السلوك، جـ٣ ق١، ص ٣٤٢.

(١٦٣) ابن تغرى بردى، النجوم، جـ١١، ص٢٣١.
(١٦٤) ابن إياس، بدائع الزهور، جـ٣، ص٢٩٢.
(١٦٥) ابن إياس، بدائع الزهور، جـ٣، ص٤٢٦، ٤٣٣.
(١٦٦) ابن إياس، بدائع الزهور، جـ٤، ص٣٦.
(١٦٧) ابن تغرى بردىن المنهل الصافى، جـ٢، ص٤٧٧.
(١٦٨) المقريزى، السلوك، ج٣ ق١، ص ٣٧٩ – ٣٨٠؛ ابن حجر، إنباء الغمر؛ ج٢، ص٢٣؛ ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، ج١١، ص١٧٤ وما بعدها؛ الدليل الشافى، ج١، ص١٨٨، رقم ٦٦٠؛ ابن إياس، بدائع الزهور، ج١، ق٢، ص٢٥٤ – ٢٥٥؛ السخاوى، الضوء اللامع، ج٢، ص ٣٢٤ رقم ١٠٥٩.
(١٦٩) ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، ج١١، ص٢١٤؛ الدليل الشافى، ج١، ص١٥٠ رقم ٥٣٥؛ ابن حجر، الدر الكامنة، ج١، ص٤٣٥ رقم ١٠٥١.
(١٧٠) المقريزى، السلوك، ج٣ ق٢، ص ٤٧٦ – ٤٧٧؛ ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، ج١١، ص٢١٤-٢١٥.
(١٧١) المقريزى، السلوك، ج٣، ق٢، ص ٦٠٥؛ ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، ج١١، ص ٢٦٥، الدليل الشافى، ج٢، ص ٧٩٣ رقم ٢٦٧٣.
(١٧٢) المقريزى، السلوك، ج٣ ق٢، ص ٥٩٣، ٦١٦؛ ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، ج١١، ص٢٨٠-٢٨١، ٢٨٢؛ ابن إياس، بدائع الزهور، ج١ ق٢، ص٣٩٦ وما بعدها.
(١٧٣) ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، ج١٢، ص٨٧؛ الدليل الشافى، ج١، ص١٠٥ رقم ٣٦٣؛ السخاوى الضوء اللامع، ج٢، ص٢٦٧ رقم ٨٢٦.
(١٧٤) المقريزى، السلوك، ج٣ ق٣، ص ٩٨٦ وما بعدها؛ ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، ج١٢، ص١٨٤؛ ابن إياس، بدائع الزهور، ج١ ق٢، ص٥٥٥ وما بعدها.
(١٧٥) المقريزى، السلوك، ج٣ ق٣، ص ١٠١٣؛ ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، ج١٢؛ ص ١٩٢ وما بعدها، الدليل الشافى، ج١، ص ٢٢٨ رقم ٧٩٦؛ ص ٢٢٥ رقم ٧٨٧؛ السخاوى، الضوء اللامع، ج٣، ص٤٤ رقم ١٨٣، ص٣٨

رقم ١٥٦؛ الضوء ج٢، ص ٢٤٦ رقم ٦٨٤.

(١٧٦) المقريزى، السلوك، ج٣ ق٣، ص١٠١٣؛ ابن تغرى بردى، النجوم الزاهـرة، ج١٢، ص١٩٥؛ الدليل الشـافى، ج١، ص٩٧ رقـم ٢٣٩، ص١٠٥ رقـم ٣٦٣؛ ص١٣٨ رقم ٤٨٥، ص١٦٤ رقم ٥٨٧؛ السخاوى، الضوء اللامـع، ج٢، ص٢٤٦ رقم ٦٨٤، ٢٦٧ رقم ٨٢٦، ص٣١٨ رقم ١٠١٦، ص ٣٢٤ رقم ١٠٥٩.

(١٧٧) ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، ج١٢، ص ٣٠٣ وما بعـدها؛ ج١٣، ص١٦٩-١٧٠؛ الدليل الشافى، ج٢، ص ١٧٧، رقـم ٦٢٧، ص ٧٨٤ رقـم ٢٦٤٦؛ السخاوى، الضوء اللامـع، ج٢، ص ٣٢٦، رقـم ١٠٦٥، ج١٠، ص ٢٧٨ رقم ١٠٩٠؛ ابن إياس، بدائع الزهور، ج١ ق٢، ص٦٩٨ وما بعدها.

(١٧٨) المقريزى، السلوك، جـ٤ ق١، ص٨ وما بعدها، ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، جـ١٣، ص ٤٤، ١٦٧، ١٧٢؛ الدليل الشـافى، جـ١، ص ٢٠٥-٢٠٦ رقم ٧٢٤، جـ٢، ص ٣٢٩ رقم ١١٢٨؛ ابن اياس، بدائع الزهور، جـ١ ق٢، ص ٧٣٩ وما بعدها؛ السخاوى، الضوء اللامـع، جـ٣، ص ٢١ رقـم ١٠١، ص ٢٨١ رقم ١٠٦٧.

(١٧٩) المقرزى، السلوك، جـ٤ ق١، ص ٢٠١؛ ابن تغـرى بـردى، النجـوم الزاهرة، جـ١٣، ص ١٢٤، ١٨٤؛ الدليل الشافى، جـ١، ص ٢٣٤ ترجمـة رقم ٨١١؛ ابن اياس، بدائع الزهور، جـ١ ق٢، ص ٨١٤؛ السخاوى، الضوء اللامع، جـ٣، ص ٦٥ رقم ٢٦٤.

(١٨٠) المقريزى، السلوك، ج٤ ق١، ص ٥٤٦، ج٤ ق٢، ص ٥٦٣؛ ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، ج١٤، ص ١٦٨، ١٩٨، ٢١٠؛ الدليل الشـافى، ج١، ص٣٦٣ رقم ١٢٤٥؛ ابن إياس، بدائع الزهور، ج٢، ص٦٣ - ٦٤، السخاوى، الضوء اللامع، جـ٤، ص ٧ رقم ٢٢.

(١٨١) المقريزى، السلوك، ج٤ ق٢، ص ٧٢٠-٧٢١؛ ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، ج١٤، ص ٢٥٧ وما بعدها، جـ١٥، ص ٤٦٩؛ الدليل الشافى، ج١، ص١٧٢ رقم ٦١٦؛ ابن اياس، بدائع الزهـور، ج٢، ص ١٠٦ ومـا بعـدها؛ السخاوى، الضوء اللامع، ج٢، ص٣٢٧ رقم ١٠٧٤.

(١٨٢) ابن إياس، بدائع الزهور، جـ٢، ص ١٤٦.

(١٨٣) ابن إياس، بدائع الزهور، ج١ ق٢، ص ٦٨٥.

(١٨٤) أتابك أي مقدم العسكر والقائد العام للجيش المملوكى، القلقشندى، صبح الأعشى، ج٤، ص١٨؛ سعيد عاشور، العصر المماليكى، ص٤٠١.

(١٨٥) ابن إياس، بدائع الزهور، ج١ ق٢، ص ٢٦٦ – ٢٦٧.

(١٨٦) المقريزى، السلوك، ج٣ ق٢، ص ٥٩٣؛ ابن تغرى بردى، النجوم، ج١١، ص ٢٥٩–٢٦٠ابن إياس، بدائع الزهور، ج١ ق٢، ص ٣٩٤.

(١٨٧) ابن إياس، بدائع الزهور، ج١ ق٢، ص٥١٩.

(١٨٨) المقريزى، ج٣ ق٣، ص ١٠٥٧؛ الصيرفى، نزهة النفوس والأبدان في تواريخ الزمان، الأجزاء من ١ – ٣ تحقيق حسن حبس، القاهرة، ١٩٧٠ – ١٩٧١، ١٩٧٣م، ج٢، ص ٧٣.

(١٨٩) الصيرفى، نزهة النفوس ، ج٢، ص١٦٨؛ ابن إياس، بدائع الزهور، ج١ ق٢، ص ٦٧٢–٦٧٣.

(١٩٠) ابن إياس، بدائع الزهور، ج١ ق٢، ص ٣١٤.

(١٩١) ابن إياس، بدائع الزهور، ج٢، ص١٨٠.

(١٩٢) ابن إياس، بدائع الزهور، ج٣، ص ١٥، ص ٢٦–٢٧.

(١٩٣) ابن إياس، بدائع الزهور، ج٢، ص١٣٦؛ والربع مخصص لسكن الطبقات الشعبية بأجور شهرية زهيدة، المقريزى، الخطط، ج٣، ص ٣٨٣؛ ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، ج١٠، ص٣٠٣، هامش ٣؛ حسين مصطفى رمضان، طوائف الحرفيين ودورهم الاقتصادى والاجتماعى، رسالة دكتوراه غير منشورة، كلية الآثار، جامعة القاهرة، ١٩٨٧م، ص٢٠٣.

(١٩٤) ابن إياس، بدائع الزهور، ج٣، ص ٤٣٦–٤٣٧.

(١٩٥) ابن إياس، بدائع الزهور، ج٣، ص ٧، ٢٩.

(١٩٦) ابن إياس، بدائع الزهور، ج٣، ص ٣٨٠، ٤١٤.

(١٩٧) ابن إياس، بدائع الزهور، ج٣، ص ٣٨١.

(١٩٨) ابن إياس، بدائع الزهور، ج٢، ص٤١٤.

(١٩٩) ابن إياس، بدائع الزهور، ج٤، ص٢٣٢.

(٢٠٠) كان دار التفاح فندقاً تجاه باب زويلة ترد إليه الفواكـه علـى اخـتلاف أصنافها، مما ينبت فى بساتين ضواحى القاهرة، وكان بدمشق أيضاً دار مشابهة لها، اسمها دار البطيخ والفاكهة، المقريزى، الخطط، ج٢، ص٥٣؛ السلوك، ج١ ق١، ص ١٨٤ هامش ٣؛ محاسن الوقاد، الطبقات الشعبية، ص ١٠٤ هـامش ١٤٠؛ حياة الحجر، أحوال العامة فى حكم المماليـك، دراسـة فـى الجوانـب السياسية والاقتصادية والاجتماعية، ط١، الكويت ١٩٨٤م، ص٨٨.

(٢٠١) الرباع جمع ربع وهو مجموعة من المساكن المؤجرة للغير تجمع حـول صحن، ويكون له فى الغالب مدخل واحد وسلم واحد، ويصل ارتفاع الربع إلى أربعة أو خمسة طوابق، ويتم الوصول إلى المساكن عن طريق طرقـة تـدور حول الصحن، وتوجد مجموعة من الجوانب بالجهة المطلة على الشـارع مـن الطابق الأرضى.

(٢٠٢) ابن إياس، بدائع الزهور، ج١ ق٢، ص٢٢١.

(٢٠٣) سعيد عاشور، مصر فى عصر دولة المماليك، ص١٢٤.

(٢٠٤) الشجاعى، تاريخ الملك الناصر محمد بـن قـلاوون الصـالحى وأولاده، تحقيق بربارة شيفر، فيسبان ١٩٧٨م، ص١٣١، ١٤٠، ٢٦١؛ ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، ج٩، ص١١٥.

(٢٠٥) ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، ج١٠، ص٣٣١.

(٢٠٦) المقريزى، السلوك، ج٣ ق٢، ص ٥١٣؛ ابن تغـرى بـردى، النجـوم الزاهرة، ج١١، ص٢٣٨.

(٢٠٧) ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، ج١١، ص ٣٢٣.

(٢٠٨) ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، ج١٢، ص٧٢.

(٢٠٩) ابن تغرى بردى، المنهل الصافى، ج٣، ص٤٨٩ – ٤٩٢.

(٢١٠) البيومى إسماعيل الشربينى، مصادرة الأملاك فى الدولة الإسلامية عصر سلاطين المماليك، سلسلة تاريخ المصـريين، العـدد ١١٠؛ ١٩٩٧م، ص٢٣؛ انظر حياة ناصر الحجى، السلطنة والمجتمع فى سلطنة المماليـك فتـرة حكـم

سلاطين المماليك البحرية من سنة ٦٦١هـ/١٢٦٢م إلى سنة ٧٨٤هـ/١٣٨٢م، الكويت ١٩٩٧م، ص ٥٢ وما بعدها؛ محاسن الوقاد، الحجابة زمن سلاطين المماليك، ص١٥٠.

(٢١١) ابن اياس، بدائع الزهور، ج١ ق٢، ص٧٥؛ البيومى إسماعيل، مصادرة الأملاك، ج٢، ص٢٢٥.

(٢١٢) ابن اياس، بدائع الزهور، ج١ ق٢، ص ١٩٠ – ١٩١؛ البيومى إسماعيل، مصادرة الأملاك، ص٢٥٧.

(٢١٣) ابن إياس، بدائع الزهور، ج٣، ص٦، ٨، ١٠- ١١؛ البيومى إسماعيل، مصادرة الأملاك، ج٢، ص٢٥٧.

(٢١٤) ابن إياس، بدائع الزهور، ج٣، ص ٧٦؛ البيومى إسماعيل مصادرة، ص٢٥٨.

(٢١٥) حسن الباشا، موسوعة العمارة والآثار والفنون الإسلامية، م٢ ط١، القاهرة ١٩٩٩م، ص٢٥٧؛ محاسن الوقاد، الحجابة زمن المماليك، ص١٧٣؛ أحمد عبد الرازق، الفنون الإسلامية في العصرين الأيوبى والمملوكى، القاهرة، ٢٠٠٣،ص٢٦٤.

(٢١٦) **Wiet, Lampes, p.183.**

(٢١٧) **Lamm, C.J, Mittelaterliche Glaser und Steinschnittarb iten aus dem Nahen osten, Band/text, Berlin,** 1930, **p.133, No.192; Sauvaget, Repertoire, XV, pp. 191–192, No.** 5911 - 5912.

(٢١٨) **Wiet, Lampes, p. 173, No. 119; Lamm, glaser, pp. 466–467; Mayer, Saracenic Heraldry, p. 223; Hiba yusuf, L'Eclairage a l'Epoque Mamluke, Tome II, PL, XLVI.**

أحمد عبد الرازق، الفنون الإسلامية، ص٢٦٩.

(٢١٩) سعيد عاشور العصر المماليكى، ص ٤٠٤.

(٢٢٠) **Van Berchem, Materiaux pour Corpus, I, P. 532, No. 359.**

(٢٢١) سعيد عاشور، العصر المماليكى؛ محمد الأشقر، نائب السلطنة؛ ص٢٧٤

محاسن الوقاد، الحجابة، زمن المماليك، ص١٧٤.

(٢٢٢) **Esin Atil, Art of the Arab World, Washington D.C,** 1975. **P.92, Art of the Mamluk, p. 197.**

(٢٢٣) **Sauvaget, Repertoire, XIV, p.** 274, No. 5600.

(٢٢٤) **Wiet, Ojets en cuivre , pp.** 225–226, No. 301.

(٢٢٥) محمد مصطفى، متحف الفن الإسلامى، ط١، القــاهرة ١٩٥٤م، ص ٦١؛ محمد الأشقر، نائب السلطنة، ٢٧٧؛

Wiet, Objets en Cuivre, pp. 198–199، انظر شكل (١) الوارد بالبحث.

(٢٢٦) المقريزى، الخطط، جـــ٢، ص ٣٠٨؛ مجهول تاريخ سلاطين المماليــك، ص ٣٠٨؛ ابن إياس ما بدائع الزهور، جـــ١ ق١، ص ٤٩٢، ٤٩٩. انظر شكل (٢) الوارد بالبحث.

(٢٢٧) فهرس الأثار الإسلامية بمدينة القاهرة، مصلحة المساحة ١٩٥١م، ص٣، محمد عبد الستار عثمان، نظرية الوظيفية بالعمائر الدينيـــة المملوكيـــة الباقيـــة بمدينة القاهرة، القاهرة ٢٠٠٠م، ص٤٨٧.

(٢٢٨) ابن إياس، بدائع الزهور، جـــ١ ق٢، ص ٩.

(٢٢٩) الكبش، اسم يطلق على الجزء الشمالى الغربى من جبـــل يشـــكر حيـــث المنطقة الواقعة غربى جامع ابن طولون، وسميت كذلك نسبة إلى مناظر الكبش التى أنشأها الصالح نجم الدين أيوب على جبل يشكر بجوار جامع ابن طولون، المقريزى، الخطط، جـــ٢، ص

(٢٣٠) ابن إياس، بدائع الزهور، جـــ٣، ص ٧٠ – ٧١.

(٢٣١) ابن إياس، بدائع الزهور، جـــ٣، ص ٧٠.

(٢٣٢) ابن إياس، بدائع الزهور، جـــ٣، ص ٣٠٩.

(٢٣٣) ابن إياس، بدائع الزهور، جـــ١ ق ٢، ص ٤.

(٢٣٤) ابن إياس، بدائع الزهور، جـــ٢، ص ٤٤٣.

(٢٣٥) جاستون فيت، القاهرة، مدينة الفن والتجارة، ترجمة مصـــطفى العبـــادى، بيروت ١٩٦٦م، ص ١٦٦.

(٢٣٦) ابن إياس، بدائع الزهور، جـ٤، ص٤٥٣.
(٢٣٧) فهرس الآثار الإسلامية، اثر رقم ٢١١.
(٢٣٨) ابن إياس، بدائع الزهور، جـ٣، ص ٣٠٩؛ محمد عبد الستار، نظرية الوظيفية بالعمائر الدينية، ص٤٩٠؛ انظر شكل (٣) الوارد بالبحث.
(٢٣٩) ابن حجر، الدرر الكامنة، جـ٢، ص ٢٢٥، الصفدى، الوافي بالوفيا، جـ١٦، ص ٤٦٧-٤٦٨.
(٢٤٠) عن الربع انظر ص٢٩.
(٢٤١) ابن إياس، بدائع الزهور، جـ٣، ص ٣٧١.
(٢٤٢) الصفدى، الوافي بالوفيات، جـ١٦، ص ٤٦٧ وما بعدها.
(٢٤٣) المقريزى، جـ٢، ص ١٤٧؛ على مبارك، الخطط التوفيقية الجديدة لمصر والقاهرة ومدنها وبلادها القديمة والشهيرة، القاهرة ١٩٨٣م، جـ٣، ص ٩٣.
(٢٤٤) المقريزى، الخطط، جـ٢، ص ١١٦؛ الصفدي، الوافي بالوفيات، جـ١٦، ص ٤٦٥ وما بعدها ابن تغرى بردى، جـ٩، ص ١٩٥ هامش ١.
(٢٤٥) ابن إياس، بدائع الزهور، جـ٣، ص ٤٣٠.

الفتح العثماني لمدينة بلغراد

٩٢٧ هـ / ١٥٢١ م

د. فيصل عبدالله الكندري
قسم التاريخ
كلية الآداب ـ جامعة الكويت

شكلت البلقان منطقة حيوية في سياسة التوسع العثماني في أوروبا، حيث كانت ركيزة للانطلاق إلى السيطرة على بقية أجزاء أوروبا الشرقية، ورغم هذه المكانة إلا أننا لو رجعنا إلى المكتبة العربية نجدها تفتقر بصورة ملحوظة إلى الدراسات الرصينة التي تتناول الوجود العثماني في شرق أوروبا، فهي تكاد تكون معدومة، وكل معلوماتنا عن الفتوحات العثمانية لا تتعدى بضعة أسطر متفرقة هنا وهناك بين كتاب أو مقالة، وكأن الباحث مر عليها على استحياء لعدم وجود معلومات مؤكدة عنها.

وكنا قد تناولنا في دراسة سابقة الفتح العثماني لجزيرة رودس[١]، وتلقينا ردود أفعال إيجابية كثيرة حول تلك الدراسة، فرأينا بأن نأخذ على عاتقنا تكثيف النشر حول الفتوحات العثمانية في تلك البلاد واحدة بعد الأخرى لشرح كيفية نجاح العثمانيين في السيطرة عليها، وتوضيح مدى المعاناة وحجم المأساة التي واجهوها حتى تم لهم ذلك.

إن المتتبع للعلاقات العربية اليوغسلافية يجد بأنها أخذت في التصاعد بشكل ملحوظ في الخمسينات والستينات من القرن الماضي بسبب حركة عدم الانحياز، فظهرت عشرات المقالات والدراسات والكتب عن يوغسلافيا، ولكنها لا تقدم معلومات كثيرة عن مدينة بلغراد، لذا لا تزال المكتبة العربية تفتقر إلى الدراسات حول هذه المدينة.

ولم يتحدث عن بلغراد سوى الدكتور محمد الأرناؤوط (موفاكو سابقا) فنشر كتابًا عنها بعنوان " تاريخ بلغراد الإسلامية " تناول فيه تاريخها ومكانتها العلميـــة، وأهم المعالم الأثرية الإسلامية والحضارية التي أقامها العثمانيون وما آلت إليه تلك المعالم، ولكن الباحث لم يتطرق لكيفية استيلاء العثمانيين على هذه القلعة الحصينة.

لذا نخصص هذه الدراسة للفتح العثماني لمدينة بلغراد، هذه المدينـــة التـــي استطاعت أن تصمد طويلاً في وجه العثمانيين، ولم يتم السيطرة عليها إلا في عام ٩٢٧هـ/١٥٢١م، وسنطرق لمحاولات العثمانيين المتوالية للسيطرة عليها معتمدين على المعلومات المتوفرة لدينا من خلال المصادر والمراجع العثمانيـــة والعربيـــة والتركية الحديثة والإنحليزية.

مصادر الدراسة :

اعتمدت هذه الدراسة على العديد من المصادر العربية والعثمانية، والعديد من المراجع العربية والإنجليزية وسنقف هنا على واحدٍ منها لتقديمه للقـــارئ العربـــي وخاصة أنه يطرح هنا ولأول مرة على بساط البحث، وهـــو للمؤلـــف رمضـــان، الفتحية الانكروسية السليمانية، وهو عبارة عن مخطوط موجود في مكتبـــة قصـــر الطـــوب قـــابي (طـــوب قـــابي ســـراي مـــوزه ســـي) تحـــت قســـم روان Topkapi Saray Muzesi Kutuphanesi, Revan 1279.

قام المؤلف بكتابة المخطوط بنفسه، كما صرح بذلك في أكثر مـــن موضـــع داخل المخطوط، بلغة عربية لا تخلوا من الركاكة، وكتبه بخط نسخ سهل القـــراءة، ويقع المخطوط في ١٠٨ صفحة من الحجم الصغير، بواقع ١١ سطرًا في الصفحة الواحدة، ويتكون كل سطر من ٦-٧ كلمات، ولكن مما يؤخذ على الكاتب أنه كرر معلوماته كثيرًا بين فترة وأخرى، ولو حذفنا الكلام المكرر ربمـــا لوصـــل حجـــم المخطوط إلى نصف حجمه الحالي أو أقل من ذلك[٢].

ورغم ذلك يعتبر هذا المخطوط من أهم مصادر الدراسة، لأنه كتب في فترة قريبة جدًا من الأحداث، وكما صرح المؤلف بقوله " ختمتُ هذه الرسالة الشـــريفة

الفتحية الانكروسية السليمانية في يوم عرفة من شهر رمضان من شهور سنة سبع وعشرين وتسعماية "[٣]، وقد وقع المؤلف في خطأ هنا حول الشهر، إذ لا يعقل هذا الكلام لأن يوم عرفة لا يكون في رمضان، وإنما في ذي الحجة، ومما يعزز هذا الرأي بأنه ذكر حوادث وقعت في شوال وذي القعدة[٤]، وهي شهور تأتي بعد رمضان، فلا يصح أن ينتهي مؤلفه في شهر رمضان ويذكر أحداثًا بعده، وبناء على ذلك نستطيع القول بأنه فرغ من كتابة المخطوط في ١٠ ذي الحجة ٩٢٧هـ / ١١ نوفمبر ١٥٢١م أي بعد شهرين من فتح مدينة بلغراد.

كما تكمن أهمية هذا المخطوط في أنه استقى معلوماته من خلال تجربته الشخصية فقد كان ممن شارك في الحملة، مع أنه لم يعلن ذلك صراحة، إلا أنه قارن كثير من الأماكن التي مر عليها وشاهدها بأخرى موجودة في استانبول ومنها قوله: " ونظر إلى نثه ورأى أنه يجرى جريانًا سريعًا كجريان البحر بين اسكدر وسراي خندكار "، وقوله : " وعرضه أكثر من عرض البحر فيما بين القسطنطينية وبين غلطه "[٥]، فهذا يدل على أنه رآها بعينه وقارنها بمشاهد راسخة في ذهنه من مدينة القسطنطينية، وهذا يقودنا إلى القول بأن المؤلف من سكان العاصمة.

وهناك عدة شواهد من المخطوط تقودنا إلى القول بأن رمضان كان من الأتراك العثمانيين، ولم يكن عربي الأصل منها أنه أدخل الـ التعريف على مكة وهذا دأب الأعاجم، كما كتب الكثير من الكلمات التي تنتهي بتاء مربوطة تاءً مفتوحة، وذلك لأن الأحرف العثمانية لا يوجد بها تاءً مربوطة، كما أورد بعض المصطلحات العثمانية، هذا علاوة على خلطه بين المذكر والمؤنث[٦].

الاسم والموقع :

تعتبر بلغراد Belgrade واحدة من أقدم مدن أوروبا، وهي اليوم عاصمة لدولة الصرب Serbia، وهي إحدى الدول التي ظهرت على أنقاض دولة يوغسلافيا السابقة، وعدد سكانها قرابة ١,٦ مليون نسمة، وتقع بين دائرتي عرض ٤٤-٤٩°، وخطي طول ٢٧-٢٠°، وترتفع بمقدار ١١٦,٧٥ مترًا عن سطح

البحر[٧]، واشتهرت مدينة بلغراد باسمها السلافي بيوغراد Beograd، وظهر اسم بلغراد لأول مرة في المصادر التاريخية في عام ٨٧٨م.

تقع بلغراد في جنوب شرق أوروبا في شبه جزيرة البلقان، وتقع عند التقاء نهري الدانوب Danube بالسافا Sava، ويحيط بها النهر من ثلاث جهات، وهي بوابة البلقان الشمالية Gate of the Balkans، ولهذا الموقع أهمية استراتيجية كبيرة حيث أنه يربط وسط أوروبا بغربها من ناحية، وأوروبا بالشرق الأوسط من ناحية أخرى، وكانت هناك شبكة مواصلات نهرية تصل بين بلغراد ــ سكوبية ــ سالونيك. وشبكة برية تصل بين بلغراد ــ نيش ــ صوفيا ــ استانبول[٨]، وبعد افتتاح قناة الراين ــ الدانوب Rhine – Main – Danube أصبحت بلغراد مركزًا لأهم الطرق النهرية في أوروبا الذي يصل بين بحر الشمال والبحر الأسود.

وبسبب هذا الموقع كانت بلغراد حلبة للصراع بين الإمبراطورية البيزنطية ودولة المجر، فكانت كل منها تسيطر عليها ردحًا من الزمن، لتأتي الثانية وتنتزعها منها وذلك خلال القرنين الحادي والثاني عشر الميلاديين، وخلال هذا الوقت برزت أهمية بلغراد كمركز أساسي للمواصلات في البلقان، خلال فترة الحروب الصليبية عندما انفتح هذا الطريق أمام القادمين من الغرب والذاهبين إلى الشرق، ولاسيما إلى فلسطين لتخليصها من أيدي المسلمين، فعبرت بلغراد الجيوش الرئيسة للحملة الصليبية الأولى، كما مرت بها القوات الفرنسية والألمانية للمشاركة في الحملة الصليبية الثانية عام ١١٤٧م.

وفي القرن الثالث عشر الميلادي أصبحت بلغراد دائرة للصراع بين بلغاريا والمجر، وصارت المدينة تتأرجح بين الدولتين، وفي العقد الثالث من هذا القرن خضعت المدينة للحكم المجري، وهنا أخذ العنصر الصربي من السلاف الجنوبيين يبرز في المنطقة، وتقرب أحد أمرائهم ويدعى دراغوتين Dragutin من البلاط المجري وتزوج ابنة الملك المجري لادسلاف الرابع Ladislav IV، وبموجب هذا الزواج حصل دراغوتين سنة ١٢٨٤م على بلغراد كجزء من منطقة ماتشفا Macva، وهنا دخلت بلغراد لأول مرة تحت الحكم الصربي[٩].

وفي القرن الرابع عشر الميلادي دخل العثمانيون حلبة الصراع في أوروبـا الشرقية، وأخذوا يتغلغلون في البلقان منذ منتصف القرن الرابع عشـر الميـلادي، وهذا جعلهم يصطدمون بالصرب، فنلاحظ أن لازار (لازاريفـتش Lazarivic) ملك الصرب قاد تحالفا مسيحيًا ضد العثمانيين في معركة كوسوفا Kosova عـام ١٣٨٩م، ونجح السلطان العثماني مراد الأول[١٠] في سحق الغزاة، وقُتل لازار في أرض المعركة، وبينما كان السلطان مراد الأول يتجول في أرض المعركة، ويتفقد القتلى تقدم إليه أحد الجنود الصرب بحجة تحيته، وما أن اقترب من السلطان حتى أخرج خنجرًا مدسوسًا، وطعن به السلطان مراد فاستشهد في أرض المعركة[١١].

وهنا تولى السلطان بايزيد الأول[١٢] زمام أمور الدولة العثمانية، ليقود الدولة في هذه الظروف الحرجة، فسارع إلى تنصيب استيفن Stephen بن لازار حاكمًا جديدًا على بلاد الصرب، ليضمن ولاءه، وليظل يحكم باسم السلطان العثماني ويدفع له جزية سنوية، وكان غرض السلطان من ذلك هو حاجته الماسة لدولة حاجزة بينه وبين دولة المجر، فوجد ذلك في استيفان ليقوم بصد هجمات المجر عن بلاده، وفي عام ١٣٩٢م تقدم خطوة أخرى لتقوية علاقته باستيفن، وطلـب السـلطان بايزيـد الزواج من أخته أوليفيرا Olivera، وكان هذا زواجًا سياسيًا ضمن فيه السـلطان استيفن وكسبه لجانبه، وصار الأخير تابعًا للسلطان[١٣].

ولم يقبل الغرب المسيحي بهزيمتهم في كوسوفا، وأخذ البابـا يـدعو الأمـم الغربية إلى حملة صليبية ضد العثمانيين، لوقف تغلغلهم وامتدادهم في البلقان وفي شرق أوروبا، وتشكلت حملة بقيـادة سجسـموند Sigismund ملـك الصـرب (١٣٨٧-١٤٣٧م)، وتقابلت الجيوش الصليبية مع العثمانيين في معركة نيكوبولس عام ١٣٩٦م[١٤]، تمكن السلطان بايزيد من هزيمتهم هزيمة نكراء، وكانت من نتائج المعركة أن أطلقت يد العثمانيين لعمل ما يحلو لهم في البلقان دون منافس أو غريم يخشى جانبه، وتحولت الدولة الصربية إلى دولة تابعة للعثمانيين، وتجاورت حدود الدولة العثمانية مع المجر.

استمر الوضع على ذلك حتى ظهور تيمور لنك ودخوله الحرب مع السلطان بايزيد، وأسفرت المعركة عن هزيمة السلطان بايزيد في معركة أنقرة عام ١٤٠٢م[١٥] على يد تيمور لنك، ليعلن استيفن – الذي وقف بجانب بايزيد في حربه في نيكوبولس[١٦] ومعركة أنقرة ضد تيمور لنك – انفصاله عن السلطان بعد الفوضى العارمة التي اجتاحت الدولة العثمانية بسبب وقوع السلطان بايزيد في أسر تيمور لنك[١٧]، فرجع استيفن إلى بلاده، وسارع إلى الاتصال بملك المجر جيغموند Gigmund وجرت مفاوضات بين الطرفين، حصل بموجبها استيفن على بلغراد مقابل اعترافه بتبعيته لملك المجر، ونلاحظ هنا أن تبادل المصالح للطرفين ساد على التواصل لهذا الاتفاق، ففي الوقت الذي كان يسعى فيه استيفن للاستقلال عن تبعيته للدولة العثمانية، كان ملك المجر بحاجة لولاء ذلك الأمير، لتقف بلاده سدا منيعًا أمام توغل العثمانيين، وليصد عن حدود بلاده الجنوبية الهجمات العثمانية المرتقبة في المستقبل[١٨].

ودخلت مدينة بلغراد ضمن نفوذه من عام ١٤٠٣م واستمرت حتى عام ١٤٢٧م لتصبح عاصمة لدولة الصرب، ومدينة من أهم المدن الاقتصادية والثقافية والدينية في أوروبا، فشهدت هذه الفترة بناء العديد من الأبنية الهامة مثل : كنيسة ميتروبوليتان Metropolitan Church والقلعة الجديدة، وقصر الحاكم، ومستشفى ومكتبة، كما منح التجار العديد من الامتيازات، وهذا دفعهم للقدوم إلى بلغراد للاستقرار فيها، وساهموا في رقيها وازدهارها، وارتفاع نسبة عدد سكانها.

وبعد وفاة استيفن قام خليفته بتسليم المدينة لملك المجر، فخضعت بلغراد للحكم المجري لمدة مائة عام تقريبًا لتشهد التركيبة السكانية للمدينة بعض التغييرات، عندما أجبر السكان من أصول صربية على النزوح عن المدينة ليسكنوا الضواحي والقرى المجاورة، كما لم يسمح لهم بالمرور أو بالبقاء في القسم العلوي من المدينة، وسمح الملك المجري سجسموند Sigismund بهجرة المجريين إليها ولاسيما من الحرفيين مما زاد من نسبتهم في المدينة، كما زاد الملك من تأثيرات

الكنيسة الكاثوليكية على حساب الأرثوذكسية[١٩]. وبدا واضحًا بأن الملك فكر في تحويل بلغراد إلى مدينة مجرية، لأنها أصبحت بمثابة بوابة المجر أمام العثمانيين[٢٠].

العثمانيون وبلغراد :

قام العثمانيون بعدة محاولات لضم مدينة بلغراد، ويمكن حصرها في التالي :

السلطان مراد الثاني (٨٢٤-٨٥٥هـ/١٤٢١-١٤٥١م) :

تمكن السلطان محمد الأول (جلبي : ٨١٦-٨٢٤هـ/١٤١٣-١٤٢١م)[٢١] من الانتصار على بقية أخوته، وعمل على تثبيت نفوذ الحكم العثماني لتصبح الدولة قادرة على القيام من كبوتها بعد هزيمة أنقرة، فحرص على استعادة ما فصله تيمور لنك في الأناضول وأوروبا، ثم جاء ابنه مراد الثاني[٢٢] ليستأنف الفتوحات العثمانية بعد فترة التوقف الماضية، وما أن علم العثمانيون بوفاة استيفن حتى تقدموا في بلاد الصرب لتعود خطوط التماس بين العثمانيين والمجريين على الاقتراب من جديد وهذا ما دفع المجريين إلى المطالبة بمدينة بلغراد ـ كما ذكرنا آنفا ـ وتحويلها إلى مدينة مجرية قوية لتصبح قادرة على وقف التغلغل العثماني.

وتجدد القتال بين الدولة العثمانية وبلاد المجر، فتحالف ملك المجر ألبير ـ الذي حكم بعد سجسموند ـ مع أمير الصرب لتشكيل جبهة واحدة ضد السلطان العثماني، وفكرا في توسيع دائرة التحالف لجمع أكبر عدد ممكن من أعداء السلطان في هذا التحالف، وعقدا تحالفا مع إبراهيم بك أمير إمارة قرمان في بلاد الأناضول، ونجح السلطان مراد في هزيمة إبراهيم بك أولاً، ثم ذهب لملاقاة أمير الصرب المدعو جورج برنكوفيتش Brankovich فما كان منه إلا أن جهز ابنته مارا Mara بجهاز عظيم، وعرضها على السلطان مراد، وطلب منه العفو، فعفا عنه وتزوج ابنته في عام ١٤٣٥[٢٣]، كما طلب منه التنازل عن بلدة كروشفاتس Kresvac (وتعرف عند العثمانيين باسم الاجه حصار)، ورغم ذلك ظلت علاقة الصرب قوية بملك المجر.

وفي عام ٨٤١هـ/١٤٣١م حاصر السلطان مراد الثاني قلعة بلغراد، وعبرت فرقة عثمانية نهر السافا، ودخلت بلاد المجر ووصلت حتى بلينيه Bielina[٢٤]، وحاصرت الجيوش العثمانية بلغراد مدة ستة شهور، ولكن السلطان لم يتمكن من فتح المدينة لاستبسال المدافعين عنها[٢٥].

وبعد ذلك شق جورج برنكوفيتش أمير الصرب عصا الطاعة، ورفض الانصياع لأوامر السلطان، فاستولى السلطان مراد على سمندرة Smenderovo التي تبعد ٤٥ كليومترا عن بلغراد، بعد أن حاصرها مدة ثلاثة شهور، وفر برنكوفتش ولجأ إلى آلبيير ملك المجر[٢٦]، واحتل السلطان مناطق أخرى من بلاد الصرب.

وجرت معارك أخرى بين العثمانيين والمجريين، ورأى السلطان أن يهادن المجر مدة عشر سنوات، وتم توقيع المعاهدة بينهما في عام ٨٤٨هـ/١٤٤٤م، وتوفى بعدها علاء الدين وهو أكبر أولاد السلطان مراد، فحزن عليه السلطان حزنًا شديدًا، وزهد بالسلطة، فتنازل عن الملك لابنه محمد وذهب للإقامة بعيدًا عن هموم الدنيا ومشاكلها.

وما أن وصل السلطان مراد إلى عزلته حتى علم بغدر المجر للمعاهدة المبرمة بينهما، وكان الكاردينال سيزاريني Cardinal Cesarini مندوب البابا يحاول إقناع لادسلاس Vladislav ملك المجر بأن عدم احترام العهود مع المسلمين لا يعد خرقًا ولا نقضا لها، فقام ملك المجر بالاعتداء على أراضي السلطان، وأخذ سيزاريني ينادي بتجهيز حملة صليبية ضد العثمانيين، فتم تجهيز حملة كبيرة شارك فيها ملك المجر وسيزاريني والقائد المجري هونيادي Hunyadi، والتحمت الجيوش العثمانية مع المجرية في معركة فارنا Varna في ٨٤٨هـ/١٤٤٤م، وأسفرت المعركة عن هزيمة الجيوش المجرية ومقتل كل من لادسلاس وسيزاريني وفرار هونيادي من أرض المعركة[٢٧]. وبعد ذلك بعدة سنوات توفى السلطان مراد الثاني في ٨٥٥هـ/١٤٥١م وعمره ٤٩ عامًا.

السلطان محمد الثاني (الفاتح) :

ولد السلطان محمد يوم السبت الموافق ٧ رجب ٨٣٣هـ / ١ ابريل ١٤٣٠م، وتولى الحكم بعد وفاة أبيه (٨٥٥-٨٨٦هـ/١٤٥١-١٤٨١م)، ونجح السلطان محمد في تحقيق حلم السلاطين العثمانيين في فتح القسطنطينية عـام ٨٥٧هـ/١٤٥٣م، ووجه بذلك الضربة القاضية للدولة البيزنطية التي انتهت على يده.

وسار بعدها السلطان محمد إلى بلاد الصرب في عـام ٨٥٨هـ/١٤٥٤م فتصدى له القائد هونيادي، ونجح الأخير في صد مقدمة الجيوش العثمانية، وأبـرم السلطان محمد اتفاقية مع أمير الصرب ووافق الأخير على دفع إتاوة سنوية مقدارها ٨٠ ألف دوكا[٢٨].

وفي عام ٨٦٠هـ/١٤٥٦م[٢٩]، غزا السلطان محمد بلاد الصرب مرة أخرى بجيش قوامه ٥٠ ألف مقاتل[٣٠] اخترق بلاد الصرب من جنوبها إلى شمالها دون أن يلقى مقاومة تذكر، وفرض حصاره على مدينة بلغراد من ناحية البر والبحر، ولكن القائد هونيادي نجح في دخول بلغراد قبل إتمام الحصار عليها، مما يدل علـى أن المجر علمت بتحركات السلطان محمد، وأرسلت المدد برفقة هونيادي لنجدة بلغراد، كما جاءت سفن عديدة لفك الحصار البحري المفروض على المدينة.

وكانت الأخبار قد تسربت من القسطنطينية بأن العثمانيين يبنون سفنًا جديـدة لمحاربة المجر، فأرسل ملك المجر لادسلاس عندئذ إلى بابا روما ليحشد الحشـود الصليبية لنجدة المجر، ولكن سرعان ما وصلت القوات العثمانية إلى بلغـراد مـع إطلالة الأسبوع الأول من يوليو عام ١٤٥٦م بقيادة دايي قراجا باشا بكلربك (أمير أمراء) الروميلي[٣١].

وكان السلطان محمد قد أمر رجاله بتجميع النحاس التالف والصلبان وأجراس الكنائس، وأمر بصهرها وصبها مدافع، واستخدمها في حصار بلغراد، كما جـاءت سفن كثيرة للمشاركة في الحصار، وشدد العثمانيون الحصار، وبينما كـان يقـوم قراجا باشا بقصف قلعة بلغراد جاءت قذيفة من داخل القلعة وسقطت عليه، فاستشهد

في الحال، ودار قتال عنيف بين الجانبين، قدَّم العثمانيون الكثير من الضحايا من خلال محاولات الاقتحام التي كانوا يقومون بها بين فترة وأخرى، وكان آخرها عندما تقدمت فرقة من الإنكشارية نحو القلعة، فحاصرتهم قوات المدينة وقطعت عنهم المدد، وهلك عدد كبير منهم بما فيهم أغا الإنكشارية حسن أغا، وكان السلطان محمد يناشد جنوده الصبر والتحمل[٣٢].

وهكذا استماتت هونيادي في الدفاع عنها، وصمدت المدينة في وجه العثمانيين، وتكبد الفريقان خسائر فادحة في الأرواح[٣٣]، مما أجبر السلطان محمد على رفع الحصار عنها بعد إصابة هونيادي إصابات بليغة في المعارك التي دارت بينهما، وكانت السبب في وفاته بعد عشرين يومًا من رفع الحصار العثماني عن بلغراد[٣٤]، وهذا شجع السلطان محمد على أن يبعث الصدر أعظم محمود باشا لإتمام فتح بلاد الصرب في عام ٨٦٢هـ/١٤٥٨م، وظل الوزير يحاربهم لمدة سنتين حتى أنجز مهمته عام ٨٦٤هـ/١٤٦٠م عندما فقدت الصرب استقلالها نهائيًا، وصارت تابعة للعثمانيين باستثناء مدينة بلغراد[٣٥].

السلطان بايزيد الثاني :

ولد السلطان بايزيد الثاني ٨٥٩هـ/١٤٥٥م[٣٦]، وتولى الحكم في ١٨ ربيع الأول ٨٨٦هـ / ١٧ مايو ١٤٨١م، وعمره آنذاك ثلاثون عامًا، وحكم لمدة اثنين وثلاثين عامًا، وكان السلطان بايزيد ميالاً للسلم أكثر من الحرب، لذا لم تشهد أراضي الدولة العثمانية زيادة ملحوظة في عهده، ولكن ما يميِّز فترة حكم السلطان بايزيد الثاني بداية علاقاته الودية مع كثير من الدول الأجنبية، فبدأت علاقة الدولة لأول مرة مع روسيا، حيث شهد عام ١٤٩٢م وصول أول سفير روسي إلى القسطنطينية، كما بدأت العلاقات مع مملكة بولونيا (لهستان) وهي بولندا Poland الحالية، ونابولي وميلانو وفلورنسا، وفصلهم بذلك عن البندقية، وأرسل السلطان جيوشه لتنجح في الاستيلاء على مدينة ليبانتو أو ليبانته من بلاد اليونان، ولما اضطربت الأمور الداخلية أمام السلطان بايزيد بسبب نزاعه مع أبنائه على السلطة[٣٧]، عقد صلحًا مع كل من المجر والبندقية ليتفرغ لشؤونه الداخلية.

والذي يعنينا من الأحداث التي جرت في عهد السلطان بايزيد الثاني أنه أرسل جيوشه لحصار مدينة بلغراد في العقد الأخير من القرن الخامس عشر الميلادي، وذلك لبقائها نقطة سوداء على الشاطئ الأيمن من نهر الدانوب بين أراضي السلطان، ولم تفلح القوات العثمانية في دخول المدينة، وظلت بقعة تابعة لدولة المجر[٣٨].

السلطان سليمان القانوني :

وهو عاشر سلاطين الدولة العثمانية، ولد السلطان سليمان عام ٩٠٠هـ/١٤٩٥م وتولى الحكم بعد وفاة أبيه السلطان سليم الأول في عام ٩٢٥هـ/١٥٢٠م، وكان عمره آنذاك خمسة وعشرين عامًا، واستمر حكمه حتى عام ٩٧٤هـ/١٥٦٦م، وقامت السلطات بنشر خبر توليه العرش إلى كافة أرجاء الدولة العثمانية، وعندما وصل خبر توليه العرش إلى جان بردي الغزالي والي الشام، أظهر العصيان وتمرد على الدولة مستغلاً بعد بلاد الشام عن مركز الدولة، وصغر سن السلطان الجديد، واستولى الغزالي على قلعة دمشق ونادى بنفسه سلطانًا عليها.

فكر السلطان في القضاء على حركة التمرد هذه التي تُعد أول تحدٍ له ولسلطانه، فكان عليه أن يقمعها قبل استفحال أمرها، ليبرهن على قدرته وكفاءته لكل من تسوّل له نفسه، فأرسل وزيره فرهاد باشا[٣٩]، إلى بلاد الشام حيث حاصر مدينة دمشق، وقبض على الغزالي وقتله في عام ٩٢٧هـ/١٥٢١م، وأرسل رأسه إلى القسطنطينية[٤٠].

وأثناء ذلك كان السلطان سليمان قد أرسل رسولاً إلى ملك المجر ليعرض عليه دفع الجزية أو الحرب، فقام الأخير وقتل رسول السلطان وهو بهرام جاوش[٤١]، وغضب السلطان غضبًا شديدًا، وفكر في طريقة لتأديب ملك المجر، فأمر بتجهيز الجيوش، وجمع المؤونة والذخائر استعدادًا لمحاربة ملك المجر[٤٢]، والجدير بالذكر أن المجر تعرف عند العثمانيين باسم انكروس، وكانوا يطلقون على

عاصمتهم اسم بُدُن، ورأى السلطان سليمان أنه لو أراد الوصول إلى بودابست عاصمة المجر فعليه أن ينتزع منهم القلاع التي كانت تعترض طريقه للوصول إليها، ولاسيما بلغراد التي كانت تقع وسط الأراضي العثمانية.

وفكر السلطان سليمان في أن يحاصرها برًا وبحرًا، لذا أمر الترسانة ببناء خمسين سفينة كبيرة، وأربعمائة سفينة صغيرة لفرض الحصار البحري على المدينة، ولما تم الانتهاء من بنائها طلب السلطان بان ترسل إلى بلغراد عن طريق البحر الأسود، ومنها إلى نهر الدانوب (الطونه أو تُنَه)، وأخيرًا إلى مدينة بلغراد التي هي ملتقى نهري الدانوب والسافا (صاوه او صاف)[٤٣].

وحشد السلطان سليمان الحشود، وتجمعت في مدينة صوفيا[٤٤]، وأخرج السلطان جيشين، الأول بقيادة الصدر أعظم بير محمد باشا (ويعرف أحيانًا باسم بيري باشا)[٤٥] لمحاصرة مدينة بلغراد، والوزير أحمد باشا[٤٦] لفتح المناطق المجاورة لبلغراد، وهما من خيرة وزرائه وقواده[٤٧]، ولم يكتف السلطان بذلك، وإنما خرج بنفسه في مقدمة الجيوش العثمانية ليقود بنفسه أول حمله في عهده[٤٨].

وكلف السلطان الوزير أحمد باشا بمحاصرة مدينة بُكْرِدَلَنْ أو شاباج[٤٩] (وتعرف اليوم باسم Sabotica)[٥٠] الواقعة على نهر السافا من أجل استكمال تطويق مدينة بلغراد، وعزلتها عزلة تامة عن بقية المدن والقلاع المجرية.

وبعد أن حاصرا الوزير أحمد باشا مع من معه من جيوش الروميلي، اشتبك مع أهالي المدينة الذين دافعوا عنها دفاع المستميت، وعانى الطرفان من خسائر كبيرة في الأرواح، ونجح بعض الجنود العثمانيين في ارتقاء الأسوار، فدخل الوزير أحمد باشا مدينة بُكْرِدَلَنْ في يوم السبت الموافق ١ شعبان ٩٢٧هـ / ٧ يوليو ١٥٢١م[٥١]، بعد أن قُتل منهم قرابة مائة فارس، وفر عدد كبير من رجالها من المدينة عبر نهر السافا[٥٢].

وفي اليوم التالي وصلها السلطان، ثم اجتمعت جيوش السلطان مع جيش أحمد باشا الذي حاصر هذه المدينة، وسار بها السلطان لمساندة الوزير بير محمد باشا الذي

خرج من قبل وسار برًا لمحاصرة مدينة بلغراد، بعد أن تزود بكل ما يحتاج إليه من آلات الحصار والمدافع(٥٣)، وتجمعت الجيوش العثمانية وأحاطت بمدينة بلغراد.

وتقع مدينة بلغراد على نهر الدانوب (الطونه أو تنه) وبنيت قلعتها على أرض مرتفعة لتكون حصينة، وأضيفت لها أبراج المراقبة لمتابعة تحركات المحاصرين لها، وإفشال خططهم ومساعيهم لدخول المدينة، وبنى جدارها من الأحجار الكبيرة الحجم لدرجة أن الكاتب رمضان وصفها بقوله كأن البرج مبني من "حجر واحد مصمت نزل من السماء إلى الأرض أو خرج من تحت الأرض إلى فوقها"، وهذا يدل على قوة المدينة ومنعتها، كما كان أهلها يجيدون استخدام الأسلحة المختلفة بمهارة(٥٤).

ولما وصل السلطان مع أركان دولته إلى بلغراد أقام خيمته في مكان مرتفع مقابل المدينة لينظر إليها باستمرار، وليتابع تطورات الأحداث عن كثب ودون حائل، وأخذ كل وزير موقعه، والتحمت القوات الجديدة القادمة مع السلطان مع جيوش الوزير بير محمد باشا، وعزلت الجيوش العثمانية بلغراد عزلة تامة عن بلاد المجر لضمان عدم وصول أية إمدادات إليها.

وهنا فكر العثمانيون في إيجاد وسيلة تضمن سهولة انتقال القوات العثمانية من ضفة لأخرى دون الحاجة لاستخدام السفن، ولاسيما وأن المياه تحيط ببلغراد من ثلاث جهات، فقام الوزير قراجة باشا(٥٥) بتحديد أنسب مكان لوضع الجسر المطلوب، فوقع اختياره على منطقة ينقسم عندها نهر السافا إلى قسمين مكونًا ما يشبه الجزيرة بين منطقتي سَرِمْ وبلغراد، وأحضر الوزير قراجة باشا عدة سفن وربطها بالسلاسل، بحيث يسمح سطح السفن بمرور القوات العثمانية مع معداتهم العسكرية، ووضع بضعة مدافع عند طرفيه لمنع أية محاولة اقتحام أو محاولة لحرق السفن قد يقوم بها أهالي المجر(٥٦).

وفي هذا الوقت نجح الوزير بير محمد باشا في فتح قلعة زَمِنْ (أو زمين Zemun وهي الآن جزء من مدينة بلغراد) الواقعة على نهر الطونة، وقتل الجنود

الموجودين فيها[٥٧]، وأخذت القوات العثمانية تقترب من مدينة بلغراد شيئًا فشيئًا، وحاصر العثمانيون القلعة الخارجية لمدينة بلغراد المعروفة باسم مَرَشْ وطلب السلطان من وزرائه وقواده بأن يقوموا بهدم أسوارها، وكانت هناك ثلاث فرق تحيط بها، هي : الميمنة، وهي فرقة الوزير بير محمد باشا من الناحية البرية في جانب نهر السافا، والقلب : وهي فرقة أحمد باشا مع جيوش الروميلي من ناحية الجزيرة ونهر الدانوب (الطونه)، والميسرة : وهي فرقة مصطفى باشا من جهة مدينة سمندرية، وأنجز كل وزير ما طلب منه حتى ساووا الأسوار بالأرض، وسقطت القلعة في أيديهم في ١٧ رمضان / ٢١ أغسطس[٥٨].

وهنا اجتمع السلطان مع أركان دولته ووزرائه لبحث أفضل السبل للاستيلاء على مدينة بلغراد، وتم الاتفاق على تحديد الموعد النهائي للهجوم على قلعة بلغراد الداخلية ذات الأبراج العالية، وتم تحديد يوم الخميس كموعد للقيام بهجوم كبير على القلعة، وفي اليوم المحدد جاء السلطان سليمان ووقف مقابل بلغراد استعدادًا للهجوم، فإذا به يفاجئ بقيام المجريين بسد الطرقات المؤدية إلى المدينة بالحجارة والأشجار، كما قاموا بحرق بيوت قلعة مرش لمنع العثمانيين عن التقدم باتجاه القلعة الداخلية.

ولم يأبه العثمانيون بذلك وواصلوا تقدمهم باتجاه بلغراد، وفي نفس الوقت قام المجريون بضرب تجمعات الجيوش العثمانية بقذائف المدفعية التي أسقطت عددًا كبيرًا منهم، وأدرك السلطان خطورة الأبراج التي كانت تنطلق منها القذائف باتجاه العثمانيين، فخصص السلطان كل وزير لبرج معين وطلب منهم تكثيف قصفها بالمدافع ليل نهار، وكان العثمانيون يلقون على بعضها النار الحارقة، ولم يجد كل ذلك حيث كانت الطرق المؤدية إلى المدينة مليئة بالأشجار الكبيرة التي كانت مربوطة بعضها ببعض بالسلاسل، حتى أضحت هذه الطرق المفتوحة احكم من ذي قبل، وأبلى العثمانيون بلاءًا حسنًا، ولكن دون جدوى.

واحتار السلطان ومن معه في كيفية الدخول، وفكر السلطان في الأنفاق كطريق لاختراق الدفاعات المجرية، وكان المجريون قد تجمعوا في برج يقال له

نَبُويْسه (ويلفظ حاليًا نيبويشه Nebojse)، ومعناه البرج الحصين، وباشر العثمانيون الحفر تحت ذلك البرج، وتدخلت القدرة الإلهية لمساندة العثمانيين فوقع زلزال شديد في بلغراد في ذلك اليوم(٥٩)، وأسفر الزلزال عن تهدم البرج الذي فوق النفق، فسقط البرج الحصين بمن فيه وهوى أرضًا.

وأثناء هذا الوقت بدأ المجريون يعانون من ويلات الحصار والحرب، وأخذت أسلحتهم وذخيرتهم في النفاد، كما بدت عليهم ملامح الجوع من طول الحصار والخناق الذي ضربه العثمانيون على مدينتهم، لدرجة أن ملك المجر عجز عن إرسال مؤونة ومعدات لهم، وهنا قام أهالي المدينة بمراجعة حساباتهم فأدركوا أن الهلاك يحدق بهم، إما بسبب الجوع أو وقوعهم في أسر العثمانيين، ولم يكن أمامهم إلا تسليم المدينة للنجاة بأرواحهم وأموالهم، وعرضوا التسليم على السلطان سليمان شريطة السماح لهم بمغادرة المدينة، فوافق السلطان على ذلك، وسمح لهم بأخذ أمتعتهم وأموالهم، وخرجت سفنهم محملة بالأهالي وغادروها متجهين إلى بلاد المجر(٦٠).

الخاتمة :

لاحظنا هنا كيف شرع العثمانيون في حصار بلغراد في ٢٦ شعبان / ١ أغسطس، وشددوا الخناق عليها، وكيف قاوم المجريون مقاومة مستميتة[٦١]، ولكن مع شدة الحصار لم يكن أمام القوات المجرية إلا أن قرروا الاستسلام، وأخلوا قلعتها في ٢٤ رمضان ٩٢٧هـ / ٢٨ أغسطس ١٥٢١م[٦٢]، أي بعد حصار دام ثمانية وعشرين يومًا، ودخلها السلطان وصلى صلاة الجمعة في إحدى كنائسها التي تم تحويلها إلى جامع[٦٣].

وفي يوم الاثنين ٣٠ رمضان / ٣ سبتمبر دخل السلطان سليمان مدينة بلغراد وتجول بها، وقام السلطان سليمان ببعض الأعمال الاحتياطية ليؤمن فتح بلغراد، فقطع الأشجار الموجودة في جزيرة أضه المقابلة لبلغراد حتى لا يتخذها المجريون أو الصرب خلايا لإيقاع الأذى بالعثمانيين[٦٤]، كما أمر بمحاربة بعض المجريين الموجودين في سَرَمْ كي حتى لا تكون وكرًا لتجمع أعدادهم للقيام بأعمال انتقامية ضد العثمانيين.

كما نادى السلطان بهدم القلاع المجاورة لبلغراد كقلعة زمن وقلعة العجوز من اجل ألا تكون تربة خصبة لتجمع المجريين، وحتى تكون الأرض مكشوفة أمام بلغراد، ويرى من بداخلها كل ما أمامها دون عوائق، هذا بالإضافة إلى الاستفادة من حجارتها في ترميم أسوار وقلاع بلغراد لزيادة حصانتها، وأبقى فيها حامية عثمانية للدفاع عنها إذا تعرضت لأي خطر خارجي[٦٥]، ويقول المؤرخ إبراهيم بجوي بأن ترميم وإعادة تحصين مدينة بلغراد كلف خزينة الدولة عشرين ألف وحدة نقد من الذهب (برمكي بيك نقد التون)[٦٦].

وبعد أن فرغ السلطان من تلك الأعمال شرع في العودة إلى القسطنطينية في ١٢ شوال / ١٥ سبتمبر، ووصلها في أواخر ذي القعدة ٩٢٧هـ / أواخر أكتوبر ١٥٢١م.

وأخذ السلطان سليمان يرسل للأمصار العثمانية نبأ فتح مدينة بلغراد، فأرسل إلى قضاة الولايات العثمانية، وإلى علي بك حاكم ذو القادر،و إلى الوزير فرهاد باشا الذي أرسله لمحاربة جان بردي الغزالي[٦٨].

وقد أوضحت الدراسة أن سكان مدينة بلغراد استسلموا للعثمانيين شريطة السماح لهم بمغادرة المدينة، ولما وافق العثمانيون على ذلك توجهوا إلى مدينة بودابست (أو بود كما عرفت عند العثمانيين) عاصمة المجر، ولتصبح تلك المدينة بعد ذلك هدفا جديدًا للعثمانيين، فيسيطرون عليها في ٣ ذي الحجة ٩٣٢هـ / ١٠ سبتمبر ١٥٢٦م.

وبعد الفتح العثماني لمدينة بلغراد أخذت المدينة تنمو بشكل ملحوظ حتى أصبحت من أكبر مدن أوروبا الشرقية، ومركزًا من مراكز الثقافة الإسلامية في العمق الأوروبي خلال القرن السابع عشر الميلادي، ولكن هذا الوضع لم يستمر طويلاً حيث بدأت بوادر الوهن تنتاب الدولة العثمانية، وبدأت الدولة تمنى بهزائم متتالية أمام الجيوش الأوربية، فوقعت بلغراد في حلبة الصراع بين الدولة العثمانية والنمسا، يسيطر عليها كل منهما فترة من الزمن لتستردها الأخرى بدءً من أواخر القرن السابع عشر الميلادي وحتى بدايات القرن التاسع عشر، ليأتي بعد ذلك دور الصرب ويدخلوا كطرف في النزاع على بلغراد منذ عام ١٢٢١هـ/١٨٠٦م لتصبح بلغراد عاصمة لصربيا في عام ١٢٩٣هـ/١٨٧٦م، ولتتحول بعد ذلك عاصمة لجمهورية يوغسلافيا خلال الفترة ما بين ١٣٣٦-١٤٠٣هـ/١٩١٨-١٩٨٣م[٦٩].

الهوامش :

١- عبدالرحيم بن عبدالرحمن العباسي، منح رب البرية في فتح رودس الأبيــة، دراسة ونشر وتحقيق د. فيصل عبدالله الكنــدري، حوليــات كليــة الآداب، الرسالة ١٢٢، جامعة الكويت، ١٩٩٧-١٩٩٨م.

٢- ومثال ذلك أنه كرر عبارة أن السلطان محمد الفاتح لم يقدر علــى بلغــراد وفتحها السلطان سليمان حوالي ١٣ مرة.

٣- رمضان، الفتحية الانكروسية السليمانية، طوب قابي ســراي مــوزه ســي، روان؛ ورقة ١٠٥ أ، Top Kapi Saray Müzesi, Revan, 1279.

٤- وذلك عندما صرح المؤلف بأن السلطان سليمان عاد إلى القسطنطينية في ١٢ شوال، ووصلها في أواخر ذي القعــدة، رمضـــان، الفتحيـــة الانكروســـية السليمانية، طوب قابي سراي موزه سي، ورقة ١٠٤ أ.

٥- رمضان، الفتحية الانكروسية السليمانية، طوب قابي سراي موزه سي، ورقة ٧٣ أ و ب.

٦- رمضان، الفتحية الانكروسية السليمانية، طوب قابي سراي موزه سي، ورقة ١٤ أ، ورقة ٤١ ا، ورقة ٦٤ ب، ورقة ٧٢ ب، ورقة ٧٩ ب.

7- www.beograd.orf.yu/

٨- محمد موفاكو، تاريخ بلغراد الإســلامية، الكويــت، دار العروبــة للنشــر والتوزيع، ١٩٨٣م، ص٩.

٩- محمد موفاكو، تاريخ بلغراد الإسلامية، ص١٠-١٢.

١٠- مراد الأول، وهو ابن السلطان أورخان بن عثمان، تقلد الحكم عـــام ٧٦١-٧٩٢هـ/١٣٦٠-١٣٨٩م، حكم ٣١ سنة، وتوفى وعمره ٦٥ عامًا.

١١- محمد بن أبي بكر السرور البكري، المنح الرحمانية في الدولـــة العثمانيـــة، تحقيق د. ليلى الصباغ، ط١، مطبوعات مركز جمعة الماجد للثقافة والتراث بدبي، دمشق، دار البشائر، ١٩٩٥م، ص٢٣.

١٢- بايزيد الأول، وهو ابن السلطان مراد الأول، حكم الدولة العثمانية عام ٧٩٢-٨٠٥هـ/١٣٨٩-١٤٠٣م، حكم ١٣ عامًا، استولى على كثير من إمـــارات الأناضول في عهده، توفى وهو في أسر تيمور لنك.

13- Colin Imber, The Ottoman Empire 1300-1481, Istanbul: The Isis press, 1990, p. 42-43.

١٤- معركة نيكوبولس، شاركت العديد من الدول الأوربية في هذه المعركة مـــن أمثال البندقية وجنوة وفرنسا وإنجلترا، وتقدمت هذه القوات واحتلت بلغاريـــا بسهولة التي كان بايزيد قد احتلها في وقت ســـابق، ودارت هـــذه المعركـــة وانتهت بهزيمة الأوروبيين، لمزيد من التفاصيل، انظر : محمد أنيس، الدولة العثمانية والشرق العربي، القاهرة، مكتبة الأنجلو المصرية، د.ت، ص٣٩-٤٤، وانظر أيضًا :

Colin Imber. The Ottoman Empire 1300-1481, p. 45-47

١٥- معركة أنقرة، تعتبر من المعارك التي تركت صدى كبيرًا في الدولة العثمانية حيث مني بايزيد بخسارة فادحة على يد تيمور لنك، وسببت انتكاسة كبيـــرة للدولة العثمانية امتدت اثارها لأكثر من عقدين وساهمت في وقف الزحـــف العثماني باتجاه أوروبا قرابة ربع قرن، ووقع السلطان بايزيد أسيرًا في يـــد

تيمور لنك، لمزيد من التفاصيل حول أسباب ونتائج هذه المعركة، انظـر : محمد أنيس، الدولة العثمانية والشرق العربي، ص٤٦-٥٤.

١٦- محمد فريد بك المحامي، تاريخ الدولة العلية العثمانية، تحقيـق د. إحسـان حقي، ط٥، بيروت، دار النفائس، ١٩٨٦م، ص١٤٤.

١٧- تنازع أبناء بايزيد على السلطة حيث اقتسموا أملاك الدولة فيما بينهم، ونادى كل منهم بنفسه سلطانًا على منطقة ما، واستمرت هذه النزاعات بين عـامي ١٤٠٢-١٤١٢م عندما انتهت لصالح الابن الأصغر محمد الأول (جلبي).

١٨- محمد موفاكو، تاريخ بلغراد الإسلامية، ص١٣.

19- www.beograd.org. yu/City of Belgrade-Medieval Serbian Belgrade, p.2

٢٠- محمد موفاكو، تاريخ بلغراد الإسلامية، ص١٥.

٢١- السلطان محمد الأول، وهو أصغر أبناء السلطان بايزيد تولى الحكم وعمـره ٣٩ سنة، حكم ثمانية أعوام وتسعة أشهر، اقتصر حكمه على استعادة أملاك الدولة العثمانية على ما كانت عليه أيام والده، لمزيد من التفاصـيل انظـر: أحمد جلبي بن سنان القرماني، تارخي سلاطين آل عثمـان، تحقيـق بسـام الجابي، ط١، دمشق، دار البصائر، ١٩٨٥م، ص٢١-٢٢.

٢٢- السلطان مراد الثاني، عندما تولى الحكم كان عمره ١٨ عامًا، قضى علـى حركات العصيان التي ظهرت على يد عمه مصطفى، ثم على يد أخيه أيضًا، استولى على سالونيك من البندقية، كما هزم التحالف الصليبي فـي معركـة فارنا Varna عام ١٤٤٤م، لمزيد من التفاصيل انظر : يوسـف أصـاف،

تاريخ سلاطين آل عثمان، تحقيق بسام الجابي، ط٣، دمشق، دار البصائر، ١٩٨٥م، ص٥٢-٥٥.

23- Colin Imber. The Ottoman Empire 1300-1481, p. 116.

24- Mehmed Nesri, Kitab-I Ciham Numa (Nesr Tarihi), Yayinlayanlar: F. Unat & M. Koymen, Cilt ii, Ankara : TTk, 1987, s 626.

٢٥- إبراهيم بك حليم، التحفة الحليمية في تاريخ الدولة العلية، ط١، بيروت، مؤسسة الكتب الثقافية، ١٩٨٨م، ص٥٨-٥٩.

٢٦- محمد فريد بك المحامي، تاريخ الدولة العلية العثمانية، ص١٥٦.

٢٧- لمزيد من التفاصيل حول ما ورد في المصادر العثمانية المتقدمة راجع تغطية المؤرخ العثماني محمد نشري زاده حول هذه المعركة في :

Mehmed nesri, Kitab-Cihan Numa, s 648-656

وانظر أيضًا محمد فريد بك المحامي، تاريخ الدولة العلية العثمانية، ص١٥٧-١٥٨؛ وكذلك :

Colin Imber, The Ottoman Empire 1300-1481, p, 126-134.

٢٨- دوكا (أو دوقة Duka) وحدة نقد ذهبية أصدرتها البندقية قديمًا، واشتق الاسم من اللفظة الإيطالية دوكاتو ducato، تبلغ قيمتها ما بين ١٠-١٢ فرنكًا، انظر :

Mehmet Z. Pakalin, Tarih Deyimleri ve Terimleri Sozlugu (Istanbul: Milli Egitim Kitapevi), 1983, C1, s 479.

٢٩- عاشق باشا زاده، عاشق باشا زاده تاريخي، استانبول، مطبعة عامرة، ١٣٣٢م، ص١٤٨.

٣٠- يرفع يوسف أصاف هذا الرقم إلى مائة وخمسين ألفا، بالإضافة إلى ثلاثمائة مدفع، انظر : يوسف أصاف، تاريخ سلاطين آل عثمان، ص٦١.

31- Colin Imber, The Ottoman Empire 1300-1481, p. 166-169.

32- Mehmed nesri, Kitab-I Cihan Numa, c ii , s 720-722.

٣٣- عاشق باشا زاده، عاشق باشا زاده تاريخي، ص١٤٧.

٣٤- أحمد جلبي بت سنان القرماني، تاريخ سلاطين آل عثمان، ص٢٩.

٣٥- محمد فريد بك المحامي، تاريخ الدولة العلية العثمانية، ص١٦٨؛ وانظر أيضا :
Colin Imber, The Ottoman Empire 1300-1481, p. 173-176

٣٦- يقول النهروالي بأن أحمد بن الحسين العليف مدح السلطان بايزيد في قصيدة طويلة أسماها : " الدر المنظوم في منا قب السلطان بايزيد ملك الروم "، ولما سمح السلطان بذلك فرح بالقصيدة، وأمر لابن العليف بألف دينار ذهبًا مكافأة له، وخصص له في دفتر الصرة مبلغًا وقدره مائة دينار ذهبًا في كل عام، وبعد وفاته خصص المبلغ لأولاده، انظر قطب الدين النهروالي، الإعلام بأعلام بيت الله الحرام، ص٣٦١-٣٦٥.

٣٧- كان للسلطان بايزيد ثلاثة أبناء هم قورقد وأحمد وسليم، وأخذ الأبناء الثلاثة ينازعون والدهم على السلطة، وقضى السلطان بايزيد أواخر سنينه في حروبه مع أولاده ولكن انتهى الأمر بوصول سليم إلى عرش الدولة، لمزيد

من التفاصيل حول نزاع الأبناء، انظر : محمد فريد بك، تاريخ الدولة العلية العثمانية، ص١٨٦-١٨٧.

٣٨- محمد فريد بك، تاريخ الدولة العلية العثمانية، ص١٨٣-١٨٤.

٣٩- فرهاد باشا، أصل اسمه فرحات ولكنه حرف التركية إلى فرهاد، عينه السلطان سليمان واليًا على الشام عام ٩٢٨هـ/١٥٢١م بعد أياس باشا، لم تستمر فترة ولايته على الشام أكثر من عام حيث مرض ومات بدمشق يوم الخميس ٢٢ جمادي الأخرة ٩٢٩هـ/٦ مايو ١٥٢٣م، ودفن عند جامع ابن عربي بمدينة دمشق، وأعتق مماليكه، وأوصى بعشرين مقرئًا يقرؤون عليه القرآن ليل نهار، انظر : ابن طولون، إعلام الورى بمن ولي نائبًا من الأتراك بدمشق الشام الكبرى، تحقيق محمد أحمد دهمان، ط٢، دمشق، دار الفكر، ١٩٨٤م، ص٢٥٤-٢٥٦.

٤٠- لمزيد من التفاصيل حول الغزالي وحركة التمرد التي قام بها، راجع فيصل الكندري، جان بردي الغزالي وموقفه من العثمانيين، مجلة المؤرخ المصري، جامعة القاهرة، العدد ١٧، يوليو ١٩٩٦م، ص١١-٤٤.

٤١- طه زاده عمر فاروق بن محمد مراد، تاريخ أبو الفاروق، مجلد ٣، ط١، استانبول، ١٣٢٨، ص٢١.

٤٢- محمد فريد بك، تاريخ الدولة العلية العثمانية، ص١٩٩؛ يوسف أصاف، تاريخ سلاطين آل عثمان، ص٧٢.

٤٣- أحمد جلبي بن سنان القرماني، تاريخ سلاطين آل عثمان، ص٤١.

٤٤- صوفيا، وهي عاصمة بلغاريا اليوم، فتحها السلطان مراد الأول بعد حصار طويل دام ثلاثة أعوام من عام ٣-٧٨٥هـ/١-١٣٨٣م، محمد فريد بك، تاريخ الدولة العلية العثمانية، ص١٣٣.

٤٥- بير باشا، وهو بير محمد الجمالي الصديقي المعروف ببير باشا، كان صدر أعظم في عهد السلطان سليم وأبقاه السلطان سليم عندما تولى الحكم، وكان يضرب به المثل في فراسته وحلمه ورجاحة عقله، ولما كبر في السن تقاعد عن العمل في عام ٩٢٩هـ/١٥٢٣م، وعين مكانه الوزير إبراهيم باشا، بنى بير محمد تكية كبيرة ومكانًا لنزول المسافرين وجامعًا في دربند من ضواحي مدينة أدرنة، وأوقف عليها أوقافًا عظيمة، لمزيد من التفاصيل انظر: قطب الدين النهروالي، الإعلام بأعلام بيت الله الحرام، ص٢٩٦.

٤٦- أحمد باشا، وهو من عبيد السلطان سليم، وكان أقدم في الخدمة من إبراهيم باشا، وحقد على الأخير بعد تقلده منصب الصدارة العظمى، وأرسله السلطان واليًا على مصر، لذا أعلن العصيان على الدولة مستغلاً بُعد مصر عن مركز الدولة، وبينما هو بالحمام يحلق رأسه هجم عليه جمع غفير من أنصار السلطان، فهرب من مكان لآخر، وخرج من القاهرة ولجأ إلى شيخ عرب الشرقية عبدالدايم بن بقر، وأخذ أنصار السلطان يخوفون عبدالدايم من غضب السلطان عليه، فسلمه إليهم، فقطعوا رأسه وعلقوها على باب زويلة في عام ٩٣٠هـ/١٥٢٤م، وأخبروا السلطان بذلك، وتولى إدارة شؤون مصر محمد بك وجانم الحمزاوي إلى أن عين مصطفى باشا بكلر بك على مصر، لمزيد من التفاصيل انظر : قطب الدين النهروالي، الإعلام بأعلام بيت الله الحرام، ص٢٩٨.

٤٧- رمضان، الفتحية الانكروسية السليمانية، طوب قابي سـراي مـوزه سـي، روان، Top Kapi Saray Muzesi, Revan, 1279 ورقة ٤٩ أ.

٤٨- عبدالرحيم العباسي، منح رب البرية في فتح رودس الأبية، تحقيـق فيصـل الكندري، حوليات كلية الآداب، جامعة الكويت، الرسـالة ١٢٢، الكويـت، ١٩٩٧-١٩٩٨م، ص٩٣.

٤٩- إبراهيم بجوي، تاريخ بجوي، مجلد ١، اسـتانبول، انـدرون كتـاب أوي، ١٩٨٠م، ص٦٨.

٥٠- محمد فريد بك، تاريخ الدولة العلية العثمانية، ص١٩٩.

٥١- رمضان، الفتحية الانكروسية السليمانية، ورقة ٤٨ ب - ٥٣ ب؛ طـه زاده عمر فاروق بن محمد مراد، تاريخ أبو الفاروق، ص٢٢.

٥٢- فريدون بك، منشآت السـلاطين، ط١، ج١، اسـتانبول، ١٢٦٤، ص٤٥٦، ويقول فريدون بك أن دخول العثمانيين المدينة كان يوم الأحـد الموافـق ٢ شعبان.

٥٣- رمضان، الفتحية الانكروسية السليمانية، ورقة ٧٥ ب.

٥٤- رمضان، الفتحية الانكروسية السليمانية، ورقة ٧٠ أ.

٥٥- قواجه باشا، لم أقف على ترجمة له.

٥٦- رمضان، الفتحية الانكروسية السليمانية، ورقة ٧٧ أ - ٧٨ ب.

٥٧- إبراهيم بجوي، تاريخ بجوي، مجلد ١، ص٧٠ ؛ فريـدون بـك، منشـآت السلاطين، ج١، ص٤٥٧.

٥٨- رمضان، الفتحية الانكروسية السليمانية، ورقة ٨٣ ب؛ فريدون بك، منشآت السلاطين، ج١، ص٤٥٩.

٥٩- أشار السلطان سليمان إلى وقوع الزلزال في الرسالة التي بعثها إلى قضاة الدولة يبشرهم بفتح بلغراد والمؤرخة في أواخر رمضان ٩٢٧هـ؛ فريدون بك، منشآت السلاطين، ج١، ص٤٦٥.

٦٠- رمضان، الفتحية الانكروسية السليمانية، ورقة ٨٨ أ ـ ٩٠ أ ، ١٠٠ ب.

٦١- طه زادة عمر فاروق بن محمد، تاريخ أبو الفاروق، ص٢٣.

٦٢- رمضان، الفتحية الانكروسية السليمانية، ورقة ١٠٠ أ، بينما يقول فريدون بك بأن فتح بلغراد كان يوم الجمعة الموافق ٢٦ رمضان، فريدون بك، منشآت السلاطين، ج١، ص٤٦١.

٦٣- محمد فريد بك، تاريخ الدولة العلية العثمانية، ص٢٠١-٢٠٢، وقال محمد فريد بك بأن دخول بلغراد كان في ٢٥ رمضان / ٢٩ أغسطس.

٦٤- فريدون بك، منشآت السلاطين، ج١، ص٤٦٢.

٦٥- رمضان، الفتحية الانكروسية السليمانية، ورقة ١٠١ أ - ١٠٣ ب؛ طه زاده عمر فاروق بن محمد مراد، تاريخ أبو الفاروق، ص٢٣.

٦٦- إبراهيم بجوي، تاريخ بجوي، مجلد ١، ص٧١.

٦٧- رمضان، الفتحية الانكروسية السليمانية، ورقة ١٠٤ أ.

٦٨- للإطلاع على الرسائل الأصلية والردود التي تلقاها السلطان انظر : فريدون بك، منشآت السلاطين، ج١، ص٤٦٣-٤٧٠.

٦٩- لمزيد من التفاصيل حول مكانة بلغراد والحروب بين العثمانيين والنمساويين والصرب للسيطرة عليها انظر : محمد موفاكو، تاريخ بلغــراد الإســلامية، ص٩١-٩٩.

موقف النظام العنصرى فى اتحاد جنوب أفريقيا من قضايا التنمية الأفريقية دراسة وثائقية لتقرير لجنة توملينسون ١٩٥٠ - ١٩٥٤

د. إبراهيــم جــلال
قسم التاريخ ــ كلية الآداب
جامعــة عيــن شمس

تهدف هذه الدراســة إلى إبراز التناقــض الذى استــشرى فى جسد النظـــام العنصرى ؛ والمتمثل فى عدم اقتناع الأحزاب البيضاء بصــفة عامــة والحــزب الوطنى – الذى اعتلى السلطة فى اتحاد جنوب أفريقيا عام ١٩٤٨– بصفة خاصــة بسياسة الفصل العنصرى الكامل وتطبيق سياسة التنمية المنفصلة التــى يســتطيع الأفارقة والبيض بموجبها تحقيق التنمية الشاملة كلٌ فى المناطق المخصصة لهــم ، وفى الوقت نفسه دعوة الحزب الوطنى إلى ضرورة تطبيق تلك السياســة ؛ لأنهــا كانت تعنى بالنسبة للبيض طوق النجاة الذى يحميهم من ذلــك الطوفــان البشــرى المتدفق على المناطق التى خصصها النظام العنصرى للبيض ، وبذلك كان هنـــاك تناقض واضح بين المجال النظرى الذى صيغت فيه تلك الأفكار والواقــع العملــى الذى أثبت صعوبة تطبيقها ، فالنظام العنصرى دعا لسياســة الفصــل العنصــرى الكامل من الناحية النظرية ، أما التطبيق فكان على العكس من ذلك ، حيــث كــان يعتمد على الأفارقة اعتماداً كلياً فى مناح كثيرة وبصفة خاصة النواحى الاقتصادية التى شكل فيها الأفارقة عموداً فقرياً لا يمكن الاستغناء عنه من قبل البيض ، كمــا ظهر هذا التناقــض أيضاً بأجــلى صوره من خلال موقف العناصر البيضاء مــن تقرير لجنـــة توملينسون Report of the Tomlinson Commission . وحتى يتضح ذلك التناقض لا بد من إلقاء الضوء على قضايا التنمية الأفريقية من منظور الحكومات البيضاء حتى عام ١٩٥٠ ، ودراسة تقرير لجنـــة توملينســـون للتنميـــة الأفريقية وتوصياته ، وموقف الأحزاب البيضاء من التقرير ، ورفــض الأحــزاب

غير البيضاء لسياسة التنمية الأفريقية كما عبرت عنها السياسات العنصرية وتوصيات هذا التقرير .

تمهيد: قضايا التنمية الأفريقية من منظور الحكومات البيضاء حتى عام ١٩٥٠:

منذ قيام اتحاد جنوب أفريقيا – العنصرى – عام ١٩١٠ ، أصبحت قضايا التنمية الأفريقية من أهم الموضوعات التى أدرجت على جداول أعمال الحكومات البيضاء ، ومثلت أهمية قصوى بالنسبة لصانعى القرار السياسى فى الاتحاد الذين حاولوا قدر استطاعتهم تقليص النفوذ الأفريقى فى مقابل تسيد البيض لكافة المجالات ، وقصر التنمية الأفريقية – إن حدثت –على المناطق الأفريقية ؛ ونعنى بها المعازل التى قطنها الأفارقة وشكلت حوالى ١٣% من مساحة الاتحاد وتميزت بافتقارها لكافة المقومات التى تساعد على إقامة تلك التنمية[١]. وحتى تنفذ الحكومات البيضاء تلك السياسة أصدرت سيلاً من القوانين العنصرية التى هدفت إلى تقليص نفوذ الأفارقة وقصر أنشطتهم على المناطق الموجودة فى المعازل ؛ وتحديداً أرياف المعازل وليس مدنها التى سيطر عليها البيض . ومن أهم هذه القوانين قانون الأراضى الوطنية الذى صدر فى عام ١٩١٣ ، وقانون الأراضى الذى صدر فى عام ١٩٣٦ اللذان بمقتضاهما حددت المناطق ومساحة الأراضى التى من حق الأفارقة شغلها وإقامة التنمية الخاصة بهم فيها ، ومنذ ذلك التاريخ ازدادت أوضاع الأفارقة تدهوراً وأصبحت حياتهم فى تلك المناطق لا تسمن ولا تغنى من جوع ، وعاشوا فيها على حافة الموت[٢].

ومنذ اعتلاء الحزب الوطنى للسلطة فى البلاد عام ١٩٤٨ أصبحت قضايا التنمية الأفريقية من أهم القضايا التى شغلت أذهان ساسة جنوب أفريقيا ؛ فقد أكد هذا الحزب على أن تلك التنمية الأفريقية لن يسمح بها إلا فى المناطق الخاصة بالأفارقة وفى ظل سياسة الفصل العنصرى ، التى اعتبرت السياسة المثلى فى الاتحاد ؛ وذلك حتى تتجنب العناصر البيضاء الاحتكاك العنصرى ومواجهة ذلك الطوفان البشرى الأفريقى الذى يتسلل داخل المناطق الخاصة بهم ، وحتى تحافظ على سيادتها لتلك البلاد[٣].

لقد اتفقت تلك الرؤى العنصرية التى نادى الحزب بضرورة تبنيها وتنفيذها

مع رؤية غالبية الأفريكانرز ؛ الذين رأوا أن التكامل بين البيض والأفارقة بمثابة بداية النهاية للسيادة والسيطرة البيضاء على كافة مناطق الاتحاد ، وفرصة لسيطرة الأفارقة على مقدرات الأمور فى البلاد بحكم كثرتهم وقوتهم البشرية ، وجاء موقف رجال الكنيسة الهولندية على نفس شاكلة موقف الحزب الوطنى والأفريكانرز ، فقد أشاروا إلى أن التكامل بين البيض والأفارقة قد يؤدى إلى مخاطر جسيمة على العنصر الأبيض ، لذا يجب الوقوف أمام دعاة التكامل بالمرصاد واجتثاث تلك الأفكار من جذورها، وقد ظهرت تلك الرؤى حينما اجتمع رجال الكنيسة الهولندية لمناقشة موضوع التنمية الأفريقية ، ودافعوا عن الفصل العنصرى الكامل ، وأدركوا أن هذا يّعد بمثابة الحل الوحيد من أجل إعادة توجيه البناء الاقتصادى للاتحاد وتأمين السيادة البيضاء والتخلص من التدفق الأفريقى عبر المناطق البيضاء، والتوسع فى إقامة التنمية الشاملة فى المناطق الأفريقية . وأوصى المجتمعون بضرورة إنشاء لجنة من أجل التنمية الأفريقية وتقصى الحقائق عن تلك المناطق ، وكانت تلك التوصية مقدمة لنشأة لجنة توملينسون التى أصدرت تقريرها وتوصياتها بشان التنمية فى تلك المناطق الأفريقية فيما بعد(٤).

غير أن هذه الرؤى ووجهت بالرفض من قبل المعارضة البيضاء بصفة عامة والحزبين المتحد والليبرالى على وجه الخصوص ، فقد رأى الحزبان ضرورة التكامل الاقتصادى بين البيض والأفارقة فى كل مناطق الاتحاد ، مع ضرورة الإبقاء على تسيد العناصر البيضاء لكافة مناحى الحياة، ونادت المعارضة البيضاء – مثلها فى ذلك مثل رجال الكنيسة الهولندية – بضرورة إنشاء لجنة لدراسة المناطق الأفريقية وتقصى الحقائق فيها من أجل البدء فى تطبيق سياسة التنمية الأفريقية الشاملة فى تلك المناطق(٥).

من ذلك يتضح أن كل البيض – على الرغم من اختلافهم بشان سياسة الفصل العنصرى والتنمية الأفريقية – اتفقوا على شئ واحد وهو ضرورة هيمنة البيض على الحياة فى الاتحاد سواء أكان ذلك فى ظل سياسة الفصل العنصرى الكامل أم سياسة التكامل بين البيض والأفارقة.

فى ضوء ذلك رفض مالان Malan ، رئيس وزراء جنوب أفريقيا مطلب

رجال الكنيسة الهولندية والمعارضة البيضاء الخاص بإنشاء لجنة من الخبراء ، لكنه أيد الأراء التى نادت بتطبيق سياسة الفصل العنصرى وسيطرة البيض على الاتحاد ، كما وعد بتوسيع رقعة المناطق الأفريقية ؛ حتى تصبح قادرة على الإيفاء بحاجات ذلك العدد الهائل من الأفارقة. كما حذر جانسون Janson ، وزير الشئون الوطنية الحكومة من الموافقة على التوصيات التى جاءت فى الاجتماع بشأن إنشاء لجنة من الخبراء[٦].

بيد أنه من المرجح أن كلا من مالان وجانسون قد رفضا هذا المطلب؛ لأنهما يعلمان بما ستسفر عنه تقارير اللجنة ، التى ستوضح معاناة الأفارقة فى تلك المناطق وضرورة النهوض بها وتهيئة مناخ معيشى مناسب لهم ، ودعم الحكومة البيضاء لتلك المناطق من أجل تنفيذ التنمية المنشودة، فأرادا – أى مالان وجانسون- التنصل من تنفيذ هذا المطلب ؛ لأن دعم تلك المناطق – من وجهة نظرهما – من شأنه أن يكون فى غير صالح النظام العنصرى.

على هذا النحو يتضح أن الحزب الوطنى وقف بالمرصاد لكافة السياسات التى تدفع بالأفارقة نحو التنمية وتنادى بتنفيذ سياسة التكامل بين الأفارقة والبيض ، وفى نفس الوقت عمل على ترسيخ أقدام البيض الاستيطانية من خلال برنامج عنصرى متطرف يهدف إلى حماية البيض والمحافظة على السيادة البيضاء ، وبصفة خاصة الأفريكانرية ؛ لأن الحزب الوطنى كان أفريكانرياً خالصاً ، لا يوجد به إنجليزى واحد ، وكان ذلك من أهم الأسباب التى أدت إلى استشراء العداء بين العناصر الإنجليزية والأفريكانرية فى اتحاد جنوب أفريقيا واختلاف وجهة نظرهما فيما يخص التنمية الأفريقية الشاملة.

ونتيجة لاشتداد حدة المعارضة البيضاء والأفريقية ، رضخ الحزب للمطلب الذى نادى بإنشاء اللجنة ، حتى يخفف من حدة المعارضة ، ويهدئ من روع الأفارقة الذين طالبوا بالتنمية الشاملة فى إطار التكامل داخل دولة واحدة لا تؤمن بالعنصرية[٧].

أولاً : تقرير لجنة توملينسون للتنمية الأفريقية :

يعد تقرير لجنة توملينسون للتنمية الأفريقية واحداً من أهم وأبــرز التقــارير التى ظهرت على مسرح الأحداث السياسية فى اتحاد جنوب أفريقيا ، كما أنه يعــد عونا لكل من يتعرض لأوضاع المناطق الأفريقية والتطورات التى طرأت عليها فى كافة مجالات الحياة حتى عام ١٩٥٤، ويكشف هذا التقريــر عــن تضــارب أراء البيض وتناقضها بشأن سياسة الفصل العنصرى وموقف البيض مــن الأفارقــة . والواقع أن السياسة العنصرية التى اتبعها الحزب الوطنى كانت من أهم الأســباب التى أدت إلى ظهور ذلك التقرير؛ وذلك لأن غالبية البيض فى اتحاد جنوب أفريقيا لم يكن لديهم استعداد للموافقة على الحياة فى ظل مجتمع متعدد العناصر فى إطار دولة واحدة ؛ لأن تلك السياسة – من وجهة نظرهم – تقودهم إلى فقدان الامتيازات التى تمتعوا بها فى الاتحاد ، كما أن الموافقة على ذلك تجعلهم يضحون بكــل مــا أنجزوه طيلة ثلاثة قرون ؛ أى منذ وثوبهم على مستعمرات جنوب أفريقيا[٨].

وقد تشكلت لجنة توملينسون فى ٢٣ نوفمبر ١٩٥٠ برئاسة توملينسون، أحد أساتذة الاقتصاد بجامعة بريتوريا وعشرة أعضاء أكثرهم من الداعــمين لسياسة الحزب الوطنــى ، وإن ظهر عكس ذلك من الناحية النظرية[٩].

لعل من البين أن تشكيلاً على هذا النحو يعد أبرز دليل على حرمان الأفارقة من حقوقهم ، حيث أنه قد خلا من وجود أعضاء أفارقة فى تلك اللجنــة ، خاصــة وأن الأفارقة هم أكثر العناصر إلماماً بمشاكلهم وإحاطة بكل كبيرة وصغيرة فى تلك المناطق فضلاً عن أنهم وحدهم القادرون على تشخيص الأمراض المستشرية فــى تلك المناطق ، لذا كان من المفترض أن تعرض مشاكل الأفارقة وتنميتهم من قبلهم أنفسهم وليس عن طريق البيض الذين أيدوا سياسة الفصل العنصرى الكامل والتنمية المنفصلة وتسيد البيض وإن أبدوا عكس ذلك .

على أية حال فقد لخصت اللجنة النقاط الرئيسية التى تعمل من أجلهــا فــى الفقرة التالية :

لا بد أن يكون التقرير بمثابة مشروع متكامــل لإعــادة تأهيــل المنــاطق الأفريقية، مع الأخذ فى الاعتبار ضروة تنمية الأفارقة فى مناطقهم بأنفسهم، وذلك

لن يتأتى إلا من خلال المحافظة على هويتهم ، بمعنى آخر إعادة التخطيط الاجتماعى والسياسى للأفارقة وفقاً لعاداتهم وتقاليدهم وثقافتهم ، ومحافظة كل معزل على هويته(١٠).

أمضت اللجنة نحو أربع سنوات تتحرى فيها أوضاع تلك المناطق الأفريقية وكيفية النهوض بها(١١)، وقدمت تقريرها للحكومة فى أكتوبر ١٩٥٤م. وجاء فى حوالى ٤٠٠٠ ورقة ، اشتملت على ١٨ جزءاً و٥١ فصلاً و٩٥٨ جدولاً وأطلساً من ٦٦ خريطة ، وعلى الرغم من ذلك فلم ينشر التقرير إلا فى يونيو عام ١٩٥٦م(١٢).

من المرجح أن الحكومة –التى تزعمها الحزب الوطنىالعنصرى – تعمدت إرجاء نشر ذلك التقرير ، حتى تستطيع دراسته دراسة متأنية وافية تستطيع من خلالها تنقيته من كافة الأفكار والأراء التى لا تتفق مع السياسة العنصرية وتعمل على إضعافها وتدعم الأفارقة على حساب البيض ، وحتى تجتث ما يتعارض مع مصالحها وتنشر ما يحلو لها.

وبدأت اللجنة فى عمل دراسة مستفيضة عن الأفارقة وخصائصهم الجغرافية والديموغرافية ونشاط الإرساليات فى المناطق الأفريقية ، والظروف الصحية ، والمشاكل الاجتماعية والإدارية ، وملكية العقارات ، والزراعة ، والصناعة ، والتجارة والعمالة ، والتعليم ، ومستوى المعيشة . كما قامت بعمل مسح تاريخى عن طبيعة العلاقات بين الأفارقة والبيض(١٣).

كما أظهر التقرير بعد معاينة تلك المناطق مظاهر البؤس والشقاء التى استشرت فيها ، كما احتوى على عدد كبير من التفاصيل عن المناطق الأفريقية ، وأوصى بضرورة إصلاح تلك المناطق فى الرعى والزراعة والرى والتعدين والصناعة والتجارة والخدمات الاجتماعية وإنشاء المدن والقرى الجديدة ، والإصلاح الإدارى وتطوير الكنائس الأفريقية ، ومد يد العون والمساعدة للأفارقة من قبل البيض(١٤).

إضافة إلى ذلك رأت اللجنة ضرورة تطبيق سياسة الفصل الكامل بين العناصر البيضاء والأفريقية ؛ من أجل الحفاظ على اتحاد جنوب أفريقيا(١٥) لأن

سياسة التكامل والاندماج ترسخ الكراهية بينهما ، وتعد بمثابة كارثة اقتصادية تحدق باقتصاد الاتحاد[١٦] لذا فإن الخيار الوحيد من أجل تجنب تلك المخاطر هو العمل على تنفيذ سياسة الفصل العنصرى الكامل التى تؤدى بدورها إلى إقامة الحكم الذاتى بين الأفارقة[١٧]، وأشارت إلى أن تلك السياسة بمثابة العدل الاجتماعى بين العنصرين[١٨].

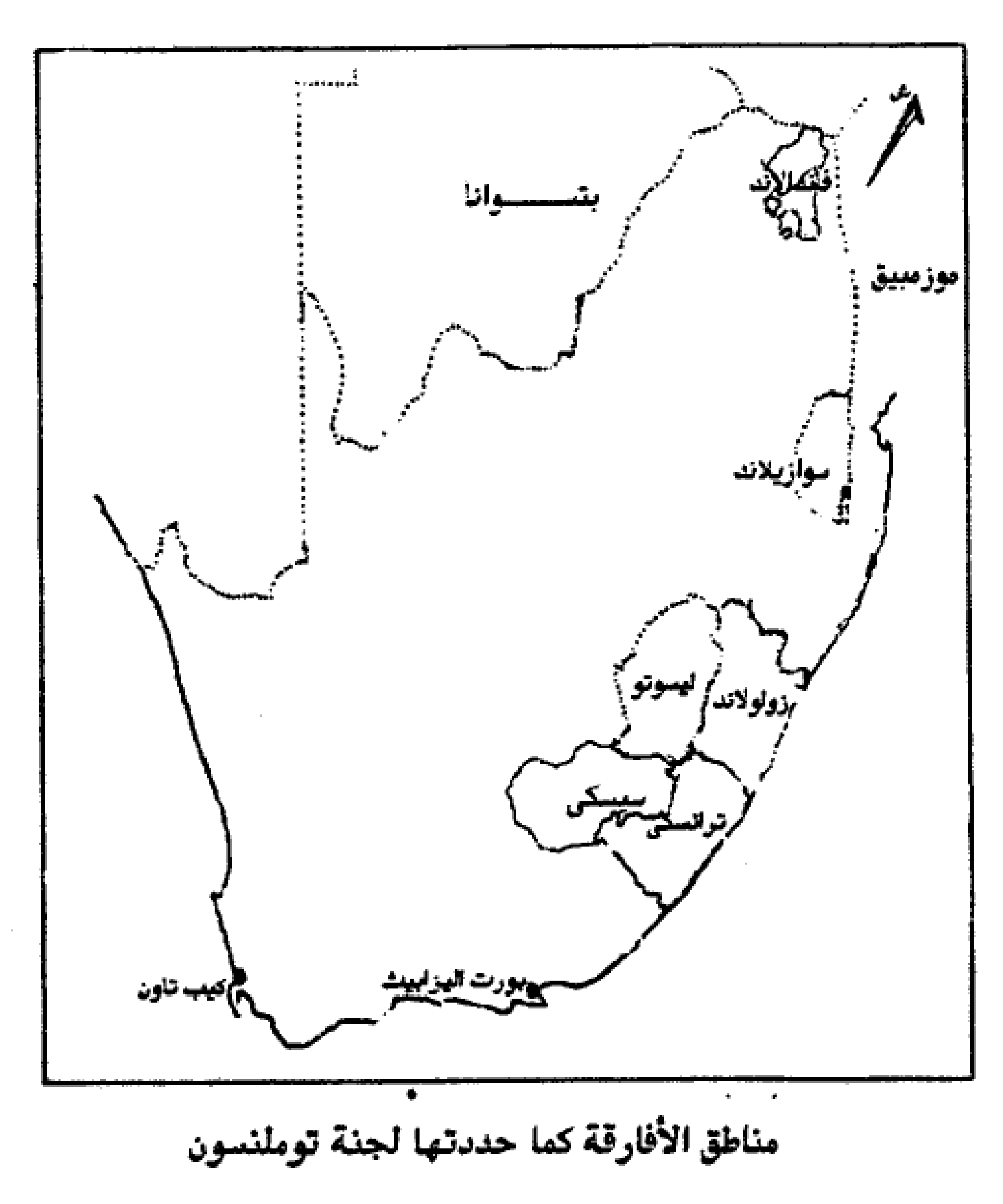
كذلك فقد ذكرت اللجنة أنه لا توجد حلول وسط بين التكامل والفصل ، كما أشارت إلى أن البيض فى اتحاد جنوب أفريقيا والأفريكانرز بصفة خاصة ليسوا على استعداد للتضحية بكافة المكاسب التى تمكنوا من الحصول عليها داخل الاتحاد[١٩].

نضف إلى ذلك أن اللجنة رأت أن الخيار الوحيد من أجل تنفيذ تلك السياسة هو تبنى سياسة التنمية المنفصلة بين العنصرين ، وضرورة تنمية المناطق الأفريقية فى كافة المجالات ، كما يجب على كل معزل أن يكون له هوية منفصلة عن المعزل الآخر، وهذه السياسة – سياسة التنمية المنفصلة – ستؤدى بدورها إلى إقامة الحكم الذاتى الذى يستطيع الأفارقة بمقتضاه حكم أنفسهم بأنفسهم دون تدخل عنصر آخر فى شئونهم الداخلية[٢٠]، وأشارت إلى أن ذلك لا بد أن يتبعه بالضرورة تنمية المؤسسات الأفريقية داخل مناطقهم وتمتعها بممارسة شئونها ومصالحها ، وحددت اللجنة مهام تلك المؤسسات فى الشئون المحلية بهدف إيجاد نوع من الحكم الذاتى الداخلى للأفارقة فى تلك المناطق وتدريبهم على ممارسة شئونهم بأنفسهم[٢١].

كما أوصت اللجنة بضرورة تقسيم تلك المناطق إلى سبع مناطق وهى : باسوتولاند وزولولاند وسوازيلند وسيسكى وفاندا لاند والترانسكى وبتشوانالاند ، وذلك على أسس عرقية . من ذلك يتضح أن اللجنة طالبت بدمج المحميات البريطانية الثلاث ، وهى باسوتولاند وبتشوانالاند وسوازى لاند إلى المناطق الأفريقية فى اتحاد جنوب أفريقيا ، ومع ذلك لم تتحدث عن تلك المناطق باستفاضة وإنما بصورة مقتضبة ، حيث أشارت إلى إمكانية دمجها واعتبارها جزءاً من أراضى الأفارقة، وأعلنت أن التنمية ستبدأ فى المناطق الأفريقية الموجودة داخل الاتحاد ، وأن خطة دمج المحميات من الممكن حدوثها أو عدم حدوثها ، وأضافت

أنه إذا تم دمج المحميات إلى المناطق الأفريقية الموجودة بالاتحـاد ، فـإن تلـك المناطق مجتمعة ستشكل نحو ٤٥% من أراضيه ، يحكمهـا الأفارقـة وتسـتطيع استيعاب هذا الكم البشرى الهائل منهم[٢٢].

وحينما تطرقت اللجنة إلى تحليل الوضع الاقتصادى لتلك المناطق الأفريقيـة أشارت إلى افتقارها لكافة المرافق التى تستطيع بمقتضاها إقامة حيـاة اقتصـادية مناسبة ، وذكرت أن التنمية الاقتصادية وبصفة خاصة فى المجال الزراعى الـذى يعد واحداً من أهم الأنشطة الاقتصادية فى المناطق الأفريقية لن تحدث إلا حينمـا يقوم الأفارقة بإحداث تغييرات جوهرية فى السياسة التـى تبنوهـا فـى المجـال الاقتصادى بصفة عامة ، وأعلنت أن هذا التحول مشروط بضرورة إجراء تغييرات سريعة فى الطرق التقليدية التى اعتاد عليها الأفارقة فى هذه المناطق ويتطلب ذلك تغييراً فى الأفكار والعادات والتقاليد ، وبذلك رأت اللجنـة أن كافـة المشـكلات الاقتصادية التى واجهت الأفارقة كانوا هم المسئولين عنها فى المقام الأول ؛ لأنهم لم يقوموا بإحداث أى تقدم من شأنه الارتقاء بالاقتصاد الأفريقى وفضلوا على ذلك عرض أنفسهم كسلعة تباع وتشترى ، ونعنى بذلك الالتحاق بالعمل فى المناطق التى امتلكها البيض كعمالة مهاجرة[٢٣].



مناطق الأفارقة كما حددتها لجنة توملنسون

ولأن الزراعة شكلت عموداً فقرياً للأفارقة ، فقد رأت اللجنة ضرورة تهيئة مناخ زراعى مناسب لهم تتاح فيه فرص التنمية الزراعية ، وأشارت إلى أن هذا لن يحدث عن طريق الأفارقة فقط إنما أيضاً من خلال مد يد العون والمساعدة من قبل المؤسسات الحكومية والاقتصادية لتوفير إنتاج زراعى مناسب يساعد على الاقتراب من مرحلة الاكتفاء الذاتى وبروز طبقة رأسمالية زراعية أفريقية فى مناطقهم[٢٤].

بجانب ذلك رأت اللجنة ضرورة زيادة معدل الدخل السنوى للمزارع الأفريقى – الذى تراوح ما بين ٥٦-٦٠ جنيه استرلينى – إلى حد أدنى قدره ٦٠ جنيه ، ولن يتأتى هذا إلا من خلال زيادة الرقعة الزراعية والجودة الإنتاجية حتى تصل إلى مرحلة الكفاية والكفاءة[٢٥].

من ناحية أخرى نادت اللجنة كذلك بضرورة منح عدد مناسب من الأسر الأفريقية وحدات زراعية صغيرة ، وتحديد نوع المحاصيل التى تزرع فى كل منطقة أو إقليم حتى يكون هناك تبادل اقتصادى بين تلك المناطق يؤدى بدوره إلى الاكتفاء الذاتى دون النظر إلى إنتاج المناطق التى سيطر عليها البيض ، بل وأكثر من ذلك وصول هذا الإنتاج الأفريقى فى جودته إلى مستوى ومكانة الإنتاج الخاص بالبيض فى اتحاد جنوب أفريقيا[٢٦].

وعلى الرغم من كل ذلك فقد رأت اللجنة ضرورة التكاتف والتعاون بين كل المؤسسات الأفريقية والبيضاء من أجل إنجاز تلك الخطوات ، لأن عدم التعاون سيؤدى إلى استحالة ظهور الزراعة والمزارع المتميزة ذات الجودة العالية فى تلك المناطق ؛ نظراً للظروف المتدهورة التى تعانى منها بسبب ازدحامها بالسكان وعدم التوازن بين ذلك العدد الهائل ومساحة الأراضى الزراعية والحالة الاقتصادية[٢٧].

كما أوصت اللجنة بضرورة دعم مشاريع الرى فى المناطق الأفريقية التى حددتها اللجنة ، حتى تستطيع الإيفاء بحاجتها الاقتصادية ، كما طالبت بضرورة تنمية الغابات والثروة المعتمدة على الغابات فى تلك المناطق[٢٨].

كما نادت اللجنة بضرورة النهوض بالعملية التعدينية فى المناطق الأفريقية وتوفير الدعم اللازم من قبل الحكومة والمؤسسات الاقتصادية ؛ بهدف الارتقاء بمستوى التعدين الأفريقى فيها[٢٩].

وفى المجال الصناعى أشارت اللجنة إلى ضرورة إقامة الصناعات المختلفة فى المناطق الأفريقية[٣٠]، لأن ذلك سيؤدى إلى تهيئة ظـروف معيشـية مناسـبة للأفارقة وذلك بموجب انتقالهم من مرحلـة الرأسـمالية الزراعيـة إلـى مرحلـة الرأسمالية الصناعية أو بمعنى أدق من مرحلة المجتمعات الزراعية إلـى مرحلـة المجتمعات الصناعية[٣١]، كما طلبت من الحكومة توفير المسـاعدات والقـروض اللازمة لتنفيذ هذا المخطط الصناعى الأفريقى ، وفى نفس الوقـت رأت ضـرورة وجود صناعات خاصة بالبيض فى المناطق الأفريقية ؛ حتى يكتسب الأفارقة مـن البيض الخبرة فى المجال الصناعى ، ومن ثم تحدث المنافسـة بينهمـا ويسـتفيد الأفارقة من ذلك[٣٢]، وأشارت إلى أن المبلغ المطلوب من لإنجاز تلك المهمة خلال الأعوام العشرة الأولى التى تبدأ من عام ١٩٥٦ يتراوح بيـن ٢٥ :٣٠ مليون جنيه استرلينى[٣٣]. وأشار التقرير أيضاً إلى قلة عدد الرأسماليين الصناعيين الأفارقـة ، حيث ذكر أن نحو ٣٠ شخصاً أفريقياً فقط هم الذين يشاركون فى مجال الصناعات، وهذا عدد ضئيل للغاية إذا ما قورن بأعداد البيض الذين يعملون فى هذا الحقـل . وأوضحت أن الهدف من هذه التوصيات هو النهوض بصناعات تلـك المنـاطق ؛ حتى تصل إلى مستوى الصناعات الموجودة فى مناطق البيض[٣٤]، وكذلك فإن هذا التقدم الصناعى الأفريقى يتيح الفرصة للعمالة الأفريقية الموجودة فى مناطق البيض للنزوح إلى تلك المناطق الأفريقية ذات المستوى الاقتصادى المناسب الذى يتيح لهم مستوى معيشياً ودخلاً مادياً مناسبين[٣٥].

أما بالنسبة للتجارة فقد رأت اللجنة ضرورة الاهتمـام بالتجـارة الأفريقيـة ومشاركة الأفارقة فى هذا الحقل وتدريبهم على ممارسة الشئون التجارية ، وطالبت بضرورة تنفيذ ذلك ؛ لأنه حتى عام ١٩٥٦ لم يكن بتلك المناطق سوى مائة تـاجر أفريقى ، مما يؤكد خلوها من الرأسمالية التجارية الأفريقية ، ورأت أن تنفيذ تلـك السياسة يتطلب – شأنه شأن كافة الحقول الاقتصادية الأخرى – دعماً مادياً من قبل الحكومة ومؤسسة الاستثمارات البانتوية Bantu Investment Coroporation التى أشرفت عليها الحكومة وأدارتها ، قّدر هذا الـدعم بنحـو ٣٠ مليـون جنيـه استرلينى خلال العشر سنوات الأولى ، تبدأ من عام ١٩٥٦م[٣٦].

وحينما تطرقت اللجنة للحديث عن العمالة الأفريقية التى كانت تعمـــل فـــى المناطق الخاصة بالبيض ؛ ناقشت مسألة الهجرة الأفريقية للمناطق التابعة للبيض ، وأشارت إلى أن حكومة اتحاد جنوب أفريقيا غير مسئولة عن توفير سكن ومعيشة مناسبين لهذا العدد وإنما عن إمداده – فقط – بالضروريات[٣٧]، كما أشار التقريـــر إلى إمكانية حدوث هجرة مؤقتة للعمال الأفارقة وتعاون بين الحكومة والســـلطات الإقليمية الأفريقية لإحكام السيطرة على عملية التدفق الأفريقى على مناطق هيمنـــة البيض ، وأعلنت أن حوالى ٦ مليون أفريقى قد عملوا فى المدن والمزارع التـــى امتلكها البيض ، وفى الوقت نفسه كان هناك نحو ٣ مليون من البـــيض يقطنـــون المناطق نفسها ، مما شكل تهديداً صريحاً للعناصر البيضاء فى الاتحـــاد[٣٨]. وقـــد أرجعت اللجنة ذلك إلى ارتفاع مستوى المعيشة فى تلك المدن بالمقارنـــة بـــأحوال المناطق الأفريقية ، مما أدى إلى اعتماد العائلات الأفريقية بصفة عامة على رواتب العمالة المهاجرة ، ورغم ذلك كانت هناك أسر أفريقية كثيرة تعيش تحـــت خـــط الفقر. غير أن اللجنة على الرغم من تقديرها للأسباب التى دعت هؤلاء العمـــال إلى النزوح لتلك المناطق ، أشارت إلى ضرورة السيطرة علـــى عمليـــة توظيـــف العمالة الأفريقية المهاجرة ، وذلك من خلال إشراف وزارة الشـــئون الوطنيـــة[٣٩]؛ لأن السماح للأفارقة بالتدفق إلى تلك المناطق – التى سيطر عليها البيض– بأعداد كبيرة ، سيؤدى إلى نمو معدل السكان الأفارقة فى المناطق التابعة للبيض ، ويشكل بدوره مخاطر جسيمة على الوجود الأبيض فى الاتحـــاد بحكـــم الكثـــرة العدديـــة للأفارقة[٤٠]، واستنكرت اللجنة هجرة الأفارقة إلى تلك المناطق على نطاق واسع ، وأوصت بضرورة اعتبار الأفارقة النازحين إلى المناطق البيضاء أجانب يسمح لهم بدخول تلك المناطق كعمالة مهاجرة مؤقتة ليس لأسرهم الحق فـــى الهجـــرة أو الإقامة معهم[٤١].

وحينما تحدثت اللجنة عن مسألة حقوق الملكية الخاصة بالأفارقة ، أوصـــت بمنحهم الحق فى شراء الأراضى فى مناطقهم السبع ؛ حتى يستطيعوا تنمية بنـــائهم الاقتصادى والاجتماعى[٤٢]، وأن تقسم تلك الأراضى إلى أراض سكنية ورعويـــة وزراعية ؛ من أجل حصول كافة الفئات والطبقات الأفريقية على قطع من الأرض والوصول إلى مستوى معيشى مناسب فيما بيـــنهم ، وضـــرورة أن تكـــون تلـــك

الأراضى قادرة على استيعاب ذلك العدد الضخم من الأفارقة ، كما أشـــارت إلـــى ضرورة التعاون بين أهالى تلك المناطق الأفريقية التى حـــددتها اللجنـــة ؛ حتـــى يستطيعوا تنمية أراضيهم وأنفسهم بجهودهم الذاتية، وأضافت أن الملكية فـــى تلـــك المناطق تنقسم إلى نوعين : ملكية مشاعة وملكية فردية ، كما أشارت إلى أحقيـــة المزارعين الأفارقة فى شراء الأراضى بحرية كاملة ، وتقسيط المبلغ الذى يشترى به المزارع الأفريقى الأرض على أربعين سنة بفائدة ٥,٢ % من السـعر ، كمـــا أقرت أحقية الأفارقة فى بيع وحداتهم فيما بعد إلى أى شخص ، أى أنهـــا أوصـــت بمنح الأفارقة حق الشراء والبيع[٤٣].

تطرقت اللجنة كذلك إلى الحديث عن موضوع التعليم الأفريقـــى فـــى تلـــك المناطق ، وأوصت بضرورة الاهتمام به فى كافة المناطق والمراحـــل[٤٤]، كمـــا أشارت إلى ضرورة تدريب الأفارقة على العمليات التقنية والأعمـــال المـــاهرة ، وإبعاد الكنائس عن الإشراف على العملية التعليمية ، مع إمكانية السماح لها بالتمثيل فى اللجان المدرسية ، كما أوصت بإقامة جامعة للأفارقة تضم كليـــات مختلفـــة ، ونادت بضرورة التدريب المنفصل لغير البيض ، وإنشاء ثلاث مـــدارس للصـــنائع والفنون ، وكلية للزراعة ، وأربع مدارس أخرى ، وأشارت إلى أن برنامج التنمية فى المجال التعليمى الخاص بالأفارقة يتطلب حوالى ٣ مليون جنيه استرلينى[٤٥].

كما أوصت اللجنة بضرورة الاهتمام بالتنمية المدنية ، ومســـاعدة الحكومـــة للكنائس البانتوية حتى تنمو وتزدهر ، والاهتمام بالرعاية الصحية وتقديم الخدمات العامة ، ومساعدة الأفارقة من أجل الحراك الاجتماعى وظهور الطبقات والمهـــن المختلفة فى تلك المناطق[٤٦]. وضرورة الارتقاء بدور المرأة الأفريقية ؛ من خلال العمل فى كافة المجالات ؛ حتى تحدث تغييرات وتحولات اجتماعية جوهرية تُمكن المجتمع الأفريقى من بناء حضارة أفريقية جديدة[٤٧]، وضـــرورة زيـــادة الـــدخل السنوى للأفارقة ؛ حتى يستطيعوا الوفاء بمتطلباتهم الضرورية ، وهذا لن يتاح إلا من خلال مد يد العون والمساعدة لهم من قبل الحكومة[٤٨]، وأوصـــت بضـــرورة إعادة تنظيم مؤسسة الشئون الوطنية ، وأن تمتد أنشطتها إلى مناطق البانتو وتدعم تلك المناطق ؛ حتى تقف على أقدامها وتكفى نفسها بنفسها[٤٩].

وذكرت اللجنة فى نهاية تقريرها أن المبلغ الذى ينبغى رصده لتنفيـذ هـذا المخطط التنموى الخاص بالأفارقة حوالى ١٠٤ مليون جنيه استرلينى ينفق علـى العشر سنوات الأولى بدءاً من عام ١٩٥٦[٥٠]، ورأت ضـرورة تـوفير ميزانيـة منفصلة لوزارة الشئون الوطنية للإنفاق على بعـض المشـاريع الخاصـة بتلـك المناطق[٥١]، وعلى الحكومة أن تقوم بتوفير تلك المبالغ والمتطلبـات ؛ لأن عـدم الاستجابة لتلك المطالب ستؤدى إلى خلق مشاكل جمة بين البـيض والأفارقـة[٥٢]، وعلى العكس من ذلك تماماً فإن الموافقة على ذلك ستؤدى إلى الاستقرار واستتباب أمور الاتحاد والنهوض بالمناطق الأفريقية السبع ، التى ستقام فيها النهضة بسواعد أفريقية[٥٣].

وفى النهاية قام توملينسون بإلقاء كلمة فى نادى رجـال الأعمـال الأفارقـة بجوهانسبرج حث فيها المستمعين على ضرورة تقييم الموقف بموضـوعية وفهـم لوضع الأفارقة فى اتحاد جنوب أفريقيا بالمقارنة بأفارقة الدول الأخـرى وبعـض البلدان الأسيوية ، حيث ذكر أن الدخل السنوى للأفريقى فى الاتحاد أكثـر مـرتين ونصف من دخل الأفريقى فى روديسيا الجنوبية (زيمبابوى)، وثلاث مرات مـن أفارقة الكونغو ، كما أن مستوى معيشة الأفارقة فى الاتحاد أفضل بكثير مـن دول أفريقية كثيرة ومن الهند أيضاً ، ونفس الوضع ينطبق على الصحة والتعليم ، حيث كان الاتحاد ينفق على هذه المجالات أكثر من أى دولة أفريقية ومن الهند أيضاً[٥٤].

من العرض السابق لجهود اللجنة بشأن موضوع التنمية الأفريقية ، يتضح لنا أنه على الرغم من رغبة اللجنة – الظاهرية – فى تنمية الأفارقة ، إلا أن أغلـب حلولها بشأن تحقيق تلك التنمية انتابها القصور ، ولـم تسـتطع حـل المشـكلات السياسية والاقتصادية والأمراض الاجتماعية التى استشرت فى جسد أفارقة اتحـاد جنوب أفريقيا ، وتكمن أوجه القصور التى انتابت جهود اللجنة فى عدة ملاحظات .

ففى الوقت الذى نادت فيه اللجنة بضرورة تحقيق التنمية الأفريقية بسـواعد أفريقية أو بمعنى أدق عن طريق الأفارقة أنفسهم ، نجدها تنادى بضرورة إشراف مؤسسة الشئون الوطنية على أعمال التنمية الأفريقية ، على الرغم من أن اللجنـة تعلم تمام العلم موقف مؤسسة الشئون الوطنية من موضوع التنمية الأفريقية كمـا

كانت على دراية تامة بعنصرية تلك المؤسسة خاصة وأن القائم عليها فى تلك الفترة هندريك فيرفورد Verwerd ؛ ألد أعداء التنمية الأفريقية وأبرز مؤيـدى سياسـة التنمية المنفصلة وسياسة الفصل العنصرى الكامل التى عملت على إبقاء أوضـاع الأفارقة فى حالة يرثى لها ، حتى وصلت إلى الدرك الأسفل فى كافة مناحى الحياة.

كما أن اللجنة لم تستطع وضع سياسات مناسبة حينما تطرقت لشكل السياسة التى يجب تطبيقها حتى تتحقق التنمية الأفريقية ؛ فقد أشارت إلى ضرورة تطبيـق سياسة الفصل العنصرى الكامل بين الأفارقة والبيض واعتبرتها السياسة المثلـى ، وذلك على الرغم من أنها كانت على يقين بأن تلك السياسة فى صالح البيض خاصة وأنها جعلتهم يسيطرون على كافة المناطق التى تميزت بوجـود كافـة المقومـات والمرافق ، وفى نفس الوقت كانت تعى تماماً موقف الأفارقـة الـرافض لسياسـة الفصل العنصرى الكامل ، لذا كان على اللجنة – إذا أرادت التنمية والإصـلاح – المناداة بسياسة الاندماج والتكامل وليست سياسة الفصل العنصرى الكامل.

إضافة إلى ذلك لم تكن اللجنة على صواب حينما حددت المساحة التى يجب على الأفارقة امتلاكها والإقامة الدائمة فيها بنحو ١٣% من مساحة اتحاد جنـوب أفريقيا ، فكيف يعقل أن يحشر أكثر من ٦٩% من سكان الاتحاد فى تلك المسـاحة التى عاش سكانها على حافة الهاوية وافتقرت لكافة المرافق والمقومات ، والـدليل على ذلك أن جـون مبيـكى John Mobike – أحد الزعماء الأفارقة فى اتحاد جنوب أفريقيا – أطلق عليها مستنقعات جنوب أفريقيا ، ولم تكتف اللجنة بذلك بـل سمحت للبيض الذين شكلوا آنذاك حوالى ١٦% من سكان الاتحاد بالسيطرة علـى نحو ٨٧% من المناطق التى تميزت بوجود كافة المرافق والمقومات الحياتية .

وحينما نادت اللجنة بضرورة محافظة كل معزل على هويته كانت تعمق من حدة التنافر والتفتت بين الأفارقة ، كما أنها حينما ذكرت أن سياسة الحكـم الـذاتى للأفارقة يجب أن تكون تحت إشراف المؤسسات الحكوميـة – العنصـرية – وأن يقتصر الحكم الذاتى فى تلك المناطق الأفريقية على الشئون المحلية ، كـان ذلـك بمثابة دعم للمؤسسة العنصرية ؛ لأن تلك السياسة شلت يد الأفارقة فى كافة الشئون المتعلقة بالسياسة الخارجية ، وكان هذا مقصوداً من قبل النظام العنصرى ؛ وذلـك

حتى لا ينفضح أمام الرأى العام العالمى ، وحتى لا تصل صرخات الأفارقة إلـــى أروقة المنظمات الدولية .

وعندما أشارت اللجنة إلى أن كافة المشـكلات الاقتصـادية التـى أحـدقت بالأفارقة هم المسئولون عنها ، لم تكن موفقة فى ذلك لأنهم لم يمتلكوا قرارهم نتيجة للسياسة العنصرية التى وقفت بالمرصاد لكافة الدعوات التى نادت بضرورة تهيئـة ظروف اقتصادية مناسبة لهم ، كما أن هذه التحولات الاقتصادية التى دعت إليهـا اللجنة تطلبت إمكانيات ضخمة افتقر إليها الأفارقة . من ذلك يتضـح أن السـبب الرئيسى فى تلك المشكلة هو النظام العنصرى وليس الأفارقة ، كما أن نزوحهم إلى مناطق البيض وعرض أنفسهم كسلعة تباع وتشترى جاء نتيجة لسـوء الأوضـاع الاقتصادية . ويتضح من ذلك أن النظام العنصرى هو المسئول عن ذلك أيضـاً ، لأنه منعهم من كافة حقوقهم الاقتصادية وأجبرهم على ترك مناطقهم والعمـل فـى خدمة البيض من أجل تحسين وضعهم الاقتصادى حتى وإن كان ذلـك فـى ظـل السياسة العنصرية ، فرأى الأفريقى أنه مادامت العنصرية موجودة فـى المعـازل والمدن فالأفضل له النزوح إلى المدن التى تميزت بالتنمية والتقدم الاقتصـادى إذا قورنت بالمعازل المقفرة ، واقتنع بأن أحواله الاقتصادية فيها أفضل حالاً من أحواله فى المعازل حتى وإن كان ذلك فى ظل عنصرية صارمة . كمـا أن اللجنـة فـى إشارتها إلى اعتبار الأفارقة النازحين إلى المناطق البيضـاء أجانـب ، لـم تكـن موضوعية ، فكيف يكون الأفريقى أجنبياً فى وطنه ، وفى مقابل ذلك لـم تصـنف اللجنة الأبيض الذى نزح إلى المعازل على أنه أجنبى بل اعتبرته بمثابـة مسـاعد لأفارقة المعازل على تنمية حياتهم والنهوض بها .

وحينما أشارت اللجنة إلى ضرورة دعم المؤسسات الحكومية والاقتصـادية البيضاء للأفارقة اقتصادياً ، كانت على يقين بأن تلك المؤسسات لن تقدم الـدعم ، حتى لا تحدث تنمية اقتصادية أفريقية تؤدى إلى الاكتفاء الـذاتى وبـروز طبقـة رأسمالية اقتصادية أفريقية ، وأكدت ذلك القوانين العنصرية المختلفة التى أصدرتها الحكومة العنصرية فى كافة النواحى الاقتصادية ، ورفضها تقـديم المبـالغ التـى طالبت بها اللجنة من أجل النهوض بعملية التنمية الأفريقية .

وعلى الرغم من أن اللجنة كانت تعلم علم اليقين بأن البيض لـن يسـاعدوا الأفارقة على النهوض بأحوالهم الاجتماعية ، وبصفة خاصة الناحية التعليمية ، فقد أصرت على ضرورة إشراف البيض على العملية التعليمية الأفريقية ، على الرغم من أنها تعلم بوجود نخبة أفريقية مثقفة قادرة على إدارة التعليم الأفريقى فى اتحاد جنوب أفريقيا .

وهكذا نخلص من كل ذلك إلى أن أهم الإخفاقات التى وقعت فيهـا اللجنـة تمثلت فى المناداة بتطبيق سياسة الفصل العنصرى الكامل ، لأن تلك السياسة أدت إلى خلق كافة المشكلات التى أحدقت باتحاد جنوب أفريقيا منذ قيام الاتحاد فى عام ١٩١٠ ، وكان على اللجنة إذا أرادت الإصلاح والتنمية أن تنادى بسياسة التكامـل والاندماج بين كافة العناصر التى تقطن البلاد .

ثانياً : موقف الحزب الوطنى من التقرير :

على الرغم من أن التقرير جاء فى غالبيته داعماً لسياسة الفصل العنصـرى ومتفقاً مع النظرية التى بنيت عليها تلك السياسة فقد وافق الحزب الـوطنى علـى تقرير اللجنة بشأن تنمية الأفارقة فى مناطقهم بصفة مبدئية ، لكنـه أعلـن أن لـه تحفظات على بعض الموضوعات(٥٥).

وعلى الرغم من تلك الموافقة المبدئية ، فقد واجهت اللجنة رفضاً صارخاً منذ عام ١٩٥٤ من قبل أقطاب النظام العنصرى ؛ ويرجع ذلك إلى حدوث تغيرات فى المناصب السياسية الخاصة بحكومة اتحاد جنوب أفريقيا التى سيطر عليها الحـزب الوطنى ، حيث أصبح جانسون حاكماً عاماً ، وفيرفورد وزيراً للشئون الوطنيـة ، وكان متطرفاً فى فكره العنصرى وفكرة السيادة البيضاء على اتحاد جنوب أفريقيا ، كما أنه لم يكن على وفاق مع لجنة توملينسون ويكن لها كراهية شديدة منذ الـدعوة إلى إنشائها وشروعها فى البدء فى مشروع التنمية الأفريقية ، ويرجع ذلك لسببين ؛ أولهما : شعوره بأنه يمتلك السياسة المثلى التى تقود البيض إلى السيادة والسيطرة التـامة على كافة مرافـق البلاد ، وثانيهما : عدم قدرته على اجتذاب توملينسون وبعض أعضاء اللجنة . ونتيجة لدعمه لسياسة الفصل العنصرى ورفضه لسياسـة لجنة توملينسون فقد أشار إلى أن حياة الأفارقة ستتسم بالارتباك وعدم الاسـتقرار

ماداموا يصرون على ارتباطهم بالاقتصاد الغربى الأبيض أو النموذج السياسى الغربى ، وحتى تتفادى الحكومة ذلك وجب عليها السماح للأفارقة بالتنمية الاقتصادية والاجتماعية بل والسياسية أيضاً فى نطاق مؤسساتهم التى يجب أن تقع فى أوطانهم ، مع السماح للقليل من الأفارقة بالدخول إلى المناطق البيضاء كلما أمكن ذلك[٥٦].

ولقد كان فيرفورد يرمى من ذلك إلى حصر الأفارقة فى مناطقهم واقتصار حقوقهم – إذا أوفى بها النظام العنصرى – على تلك المناطق ، مع السماح فى الوقت نفسه للأفارقة بالنزوح إليها بأعداد كبيرة[٥٧]؛ بهدف الاستفادة من العمالة الأفريقية المؤقتة الرخيصة ، التى تمثل العمود الفقرى للاقتصاد الأبيض فى اتحاد جنوب أفريقيا ، أى أن وجود الأفارقة يعتمد على عملهم فى تلك المناطق فقط ولكن حياتهم الدائمة لا بد أن تكون فى نطاق مناطقهم[٥٨].

وفى تلك الآونة ظلت توصيات تقرير توملينسون الموضوع الأساسى المطروح للمناقشة[٥٩]، والدليل على ذلك أن فيرفورد افتتح الجلسة بمناقشتها، وذكر أن الحزب الوطنى وافق بصفة مبدئية على تقرير لجنة توملينسون ، لكنه رفض الكثير من توصياته[٦٠] وكان له دفاعه بشأن ذلك الموضوع ، مما أدى إلى ظهور الخلافات بين الأحزاب البيضاء بشأن مشاريع التنمية الشاملة فى المناطق الأفريقية[٦١].

بمجرد أن انتهت اللجنة من التقرير قدمته لفيرفورد الذى صب جام غضبه على توملينسون شخصياً وحاول إجباره على تعديل الكثير من توصياته ، بيد أن هذه المحاولة باءت بالفشل ، وكان من نتائج ذلك أنه أقسم بأنه لن يسمح بظهور هذا التقرير وتوصياته كما هى ، بالإضافة إلى أنه لن يسمح بنشره كاملا[٦٢] خاصة وأنه مثل عائقاً لطموحات فيرفورد ؛ لأن به أشياء كثيرة من وجهة نظره لا تتفق مع سياسته[٦٣].

وعندما تطرق الحزب الوطنى إلى مناقشة سياسة الفصل العنصرى كما جاءت فى تقرير لجنة توملينسون ذكر أنها الأمل الوحيد لإنقاذ اتحاد جنوب أفريقيا؛ لأن التكامل مستحيل إذا أراد البيض الاستمرار فى تلك البلاد، وأن عكس ذلك

يؤدى فى النهاية إلى إيجاد فوضى بين العناصر وسيطرة سوداء على اتحاد جنوب افريقيا بحكم كثرتهم العددية ، لذا فإن سياسة الفصل العنصرى تعد بمثابة طوق النجاة للعنصر الأبيض ، الذى قد يقضى عليه ذلك الفيضان الأسود المستمر على المناطق البيضاء ، لذلك لابد من إقامة الدول السوداء المنفصلة ، حتى لا يحدث الصدام بين البيض والأفارقة ، وأن الحزب يعلن فى النهاية على لسان فيرفورد فى تلك الجلسة البرلمانية أن أى فكرة تنادى بالمشاركة بين البيض والأفارقة لن يوافق عليها، وأنه لا بد من تنمية المناطق الخاصة بالأفارقة كدول منفصلة للزنوج؛ للمحافظة على السيادة البيضاء بصفة دائمة فى ظل النظام العنصرى[٦٤]. وأيقن الحزب الوطنى فى النهاية أن تطبيق الفصل العنصرى الكامل بين البيض والأفارقة غير عملى فى المستقبل ؛ لأن الأفارقة فى حاجة إلى البيض من أجل دعمهم . إلا أنه أشار فى النهاية إلى أن الفصل بمثابة الأمن الأعظم فى المستقبل[٦٥].

غير أن الشواهد التاريخية دحضت تلك المزاعم وأثبتت أن الحزب الوطنى لم يطبق سياسة الفصل العنصرى الكامل كما جاءت فى النظرية العنصرية؛ ونعنى بذلك الفصل العنصرى فى كافة مناحى الحياة ، والدليل على ذلك أنه لم يستطع الاستغناء عن القوة البشرية الأفريقية التى مدت الاقتصاد الأبيض بالعمالة الرخيصة إذا قورنت بأجور العمالة الآسيوية أو الأفريقية التى جاءت من خارج اتحاد جنوب أفريقيا ، أى أن النظام العنصرى لم يطبق الفصل العنصرى الكامل ، من أجل تنفيذ النهضة الأفريقية ، وإنما من أجل حاجة البيض إلى هؤلاء الأفارقة ، ومن ذلك يتضح أن هناك تناقضاً واضحاً بين النظرية والتطبيق فيما يخص موضوع الفصل العنصرى الكامل ، ومن ذلك يظهر أيضاً أن الحزب الوطنى أعلن موافقته على توصيات لجنة توملينسون بشأن تنفيذ سياسة الفصل العنصرى من الناحية النظرية ، لكنه لم يستطع تطبيقها من الناحية العملية ، وهذا مثال آخر على تناقض النظام العنصرى فى النظرية والتطبيق.

كذلك أعلن الحزب أن توصيات اللجنة بشأن التنمية المنفصلة تتفق مع رغباته ورغبات الرأى العام الأبيض فى الاتحاد ، وأنه بدون تنمية المناطق الأفريقية واتباع سياسة التنمية المنفصلة تصبح سياسة الفصل العنصرى غير

أخلاقية[٦٦]، وأن مسألة التنمية الأفريقية تعد من أهم المشكلات التى تواجه الاتحاد ، ومن المخزى – طبقاً لرؤية الحزب – إهمال تلك المسألة المعقدة . وقد اتضح الوضع حينذاك فى أن الأفارقة طالما عملوا على ترك مناطقهم وتدفقوا بأعداد هائلة؛ من أجل الاستقرار بصفة دائمة فى المناطق غير الأفريقية ، وقد أدى ذلك إلى مناداة البعض بضرورة التكامل بين الأفارقة والبيض . لكن الحزب الوطنى وأغلب الأفريكانرز رفضوا ذلك ؛ لأن هذا التكامل يجعل من الصعب السيطرة على الأفارقة ، وفى نفس الوقت يؤدى إلى ترسيخ أقدام الأفارقة فى كل مناطق الاتحاد ومن ثم تحكمهم فى كافة أموره ، مما يؤدى إلى تكثيف نشاط الاتجاهات المناوئة للحزب الحاكم ، ومن ثم الاحتكاك العنصرى الذى يقلل من مكانة البيض فى الاتحاد، لذا وعلى الرغم من الصعوبات التى واجهت الحزب من أجل حل تلك المشكلة فقد كان الخيار الوحيد هو إقامة الاتحادات المنفصلة للأفارقة فى مناطقهم ؛ حتى يتسنى لكل اتحاد الفرصة التى تقوده إلى الحكم الذاتى والتنمية الذاتية المنفصلة، ومن ثم اختفاء القلق والاضطراب والتوتر بين العنصرين ، مع الأخذ فى الاعتبار ضرورة سيطرة البيض على كافة شئون الاتحاد[٦٧]. وأوضح فيرفورد أن وجود الحضارة البيضاء فى الاتحاد يعتمد بصفة أساسية على تنفيذ سياسة التنمية المنفصلة التى يجب اتباع كافة الوسائل من أجل صيانتها وتطبيقها[٦٨].

ومما دل على ذلك التناقض الذى ظهر فى السياسة العنصرية ؛ أنه فى الوقت الذى أعلن فيه الحزب موافقته على سياسة التنمية المنفصلة كما جاءت فى تقرير لجنة توملينسون ومناداته بضرورة تنمية كل عنصر لنفسه فى مناطق نفوذه وعدم تدخل أى عنصر فى شئون العنصر الأخر ، فإننا نراه ينادى بدعوة البيض لتنمية اقتصادهم فى مدن تلك المناطق الأفريقية ، وإخضاع الأفارقة للبيض وتكريس الهيمنة الاقتصادية فى أيدى الأقلية البيضاء ؛ حتى يظل الأفريقى تحت سيطرة البيض وهيمنتهم . والواقع أن هذا النوع من التنمية كان يحتاج إلى بنية أساسية وأموال ، وهذا غير متاح فى المناطق الأفريقية ، كما أن الأفارقة لا يمتلكون الأموال التى تعينهم على القيام بهذه التنمية ، بجانب أن الحزب الوطنى لم يسمح بمنح الأفارقة هذه الأموال التى تعينهم على ذلك وتؤدى فيما بعد إلى منافسة بين المناطق البيضاء والأفريقية ، فتكون الغلبة فيها لصالح الأفارقة ، ، ثم كيف تسمى

تنمية منفصلة والنظام الحاكم هو الذى وضع أساسها وخطواتها وسيطر عليها؟!(٦٩).

ومن هنا يبدو بجلاء التناقض الظاهر فى سياسة الحزب الوطنى ما بين التمسك بسياسة التنمية المنفصلة وبين الأعباء الاقتصادية التى سيتحملها من أجل النهوض بمناطق الأفارقة من ناحية ، وفى نفس الوقت الرغبة فى تسيد العناصر البيضاء فى الاتحاد من ناحية أخرى(٧٠)، ويتضح من ذلك مدى التناقض الذى ظهر فى النظرية العنصرية ، فقد وافقت على سياسة التنمية المنفصلة من الناحية النظرية، لكنها لم تطبقها.

وقد أشار الحزب الوطنى إلى أن سياسة التنمية المنفصلة ستدعم بدورها نظم الحكم التى أوصت بها لجنة توملينسون والتى تتفق مع سياسة الحزب ، الداعمة للبناء القبلى ، غير أنها أعلنت ضرورة تأمين ذلك من خلال تحديث الطرق التى تحكم بها هذه المناطق عن طريق السلطات القبلية، وأعلنت أن هذا البناء القبلى هو أفضل أنواع الحكم بالنسبة لتلك المناطق ؛ لأنه يعكس طبيعة المجتمع الأفريقى(٧١).

وقد وافق الحزب على منح السلطات البانتوية حقها فى سلطة المناطق، وذلك طبقاً لما جاء فى قانون سلطات البانتو عام ١٩٥٠ ، وكان مؤسساً على الإثنية التى رأت ضرورة تهيئة المناخ المناسب من أجل حكم العناصر الأفريقية لتلك المناطق الإقليمية التى تقع فى نطاقها الذى نصت عليها توصيات اللجنة ، وضرورة إقامة تنظيمات وجمعيات ولجان أفريقية تساعد الحزب الوطنى على استتباب الأمور فى تلك المناطق ، حتى يستطيع الأفارقة حكم أنفسهم بأنفسهم ، إلا أن الحزب لم يكن مستعدا فى تلك الآونة للموافقة على منح البانتو حق مناقشة العلاقات الخارجية المتعلقة بهم ، لكن ذلك سوف يكون مهمة النظام الحاكم ، ويقتصر دور السلطات المحلية على ممارسة الشئون الداخلية(٧٢).

والواقع أن نظام الحكم الذاتى – الذى ادعى الحزب تطبيقه فى المناطق الأفريقية التى حددتها اللجنة – كان عبارة عن سيطرة بيضاء على السلطات المختلفة ؛ والدليل على ذلك أن قانون سلطات البانتو الذى أصدره النظام الحاكم – والذى زعم أنه يدعم سياسة الحكم الذاتى للأفارقة فى مناطقهم – لم يمنح أفارقة تلك المناطق سوى السلطة الاستشارية وشل يد الأفارقة فى ممارسة السلطات

البانتوية[٧٥] حتى تستطيع العناصر الأفريقية مد هذه الأراضى بالمياه اللازمة مـــن أجل النهوض بالعملية الزراعية وعلى النظام كذلك بذل كل ما فى وسعه من أجـــل النهوض بالعملية الزراعية فى مناطق البانتو وإتمامها على وجه السرعة وتقويـــة هذه السياسة بكل السبل والطرق ، كما أعلن الحزب موافقته على مطالـــب اللجنـــة بشأن التنمية الزراعية من الناحية المبدئية ، واتخذ خطوات جادة بشأن هذا العمل ، وليس أدل على ذلك من توفير الأموال والامدادات اللازمة من أجـــل تنفيـــذ هـــذا المخطط ، وتوزيع تلك المبالغ على السنوات العشر ، كما أشـــار إلـــى ضـــرورة التشاور مع سلطات البانتو من أجل تنظيم مؤسسة الشئون الوطنيـــة حتـــى تـــؤدى المهام المنوطة بها على أكمل وجه ، ورغم اتفاقه مع اللجنة فى كثير من الأمور إلا أنه لم يكن على استعداد لقبول مبدأ الملكية الفردية للأفارقة ، وهـــو مـــا ســـيحدث بالتدريج وسوف يقوم النظام الحاكم بحماية الملاك الأفارقـــة فـــى تلـــك المنـــاطق المنصوص على أحقية الشراء فيها من قبل الأفارقة ، وكان يرغب من وراء كـــل ذلك إلى تهيئة مناخ مناسب للأفارقة ، وفى تلك الآونة يجـــب أن يكـــون توزيـــع الحصص على الأفارقة فى المناطق القبلية بطريقة مناسبة وعادلة؛ حتى لا يستأثر أحد بحقوق الغير ، كما أن النظام الحاكم وافق على مـــنح الأفارقـــة قطـــع مـــن الأراضى المشاعة بدلاً من الملكية الخاصة فى تلك المناطق[٧٦].

وعلى الرغم من إصرار الحزب على دعمه لتوصيات لجنة توملينسون بشأن الارتقاء بالزراعة الأفريقية فإنه لم يقم بأية جهود تذكر للنهوض بها، بل إنه أعـــاق كل السبل التى تتيح تنفيذ تلك الفكرة ، ورفض تمويل تلك المشاريع ، وبذلك وقف بالمرصاد لمطالب اللجنة فى المجال الزراعى[٧٧]. والدليل على ذلك صدور العديد من القوانين المختلفة التى منعت الأفارقة من ملكية الأراضـــى ، وأهمهـــا قـــانون الأراضى الذى صدر عام ١٩٥٠[٧٨].

كما ذكر الحزب أنه قام بجهود كبيرة فى الشئون المتعلقة بالغابات فى مناطق البانتو ، وأنه دعم تلك الاتفاقية التى عقدت بين مؤسسة الشئون الوطنيـــة ووزارة الغابات ؛ من أجل صيانة غابات المناطق البانتوية ، تحت رعاية مؤسسة الشـــئون البانتوية ،عن طريق إنشاء فرع للغابات فى وزارة الشئون البانتوية التى ستســـتمر

فى إدارة الشئون المتعلقة بالبانتو فى هذا المجال ، وتحمى المصـــالح الاقتصـــادية للبانتو ، وتظل مؤسسة الشئون الوطنية بموجب الاتفاقية مســئولة عـــن الغابـــات الموجودة فى تلك المناطق(٧٩). وأشار الحزب إلى أن تقسيم وزارة الغابات ، بحيث يوجد للبانتو فرع مستقل بداخلها، لا داعى له فى تلك المرحلة ، وأنه غير مســتعد فى تلك المرحلة لتوفير المبالغ التى حددتها اللجنة ، غير أنه بصدد إيجــاد طـــرق لتمويل تلك المشروعات من خلال مشاورات بينه وبين وزير المالية ، على أساس وضع خطة طويلة الأجل ، كما أشار إلى أن تدريب البانتو فى الشـــئون المتعلقـــة بالغابات وقبولهم فى تلك الصناعات فى المناطق البانتوية يأتى من خلال مكاتـــب التوظيف الخاصة بالحكومة ؛ حتى لا تحدث اضطرابات وفوضـــى بشـــأن هـــذا الموضوع(٨٠).

وأشار الحزب إلى أنه يبذل قصارى جهده من أجل تنمية المجال التعدينى ، وإمكانية البحث عن المصادر الطبيعية التى تنهض بالعملية التعدينيـــة فـــى تلـــك المناطق عن طريق البانتو(٨١)، وأن تلك التنمية لا تزال فى مرحلة تمهيدية وسيطراً عليها تحسن فى المرحلة القادمة(٨٢). وأنه يدعم آراء اللجنة التى جـــاءت مســـايرة لسياسة الحزب ومتفقة معه والتى دعت إلى أهمية النهـــوض بـــه فـــى المنـــاطق الأفريقية، وأعلن أنه وضع هذا الهدف نصب عينيه منذ أعوام ليست بالقليلـــة ، أى أن هذا المشروع متأصل فى سياسته منذ اعتلائه للسلطة ، وذكر أنه سيخضع هـــذا المشروع لمؤسسة الشئون البانتوية، وذكر أن هذا الوقت غير ملائم لإنشـــاء قســـم خاص بالتعدين فى مناطق البانتو، أو إقامة صناعات تعدينية عن طريق البـــانتو ، لكن ذلك سينجز فى وقت قريب ، والتمهيد لتلك الخطوة يأتى من خـــلال مؤسســـة الشئون الوطنية صاحبة الخبرة فى هذا المجال والتى ستبذل قصارى جهـــدها مـــن أجل توفير كافة الإمكانيات المادية والجيولوجيـــة والجيوفيزيقيـــة ، عـــن طريـــق جيولوجى وجيوفيزيقى مؤسسة المناجم Mines Departement ، أو من مؤسسة الشئون الوطنية نفسها(٨٣).

والدليل على مدى التناقض الذى استشرى فى سياسة الحزب الوطنى أنه فى الوقت الذى أكد اتفاقه مع توصيات لجنة توملينسون بشأن دعم التعـــدين الأفريقـــى

وتنميته ، نجده ينكر على الأفارقة حق التنقيب عن المعادن وملكية المناجم بموجب القوانين العنصرية المختلفة التى منحت البيض حق ملكية المناجم والتنقيب عن المعادن[٨٤].

كذلك أعلن الحزب دعمه لتوصيات اللجنة بشأن تنمية الصناعات الأفريقية فى المناطق الأفريقية ، وتقديم كافة الخدمات للبانتو فى حقل التصنيع لمدد طويلة ؛ حتى يستطيع الأفارقة إنجاز تلك المشروعات فى المدة المحددة ، والموافقة على منح الأفارقة الأموال اللازمة للنهوض بالصناعة الأفريقية ، لكنه أشار إلى عدم قدرة الحكومة على منح الأفارقة المبالغ التى أشارت اللجنة إلى ضرورة توفيرها من أجل إقامة التنمية الصناعية فى المناطق الأفريقية والتى قدرتها اللجنة ما بين ٢٥: ٣٠ مليون جنيه استرلينى خلال الفترة من ١٩٥٦-١٩٦٥ ، وأعلن أن الحكومة لن تقرر سوى ١٥ ألف جنيه استرلينى ، كما رفض التوصيات التى وضعتها اللجنة بشأن السماح للبيض بإقامة صناعات خاصة بهم فى مناطق البانتو[٨٥]؛ لأن هذا قد يؤدى إلى منافسة بين البيض والأفارقة فى تلك المناطق الأفريقية ، وربما يؤدى ذلك بدوره إلى اضطرابات ومشاكل جمة ، وحتى لا يمنح الأفارقة فرصة السيطرة على هذه الصناعات ؛ نتيجة للقوة البشرية الأفريقية[٨٦]. بيد أن السبب الرئيسى فى عدم موافقة الحكومة على تواجد صناعات خاصة بالبيض فى هذه المناطق هو عدم رغبة البيض فى خلق بقاع بيضاء فى المناطق الأفريقية ؛ حتى لا يطالب الأفارقة ببقاع فى المناطق البيضاء أسوة بتلك البقاع التى يستحوذ عليها البيض فى المناطق الأفريقية ، بالإضافة إلى ذلك كان الحزب يعى جيداً المستوى المتدنى للحياة فى تلك المناطق التى تحتاج إلى جهود خارقة لإقامة تنمية شاملة فيها ، أى أن هذه المناطق بالنسبة للبيض لا تسمن ولا تغنى من جوع، إذا ما قورنت بالمناطق التى يحيا فيها البيض.

كما أعلن الحزب أنه يرغب فى تقوية الاستقلال الصناعى للأفارقة وتنميته ، وأنه بمجرد نمو الصناعات داخل المناطق الأفريقية وذلك من خلال الإشراف الحكومى ستمنح الحكومة الأفارقة حق العمل الفردى وتدريب البانتو بأنفسهم ، وأشار إلى ضرورة أن يبدأ رجال الصناعة البانتويين بالمشروعات الصغيرة ، وبعد

ذلك تشجع الصناعات الخدمية حتى تصل إلى مستوى المشروعات والصناعات الكبيرة ؛ وذلك بمساعدة من قبل الحكومة أو بدونها ، ومن ذلك يؤيد وجود البيض فى تلك المناطق من أجل بناء تلك الصناعات فى المناطق الأفريقية ، وليس من أجل إقامة صناعات خاصة بهم، وهدفه من ذلك ثبات ورسوخ المصالح الأفريقية الاقتصادية فى مناطقهم[٨٧].

ولا يمكن قبول ذلك الزعم ، لأن الحزب نادى بضرورة خلق صناعات يسيطر عليها البيض على حدود المعازل والمدن ، وحتى يحدث ذلك كان يجب على مؤسسة التنمية الصناعية توفير كل ما يلزم من الإمكانيات التى تجعل البيض قادرين على النهوض بتلك الصناعات الجديدة ، وأعلن أن هدفه من وراء إقامة تلك الصناعات عدم الاحتكاك بين البيض والأفارقة ، وأشار إلى أن الحكومة ستدعم تلك الصناعات بما بين ٢٥ :٣٠ مليون جنيه استرلينى خلال السنوات الخمس الأولى عن طريق الحكومة ومؤسسة التنمية Development Corporation . وأشار إلى أن الحكومة كانت تهدف من خلال ذلك إلى التوازن بين البيض والأفارقة فى المجال الصناعى ؛ لأن تنمية الصناعات الأفريقية فى المناطق الريفية من الممكن أن يقضى على الصناعات الخاصة بالبيض فى المناطق المدنية ؛ نتيجة لرخص الأسعار الخاصة بالمنتجات الأفريقية إذا ما قورنت بأسعار منتجات البيض، ويعد ذلك بمثابة كارثة للتنمية الاقتصادية البيضاء فى اتحاد جنوب أفريقيا[٨٨].

ويفصح العرض السابق عن مدى التناقض الذى ظهر فى سياسة الحزب الوطنى ؛ ففى الوقت الذى رفض فيه مد الأفارقة بالأموال اللازمة لتنمية صناعتهم كما جاء فى توصيات لجنة توملينسون ، نراه ينادى بمنح البيض تلك الأموال ؛ حتى يسيطروا على المجال الصناعى على حدود المدن والمناطق الأفريقية ، ويقيدوا حرية الأفارقة الاقتصادية وهذا يؤكد أن الهدف من إقامة الصناعات التى وجدت على الحدود الفاصلة بين المدن والمعازل هو السيطرة المحكمة على الأفارقة المقيمين فى المعازل من التسلل إلى المناطق البيضاء ، والحد – أو بمعنى أدق – القضاء على التنمية الصناعية فى المعازل ؛ أى أن تلك المناطق مثلت حاجزاً بين الصناعات المتقدمة التى امتلكها البيض وأرادوا السيطرة عليها

والصناعات التى امتلكها الأفارقة والتى اتسمت بأنها صناعات بسيطة[٨٩].

كما أشار الحزب فى نهاية الأمر إلى أن التنمـية الصنـــاعية والتجاريـــة الأفريقية فى المناطق الأفريــقية ليست ضرورية فى هذا الوقت ، ولكــن التنميـــة الزراعيـــة هى الأهم[٩٠]، وذلك حتى تظل المناطق الأفريقية – من وجهـــة نظـــر الباحث – بمثابة مجتمعات زراعية ولا تصل إلى مرحلة المجتمعـــات الصـــناعية والتجارية التى تميزت بها مجتمعات البيض ، والتى من خلالها استطاعوا السيطرة على مقدرات الأمور فى اتحاد جنوب أفريقيا .

كما طالب الحزب بضرورة وجود عدد من عمـــال البـــانتو فـــى المنـــاطق البيضاء؛ لأن التصنيع الذى هين عليه البيض تطلب ذلك ، ولم يقتصر الأمر علـــى المناطق المدنية ، بل طالب بتوفير عدد منهم فى مناطق الحدود التى أقام فيها بعض الأوروبيين صناعاتهم . على أن يكون هؤلاء بمثابة عمالة مؤقتة وزائرين وضيوف شرفاء ، شأنهم فى ذلك شأن البيض فى المناطق الأفريقيـــة[٩١]، وســـوف تـــوفر الحكومة لهؤلاء كل سبل الحياة[٩٢]، ويجب على الحكومة إقناع الأفارقة بالـــذهاب إلى مناطقهم ؛ لأن البيض سيصبحون قليلى العدد بالنسبة للأفارقة ويتضـــح ذلـــك من أن كل ثـــلاثة أفارقة سيقـــابلهم فرد أبيـــض[٩٣].

ويعد هذا أكبر دليل على عدم قدرة النظام العنصرى على تطبيـــق سياســـة الفصل العنصرى أو سياسة التنمية المنفصلة كما أوضحتها النظرية العنصرية التى ذكرت تنمية كل عنصر لنفسه بنفسه دون تدخل العنصر الآخر ، إلا أن الشـــواهد أثبتت أهمية الوجود الأفريقى فى الاقتصاد الأبيض حيث شكل عموداً فقرياً لـــه ، كما أن زعم الحزب الوطنى بتوفير كل سبل العيش للعمالة الأفريقية لم يكن يهدف إلى خدمة الأفارقة وإنما خدمة النظام العنصرى ورغبته فى استنزاف قدرة العامل الأفريقى وطاقته حتى الرمق الأخير ، كما أن تلك الاستعانة بالعمالة الأفريقية تثبت بما لا يدع مجالاً للشك عدم تواؤم عدد البيض وقدرتهم العملية والبشرية مع التقدم الاقتصادى الموجود باتحاد جنوب أفريقيا والذى تطلب عمالة كثيرة ، واقتنع بعـــدم قدرته على تسيير الحياة الاقتصادية دون الحاجة إلى العمالة الأفريقية ، وهذا يثبت عدم اقتناع النظام العنصرى بنظريته العنصرية التى يريد تطبيقها فى اتحاد جنوب

أفريقيا.

كما أشار الحزب إلى أنه سيبذل كل ما فى وسعه من أجل تحسين أجور العمال فى تلك المناطق وترضيتهم وذلك برفع أجورهم وحل مشاكلهم، من خلال مؤسسة الشئون الوطنية ، لذا وافق على توصيات اللجنة بهذا الشأن ، وأكد على أن ماجاء من توصيات فى هذا المجال يدركه ويعمل به من قبل ، وأن توصيات اللجنة فى هذا الشأن ما هى إلا تأكيد على سياسة الحزب الوطنى بشأن الأجور ومشاكل العمال[٩٤].

إلا أن الوقائع أثبتت أن توزيع الدخل فى جنوب أفريقيا اتسم بعدم التكافؤ؛ فالأفارقة كانوا يشكلون فى تلك الآونة ٦٨% من السكان وتلقوا أقل من ٢٠% من الدخل ، فى حين أن البيض شكلوا أقل من ١٩% وتلقوا حوالى ٧٤% من إجمالى الدخل[٩٥].

وأشار الحزب إلى أنه غير مستعد فى تلك المرحلة لإنشاء مؤسسة التنمية Development Coroporation أو أى مجالس خاصة بالتنمية البانتوية يمثلها الأفارقة ، ولكنه أشار إلى إمكانية إقامة مكتب خاص بشئون البانتو داخل مؤسسة الشئون الوطنية ؛ للتعامل مع كافة الشئون المتعلقة بالبانتو حتى يتسنى للأفارقة الحصول على الخبرة فى هذا المجال ، وفى تلك الآونة من الممكن أن تنشئ الحكومة تلك المؤسسة وهذه المجالس[٩٦].

بجانب ذلك لم يوافق الحزب على إنشاء مجالس أرض البانتو Bantu Land Boards ، حيث ترك للسلطة الإقليمية القيام بتلك المهمة ، شريطة أن يحدث التعاون بين مؤسسة الاستثمارات البانتوية ومؤسسة الشئون الوطنية التى تمثل النظام الحاكم ؛ لمنح الأراضى إلى الأفارقة من خلال إشراف مؤسسة الشئون الوطنية التى تقوم بتلك المهمة من خلال مكاتب تستطيع بواسطتها السيطرة على عملية توزيع الأراضى فى تلك المناطق ، وفى نفس الوقت أعلن الحزب أن من أهم النقاط الحيوية التى مثلت مشكلة هى الوجود المستقبلى للبيض فى اتحاد جنوب أفريقيا الذى لم يكن متوقعاً بقاؤه على حالة الزيادة المطردة فى عدد الأفارقة الذين سيستقرون فى المناطق البيضاء ؛ لذا فإن المناطق الخاصة بالأفارقة يجب أن

تتسع، ووافق الحزب على ذلك بوصفه السياسة التقليدية لحكومات اتحاد جنوب أفريقيا(٩٧).

وفى نفس الإطار أعلن الحزب أن من أهم نقاط الضعف فى توصيات تقرير توملينسون أنه جعل موضوع دمج المحميات البريطانية أو ما سمى بأراضى المندوب السامى البريطانى بمناطق البانتو فى اتحاد جنوب أفريقيا – جعله من أهم توصياته ؛ لأن ذلك سيتطلب مساعدات اقتصادية كبيرة من الحكومة ، ويخلق مشاكل للاتحاد من قبل الأفارقة الذين سيزدادون(٩٨)، لذا رفض الحزب هذه التوصية(٩٩)، إضافة إلى ذلك أشار فيرفورد إلى أن تلك التوصية ليست ضرورية ، وأنها فى صالح الوطنيين أكثر من بيض اتحاد جنوب أفريقيا ؛ لأنها تزيد من عدد الأفارقة وتؤدى إلى معارك حامية الوطيس بين الأفارقة والبيض ، وإلى سيطرة الأفارقة على أكثر من ٤٥% من أراضى الاتحاد والمحميات(١٠٠).

وحينما تطرق الحزب للحديث عن الناحية الاجتماعية أشار إلى أنه يبذل قصارى جهده لتنمية كافة مناحى الحياة الاجتماعية الأفريقية . وفى الوقت الذى أعلن فيه عدم استعداده للموافقة على حرية الملكية بالنسبة للأفارقة(١٠١) أشار إلى موافقته على امتلاك الأفارقة للبقاع السوداء ، وعدم تملكهم فى المناطق الأوروبية ، تأكيداً لما جاء فى قانونى الأراضى عام ١٩٣٦ ، والمناطق الجماعية عام ١٩٥٠ . كما أعلن موافقته على إقامة مدن للبانتو فى مناطقهم على أن تخضع لوزارة الشئون الوطنية ، وأشار إلى أن عدد المدن سيصل إلى أربعين مدينة ، شريطة أن يكون بينها وبين المدن الخاصة بالبيض فى تلك المناطق مسافة كبيرة ؛ حتى لا يؤدى القرب بينهما إلى التنافس والاحتكاك وحتى تستطيع المؤسسات المعنية بتلك المدن السيطرة عليها ، وهذا مناقض لسياسة الفصل العنصرى التى طالبت بعدم تواجد البيض فى المعازل مقابل عدم تواجد الأفارقة فى مدن البيض ، وفى هذا إجحاف لحقوق الأفارقة ودليل صارخ على مدى التناقض الذى استشرى فى السياسة العنصرية ما بين النظرية العنصرية وتطبيقاتها الفعلية ، كما أشار إلى أن مجالس القرى والمدن ستدار طبقاً لنظام سلطات البانتو ومؤسسة الشئون الوطنية(١٠٢).

كما أشار الحزب إلى أنه بصدد النهوض بالتعليم الأفريقى من خلال تـوفير ميزانية كبيرة تمنح لوزارة الشئون البانتوية[١٠٣]. وأن السياسة المتعلقـة بـالتعليم البانتوى كانت مجسدة فى التشريعات التى أصدرتها الحكومة من قبل، لـذا اعتبـر الحزب – مثله مثل لجنة توملينسون – أن الاهتمام بالتعليم البانتوى علـى أسـاس تعليم يتفق مع ثقافة تلك المناطق من الموضوعات الجوهرية والرئيسية فى سياسـة الحكومة ، لذا رأى ضرورة عدم اتخاذ أية إجراءات جديدة بشأن توصيات اللجنة ، أو لتغيير السياسات التعليمية التى تنتهجها الحكومة بشأن البانتو ، كما أشار إلى أنه بذل كل ما فى وسعه من أجل دعم التعليم الجامعى للأفارقة[١٠٤].

وبدا التناقض جلياً فى هذا الزعم عام ١٩٥٣ ، حينما أصدرت الحكومة أهم القوانين العنصرية فى المجال التعليمى وهو قانون تعليم البانتو، الـذى أدى إلـى تعميق الفجوة التعليمية بين العناصر المختلفة ، وشددت الحكومة من قبضتها علـى العملية التعليمية الخاصة بالأفارقة ، وأصبح التعليم بالنسبة للأفريقى غير إلزامى ، وتحمل المواطنون العبء الأكبر فى نفقات تعليم أبنائهم . وهدف الحزب الـوطنى من وراء ذلك إلى إبقاء الأفارقة فى حقل العمالة اليدوية غير الماهرة التى تطلبـت تعليما محدوداً لا يؤدى إلى منافسة البيض[١٠٥].

كما اتفق الحزب مع اللجنة فيما يتعلق بأهمية العمل الدينى الإيجابى للكنائس والمؤسسات الدينية ؛ لأنها تؤدى إلى نمو الوازع الدينى ، وتساعد الإنسـان فـى حياته الخاصة ، وأن مطلب اللجنة بإنشاء فرع خاص للكنائس والأنشطة التبشيرية البانتوية عمل طموح ، لكن الحزب لم يكن مستعداً فى تلك الآونـة لإقامـة هـذا الفرع[١٠٦]، كما أنه لا يوافق على تسجيل الكنائس الخاصة بالمجتمعات البانتويـة ، كما كان فيرفورد ضد نمو المنظمات الدينية بـين البـانتو ؛ لأنـه رأى أن تلـك التنظيمات تعمل على تحالف المجموعات البانتوية الموجودة فى الاتحاد مما سيؤدى إلى إعادة هيكلة وتنظيم الاتحاد.

لذا لم يوافق الحزب على منح أية تصاريح للأفارقة الذين أرادوا العمل فـى الحقل الكنسى ، واشترط مستويات تعليمية عاليـة ، وأدرك الحـزب أن التحـاق الأفارقة بالكنيسة سيؤثر على سياسة الحكومة ، وذلك عن طريق المطالبة بالحريات

الدينية وفتح النار على سياستها ، كما أنه لم ير ضرورة فى تقديم الـدعم للعمـل التبشيرى البانتوى فى اتحاد جنوب أفريقيا(١٠٧)، حتى لا يطالب بحقوق للأفارقـة ، ويـشعل ثائرة الأفارقة ضده ، لأن الحزب كان يدرك تأثير نفوذ رجال الدين على الأفارقة . كما أدرك الحزب أن التحاق الأفارقة بالكنيسة وتسجيل الكنائس الأفريقية سيكون له أصداء فى الكنائس العالمية بحكم شرعيتها ، أما إذا لم تسجل فإنها ستتهم بأنها تنظيمات أو مؤسسات غير شرعية.

ومن ناحية أخرى رأى الحزب أن الوقت لم يحن بعد من أجل قيام السلطات البانتوية بالسيطرة على كافة الشئون المتعلقة بمد الخدمات وتمويل المستشـفيات ، وأن هذا الأمر سابق لأوانه ، وتلك الأمور جميعها تسير على أكمـل وجـه ، وأن فترة التحولات لم تحن فى ذلك الوقت ؛ لأن الثقافة الطبية للأفارقة ليسـت بالقـدر المطلوب من أجل إعطائهم تلك الفرصة ، وأشار إلى أن وزارة الصحة ومؤسسـة الشئون الوطنية تبذلان كل ما فى وسعيهما عن طريق التشاور والتعاون بينهما وبين السلطات الحاكمة من أجل توفير الدعم المادى لوزارة الصحة لتوفير كافة الخدمات الطبية لتلك المناطق . كما وافق الحزب بصفة مبدئية على ضرورة تقـديم كافـة الفرص الخاصة بالخدمات الترفيهية والعامة ، فى ظل مؤسسة الشئون البانتويـة ، وأن هذا يجب أن يحدث فى الوقت المناسب ، وأنه سوف يوجه إلى هـذا الأمـر اهتمامٌ كبيرٌ ، وأن ذلك يتطلب من المؤسسة مجهودات كبيرة أيضاً ، وأشار الحزب إلى أن السلطات البانتوية لها أهمية جوهرية بشأن هذا العمل الهـام الـذى يـدعم العلاقة بين المؤسسة وبين تلك السلطات ، كما أشار الحزب إلـى أن هـذا الـدعم سيأتى من قبل الحكومة عندما يتراءى لها أن الوقت المنـاسب قد حان لإنجاز تلك المهمة(١٠٨).

كما أبدى الحزب موافقته المبدئية فيما ذهبت إليه اللجنة من ضرورة تـوفير الضمانات والدعم المادى من أجل النهوض بتلك المناطق ، لكنه أرجأ المقترحـات والتفاصيل لتبت فيها وزارة المالية ، كى تقدر التكاليف المناسبة لهـذا المشـروع وهو ما يوضح أن الحزب وافق على التخطيط والتمويل وتشجيع تلك المشروعات الأفريقية ، وذلك من خلال مؤسسة الشئون الأفريقية بعد مشاورات مع المؤسسات

الموجودة بالاتحاد التى تشرف عليها الدولة . كما أشار الحزب إلى ضرورة تأسيس هذا التمويل على مبدأ المساعدات الذاتية ؛ أى من خلال الرأسمالية الأفريقية ، ومنظمة استثمارات المناطق البانتوية Bantu Areas Investment Organization ، وأن الحكومة ستمنح تلك المناطق اعتمادات مالية[١٠٩]، قدرتها بنحو نصف مليون جنيه استرلينى من أجل البدء فى هذا المشروع ، ورفض الحزب تقديم الميزانية التى طالبت اللجنة بتجهيزها خلال الفترة من ١٩٥٦ – ١٩٦٥ والتى وصلت إلى ١٠٤,٤ مليون جنيه استرلينى ، وأشار إلى أنه غير مستعد فى تلك الأونة لتقديمها ، وذكر أنه بصدد الاتفاق مع الحكومة على توفير ٣٦,٦ مليون جنيه استرلينى ، ثم ما لبث أن خفض هذا القدر ليصل إلى ١٩ مليون جنيه خلال الفترة من ١٩٥٦– ١٩٦٠[١١٠]، أى بمعدل ٣,٥ مليون جنيه فى العام الواحد ، ولما رأى فيرفورد عدم الرضى عن هذا المبلغ أشار إلى أنه من الممكن أن تقوم الحكومة بإنفاق نحو ٥ مليون خلال عام واحد بدلاً من ٣,٥ ، لكن ستريجدوم أعلن أن ٣,٥ مليون تكفى لبدء هذا المشروع العملاق[١١١]، ولكنه لم يف بالمبلغ الأخير ، وأشار الحزب إلى ضرورة اعتبار الوزير مرشداً من أجل القيام بتلك التنمية ، وأن إقامة مؤسسة تنمية صناعية خاصة بالأفارقة غير متاح فى تلك الأونة ؛ لأنهم لا يمتلكون ثقافة إدارة تلك المناطق[١١٢]، كما أشار إلى أن كل ذلك سوف يحدث فى إطار إشراف وسيطرة فيرفور[١١٣] الذى أوضح أن حكومة الاتحاد تتعلم من خبرات السياسات السابقة ؛ فقد أثبتت السياسة والخبرة البريطانية فى وسط أفريقيا وكل مكان حلت به استحالة الموافقة على المشاريع العملاقة ؛ بمعنى توفير كل الأموال التى تحتاجها تلك المشاريع، ولكن يجب أن تمنح تلك الأموال تدريجيا[١١٤].

ثالثاً : موقف المعارضة البيضاء من التقرير :

أ- الحزب المتحد :

رفض الحزب المتحد بزعامة جاكوبوس ستراوس Jacobus Straus سياسة الفصل العنصرى الكامل التى نادت بها لجنة توملينسون ، وأشار إلى أن الحزب يريد تنمية مناطق البانتو ، لكنه يرفض أى تجزئة لاتحاد جنوب أفريقيا[١١٥]. وأعلن

أنه فى حالة عدم تقديم الحزب الحاكم لخطط تنموية خاصة بالصناعة والخدمات الأساسية فى المعازل خلال عامين قادمين فإن المعارضة سوف تقرر أن سياسة الفصل العنصرى التى نادت بها اللجنة المشكلة من قبل الحزب الحاكم فى اتحاد جنوب أفريقيا بمثابة خدعة سياسية، بل الأكثر من ذلك أنها أهم جريمة ارتكبت فى حق الاتحاد(١١٦). ووجد الحزب أن تلك التنمية التى تحدث فى المعازل تسهم فى إفادة الأجيال فى المستقبل وتدفع عجلة التقدم ، وأشار إلى أن ذلك لا بد أن يحدث فى إطار سياسة التكامل بين العناصر التى تقطن البلاد بصفة عامة والبيض والأفارقة بصفة خاصة ، مع الأخذ فى الاعتبار ضرورة أن يكون هذا التكامل العنصرى فى إطار السيادة البيضاء ، وهذا هو الحل الأمثل لمشكلة اتحاد جنوب أفريقيا ، بيد أن فيرفورد رفض تلك السياسة ، وأعلن أنها تنطوى على استغلال للبيض بحكم الكثرة العددية للأفارقة ، لكن الحزب وقف بالمرصاد لسياسة فيرفورد، وأعلن أن الموافقة على سياسة الفصل العنصرى الكامل ستؤدى إلى إيجاد أوطان أفريقية مستقلة ، تشكل مخاطر جسيمة على العنصر الأبيض ، فى حالة اتحادها ، أو مساعدتها ودعمها من الخارج(١١٧).

وأشار ستراوس إلى أن حزبه يتفق مع الحزب الوطنى فى ضرورة تسيد البيض ، لكن المعارضة ليست مجبرة على الموافقة على سياسة الفصل العنصرى الكامل ، وذهب إلى ضرورة تنمية المناطق الأفريقية زراعياً وصناعياً وترك الأجيال لحكم نفسها ، وحتمية التكامل الاقتصادى والقضاء على فكرة الفصل العنصرى فى النواحى الاقتصادية(١١٨).

لقد أعلن الحزب المتحد رفضه لسياسة الفصل العنصرى الكامل ، على الرغم من أنه كان ينتمى للعنصر الأبيض ، لكن ذلك لم ينبع من تعاطف مع الأفارقة ، وإنما طمعاً فى كسب ودهم فى الصراع الدائر بين الحزب المتحد الذى تكون من العناصر الإنجليزية والحزب الوطنى الأفريكانرى ، وبمجرد اعتلائه للسلطة ، سيعتمد الحزب المتحد الفصل العنصرى سياسة رسمية له؛ فسياسة البيض ضد الأفارقة واحدة ، أى أن ذلك الرفض كان من قبيل المناورة الحزبية.

وقد اتهم هارى أوبنهيمر Harry Openhimer – ممثل الحزب المتحد فى

كيمبرلى- اللجنة بأنها لم تستطع تحديد التكاليف الحقيقية اللازمة لمشـروع تنمية مناطق البانتو من الناحية الاقتصادية والاجتماعية ، وأن هذه المناطق تحتاج إلـى مزيد من الأموال تصل إلى ١٥٦ مليون أو أكثر . كما أن الأموال التـى حـددتها اللجنة بشأن تطوير وتنمية الصناعات لم تكن كافية لإقامة تلك النهضة(١١٩).

ولم يوافق الحزب المتحد على منافسة الرأسمالية البيضـاء للأفارقـة فـى المعازل أو مناطق الحدود ، كما أنكر على البيض فى اتحاد جنوب أفريقيا حريـة الاختيار بين التكامل أو الفصل العنصرى ، وأشار إلى أن اختيار سياسة الفصـل العنصرى الكامل تؤدى إلى انتشار الشيوعية بين الأفارقة ، وأضاف سـتراوس أن الحزب الوطنى رفض أساسيات تقرير لجنة توملينسون ووافق علـى أيديولوجيـة التقرير(١٢٠).

ب- الحزب الليبرالى :

أشار الحزب الليبرالى الذى تأسس عـام ١٩٥٣ ، إلـى أن تقريـر لجنـة توملينسون الذى دعا إلى التنمية المنفصلة والفصل العنصرى الكامل بين العناصر الأفريقية والبيضاء فى اتحاد جنوب أفريقيا ، لم يكن عملياً فى تلك الدعوة ، ولـم يأت بأى حلول لمشكلة ذلك المجتمع متعدد العناصر ، وهذا ما جـاء فـى تقريـر الحزب الليبرالى فى مارتيزبرج Martizburg ، وليس هناك أى داع لاسـتقرار البانتو فى سبعة أوطان ؛ وأشار إلى أن الهدف من ذلك هو تقسيم الأفارقـة إلـى مجموعات صغيرة سهلة الانقياد وإشعال الصراعات بين تلك المناطق بـدلاً مـن الولاء لاتحاد جنوب أفريقيا بصفة عامة ، كما كان هدف اللجنة التى عينها الحزب الوطنى هو مساعدة الحزب الحاكم فى التقسيم والتفتيت من أجل الحكم ؛ أى فـرق تسُد ، ولذلك فإن اللجنة كانت تؤمن بدون دليل أو مبرر كاف بأن سياسة الفصـل العنصرى الكامل هى بمثابة الحل الأمثل والأوحد للارتقاء بالمصالح الخاصة بكل العناصر ومنع الصراعات بينها ، وتناست اللجنة أن أن التكامل فى مجتمـع عـام واحد هو السبيل والخط الرئيسى من أجل التقدم فى كافة مناحى الحياة(١٢١).

وأعلن الحزب الليبرالى أن كافة الموضـوعات المتعلقـة بالتنميـة المدنيـة والصناعية فى مناطق البانتو كانت كاذبة ، وأنكرتها الحكومة ؛ وكانت اللجنة تعلم

بأن الحكومة لن ترضى بإنفاق ١٠٤ مليون جنيه من أجل تنمية تلك المناطق الأفريقية ، كما أشار الحزب مثله فى ذلك مثل الحزب المتحد إلى أن كل هذه القروض والانفاقات التى ستمنح لدعم تلك المناطق غير كافية[١٢٢].

وأشار الحزب الليبرالى كذلك إلى أن من أخطر المسائل أن تضع الحكومة وعوداً وهمية للجنة من أجل تجريد الأفارقة من حقوقهم فى المناطق البيضاء ، بل الأكثر من ذلك فى مناطق الأفارقة أنفسهم . لذا أدت تلك السياسة إلى فقدان الأفارقة الثقة فى كل البيض وقادتهم ولجانهم[١٢٣].

من ذلك يتضح أن الإقلال من شأن الأوضاع الخاصة بأحوال العناصر غير البيضاء بصفة عامة والأفارقة بصفة خاصة من قبل الحزبين المتحد والليبرالى قد أدى إلى ازدياد حدة الضيق بين العناصر غير البيضاء ، وهو ما اعتُبر معارضة لتوصيات لجنة توملينسون بشأن الفصل الكامل بين العناصر التى تقطن البلاد .

ونتيجة لتلك الآراء التى نادى بها الحزب المتحد والحزب الليبرالى ، طالب فيرفورد من المعارضة ألا تعوق تلك الانجازات التى حدثت بموجب سياسة الفصل العنصرى الكامل . و شن هجوماً لاذعاً على الحزب المتحد واتهمه بأنه يعمل لمصالحه الشخصية حينما نادى بالتكامل الاقتصادى وفى الوقت نفسه طلب من الحكومة مهمة القيام بالتنمية فى المناطق الأفريقية ، كما صب جام غضبه على هارى أوبنهيمر الذى أوضح أن لجنة توملينسون لم تستطع وضع تقدير حقيقى لتكاليف المشروع ، وأشار فيرفورد أن أوبنهيمر أراد أن يحتفظ بالمعازل كذخيرة عملية من أجل مناجمه ، كما لم تعجبه – شأنه شأن أنصار الفصل العنصرى الكامل – الآراء التى نادى بها الحزب الليبرالى[١٢٤].

ج – المؤسسات والصحف البيضاء :

من أهم وأبرز المشاكل التى واجهت الحكومة تلك الآراء والدعوات التى جاءت على لسان أغلب أعضاء مكتب جنوب أفريقيا للعلاقات العنصرية، وبعض رجال الكنيسة الهولندية الذين أوضحوا أنهم غير راضين عن سياسة الحكومة ، وبصفة خاصة سياسة فيرفورد ، وأوضحوا أنهم ليسوا مستعدين لفقد مكانتهم فى الحزب ، وذلك حينما تفتح أبواب النقد على الحكومة . لذا فبنهاية يونيو ١٩٥٦ ،

عقد مكتب جنوب أفريقيا للعلاقات العنصرية وبعض رجال الكنيسة الهولندية والمنظمة الثقافية الأفريكانرية المتحدة اجتماعاً فى بليمفونتين ، حضره حوالى ثمانمائة من رجال الفكر والكنيسة وطالبوا بضرورة فهم الشعوب البانتوية ودعم العلاقات الشخصية بين العناصر التى تقطن البلاد ، وحذروا من مخاطر النقد اللاذع الموجه للحكومة واللجنة بسبب سياسة الفصل العنصرى الكامل ، ودعوا إلى رفض تلك السياسة على الرغم من موافقتهم عليها من قبل ، وقد أثبت هذا التناقض بين النظرية العنصرية كما وضعها العنصريون وتطبيقاتها الفعلية . كما ظهرت تعليقات فى الصحف البيضاء حول الفصل العنصرى التام كما جاء فى توصيات تقرير توملينسون ؛ حيث أشارت الصحف الناطقة باللغة الإنجليزية إلى أن الفصل التام نموذج غير عملى ، وحلم لن يبلغ الحقيقة ، لكنها أضافت أن غرض اللجنة كان الإصلاح ، ولكن إذا أرادت تنفيذ الغرض المنشود فعليها بالإقلاع عن سياسة الفصل التام[١٢٥]، وعلى النقيض من ذلك أشارت الصحف الأفريكانرية التى أيدت سياسة الحزب الوطنى أنها ترحب بتوصيات اللجنة مؤكدة على أن جنى ثمار توصيات ومجهودات اللجنة يتطلب وقتاً طويلاً ، وأن سياسة الفصل العنصرى بمثابة حماية للسيادة البيضاء على اتحاد جنوب أفريقيا ، بل الأكثر من ذلك أنها فى صالح كافة العناصر التى تقطن البلاد[١٢٦].

رابعاً : **ردود أفعال العناصر الأفريقية والملونة والهندية تجاه التقرير** :

على الرغم من أن تلك الدراسة كانت تهدف فى المقام الأول إلى إبراز موقف النظام العنصرى من تقرير اللجنة ، إلا أنه كان لزاماً على الباحث الحديث بإيجاز عن موقف الأفارقة من التقرير ؛ على أساس أنهم أصحاب القضية المعنية بها تلك الدراسة ، وكذلك العناصر الملونة والهندية التى كانت تعانى من نفس السياسات العنصرية التى تعرض لها الأفارقة ، فكان لا بد من وقوفهم بجانب الأفارقة.

لقد رفض الأفارقة قرارات اللجنة ؛ لأنها رفضت سياسة التكامل العنصرى ، ولم تقدم أية امتيازات ملموسة للأفارقة وإنما قدمت وعوداً نظرية ، واتفقت مع السياسة العنصرية ، وفى هذا الصدد عقد القادة الأفارقة مؤتمراً لمناقشة توصيات

تقرير لجنة توملينسون استمر ثلاثة أيام وحضره ٣٩٤ مفوضاً ومراقباً من كل مناطق اتحاد جنوب أفريقيا ، وأكد هذا المؤتمر على رفض توصيات تقرير لجنة توملينسون ؛ لأنه بمثابة خطة شاملة ووسيلة لخدمة السياسة العنصرية فى الاتحاد ، وأشار إلى أن توصيات اللجنة لا تتضمن أية سياسات ترضى طموحات الأفارقة ، كما أن اللجنة وضعت الخيار للبيض وليس للأفارقة ، بحيث طرح على البيض ما يسمى بالتكامل الكامل أو الفصل الكامل ، وكان الفصل الكامل أو التام يتفق مع رغبة البيض من الناحية النظرية والرسمية والقانونية ، وليس من الناحية العملية ، واعتبر البيض التكامل التام تهديداً للرخاء والتقدم الخاص بهم فى الاتحاد ، كذلك أنكرت التوصيات الحقوق الانسانية والمدنية للأفارقة فى المناطق المدنية ، وفى بلادهم الأصلية ، كما أشار المؤتمر إلى أن توصيات اللجنة وطدت النفوذ الأبيض فى المعازل وفى مناطق الحدود ، كما أن توصيات اللجنة بشأن التعليم الأفريقى أهملت وكانت مصطنعة ، كما رفضت اللجنة إقامة جامعات خاصة بالأفارقة فى مناطق البانتو فى تلك المرحلة ، كما أن المؤتمر لم يكن متفقاً مع توصيات لجنة توملينسون بشأن الكنائس ؛ لأنها رأت ضرورة سيطرة الحكومة على الشئون الكنسية ، وذلك فى ظل سياسة عنصرية تتبع الكنيسة الهولندية التى تدعم العنصرية وإن صرحت بعكس ذلك[١٢٧].

والواقع كذلك أن إعلان هؤلاء الزعماء الأفارقة الذين كانوا يدعمون النظام العنصرى عن صلاحية سياسة التنمية المنفصلة وقانون سلطات البانتو ١٩٥٠ ؛ كان من أجل الارتقاء بنفوذهم ومكانتهم ، وسيطرتهم على مقدرات الأمور فى الحكومة الذاتية الجديدة ، ونهب ثرواتها فى ظل الحماية العنصرية ، التى تدعم نفوذ هؤلاء ما داموا يعلنون الولاء والطاعة للسلطة الحاكمة[١٢٨].

وقد وقف الملونون والهنود فى صف الأفارقة واعترضوا على توصيات لجنة توملينسون ، وذكروا أنها كانت استمراراً للسياسة التى تهدف إلى اتساع الهوة بين البيض والأفارقة ، وأن السياسة التى أوصت بها ونعنى بها سياسة الفصل الكامل والتنمية المنفصلة وإقامة مناطق جغرافية منفصلة ، تؤدى إلى إنكار الحقوق المدنية للأفارقة ؛ بحجة أنهم يهددون الحضارة الأوروبية ومصالح البيض ، كما كان هدفها

منع الأفارقة من الحصول على الحقوق الوطنية خارج المناطق السبعة أو الأوطان الخاصة بهم ، ولذلك لم يوافق المؤتمر كلية على توصيات اللجنة ، وطالب بالقضاء على كافة السياسات العنصرية التى نادت بهـا التوصـيات ودعمتهـا الحكومـة العنصرية(١٢٩).

وبحلول عام ١٩٥٦ تمت مناقشة التقرير فى البرلمان وكشفت المناقشة عـن عدم تحمس الحكومة لقبول سياسة الفصل العنصرى الكامل . ومن ذلك يتضح لنـا أن استخفاف الحكومة بالتقرير كانت ضربة قاصمة لنظرية الفصـل العنصـرى الكامل ، كما أن تلك السياسة التى تحمست لها الحكومة أبرزت التناقض بين المجال النظرى الذى صيغت فيه النظرية العنصرية والواقع العملى الذى أثبـت صـعوبة تطبيقها(١٣٠).

خلاصة القول أن الحكومة العنصرية نفذت الفصل العنصرى بطريقة سمحت للبيض بالاستمرار فى استخدام الأفارقة مع السـيادة العنصـرية الشـاملة علـيهم واستبعادهم من المشاركة فى النظام ووضعهم تحت سيطرتها ، حتى وصل وضـع الأفارقة فى اتحاد جنوب أفريقيا إلى الدرك الأسفل فى كافة مناحى الحياة .

هوامش الدراسة :

1- D.O:35/4382: South Africa : Report of the Tomlinson Commission ,United Kingdom High Commissioner in South Africa to Secretary of State for Commonwealth Relations , Commonwealth Relations Office Print 22 - August ,1956 , P. 1

2- Chirs de Wet : Moving Together Drafting Apart Betterment Planning and Villgaization in a South African Homeland , Witwatersrand University Press , 1995, P.53.

3- D.O :35/4382 :South Africa : Report of the Tomlinson Commission , P. 1.

4- D.O :35/4382 : South Africa Counts Cost of Apartheid , Cape Town ,28-April – 1956.

5- D.O :35/4382 :South Africa : Report of the Tomlinson Commission , P. 1.

6- Ibid., P.2.

7- Ibid.

8- D.O :35/4382 :South Africa : Report of the Tomlinson Commission , P. 1.

9- D.O :35/4382 :Tomlinson Report on the Native Reserves , 19- April –1956 , P.2.

إبراهيم جلال أحمد : الصناعة والعنصرية فى جنوب أفريقيا ١٩٤٨-١٩٧٦، رسالة ماجستير غير منشورة ، جامعة عين شمس،١٩٩٩، ص٦٧؛ إبراهيم جلال أحمد : الترانسكى دراسة لسياسات المعازل العنصرية فى جنوب أفريقيا ١٩٤٨-١٩٧٦ ، رسالة دكتوراه غير منشورة ، جامعة عين شمس ،٢٠٠٣ ،ص٢٢١ .

10- D.O :35/4382 :South Africa : Report of the Tomlinson Commission , P. 1.

11- D.O :35/4382 : After Tomlinson , Times ,17- May –1956.

12- D.O : 35/4382 :South Africa : Report of the Tomlinson Commission , P. 1.

13- Ibid., P.3.

14- D.O :35/4382 :The Tomlinson Report on Apartheid , Summary of Report , 9, 13 – April – 1956 ,PP.101- 106.

15- D.O :35/4382 : South Africa Fate in the Balance , Daily Telegraph ,17- May- 1956

D.O :35/4382 :South African Action on Tomlinson Report , Policy Defended on Grounds of White Security , Times , 17 – May – 1956.

16- D.O :35/4382 :Cost is Apartheid Snag Tomlinson Report , Offers A Bold Solution , Scotsman , 14- May – 1956.

17- D.O :35/4382 :Chance to Clarify Racial Policies , Union Parliament Debating Tomlinson Report , Manchester Guardian , 14 – May –1956.

18- D.O :35/4382 :Not Away out , Times , 19 –April –1956

19- Chirs de Wet :Op.Cit.,P.49

20- Ibid.,P.46.

21- D.O :35/4382 :The Tomlinson Report on Apartheid , Summary of Report , 9, 13 – April – 1956 ,PP.104 - 105.

22- D.O :35/4382 :Strijodom to make Dual Rule of Protectorates , Sunday Times ,1-April – 1956; D.O :35/4382 :Tomlinson Without Tears , Economist , 5-5-1956.

23- Chirs de Wet :Op.Cit., P.52.

24- Ibid.,PP.46,47.

25- Ibid.,P.47.

26- D.O :35/4382 :Government Decisions on the

Recommendations of the Commission for the Socio – Economic Development of the Bantu Areas within the Uonion of South Africa , 1956.,P.3.

27- Chirs de Wet :Op.Cit., P.53.

28- D.O :35/4382 :Government Decisions on the Recommendations, 5.

29- Ibid .,P.7.

30- D.O:35/4382: South Africa : Report of the Tomlinson Commission , 3.

31- D.O :35/4382 :Government Decisions on the Recommendations ,P.8.

32- Ibid.,PP.8,9.

33- Ibid.,P.9.

34- Ibid.,P.9,10.

35- Chirs de Wet :Op.Cit., P.49.

36- D.O:35/4382: South Africa :Developments in Apartheid Policy , United Kingdom High Commissioner in South Africa to Secretary of State for Commonwealth Relations , Commonwealth Relations Office Print ,16- April -1959, P.4.

37- D.O:35/4382:Africans to be turned into ,True Farmers, News Chronicle, 20- May-1956.

38- 6.-D.O:35/4382: South Africa : Report of the Tomlinson Commission , 3

39- D.O:35/4382:Africans to be turned into ,True Farmers

40- D.O:35/4382: South Africa : Report of the Tomlinson Commission , 3.

41- D.O :35/4382 :The Tomlinson Report on Apartheid,

Summary of Report , 20 –April – 1956.

٤٢- آمال على خليفة : الحزب الوطنى المتطهر ودوره فـــى تعميــق العنصـــرية ١٩٣٤-١٩٥٦ ، رسالة ماجستير غير منشورة ، معهد البحوث والدراســات الأفريقية ، جامعة القاهرة ، ١٩٩٢.

43- Chirs de Wet :Op.Cit., PP.47,48.

44- D.O :35/4382 :Government Decisions , P.13.

٤٥- أحمد عبد الدايم : التعليم والعنصرية فى جنـــوب أفريقيـــا ١٩٤٨- ١٩٧٦، ماجستير غير منشورة ، معهد البحوث والدراسات الأفريقية ، جامعة القاهرة، ٢٠٠٠م.

46- D.O :35/4382 :Government Decisions , P.11.

47- Chirs de Wet :Op.Cit., P.50.

48- Ibid.,PP. 47,54.

49- D.O :35/4382 :Government Decisions , P.14.

50- D.O:35/4382: South Africa : Plans for New S. Africa Black Communities Development Project for Growing Population, Times , 28-April –1956.

إبراهيم جلال أحمد : الصناعة والعنصرية ص٦٧؛ الترانسكى، ص٢٢١.

51- D.O :35/4382 :Tomlinson Without Tears.

52- D.O:35/4382: South Africa : Plans for New S.Africa Black Communities.

53- Chirs de Wet :Op.Cit.,P.46.

54- D.O:35/4382:Professor Tomlinson Endorses His Report , South Africa ,12-May –19567.

55- D.O:35/4382:Union ,, Can Afford Apartheid ,, on Year to Year Basis , Manchester Guardian , 15 – May – 1956.

56- Ibid.

57- D.O :35/4382 : After Tomlinson , Times ,17- May –1956.

58- D.O :35/4382 :Partnership of Races Won ,s Work , Say Boer ,Daily Mail , 15- May –1956.

59- D.O :35/4382 :Cost is Apartheid Snag Tomlinson Report offers A Bold Solution , Scotdman , 14- May – 1956.

60- D.O:35/4382:Africans to be turned into ,True Farmers, News Chronicle, 20- May-1956.

61- D.O:35/4382:Union „ Can Afford Apartheid „ on Year to Year Basis , Manchester Guardian , 15 – May – 1956.

62- D.O:35/4382: South Africa : Report of the Tomlinson, P.2.

63- D.O:35/4382:United Kingdom Information Office , London House , Lave day Street , Johannesburg ,15- April – 1956.

64- D.O :35/4382 :Partnership of Rases Won ,s Work , Say Boer ,Daily Mail , 15- May –1956.

65- D.O :35/4382 :Cost is Apartheid Snag Tomlinson Report offers A Bold Solution , Scotdman, 14- May – 1956.

66- Ibid.

67- D.O:35/4382: South Africa : Report of the Tomlinson, P.3.

68- D.O:35/4382:Union „Can Afford Apartheid „ on Year to Year Basis , Manchester Guardian , 15 – May – 1956.

69- Ibid.

70- D.O :35/4382 :Cost is Apartheid Snag Tomlinson Report offers A Bold Solution , Scotdman , 14- May – 1956.

71- Chirs de Wet :Op.Cit.,P.50.

72- D.O :35/4382 :Government Decisions on the Recommendations ,P.13.

73- Chirs de Wet :Op.Cit.,P.50.

74- Ibid.

75- D.O : 35 / 4382 : Government Decisions on the Recommendations ,PP4,5.

76- Ibid.,PP.5,6.

77- Chirs de Wet :Op.Cit.,P.49.

78- D.O:35/3260:South Africa , 13th December ,1950, P.15.

79- D.O:35/4382 :Government Decisions on the Recommendations ,P.6.

80- Ibid.

81- Ibid.,P.7.

82- Chirs de Wet :Op.Cit.,P.49.

83- D.O :35/4382 :Government Decisions on the Recommendations,P.7.

84- Ibid.

85- D.O:35/4382: South Africa :Developments in Apartheid Policy , P.4.

86- D.O :35/4382 :Government Decisions, P.13.

87- D.O/35/713:South Africa : The Economic Effects of Apartheid , United Kingdom High Commissioner in South Africa to Secretary of State for Commonwealth Relations , Commonwealth Relations Office Print ,18- February ,1960,5,6.

88- Chirs de Wet :Op.Cit.,P.49.

89- Ibid.

90- D.O/35/713:South Africa : The Economic Effects of Apartheid,P.4.

91- D.O:35/4382: South Africa :Developments in Apartheid

Policy , P.4.

92- D.O :35/4382:Tomlinson Report on the Native Reserves ,P.2

93- D.O :35/4382 :Cost is Apartheid.

94- D.O :35/4382 :Government Decisions , PP.13,14.

٩٥- إبراهيم جلال : الصناعة والعنصرية ، ص ١٤٦.

96- D.O :35/4382 :Government Decisions on the Recommendations , PP.13,14.

97- Ibid.,P.14.

98- D.O :35/4382 :Strijodom to make Dual Rule of Protectorat.

99- D.O :35/4382 :Report on Development of Native Territories Independence Reserves Urged,Scotsman , 10-April-1956.

100-D.O :35/4382 :Betrayal ,if We Expelled South Africa, Observer , 28-April – 1956.

101-Chirs de Wet :Op.Cit.,P.50.

102-D.O :35/4382 :Government Decisions on the Recommendations,P.14.

103-Chirs de Wet :Op.Cit.,P.50.

104-D.O :35/4382 :Government Decisions on the Recommendations,PP.13,14.

١٠٥- إبراهيم جلال أحمد : الترانسكى ، ص٢٦٧،٢٦٦ .

106-D.O : 35 / 4382 : Government Decisions on the Recommendations, 11.

107-D.O :35/4382 : S.Africa desire for Apartheid , Conference Endorses Tomlinson Report ,Times,3-Jul-1956

108-Ibid.,P.13.

109-Ibid.,PP.15,16.

إبراهيم جلال : الصناعة والعنصرية ، ص٦٧.

110-D.O :35/4382 :South African Suicide , News Chronicle, 18-May –1956.

111-D.O :35/4382 :South African Action on Tomlinson Report.

112-D.O:35/4382: South Africa:Developments in Apartheid Policy P.4.

113-D.O :35/4382 : South Africa Fate in the Balance .

114-D.O:35/4382:Union, Can Afford Apartheid.

115-D.O :35/4382 :Bantu Reserves Development.

116-D.O :35/4382 :Partnership of Races Won ,s Work , Say Boer.

117-D.O :35/4382 :Bantu Reserves Development ,Support Pledged by Opposition , Times ,15- May-1956.

118-D.O:35/4382:Union ,,Can Afford Apartheid.

119-D.O :35/4382 :South African Action on Tomlinson Report.

120-D.O :35/4382 :Bantu Reserves Development.

121-D.O :35/4382:Tomlinson Report not Practical ,South Africa ,21-April – 1956.

122-Ibid.

123-Ibid.

124-D.O :35/4382 :South African Action on Tomlinson Report

125-D.O :35/4382 :South Africa Fortnightly Summary 22nd March ,1956 to 4th April ,1956.

126-D.O :35/4382: Apartheid as A Boomerang Protectorates give S. Africa Food for thought , Scotsman , 19-Nov-1956.

127-D.O :35/4382 :African Attack on Apartheid , Call for,United

Front ,, Times , 8-October-1956.

128-Ibid.

129-D.O :35/4382 :Tomlinson Report Denounced , Non European Meeting , Manchester Guardian , 8-October – 1956.

١٣٠- إبراهيم جلال أحمد : الصناعة والعنصرية ص٩٤ ؛ الترانسكي، ص٢٢١.

قائمة المصادر والمراجع :

أولاً الوثائق غير المنشورة :

- D.O : 35 / 4382 : Government Decisions on the Recommendations of the– Commission for the Socio-Economic – Development of the Bantu Areas within the Union of South Africa , 1956.
- D.O :35/4382 :South Africa Fortnightly Summary 22nd March ,1956 to 4th – April ,1956.
- D.O :35/4382 :Strijodom to make Dual Rule of Protectorates , Sunday –Times ,1-April – 1956.
- -D.O :35/4382 :The Tomlinson Report on Apartheid , Summary of Report , 9, 13 – April – 1956.
- -D.O :35/4382 :Report on Development of Native Territories Independence Reserves Urged ,Scotsman , 10-April-1956.
- -D.O:35/4382:United Kingdom Information Office , London House , Lave day Street , Johannesburg ,15- April – 1956.
- D.O:35/4382: South Africa :Developments in Apartheid Policy , United– Kingdom High Commissioner in –South Africa to Secretary of State for Commonwealth Relations ,

Commonwealth Relations Office Print ,16- April -1956.

- -D.O :35/4382 :Tomlinson Report on the Native Reserves , 19- April –1956.
- D.O :35/4382 :Not Away out , Times , 19 –April –1956.–
- D.O :35/4382:Tomlinson Report not Practical ,South Africa ,21-April – –1956.
- -D.O :35/4382 : South Africa Counts Cost of Apartheid, Cape Town ,28-April – 1956.
- D.O:35/4382: South Africa : Plans for New S.Africa Black Communities Development Project for Growing Population , Times , 28-April –1956.
- -D.O :35/4382 :Betrayal ,if We Expelled South Africa ,Observer , 28-April – 1956.
- D.O :35/4382 :Tomlinson Without Tears , Economist , 5-5-1956.–
- D.O:35/4382: Professor Tomlinson Endorses His Report , South Africa-,12 –May–1956.
- -D.O :35/4382 :Cost is Apartheid Snag Tomlinson Report offers A Bold Solution , Scotsman , 14- May – 1956.
- D.O :35/4382 : Tomlinson Report , Chance to Clarify Racial Policies , –Union Parliament Debating Manchester Guardian , 14 – May –1956.
- -D.O:35/4382:Union „ Can Afford Apartheid „ on Year to Year Basis , Manchester Guardian , 15 – May – 1956 .
- D.O :35/4382 :Partnership of Races Won ,s Work , Say Boer, Daily Mail , 15- May –1956.
- D.O :35/4382 :Bantu Reserves Development ,Support

Pledged by Opposition , Times ,15- May-1956.

- -D.O :35/4382 : After Tomlinson , Times ,17- May –1956.
- -D.O :35/4382 : South Africa Fate in the Balance , Daily Telegraph ,17- May –1956.
- -D.O :35/4382 :South African Action on Tomlinson Report , Policy Defended on Grounds of White Security, 17 – May – 1956.
- D.O :35/4382 :South African Suicide , News Chronicle , 18- May –1956
- D.O:35/4382:Africans to be turned into ,True Farmers, News Chronicle, 20- May-1956.
- D.O :35/4382 : S.Africa desire for Apartheid , Conference Endorses Tomlinson Report ,Times,3-Jul-1956.
- -D.O:35/4382: South Africa : Report of the Tomlinson Commission ,United Kingdom High Commissioner in South Africa to Secretary of State for Commonwealth Relations , Commonwealth Relations Office Print 22 - August ,1956 .
- D.O :35/4382 :African Attack on Apartheid , Call for,,United Front ,,- Times , 8-October-1956.
- D.O. :35/4382 :Tomlinson Report Denounced , Non European Meeting , -Manchester - Guardian , 8-October – 1956.
- D.O :35/4382: Apartheid as A Boomerang Protectorates give S.Africa –
- Food for thought , Scotsman , 19-Nov-1956.
- -D.O/35/713:South Africa : The Economic Effects of Apartheid , United Kingdom High Commissioner in South

Africa to Secretary of State for Commonwealth Relations , Commonwealth Relations Office Print ,18- February ,1960.

ثانياً : المراجع الأجنبية :

- -Chirs de Wet : Moving Together Drafting Apart Betterment Planning and Villgization in a South African Homeland , Witwatersrand University Press , 1995.

ثالثاً : الرسائل العلمية :

- إبراهيم جلال أحمد : الصناعة والعنصرية فى جنوب أفريقيا ١٩٤٨-١٩٧٦، رسالة ماجستير غير منشورة ، جامعة عين شمس،١٩٩٩.

__________ : الترانسكى دراسة لسياسات المعازل العنصرية فى جنوب أفريقيا ١٩٤٨-١٩٧٦ ، رسالة دكتوراه غير منشورة ، جامعة عين شمس، ٢٠٠٣ .

- أحمد عبد الدايم : التعليم والعنصرية فى جنوب أفريقيا ١٩٤٨- ١٩٧٦، ماجستير غير منشورة ، معهد البحوث والدراسات الأفريقية ، جامعة القاهرة ، ٢٠٠٠.

آمال على خليفة : الحزب الوطنى المتطهر ودوره فى تعميق العنصرية ١٩٣٤-١٩٥٦ ، رسالة ماجستير غير منشورة ، معهد البحوث والدراسات الأفريقية ، جامعة القاهرة ، ١٩٩٢.